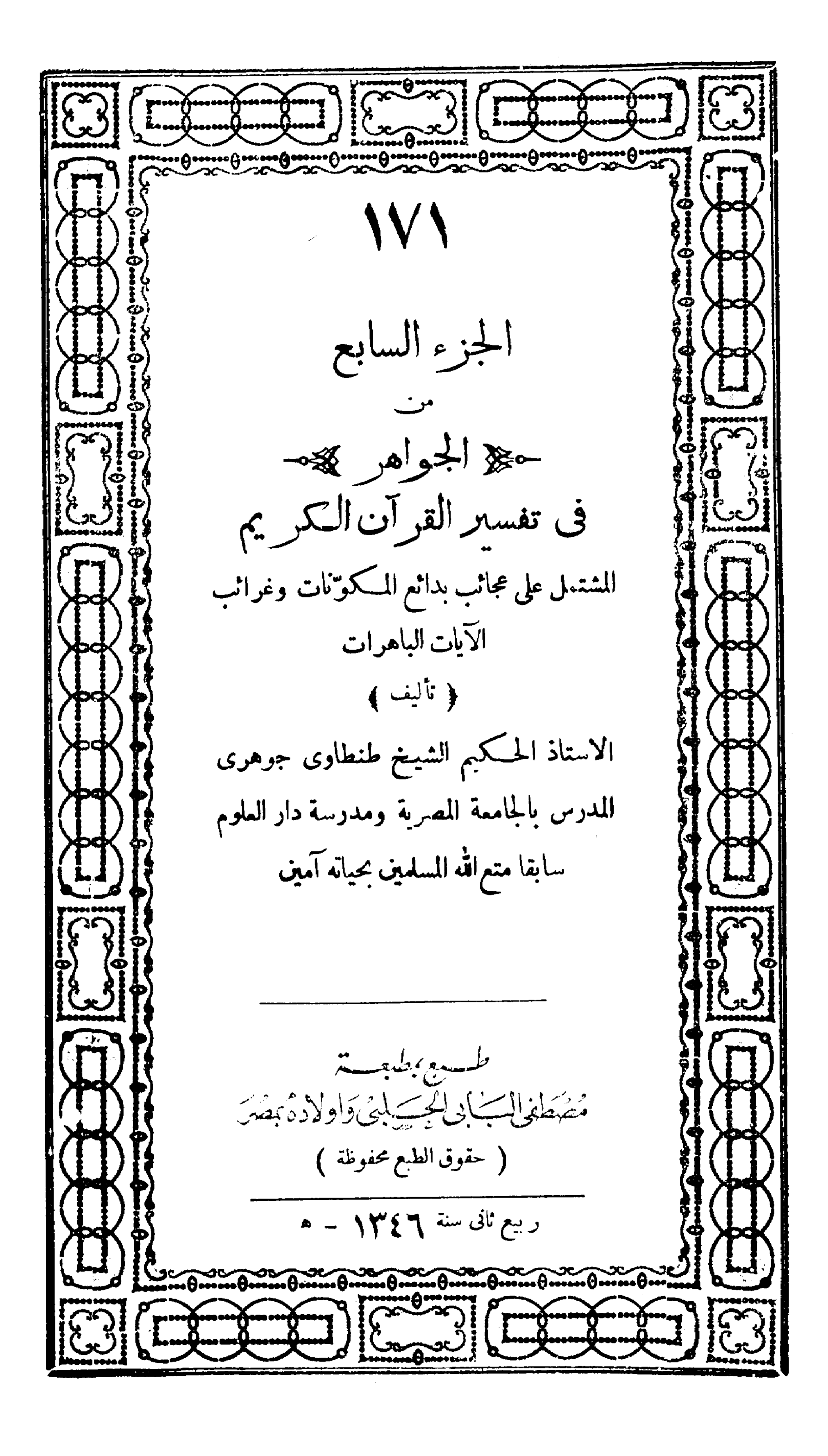


١٧١

الجزء السابع

من

الجواهر

فى تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

(تأليف)

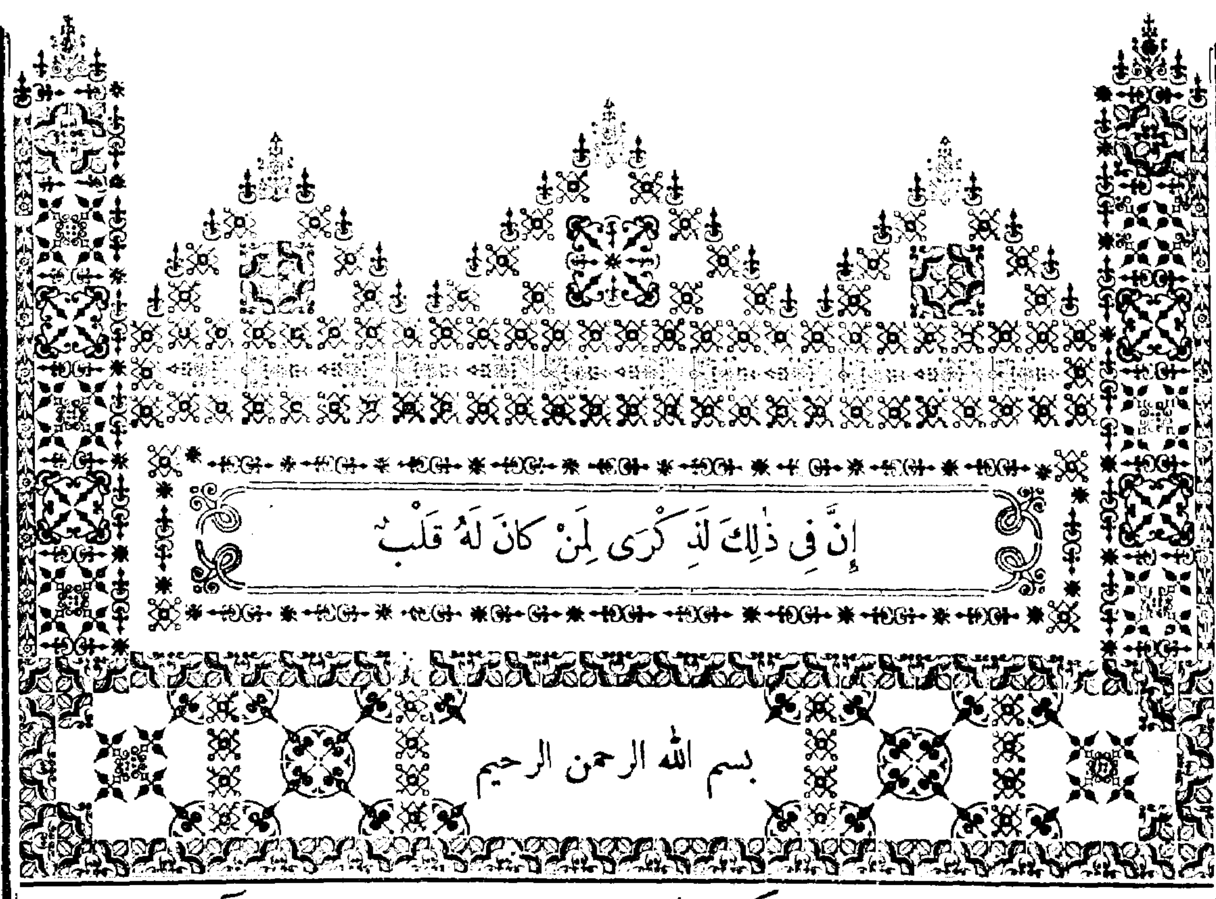
الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا متع الله المسلمين بحياته آمين

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر

ربيع ثانى سنة ١٣٤٦ هـ



﴿ سورة يوسف هى مكية بالاجماع وهى مائة واحدى عشرة آية ﴾

وقبل الشروع فى تفسيرها أقول

إنى أحمد الله عزّ وجل أن حقق رجائى وأبقانى فى هذه الدنيا حتى وصلت الى هذه السورة فلقد كتبت فى سورة البقرة عند قوله تعالى ـ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ـ مانصه • اعلم أنى كنت كتبت هذا التفسير كما قدّمت فى أوّل الكتاب وأنا مدرّس بدار العلوم فى نحو سنة ١٩١١ م • ومن عجيب صنع الله عزّ وجل أنى فى تلك السنوات كتبت فى مجلة ﴿ الملاجىء العباسية ﴾ التى كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطوّلا فى اجمال تفسير سورة يوسف قلت فيها أن الفراعنة كانوا أغزر علما من المصريين الحاليين وحكامهم ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا فشرحت من رؤيا الملك مسألة سبع البقرات السمان وسبع السنبلات واهتمامه بالزراعة • وعطفت على مسألة الطيور ونبهت الحكومة والأمّة فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ ميلادية بمنع صيد الطيور النافعة ومن أهمها (أبوقردان) وهاأناذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ للطبع وقد رأيت بعينى رأسى أن الحكومة قد ربت (أباقردان) وانتشر فى البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا فأحمد الله عزّ وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها فى النفوس وحرام على من عنده نصيحة أن يمسكها جبنا عن الجمهور فانها لابدّ نافعة عاجلا أوآجلا وان شاء الله اذا طال الأجل ووصلت الى سورة يوسف أثبت تلك المقالات اهـ

أقول وها أنا ذا الآن فى يوم الاثنين الثالث عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٤ وأحمد الله إذ وصلت الى هذه السورة وان خير سعادة لى فى هذه الحياة اتمام هذا التفسير فاذا تمّ على المنوال الذى أريده كان هذا خير ما أتمناه فى هذه الحياة • والآن ابتدئ بذكر ذلك الملخص لتطلع عليه • ثم أتبعه بما كتبته الحكومة المصرية لمنع الفلاحين من صيد (أبى قردان) ثم اتبعه بتفسير السورة تفسيرا تفصيليا بعد الاجمال فى هذا المقال

﴿ كيف تخدم مصر اذا فهمت هذه السورة ﴾

هذا الوجود أسباب ومسببات ونتائج ومقدّمات سواء فى ذلك العناصر والمركبات والعلوم والديانات ومنها القرآن فلقد أنزل للاعتبار وقرئ للادّكار وأكثر المسلمين لايقرؤنه إلا وهم غافلون ولا يسمعونه إلا وهم لاهون لايعلمون إلا ظاهرا من الأمر والنهى والوعدوالوعيد والعظة والمثل وهم عن عجائب القصص معرضون • فى القرآن قصص تسرد وقائع الأنبياء وفضائل الأولياء وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم لنقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور والحاضر الظاهر على الغائب الفائت

غفل الناس عن ذلك كله أيما غفلة وناموا على وساد الراحة ومهاد الغفلة حتى أصبح المسلمون فى أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسبوقون فى المدنية والعمران • جاهلون بالمنافع المادّية والمعنوية • خاضعون للظالمين مقلدون • والمقلد جاهل والجاهل غافل والغافلون هم الهالكون

ماعذب المسلمين ولا أزاحهم عن مكانهم السامى الذى خوّله الله لهم من الشرف العميم والفضل العظيم إلا القصاصون المخرّفون وأدعياء العلم وما أكثرهم وهم ضالون مضلون بما يفترونه على الله عزّوجل باسم الدين والدين برىء مما يقولون • فعلى قادة الأمّة الاسلامية أن يدخلوا البيت من بابه و يدعوا المسلمين للعلم بطريق الدين كما أخرجوا منه بطريق الدين فبالدين (ادعاء) أخرجوا و بالدين (تحقيقا) يدخلون

ولما كان القصص مهجور المعانى عند الناس وكان أحسنها قصة سيدنا يوسف عليه السلام أردت أن أذكر نبذة صالحة هنا فوق ما أوضحته فى كتاب (النظام والاسلام) وما أودعته فيه من عجائب التنزيل و بدائع القرآن فأقول • إن هذه السورة لمزية خاصة بالمصريين فلذلك يقرؤنها فى مآتمهم وأفراحهم وان تجلس مجلس قرآن إلا وتسمع القارئ يترنم بآياتها و يترنح بكلماتها والناس له سامعون و بصوته طربون ان كان من المحسنين • ألا انما يطرب الانسان لما يهواه و يفرح بما يوافق هواه • فياعجبا كيف يفرحون بها و يطربون لها ألكلماتها البديعة أم لمعانيها العجيبة • إن فيها لحكما وعبرا وعلوما لو كشف عنها الغطا وأدرك المصريون سرّها لكانوا أرقى العالمين فى الدنيا والدين • إن فيها السياسة المنزل وسياسة الشخص وسياسة المدينة • سياسات ﴿ ثلاث ﴾ انتظمتها سورة يوسف • ففيها نصف علم الحكمة وهى الحكمة العملية الداعية لسعادة الأشخاص ولسعادة المنازل ولسعادة المدن فهل لهذا طرب السامعون • كلا وانما يطربون لجواهر الألفاظ ولبصيص من المعانى العالية • ولوأنهم أدركوا ماسنوضحه من العجائب اليوسفية ما أغمضوا الجفن ولنأت جنوبهم عن مضاجع الكسل ولربؤا بأنفسهم أن ترعى مع الهمل وما استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير • لسوف يعلمون المعنى فيما نقول ولينظرنّ الله ماذا يفعلون

ألا انما مثلهم اليوم فى ترنمهم بها واقبالهم عليها وغرامهم بها كمثل أولئك الذين يدعون أنهم يعلمون الغيب بالخط فى الرمل ومالهم بالغيب من علم وانما هى الفطرة الانسانية والحكمة الربانية أكبتهم عليه وان كانوا لايشعرون كأن الحكمة الالهية تقول لأولئك الجاهلين • يا أيها الناس إن فى الرمل لعلوما ستدركونها وأسرارا ستعلمونها ثم صنع منه المنظار المعظم والمقرّب فكشف أدقّ الدقائق فى الحيوان والنبات وظهرت للعين بعض النجوم الثوابت وسائر السيارات • فهكذا فى سورة يوسف الاشارة لعلوم الأخلاق ولنظام المدن فأغرم الناس بها وأكثرهم لايعلمون من مقاصدها إلا مايعلم الدجالون من عجائب الرمل ومثل الناس أيضا فى غرامهم بها كمثل ذلك الذى يدّعى أنه يعلم علم جابر و يستخرج الذهب والفضة بالكيمياء وماله بذلك من علم إن يتبع إلا الظنّ ولكن الله أودع ذلك فى قلوب طائفة من عباده توارثوه أجيالا حتى أتاح الله للناس من من فهم الرمز وقام بالأمر وشرحوا علم الكيمياء ونقلوه من الظلمة الى النور ورفع المدنية ورقى الزراعة والصناعة والتجارة ودخل فى سائر أبواب الحياة فأصبحت الأرض كلها تنبت ماهو أنفع من الذهب وسائر

المعادن . كل هذا بالكيمياء . فهكذا فلتكن هذه القصة الشريفة التى يسمعها الناس وأكثرهم لايعلمون إلا حديث الحب والود فأشبهوا ذلك الرمال ومدعى الكيمياء وهما لايعلمان كما انهما لغيرهما مقدمتان

لعلك تقول مالنا نراك تضرب الأمثال بالكيميائى والرمال والمغربى الدجال فاشرع الآن فى المعنى المقصود وأرنا ذلك السر المصون حتى نقف على تلك العجائب ونفهم سر تلك الغرائب . أقول خذ منى القول سؤالا وجوابا على ما ألفته فيما أسمعناك واصغ لما أقول سمعا . سألنى سائل يقول

(س) مابالك تعاود التذكير بسورة يوسف وقد سبق القول والتفسير منك لها فى كتاب ﴿ النظام والاسلام ﴾ وماهذا التكرار والدور فى نفس المدار

(ج) لكل مقام مقال فهناك تعميم وهنا تخصيص وذلك مبادئ وهذه نهايات وتلك اشارات وهذه عبارات وتلك مقدمات وهذه نتائج ولاخير فى علم بلانتائج ولافى شجر بلاثمر ولافى قراءة بلافكرة ولافى فكرة بلاعبرة ولافى عبرة بلاعمل ولافى عمل بلااخلاص

(س) ما أنواع العبرة فى هذه السورة وماعلاقتها بالصبغة الوطنية المصرية ومافائدتها للمجتمع الاسلامى عموما والمصرى خصوصا

(ج) فى هذه السورة خمس عبر (١) رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام (٢) وأذى اخوته (٣) قصته فى بيت العزيز (٤) وقضيته فى السجن (٥) وتنظيمه للخزائن المصرية

(١) ﴿ الرؤيا ﴾

اذا كان الحب والنوى ينبتان نجما وشجرا فالنتيجة حب ونوى وما كان فكرا أولا فهو عمل آخرا . هكذا كان أول حياته عليه السلام أن رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين وعليها أقيمت حياته وتنوعت أطوارها و بالسجود له والاعظام ختم تاريخ حياته ـ وخروا له سجدا وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ـ فأول الفكر آخر العمل . إن للنفوس الانسانية خصائص تبدو علاماتها لذوى الفراسة وتختلج فيها من إبان الصبا ماخصص له استعدادها و يبرز فى أفعالها وأقوالها وتمثلها وتقليدها وأحلامها وان امتاز عليه السلام بالنبوة والرسالة والفضيلة وصورت له الأجسام الأرضية بصورة الأجرام السماوية والمركبات العنصرية المظلمة ذوات الأنفس الشريفة بالكواكب المضيئة صورا بديعة وآيات عجيبة الا ان لكل رؤيا تناسبه وأحلاما توافقه وطالما دلت الرؤيا ذوى الفراسة على أخلاق الرائين وأفادت السامعين أنباء عقول القائلين فلكل امرئ مناهج يسلكها ومطالب يرصدها ومقاصد يؤمها لذلك رأى النبى النجوم وجمالها والسجود والخضوع ورأى الملك المصرى سبع بقرات سمان تأكلهن سبع بقرات مهزولات ضعيفات وسبع سنبلات خضرا التفت عليهن سبع سنبلات يابسات فامتصت ماءهن وتركتهن يابسات ولم يبد على البقرات الآكلات سمات السمن ولاعلى السنبلات اليابسات آيات النضرة ومظاهر الحياة . رؤيا النبى جمال النجوم وسجود الساجدين . ورؤيا الملك سنبلات و بقرات . ذلك عجب عجاب . بعث الأنبياء للعبادة والتفكير فى الجمال وخلق الملوك لنظام الممالك وحفظ البلاد والعباد من الخراب والدمار . فالسجود من جنس العبادة وان لم يكن فى هذا من عبادة ولكنه تكريم والنجوم جمال والجمال السماوى والبهاء الكونى مصدر التفكير والتعليم إلا أن فى اشراق الكواكب والشمس والقمر فى نفس سيدنا الصديق فى صباه لعجبا عجيبا ودلالة على عفته عند الحرمات وتعلما لطبقات المصريين وحفظ المال أن يضيع والناس أن يموتوا . كل ذلك مقتضى النفوس الجميلة التى ذرأها الله سحابا ماطرا وشمسا تضيء وقمرا ذا سناء

ألا ان الشمس لتشرق والناس لايشكرونها . والقمر ليطلع وان كفر به الناس . والله خالق ورازق وان كفر نعمته العالمون . هكذا الصديق النبى تجلى للناس وتجلت له تلك الصور الجميلة فبرز بعد ذلك منه

للناس

للناس آثار واضحة من العفة والصبر والعطف على المصريين، وتعليمهم وتنظيم ثروتهم وثمرات نيلهم ولأهله وعشيرته صفح جيل و برّ وصلة وعطف وان كانوا له حاسدين. فكان الاحسان لنفسه سجية والجميل بقلبه طريقة فأحسن للمسيئين من أهله والمصريين فكلاهما آذاه وكلاهما نال الخير منه بعد أذاه فهذا أوّله وهذا منتهاه

فاما الملوك فما أحراهم أن يعكفوا على نظام الجمهور وحفظ الثغور والسهر على المصالح العامّة . وأهمّ المطالب الاجتماعية فى الأمم المتمدينة ﴿ أربع ﴾ الامارة . والزراعة . والتجارة . والصناعة

ولما كانت الزراعة من أهمها وضعا وأعمها نفعا وأشرفها صنعا لاسيما عند المصريين الذين هم بها مغرمون وعلى ترتيبها ونظامها يحرصون روع قلب الملك المصرى بيابس سنبلاتها وعجاف بقراتها مما دلّ على اهتمام الملك بالرعية وحبه للامّة المصرية . وليست تتصوّر النفس فى المنام إلا ما اهتمت به فى الغالب أجلّ اهتمام

﴿ تصوّر الحقول المصرية وتأمّل وتعجب ﴾

يظنّ الفلاح أنه زرع وحصد ولا يعلم أن هناك له شركاء فى الزرع هى أجلّ منه نفعا وأحسن صنعا

(س) ماشركاء الانسان فى زرع الأرض المصرية

(ج) شركاؤه الطيور الليلية والطيور النهارية كالبوم والغربان وأبى قردان و بعض العصافير والخطاطيف

يزرع الانسان الأرض و يحرثها بالأنعام من البقر والجاموس و يعينه غيرهما من الماشية و يدرأ الاذى عن الحبّ والفاكهة الطيور من الغربان والبوم وأبى قردان وغيرها

الانسان والدواب زارعان والطيور دافعات للأذى طاردات للأعداء آكلات الدود مبيدات الفيران .

الانسان والأنعام تتعاون على الحرث والسقى وتبذر وتسمد الأرض بأبوالها وأرواثها وغائطها وأجسامها فهى مصانع للسماد حارثات للحقول آكلات الحشائش والحبوب . والطيور مبيدات المهلكات قاتلات الحشرات .فجلّ الله . جلّ الله خلق فسوّى وقدّر فهدى نظم الحقول كما نظم الممالك وأنزل الانسان والأنعام للزرع منزلة علماء الطبيعيات والرياضيات فى الأمم العالية وأنزل الطيور من أبى قردان والغراب والبوم منزلة الشرطة فى المدن والقرى والقضاة الدارئين للحوادث الداخلية وأعوانهم المحامين ورجال الحرب الدافعين عن البلاد والضاربين بالقنا والسيف والمدفع والبارود

لاريب أن القضاة والشرطة وقوّاد الجنود دافعون وعلماء الطبيعيات والرياضيات وغيرهما للخير جالبون وما المدافع إلا لحفظ المنافع فالمقصود على الحقيقة هم العلماء الجالبون للمنافع وماعداهم فانما هم حصون لهم اليها يلجؤن وفى أكنافها يمرحون . فثبت أن الأنعام والانسان أهمّ للزرع من البوم والغربان وأبى قردان وان كان الفلاح لايفلح بغير مايصف أو يدف بالجناح ولا فلاح لأمّته بلا جنود وقوّاد ولا حياة لها إلا بالعلوم الطبيعية كما لاحقل فى البلاد المصرية إلا بالطيور الدورية وغير الدورية والفلاح الزارع والدواب الحارثة الساقية

ومن العجب ان ترى الأمّة المصرية اليوم تجهل فوائد الطيور وتعقل منفعة القضاء والمحاماة مع انهما صنوان وأخوان يتساوقان وخلان لايفترقان . ترك المصرى العلوم الطبيعية وعقلها الفلاح وهو يعمل بما ورث عن أبويه . جهل المصرى فوائد الطير وهو المدافع عن المزارع وعقل المحاماة والقضاء

جهل عظيم وموت تام وطامّة كبرى جهل المصرى العصرى عظيم . عقل التحلية فى المزارع وجهل تخليتها وأدرك التخلية فى نظام المدينة وجهل التحلية

﴿ ماذا فعل قدماء المصريين . بماذا أفادوا البلاد فى هذا المقام ﴾

أوصى علماؤهم الفلاحين أن اعبدوا العجول ولا تهينوها فانما هى حارثة لأرضكم ذات نفع عظيم ثم أمروهم أن اعبدوا الهرّة وقدّسوا أبا قردان ولم يذكروا لهم الأسباب وانما قالوا هذا سرّ من ربّ الأرباب لأن الجاهل لايعقل مايعرفه المتعلمون ومايعقلها إلا العالمون . هذا منشأ عبادة البقر و بعض الطيور حيلة

دبرها الرؤساء ولكن أكثر الناس ما كانوا يعلمون • لذلك كثر ذكر العجول فى قصص بنى اسرائيل فترى السامرى — أخرج لهم عجلا جسدا له خوار — وترى بنى اسرائيل لما أرادوا اظهار القتيل أمروا بذبح بقرة • ومما هنا أيضا كون الأرض على قرن الثور إلا لتعجب من هذا كيف كانت رؤيا الملك فى سبع بقرات وكيف كانت رؤياه تجمع المقصود وهو الزرع وجالب النفع وأهمه البقر ولم يرد فى الرؤيا الطيور فانهن كالمحامين والقضاة • والأمم اذا خلت من الأخلاق الشاذة والنفوس الناقصة لم تحتج الى القضاء كما أن الحقل اذا خلا فرضا من الحشرات لم يحتج الى الطير الصافات ولاغير الصافات

الانسان والأنعام والطيور جمهورية منظمة على كل قسطه من العمل ولكل حظه من ثمرات الأرض ومنافع الحرث • لقد فقدت الأمة المصرية أوّل قائد لجنودها وأكبر عامل لنصرها وركنا من أساطين حربها ذلك هو (أبو قردان) فلقد اتصل نسله منذ آلاف من السنين وهو يحمى الذمار ويقود الجند المسلحة الهوائية فيهجم على الهوام والدود فيبيدها فيسلم الحرث والنسل • عرف المصرى القديم جميله فآواه وأيده بل عبده وجهل المصرى الجديد فضله فقتله وأباده • هل هذا ثمرة التعليم والمدنية • هل هذا هوالذى اليه وصلنا من الحكمة • أيجمل فى شرع المدنية وناموس العمران أن يعيش (أبو قردان) أكثر من عشرة آلاف سنة ثم لايبيد إلا فى أوائل القرن المتمم عشرين • لتندب مصر حظها • لتبك علومها • ولأبك على بلادى • هل نقبت حكومة البلاد وبحثت عن سبب ضياع هذه النعمة وزوال هذه الجنود المجندة • أيحسن يا أبناء البلاد أن نجهل موارد رزقنا وعناصر حياتنا • تبا للجهل و بعدا لنا اذا عشنا غافلين • وياليت شعرى أأنا فى يقظة أم فى منام ولعل ما أقول اليوم أضغاث أحلام وربما أجبت بقولهم ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين

﴿ حكاية وأمنية ﴾

انطلقت الى شاطئ النيل الغربى لأتفرّج على الأشجار والأزهار فصادفت مسجدا يسمى ﴿ مسجد الجزيرة ﴾ شمال قنطرة قصر النيل فدخلت للصلاة ورأيت النمل تغدو وتروح فوق الحصيرات المنسوجات وهى طالعات هابطات فوق الأعواد وبينهن لاينثنين لذعر ولايخفن من غدر وكأنما أرجل المصلين فوق الأعواد جبال وكأن الأعواد تلال والفجوات المتخللات أغوار ووهاد بالنسبة للنملات فأطلت النظر اليها والتأمل فى حركاتها وسكناتها والتعجب من شجاعتها واقدامها حتى ان راحة يدى والذراع والأنامل اللاتى تخيل لها جبالا شامخات وشعابا واسعات لم تثبط عزيمتها ولم تكسر من همتها ولم تهلع لها قلوبها • ولوأنا تصوّرنا جبلا يمشى على الأرض وكاد يصادم الانسان ليطحنه لهلع اذا رآه ومات قبل أن يراه فشاهدنى إذ ذاك فلاح معمم بعمامة سوداء فكنت موضع تعجبه واستغرابه وكان النمل موضع نظرى ومسرح فكرى فكان النمل لى عجبا وكنت عند الفلاح لهوا ولعبا فرفعت طرفى اليه وقلت يا أيها الانسان أتدرى لم نظرت فى النملات • قال لا • قلت إنهن لأشجع من أكثر الناس قلبا لايثنيهن الرهبوت عن مطالب الرغبوت ولاتهولهن الحوادث المزعجات والكوارث الدهمات إنهن لأربط منك جأشا وأشجع من الفلاح والشيخ والباشا لاتنثنى عن الرغبات ولاتنتهى إلا الى الغايات ولسان حالها يقول ﴿ اما هلاك واما ملك ﴾ • قال الفلاح لقد قلت حقا ونطقت صدقا فما أيقظنى إلا لسع نملة فى جيدى فهى التى أقامتنى للصلاة الآن فكان ذلك الاتفاق من عجائب الزمان كيف كنت منها فى عجب والفلاح منها فى هرب • فقلت انها رأتك غاصبا لمكانها حالا فى دارها فلم تهن لضعفها وقوّتك ولم تضعف لجولها وسطوتك قالت لألسعنه أو يفارق الديار وموتى فى الجهاد خير من الحياة فى المذلة والهوان فشاركنى الفلاح فى تفكيرى وعلمت أنه من جهة (فم البحر) وتطاول بنا الحديث الى (أبى قردان) فقال لقد فقدناه فى هذه السنوات وذلك لقلة تقوانا وضعف ايماننا • نحن عن

الصلاة معرضون ومانحن للزكاة فاعلون وأكلنا التراث أكلا لما وأحببنا المال حبا جما وفسدت منا القلوب نخفت الجيوب . فقلت ما للصلاة ولأبي قردان ولكن الفلاح الجهول صاد (ابا قردان) لجهله بمنافعه و بعده عن العلم الصحيح والعمل الشريف . فقال لم يصده أحد من الناس وانما صاده الاورو بيون وطالما رأيته يحلق و يرفرف بجناحيه حول الماء و ينفذ منقاره فى الطين ليبحث عن الدود والحشرات الكامنة فيه فيلتقطها و يزدردها . لقد كنت اذا نزلت الماء على الأرض جلل هو وجهها ولقد طلبناه فى هذه الأيام فما وجدناه وكان فقده فى هذه السنين وذلك منذ عشرة سنين . فقلت هذا الخبر يحتمل الشك و بت تلك الليلة مشغول الفؤاد حزين القلب يائس النفس كئيبا لما حلّ بالبلاد من الخراب والدمار وذهاب الثروة وضياع المال وقلة العلم وكثرة الجهل . فلما أن نمت خيل لى فى نومى أن صبيانا يركبون على شجيرات نابتات على ضفاف نهر أبى الأخضر بالشرقية وكأنهم ينفرون الطيور من أعشاشها ولايقرّونها فى وكناتها فهممت بهم كى يتركوها ونعقت بهم كى يقروها فرجعوا مهرولين وولوا هار بين . فلما أن استيقظت وتذكرت مارأيت قارنت رؤياى برؤيا ملك مصر فى الأزمان الغابرة والأيام الخالية إذ رأى البقرات السمان والسنبلات الخضر واليابسات . ورأيت الطيور مذعورة وصبيان الأمة لجهلهم يعمهون لقد صدقت رؤيا الملك وصدقت رؤياى

﴿ مقابلة الاستاذ الشيخ محمد عسكر الكبير ﴾

ذلك أنى إذ طلع النهار انفق أن أرسل الىّ الشيخ محمد أبوعسكر ذلك الشيخ الوقور وكنت له مشتاقا فلما استقرّ بنا الجلوس وتناجت فيما بيننا النفوس أريته ماقد كتبت وقصصت عليه مارأيت وقلت لقد تبرّأ الفلاحون من صيد (أبى قردان) واتهموا بذلك الاورو بيين وقالوا إنا والله براء مما يقولون . فقال الشيخ طالما وردت لى الأخبار أن الاورو بيين هم القاتلون لأبى قردان . فقلت له أليس من العار والجهل والشنار أن يعيش أبوقردان قرونا وقرونا و يحميه قدماء المصريين من الفراعنة وملوك الرعاة و يعيش مع ملوك اليونانيين والبطالسة والفارسيين و يعبده الأثيو بيون والرومانيون و يمو فى أزمان العرب الاسلاميين ولاينقص عدده فى أيام الأمو يين ولايؤذيه العباسيون ويحمى من العدوان أيام الاخشيديين و يحفظ حياته الفاطميون ولايمسه بسوء الأيو بيون و يزداد عدده وينمو كثرة أيام المماليك البرّية والبحرية ولايبيده الترك ولايعدو عليه العرابيون ولاينقص عدده أزمان أسرة محمد على باشا بل ظلّ جمّ العدد كثير المدد الى الثورة العرابية ثم أخذ فى التناقص وأخذ الدود ينمو بالتزايد حتى فنى عن آخره

عار والله وأىّ عار . أهذه هى المدنية والعلوم العصرية . أهكذا يكون تمدين الأمم . أفبهذا أتتنا المدنية . أيقتل هذا الطائر شريك الفلاح صديق المصرى والناس غافلون . أفبهذا ارتقت مصر . ربّ اليك المشتكى . يارجال الأمة و ياعلماءها وعظماءها و ياوزراءها أهكذا يكون العمران . أبو قردان أخو الفلاح كان معبودا عبده قدماء المصريين . لماذا . لأن كبراءهم أوصوهم به خيرا لفلاح الزرع بابادة الدودة والحشرات فاستوصوا به خيرا وتمادوا فى ذلك ازديادا حتى عبدوه . هكذا كان الملوك السابقون والعلماء الغابرون فورثنا أرضهم وجهلنا علمهم ما أعظم قدماء المصريين وما أجهلنا نحن الحاليين جهل عظيم وموت عميق وطامّة كبرى ودمار وأىّ دمار

أخبرنى الشيخ محمد أبوعسكر قال لقد قرأت فى بعض الأسفار أن قدماء المصريين شكوا الى فرعونهم يقولون ﴿ لقد طغت علينا الحيات واغتالت الأبناء والبنات ﴾ وأكثر ما يكون اذا أقبل النيل وعمّ البلاد وساق جنودها أمامه واكتسحها من البور الى العمران فأوعز الملك الى العلماء والحكماء أن يداووا هذا الداء ويلتمسوا له الدواء فلما أن جاءهم أمره ساحوا فى الأرض يبتغون طيرا يلتقط الحيات، ليربوه فى البلاد فدلهم علمهم وأراهم اختبارهم ووفقهم بحثهم الى (اللقلق) فربوه تربية حسنة فنما عدده وكثر ولده وصارت

أفراخه آلافا مؤلفة فنجى الناس من شرّ الحيات وفرحوا بما عندهم من العلم والحكمة والهمة والدين

فعلى قادة الأمّة وأولياء أمورها أن يصنعوا ماصنع القدماء ويجلبوا (أبا قردان) ويربوه حتى يكثر عدده ويهزم جيشه جيوش الديدان والا حقت كلمة العذاب على المصريين

عار يارجال مصر . عار يا أمراء البلاد . عار ياعظماءنا . هذا الطائر نصير الفلاح . قاتل الدود مبيد الحشرات . منمي الغلات . كنت أراه بعيني يحلل الأرض ويغطي وجهها اذا أنزل الفلاح عليها الماء حتى قتله الجهلة الأغبياء من أوباش الناس ليزينوا به (القبعات) للسيدات وأباده أولئك الطغاة فبادت البلاد وهلك الزرع وقلّ الضرع وأصبحت البلاد في شقاء عظيم . أبمثل هذا تهان الأمم وتداس الحرم . هذا والله جهد البلاء وعضال الداء ونهاية الشقاء . ولقد أنذرت وحذرت ونصحت — ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون —

﴿ الفصل الثاني . إيذاء اخوة يوسف ﴾

لا أحد من المصريين أبناء بلادي يجهل مافعله اخوة يوسف من كيد ومادبروا من حيلة وكيف نصبوا له الحبائل — وجاؤا على قميصه بدم كذب — وسوّلت لهم أنفسهم أمرا وصبر يعقوب صبرا جميلا ودلوه في البئر ثم باعوه — بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين — . أجمعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى وأوثقوه في هاوية فما كان عاقبته إلا أن تربى في مصر وترعرع وبلغ أشدّه وكان لهم من المحسنين

هذه كانت قصة يوسف عليه السلام وذلك خبر اخوته فكان منهم الاساءة ومنه الاحسان ومنهم الشر ومنه الخير وأوّل أمره شقاء وآخره هناء ومبدؤه ذلّ ونهايته عز واسعاد . ذلك عبرة للسلمين وتذكرة للمصريين ونعمة على العاملين . تنبئك قصة يوسف بما يلاقيه المصلحون فيها من الجاهلين . مافى الأرض من مصلح إلا وكان أوّل أمره مطاردا منبوذا تنتابه الأعداء ويسطو عليه الأقرباء ويحطّ من قدره الأصدقاء ويهينه الأولياء استغرابا لقوله استبعادا لعمله وحطا من شأنه وحسدا على ما آتاه الله من فضله واحباطا لعمله وتشنيعا عليه فان صبر فاز وان جزع وعجل هلك وباد . فتعجب كيف كانت عاقبة النبي يوسف الصدّيق أن بيع للمصريين وترعرع في بيت العزيز وحاقت به الفتنة وصبر على الظلم والسجن ولم يدر اخوته الزاهدون ولاحاشية العزيز وهم له ساجنون ولامن كانوا معه مسجونين أن السعد سيؤمه وأن العز سيرقيه وانه سيقبض على ناصية البلاد ويدين له الهرمان ويساعده الزمان وينسج على ما قاساه عناكب النسيان

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة والفضائل العالية المنيفة . فليبشر أولئك الذين صدقت نياتهم وحسنت أعمالهم وأخلصوا لأمتهم وأرادوا انقاذ البلاد من الجهل والفساد فسوف يبدل شقاؤهم راحة وذلهم عزا وسعادة وتغنى الأغصان عند هبات الرياح بمدحهم ويعبق الجوّ بأريج ذكرهم وعاطر ثنائهم وهذا ناموس الوجود لم يشذ منه نبيّ مرسل ولاعالم مصلح وكانت العاقبة للمتقين ولم يذر من رجال الاصلاح من أحد حتى أخذ حظيه من النصب والراحة وسار على خطته وحلب الدهر شطريه . ولقدكان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فلقد أوذي كما أوذى الصدّيق يوسف عليه السلام وما آذاه إلا أقرباؤه الأدنون وتألبت عليه قرابته ثم نصره الله كما نصر يوسف وآوى اليه من كان يؤذيه كأبي سفيان وهند زوجته وغيرهما من علية القوم وسراتهم وعظمائهم فأصبحوا له محبين كما خرّ اخوة يوسف — له سجدا وقال يا أبت هذا تاويل رؤياى من قبل قدجعلها ربى حقا وقد أحسن بى — ربّ انى أيقنت بناموسك العالى وكتابك الكريم

يا أيها الناس . يا أبناء البلاد لايجرمنكم شنآن قوم من بلادكم أن يصدّوكم عن اصلاحها فعلى مقدار فضل الرجل يكون أعداؤه وكما يكون النصب تكون الثمرات . فاعملوا لبلادكم كما عمل الصدّيق وتجاوزوا عن خطوات الشياطين مع اخوانكم المبغضين المثبطين الحاسدين — وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

والمؤمنون - انتهى الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث . قضية النبي الصديق في بيت العزيز ﴾

تتوالى النكبات اثر النكبات على الصالحين المجاهدين والأنبياء المرسلين . ساقت القوة الغضبية اخوة الصديق فهجروه بل نبذوه وباعوه وسلطت الشهوة البهيمية امرأة العزيز فراودته ويوسف باق على كماله صابر على عفته مع جماله الفتان فقالت له لتسجنن ولتكونن من الصاغرين فقال انما الصغار لمن لاعفة له ولاشرف ونفس المرء أوسع من السموات والأرض

اذا لم تسعك النفس فالكون كله * وآفاقه للمرء أضيق من قبر
وفي الفكر نيران وفي الفكر جنة * وما أكثر الآفات إلا من الفكر

فاذا خنت سيدي ودنست عرضي كنت من الجاهلين . أو يجمل في دين المروءة أن يحسن الي وأسيء ويصدق وأكون من الكاذبين . إن العزيز سيدي أحسن الي وعطف بالبر والاحسان علي فهل جزاء الاحسان إلا الاحسان واللئيم يجزي المحسن بالكفران . ألا بعدا للجاهلين . أنا من بيت النبوة بيت ابراهيم واسرائيل ولن يليق بي أن أكون شر خلف لخير سلف حتى يقال في - فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا -

أنا أرنو لشرف عظيم ومجد كبير ومن لم يحفظ النفس في إبان حياتها قعدت به همته عند كبرها . ومن أراد الاصلاح فليبدأ باصلاح نفسه وليكرمها فانها بالاكرام أولى ومن لم يحكم أمر البداية حرم الفضل في النهاية

﴿ عبرة ﴾

فعلى من يريد الاصلاح أن يفي بالعهد ولاينقض الميثاق ولايخون اخوانه في العرض ولافي المال ولايفشي لهم سرا . ذلك هو مبدأ الشرف الأسمى والخير الأعم والفضل الأدنى وقد قال الله لنبيه - فبهداهم اقتده - فنحن أولى بالاقتداء وأحق بالاتباع . واذا اقتدى المصريون فغيرهم أولى بالاتباع وأحق بالاعتبار

﴿ الفصل الرابع . سجن النبي يوسف الصديق عليه السلام ﴾

ما أشبه قصة النبي يوسف عليه السلام بعلم تهذيب الأخلاق إذ يقسمونه ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ سياسة النفس بالعفة والصيانة كما كان الصديق في بيت العزيز وسياسة أمر المنزل أشبه بما اتفق له في السجن واصلاح أمر المدينة كما حصل له إذ قال له الملك - إئتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين - حلقات ﴿ ثلاث ﴾ لايصلح أخراها إلا بصلاح أولاها . عف في أول منازله ففشي ظلم الحاشية على حسن سيرته واتهموه وهو بريء وسجنوه وهو محسن فكان السجن ثاني المنازل فنصح للمسجونين وقال لهم - يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار - درس لهم التوحيد بالبرهان ثم ذكر شرف قومه وأهله فقال - واتبعت ملة آبائي ابراهيم الخ - نصح النبي الصديق للمصريين وهو غريب حفظا للجميل وقياما بحق الانسانية والنبوة . ذلك ارشاد من الله وتعليم أن كونوا أيها المصلحون شموسا تفيء سناها على العالمين ولاتدعوا أيها العلماء الفلاحين المصريين غافلين بل أيقظوهم وعمموا التعليم . إن المصري لشكور على النعماء مجاز لرحمة الرحماء . فلعمرك ما دل الملك على الصديق إلا ذلك الخادم الساقي على بساط الملك لما سمع منه الحكم الغوالي والدرر الثمينة فاثمر عنده الاحسان وقال للملك أرسلون الى يوسف ليؤول الرؤيا ففعلوا . لقد نصح النبي في السجن ولم يعقه ضيقة السجن ولازور القول عن أن يقشع سحب الضلال ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ويجليها بجلاء الحكمة فكان من المحسنين . فليقم المصري بانتشال أمته من وهدة الجهل وليرفعها الى سماء الفضيلة وليعمم العلم بين أفراد أمة المصريين

﴿ الفصل الخامس ﴾

أما ثالثة الأثافى وخاتمة الفصول الخمسة فذلك أن تبوّأ عرش مصر ودبر الخزائن ونظم أمر البلاد فأحسن للأمّة المصرية وقد أساؤه فسجنوه . أكرم أبويه الشفيقين وعفا عن اخوته بعد أن طرحوه ونبذوه وباعوه ودبر الحيلة لأخيه بنيامين بعد أن جعل بضاعتهم فى رحلهم فعرفوها . أكرم الصدّيق أبويه وأحسن الى عشيرته الأقربين وقال — لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين — وقد قالها بلفظها رسول الله ﷺ لأبى سفيان يوم فتح مكة فقال — لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين — وعد الله الرسل بالنجاة والفوز والسعادة ولن يخلف الله وعده

يقول الله — والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين — يحذو الأواخر حذو الأوائل ويتبع الآخرون سبل الأولين سلام على المرسلين وسلام على الصالحين وسلام على المخلصين

يقول الله — لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى — سورة يوسف أحسن القصص لقد خلت مما يتنحى عنه أولوالعزم من المرسلين كالعجلة التى ابتلى بها ذوالنون إذ قال الله لنبيه ﷺ — ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم — يأمر بالصبر والثبات والتؤدة حتى يأتى أمر الله وقد كان وصدق الله وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده . ولم تجمع قصة موسى وفرعون وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأهل الكهف وأصحاب السبت من المواعظ والعجائب والمقدّمات والنتائج ما تضمنته قصة يوسف لذلك كانت أحسن القصص وسار عليها ﷺ حتى نال أعلى الغايات والنهايات . انتهى

هذا هو الذى كتبته فى مجلة ﴿ الملاجئ العباسية ﴾ فى ذلك التاريخ . فهاك ما جاء فى المجلة المذكورة فى العدد التالى لذلك وهذا نصه

﴿ باب الزراعة . حماية الطيور النافعة ﴾

ما كاد يظهر العددان الأوّل والثانى من هذه السنة وفيهما تفسير سورة يوسف عليه السلام للاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى وافاضته فى التكلم على الطيور النافعة للزراعة بالتقاط الحشرات الضارّة بها وتنبيهه ولاة الامور الى المحافظة عليها وحمايتها من القناصين والصيادين حتى أسرعت مصلحة الزراعة باصدار هذا المنشور لحماية الطير المسمى بأبى قردان الشهير بكونه صديقا للفلاح وهاهو المنشور بنصه

﴿ حماية الطير المسمى (أبوقردان) صديق الفلاح ﴾

معروف من قديم الزمان أنه يوجد نوع من الطيور تتغذى كلية من الحشرات المضرّة بالزراعة وأن هذه الطيور اذا تركت بدون ازعاج فى المحلات التى نشأت فيها كانت سببا فى نجاة الغيطان القريبة منها من اصابة الحشرات . وقد كانوا ينظرون سابقا الى (أبى قردان) كصديق للفلاح المصرى وكان يراه الانسان فى كل غيط وهو يلتقط الدود الذى يخرج من باطن الأرض وقت تقليبها بالمحراث

أما فى السنين الحديثة فقد أباحوا اصطياد هذا الطير الذى هو فى الحقيقة مساعد نافع للزارع بدرجة عظيمة حتى انه لم يبق سوى بعض جهات قليلة فى الوجه البحرى يمكن أن يعيش فيها بأمان

فالغرض من هذا المنشور الآن هو تكليف جميع عمد البلاد باخطار مدرياتهم عما اذا كانوا يعلمون بوجود طوائف من الطير المذكور ببلادهم وكم عدد كل طائفة منه والتوصية بتركه بدون ايذاء حتى يأخذ عدده فى الازدياد . هذا والحكومة لاتألو جهدا فى تقديم أية مساعدة ممكنة لحماية جميع الطيور النافعة للفلاح والمعروفة بأنها من أعداء دودة القطن وماشا كلها من الحشرات اهـ

هذا هو الذى نشرته الحكومة المصرية فى ذلك التاريخ . ثم ان طير (أبى قردان) الآن قد ملأ الأقطار المصرية بما فعلته الحكومة من تربيته وحفظه والفضل فى ذلك راجع لمحمد باشا سعيد لأنه كان هو

السبب

السبب فى نشر التفسير فى تلك المجلة والحكومة هى التى تصرف عليها من خزينتها وهو إذ ذاك رئيس الوزارة أيام (اللورد كتشنر) الانجليزى فقد نشرت الحكومة بعد ذلك بنحو ست سنين منشورا للأئمة أبانت فيه أن الأمر الصادر من قبل لحفظ الطيور قد أثر تأثيرا حسنا فى (أبى قردان) الذى أصبح يرى فى كثير من أنحاء الوجه البحرى بعد أن كان عدده حين صدور القانون قد نقص حتى لم يبق منه هناك إلا سرب واحد فى مديرية الدقهلية . أما بقية الطيور التى سيأتى ذكرها فانها لم تكاثر الكثرة المطلوبة لعدم العناية بتنفيذ القانون وجاء فيه مايفيد أن فى الطبيعة من المحافظة على الزرع بخلق الله هذه الطيور الآكلة للدود مالانظير له فى الوسائل التى يتخذها الناس . انتهى المقصود منه وانى أحمد الله عزوجل إذ أرانى فى حياتى أن طير (أبى قردان) قد كثر حتى ملأ البلاد وهم يطاردونه ولكن لايقدرون على قتله من الحكومة وقد عملت الحكومة بما كتبته فى المقالة من تربيته وهاهى ذه تحمى الطيور الأخرى الآتية ولكن فاتها ذكر الغراب ولعلها تركته لأنه غير مرغوب فيه

ولقد ألف بعض رجال الحكومة المصرية بوزارة الزراعة كتابا فى وصف أنواع الطيور المحرّم صيدها محلى بصورها فلنذكر ملخصه هنا لتعم الفائدة فلقد جاء فيه بيان أشهر أنواع الطيور التى يحميها القانون فى مصر وهو يشمل أسماءها بالعربية والانجليزية والفرنسية واللاتينية مع وصف أحوالها المحلية وحجمها التقريبى وألوانها لتمييزها وذلك بقلم الماجور (س . فلاور) مدير مصلحة وقاية الحيوانات والمستر (م . ج نيكول) مساعد مدير مصلحة وقاية الحيوانات . وهذا بيان أشهر الطيور التى يحميها القانون وسنرسم هنا بعض صور الطيور الدالة على باقيها

﴿ عصفور سقسيكولا شكل ١ ﴾

يمرّ منه جموع كثيرة بمصر فى كلتا الرحلتين ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا . ذكره فى الربيع رمادىّ الأعلى . أبيض طفلىّ الأسفل . أجنحته سوداء وكذا ريش أذنه وخط عرضىّ على طرف ذيله . أما باقى الذيل فأبيض وذكره فى الخريف أسمر الأعلى لارمادىّ وكذا أنثاه وفراخه فى كل وقت

(شكل ١)

﴿ سقسيكولا أبوذيل أبيض ﴾

يكثر فيما بين أغسطس وابريل ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا . أجزاؤه العليا رمادية طفلية خفيفة اللون والسفلى سمراء طفلية وخوافى الأجنحة بيضاء وكذا قاعدة الذيل والذكر والأنثى سواء

﴿ عصفور أبوذيل أحمر ﴾

يكثر أثناء الرحلتين ولاسيما فى الربيع ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا . الذكر جبهته بيضاء وأجزاؤه العليا رمادية اردوازية وريش ذيله أحمر كله ماعدا الريشتين الوسطيين فانهما أشد سمرة وذقنه وزوره وأعلى صدره أسود . ولون بقية الأجزاء السفلى كستنى محمرّ والأنثى أبهت لونا ولكنها مفقودة السواد فى الزور

﴿ عصفور أبورقبة زرقاء ﴾

يكثر فى الشتاء وفى أوائل الربيع ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا . الذكر أجزاؤه العليا

سمراء وذيله أحمر القاعدة مقمع بسمرة وذقنه وزوره وأعلى صدره ذات زرقة معدنية بحافتها من أدنى أشرطة حمراء و بيضاء وسوداء وفى وسط الزور بقعة حمراء كستنية أو بيضاء والبطن أبيض طفلى . والأنثى كالذكر ولكنها مفقودة الألوان الزاهية التى تكسو الزور

﴿ عصفور أبو صدر أحمر ﴾

يكثر فى الشتاء ـ طوله ٥ بوصات ونصف تقريبا أى ١٤٠ ملليمترا . الذكر أجزاؤه العليا سمراء وذقنه وزوره وصدره حمراء برتقانية و بطنه أبيض والأنثى كالذكر ولكنها أبهت لونا وأقل احمرارا على الصدر

﴿ المغنى الأسمر ﴾

كثير جدا أثناء رحلة الربيع ولكنه فى الخريف أقل عددا ـ طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان . أجزاؤه العليا وذيله سمراء محمرة وأجزاؤه السفلى بيضاء مشربة رمادى فى الصدر و بلون طفلى فى البطن

﴿ عصفور أبو رقبة بيضاء ﴾

يكثر فى كلتا الرحلتين ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا . وذكره تاج رأسه ضارب الى اللون الرمادى وظهره أسمر وأجزاؤه السفلى بيضاء تخالطها طفلية وأنثاه أكبى لونا

﴿ عصفور أبو رقبة بيضاء الصغير ﴾

يكثر فى الربيع والخريف ويبقى منه قليل فى مصر أثناء الشتاء ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان . أجزاؤه العليا سمراء رمادية و يمتد بالعرض . فى عينيه خط قاتم وأجزاؤه السفلى بيضاء تقريبا

﴿ المغنى الأخضر ﴾

كثير جدا من نوفمبر الى مارس ـ طوله ٤ بوصات تقريبا أى ١٠٢ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان وأجزاؤه العليا سمراء مخضرة وأجزاؤه السفلى بيضاء مخضرة

﴿ عصفور الصفصاف المغنى شكل ٢ ﴾

يكثر أثناء رحلة الخريف ـ طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان وأجزاؤه العليا سمراء تخالطها خضرة أجزاؤه السفلى بيضاء مصفرة

(شكل ٢)

﴿ المغنى الأصفر ﴾

يكثر فى رحلة الربيع ـ طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان أجزاؤه العليا خضراء ولون زوره وصدره أصفر ليمونى و بطنه أبيض حريرى

﴿ المغنى الأحمر ﴾

يكثر من ابريل الى سبتمبر ـ طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان . أجزاؤه سمراء محمرة وذيله بين الحمرة وكل ريشة منه مقمعة بسواد و بياض ماعدا الريشتين الوسطيتين فكل منهما حمراء برمتها والأجزاء السفلى بيضاء طفلية

﴿ عصفور صونت المغنى ﴾

يكثر جدا من مارس الى اكتوبر ـ طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا . والذكر

والأنثى

والأنثى متشابهان . عاليه أسمر ترابى باهت وسفليه أبيض طفلى

﴿ عصفور البوص المغنى ﴾

يكثر فى كلتا الرحلتين . ويبقى منه قليل فى القطر المصرى أثناء الشتاء - طوله ٥ بوصات وربع تقريبا أى ١٣٣ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان . أجزاؤه العليا سمراء والسفلى طفلية كبريتية وطفلية محمرة

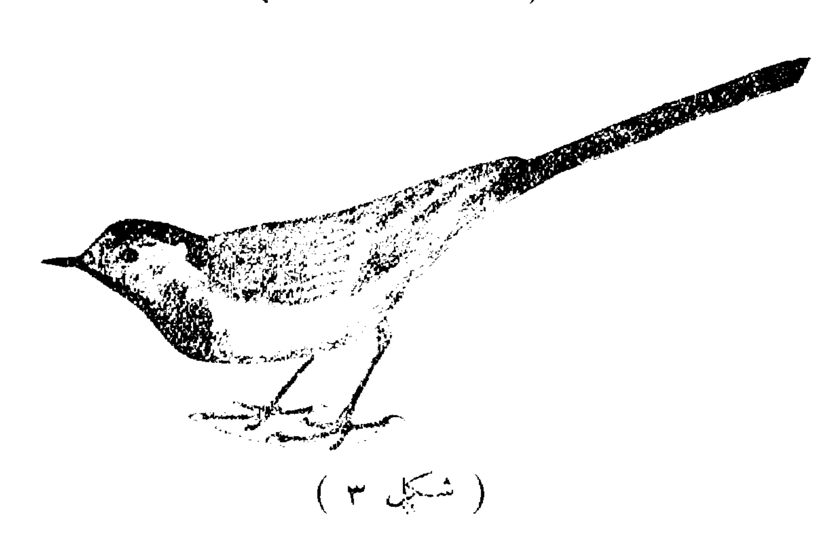
﴿ عصفور البرسيم المغنى ﴾

يكثر فى مصر ويعيش فى المزروعات - طوله ٣ بوصات تقريبا أى ٧٦ ملليمترا . ذكره وأنثاه متشابهان . أجزاؤه العليا سمراء ضاربة الى الصفرة ومخططة بسواد . وأجزاؤه السفلى طفلية وذيله مقمع بسواد وبياض

﴿ المغنى أبوذيل طويل ﴾

يكثر فى مصر ويعيش فى المزروعات - طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان . أجزاؤه العليا سمراء مخططة بسواد وأطراف ريش الذيل مخططة بخطوط عرضية سوداء وبيضاء والسفلى بيضاء تقريبا

﴿ أبوفصادة شكل ٣ ﴾



(شكل ٣)

يكثر جدا فى مصر فيما بين اكتوبر ومارس ويبقى بعضه الى ابريل - طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان تقريبا . جبهته بيضاء . تاج رأسه أسود والأجزاء العليا رمادية والسفلى بيضاء بها رقعة سوداء على الزور

﴿ أبوفصادة الأصفر ﴾

يكثر جدا فى الربيع والخريف ويبقى بعضه فى القطر طول السنة - طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا . الذكر قمة رأسه زرقاء رمادية والأجزاء العليا سمراء مخضرة والأجزاء السفلى جميعها صفراء زاهية والأنثى أجزاؤها العليا سمراء والسفلى بيضاء تخالطها على البطن صفرة

﴿ عصفور البيبت أبو زور أحمر شكل ٤ ﴾



يكثر جداً من اكتوبر الى ابريل ـ طوله ٥ بوصات ونصف تقريبا أى ١٤٠ ملليمترا . الذكر أجزاؤه العليا سمراء مخططة بخطوط سوداء وطفلية . لون زوره وأعلى صدره أحمر و باقى الأجزاء السفلى بيضاء مخططة ومبقعة بسواد . والأنثى شبيهة بالذكر سوى أن زورها فقط هو الأحمر وفراخ هذا العصفور ليس بها حمرة اصالة

(شكل ٤)

﴿ عصفور البيبت ﴾

يكثر جداً فى الربيع والخريف طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان . أجزاؤه العليا سمراء رملية والسفلى طفلية صفراء

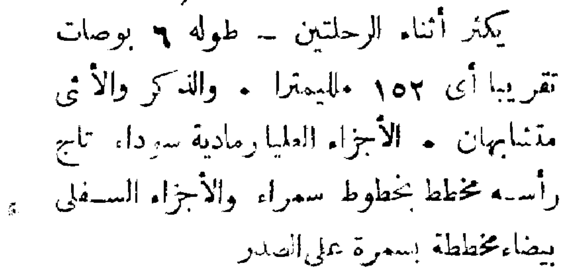
﴿ عصفور بيبت الماء ﴾

يكثر أثناء أشهر الشتاء ويبقى بعضه الى ابريل ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان . أسمر الأعلى . أبيض كاب من الأسفل . معلم على الصدر بخطوط سمراء والأجزاء السفلى فى الربيع مشربة بلون طفلى محمر زاهٍ

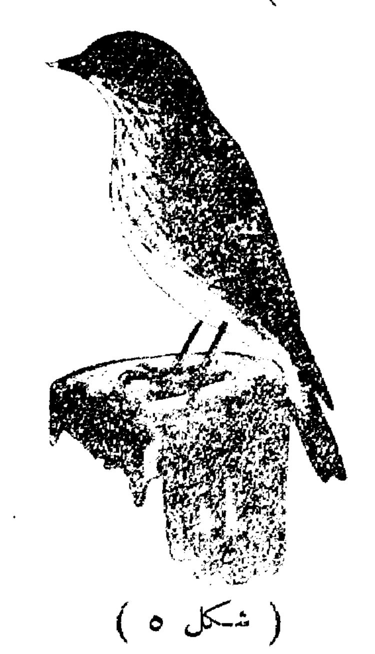
﴿ الصفير ﴾

تمرّ بالقطر منه جموع كثيرة أثناء الرحلتين ـ طوله ١٠ بوصات تقريبا أى ٢٥٤ ملليمترا . الذكر أصفر ذهبى إلا ريش أذنيه وأجنحته ومعظم الذيل فانها سوداء جميعا . والأنثى وفراخه خضراء الأجزاء العليا بيضاء رمادية الأجزاء السفلى مخططة بخطوط سوداء كابية

﴿ عصفور آكل الذباب شكل ٥ ﴾



يكثر أثناء الرحلتين ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان . الأجزاء العليا رمادية سوداء تاج رأسه مخطط بخطوط سمراء والأجزاء السفلى بيضاء مخططة بسمرة على الصدر

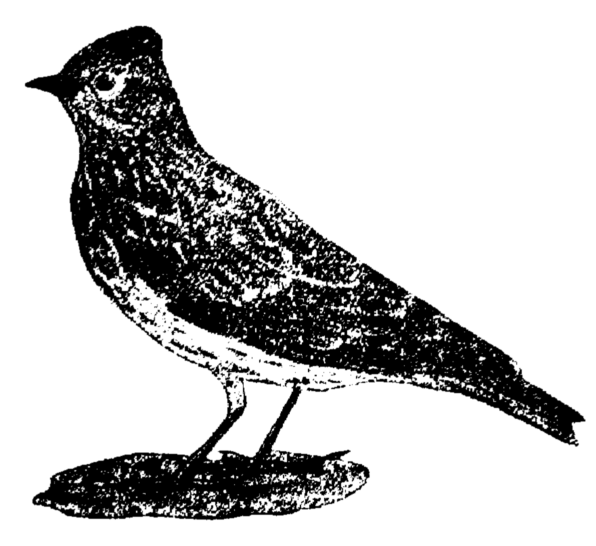


(شكل ٥)

﴿ عصفور آكل الذباب أبو طوق أبيض ﴾

يكثر أثناء رحلات الربيع ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا . الذكر جبهته وطوقه أبيضان و بقية أجزائه العليا سوداء والأجنحة مسودّة تقطعها خطوط بيضاء . والأجزاء السفلى بيضاء . والأنثى كالذكر سوى أن السواد فى الذكر يقابله سمرة فى الأنثى

﴿ القنبرة الافرنجية شكل ٦ ﴾



(شكل ٦)

تكثر بالقطر أثناء أشهر الشتاء ـ طولها ٧ بوصات ونصف تقريبا أى ١٩١ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان . الأجزاء العليا سمراء رمادية مبقعة بسمرة قاتمة . وأجزاؤها السفلى مبيضة . زورها ورقبتها مخططان بسمرة والذيل أسمر وأبيض

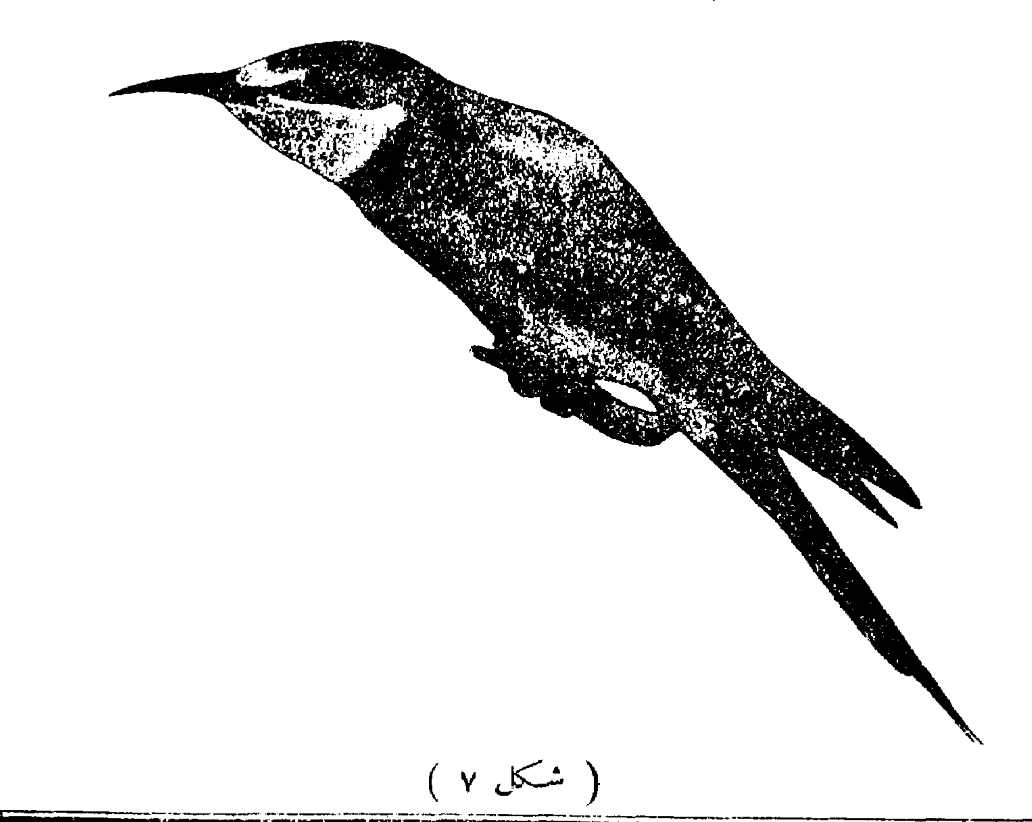
﴿ القنبرة أم الشوشة ﴾

كثيرة مستوطنة ـ طولها ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان الأجزاء العليا سمراء ومبقعة بسواد والسفلى بيضاء كابية مخططة بسواد وتختلف شدّة اللون تبعا للأماكن التى تغشاها هذه القنبرة فأغمقها يوجد فى أراضى الدلتا الغنية وأفتحها يوجد فى الأرض الرملية مثل جهات وادى النطرون

﴿ القنبرة الصغيرة ﴾

كثيرة كثرة هائلة أثناء الرحلتين وترى أحيانا فى الشتاء ويبقى قليل منها يتوالد فى مصر أثناء أشهر الصيف طولها ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان . الأجزاء العليا سمراء رملية مبقعة بسواد . تاج رأسها أشدّ حمرة . والأجزاء السفلى بيضاء تقريبا . وتوجد رقعة سوداء صغيرة على جانبى الرقبة . والذيل أسمر وأبيض

﴿ الوروار الافرنجى شكل ٧ ﴾



(شكل ٧)

تمرّ بمصر منه جموع كثيرة أثناء الرحلتين - طوله ١١ بوصة ونصف تقريبا أى ٢٩١ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان والأجزاء العليا صفراء مسمرة والذقن أصفر . بحافته السفلى شريط أسود وباقى الأجزاء السفلى خضراء مزرقة والريشتان الوسطيان من الذيل أطول قليلا

﴿ الوروار المصرى ﴾

يكثر فى مصر من النصف الثانى من مارس الى سبتمبر - طوله ١١ بوصة ونصف تقريبا أى ٢٩١ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان وريشه جميعه أخضر زرعى ماعدا زوره فانه أصفر محمر وبه خط أسود قاطع عرض العين وتوجد على جانبى وجهه رقع بيضاء وزرقاء والريشتان الوسطيان من الذيل أطول قليلا

﴿ الوروار الصغير ﴾

كثير مستوطن فى القاهرة ومايليها جنوبا - طوله ٩ بوصات ونصف تقريبا أى ٢٤٢ ملليمترا . والذكر والأنثى متشابهان وريشه جميعا أخضر زرعى ماعدا خط أسود قاطع عرض العين وتوجد رقعة حمراء كابية فى الجناح عند نشره والريش الأوسط لذيله أطول كثيرا

﴿ الهدهد الأفرنجى شكل ٨ ﴾



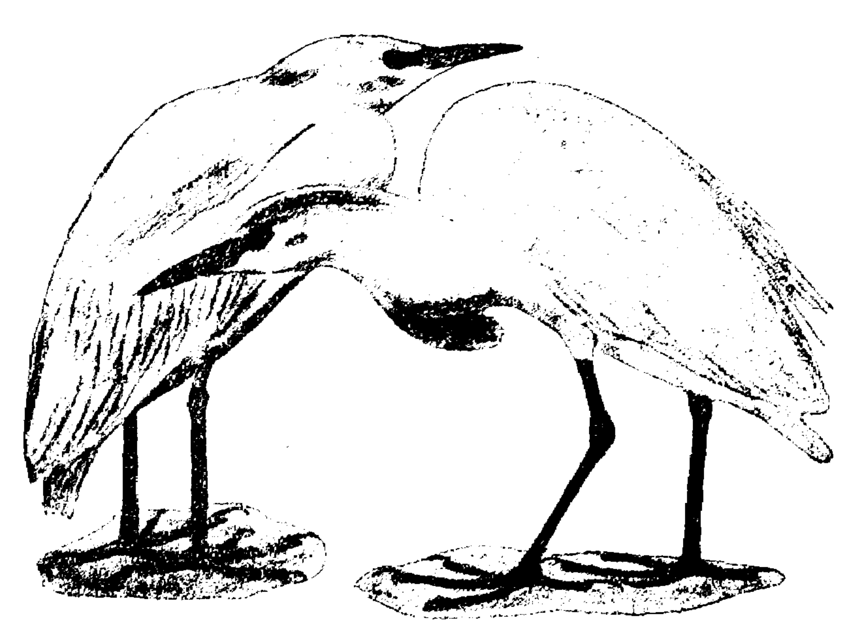
(شكل ٨)

كثير جدًا أثناء رحلتى الربيع والخريف - طوله ١٢ بوصة تقريبا أى ٣٠٥ ملليمترات . والذكر والأنثى متشابهان إلا أن الذكر أكبر منقارا . الرأس والرقبة كابيا الاحمرار . والعرف كبير معتدل أحمر مقمع بسواد وبياض . والزور والصدر أحمران قرنفليان . والبطن مبيض . والظهر أسمر . والذيل والجناحان سود مخططة بخطوط عرضية عريضة بيضاء وطفلية

﴿ الهدهد المصرى ﴾

كثير ومستوطن - طوله ١٢ بوصة تقريبا أى ٣٠٥ ملليمترات . يخالف الهدهد الأفرنجى الرحالة فى كون منقاره أطول وأكثر تخانة ولونه أكبى قليلا

﴿ أبوقردان شكل ٩ ﴾



(شكل ٩)

مستوطن فى مصر . كان فيما مضى كثير جدًا - طوله ٢٠ بوصة تقريبا أى ٥٠٨ ملليمترات . الذكر والأنثى متشابهان . الريش كله أبيض إلا فى موسم الرقاد حيث يرى أن قمة الرأس والقفا وأصل الرقبة تكون محلاة بريش طفلى اللون شعرى القوام

﴿ العنز ﴾

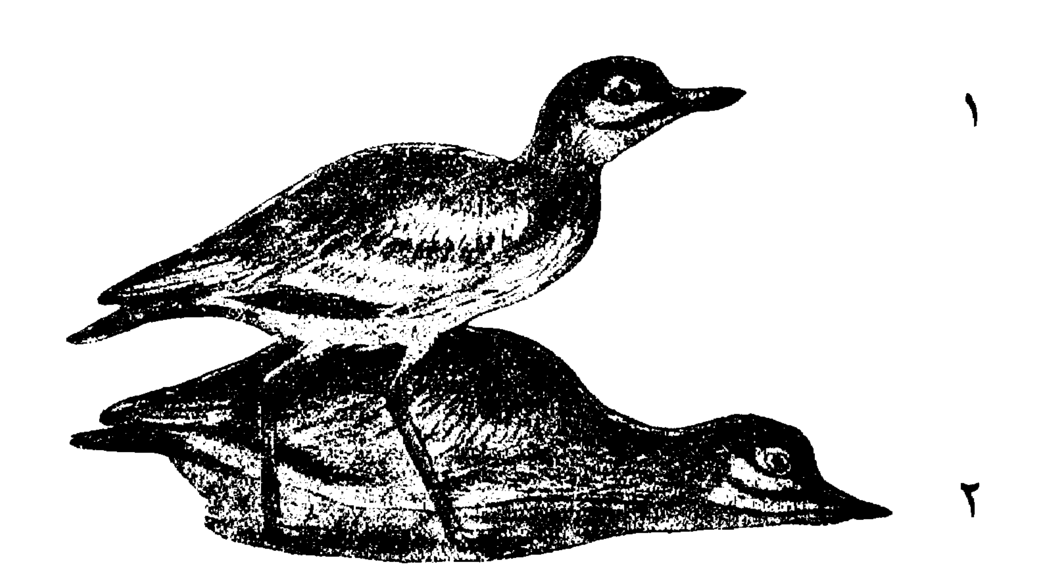
فى أثناء رحلة الربيع يمرّ عدد عظيم بالقطر المصرى و يبقى عدد قليل منه طول الصيف غير أن هذه الفصيلة لايعرف عنها أنها ترقد فى هذا القطر . أما العودة أثناء الخريف فانها أقلّ وضوحا من رحلة القدوم فى الربيع . الطول نحو ٤٢ بوصة أى ١٠٦٧ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان . الريش كله أبيض إلا ريش الجناح فانه أسود مرصع بلون رمادى . المنقار والرجلان حمر

﴿ الكروان الجبلى (شكل نمرة ١) ﴾

كثير مستوطن يعيش فى الصحراء - طوله ١٧ بوصة تقريبا أى ٤٣٢ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان . الأجزاء العليا سمراء رملية مخططة بسواد . ويرى فى الجناح فى حالة انقباضه خط عرضى ضيق مبيض . الزور أبيض وكذلك خط تحت العين . الصدر طفلى مخطط بسواد . البطن مبيض والعين واسعة صفراء

﴿ الكروان البيتى (شكل نمرة ٢) ﴾

كثير مستوطن يعيش غالبا فى المدن ويعشش عادة على أعالى المبانى - الطول ١٧ بوصة تقريبا أى ٤٣٢ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان يخالف الجبلى فى كون لونه أكبى وأشدّ رمادية وفى كون جناحه يكون خاليا فى حالة انقباضه من الخط العرضى الأبيض الواضح



(شكل ١٠)

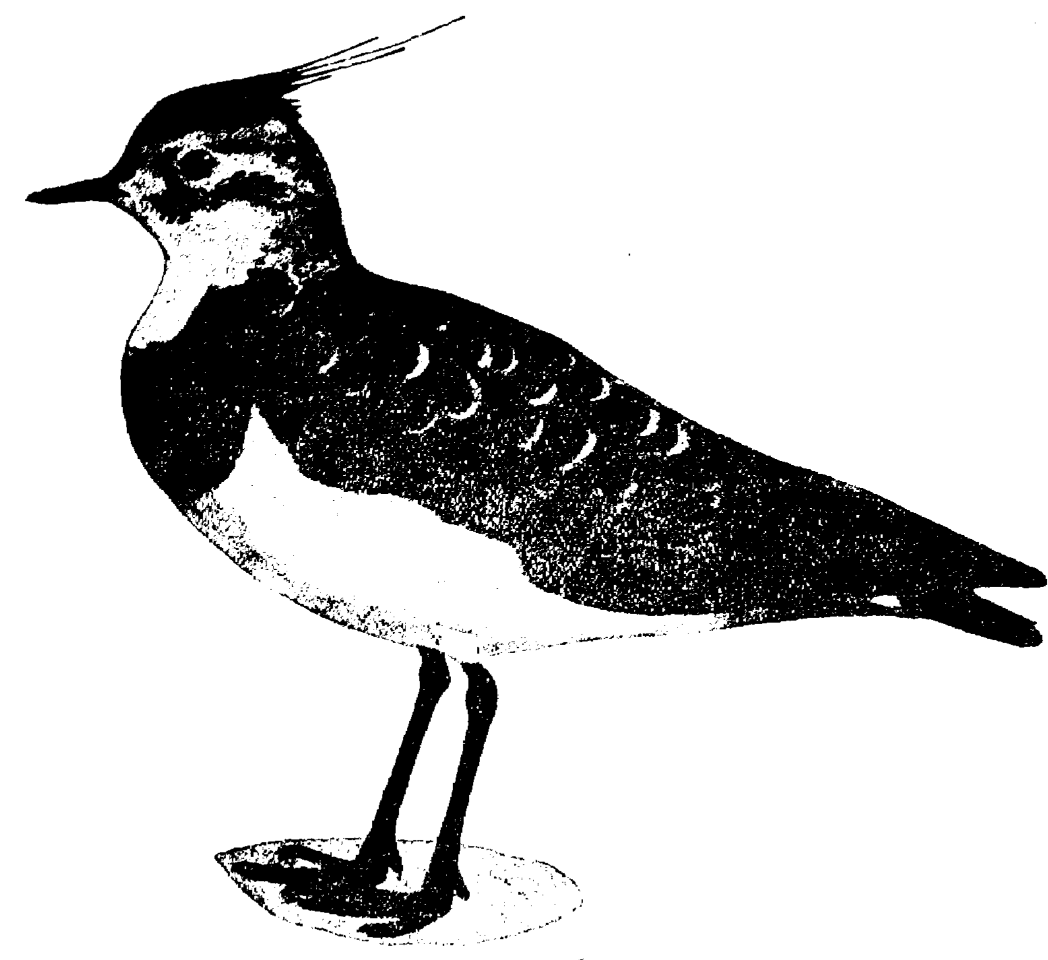
﴿ الزقزاق المطوّق ﴾

يكثر فى البقاع الرطبة والأراضى المغمورة بالمياه طول الخريف والشتاء ويبقى قليل منه فى القطر ويعيش ويفرخ فى أماكن مناسبة ـ طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان أجزاؤه العليا سمراء باهتة وجبهته سوداء فى وسطها غرّة بيضاء وريش أذنه أسود وله طوق أسود وعلى قفاه شريط أبيض وأجزاؤه السفلى بيضاء

﴿ الزقزاق الشامى ﴾

يكثر فى أشهر الشتاء ـ طوله ١٢ بوصة ونصف تقريبا أى ٣١٨ ملليمترا . الذكر والأنثى متشابهان تاج الرأس والعرف أسودان مخضران والأجزاء العليا خضراء معدنية ذات انعكاسات أرجوانية ومعلمة قليلا بلون طفلى . والذيل أبيض به شريط أسود عريض . والبطن أبيض وخوافى الذنب كستنية باهتة

﴿ الزقزاق البلدى (شكل ١١) ﴾



(شكل ١١)

كثير مستوطن فى الأماكن المناسبة له فى معظم مديريات القطر ـ طوله ١٢ بوصة تقريبا أى ٣٠٥ ملليمترات • الذكر والأنثى متشابهان • لون قمة الرأس والقفا والزور والصدر أسود • ولون جانبى الرأس والرقبة والبطن أبيض والأجزاء العليا سمراء وريش الأجنحة معلم بسواد و بياض واضحين والذنب أسود ذوقاعدة بيضاء وحدقة العين قرمزية انتهى الاجمال فهاك تفصيل التفسير لهذه السورة

﴿ أقسام هذه السورة ست ﴾

(القسم الأوّل) رؤيا النبى يوسف عليه السلام من أوّل السورة الى قوله ـ آيات للسائلين ـ

(القسم الثانى) أذى اخوته من قوله ـ إذ قالوا ليوسف وأخوه ـ الى قوله ـ وكانوا فيه من الزاهدين ـ

(القسم الثالث) قصته فى بيت العزيز من قوله ـ وقال الذى اشتراه من مصر ـ الى قوله ـ وليكونن من الصاغرين ـ

(القسم الرابع) قضيته فى السجن من قوله ـ قال ربّ السجن أحبّ الىّ ـ الى قوله تعالى ـ إنّ ربى غفور رحيم ـ

(القسم الخامس) تنظيمه للخزائن المصرية من قوله ـ وقال الملك ائتونى به ـ الى قوله ـ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ـ

(القسم السادس) خاتمة السورة وحكمها وعجائبها من قوله ـ ورفع أبو يه على العرش ـ الى آخر السورة

﴿ القِسْمُ الأَوَّلُ ﴾

(بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

الر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) تقدّم الكلام عليه فى أوّل آل عمران • يقول الله (تلك) أى الآيات التى أنزلت عليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها فى اعجاز العرب وفى اجابة السائلين منهم بارشاد اليهود قائلين لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وما قصة يوسف (إنا أنزلناه) هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف عليه السلام حال كونه (قرآنا عربيا) و بعض القرآن يسمى قرآنا لأنه اسم جنس يقع على البعض وعلى الكل ـ ولو كان أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ـ أأعجمى وعربى (لعلكم تعقلون) أى تفهمون أيها العرب وقد نزل بلغتكم (نحن نقصّ عليك أحسن القصص) والقصص إما مصدر بمعنى الاقتصاص واما بمعنى المفعول فيراد به المقصوص كالسلب بمعنى المسلوب فيقال نبين لك أحسن البيان لأنه جاء على أبدع الأساليب أوأحسن الذى يقصّ لما فيه من العجائب والحكم والآيات والفوائد النافعة فى الدنيا والدين كسير الملوك والمماليك وحسن السياسة وتدبير الملك واقامة العدل ونظام الدولة ومكر النساء والاصطبار على الأذى والعفو والتجاوز عن هفوات الأقارب واشتقاقه من قصّ أثره اذا تبعه فان الذى يقص الحديث يتبع ماحفظ منه شيأ فشيأ كما يتبع القاص الأثر شيأ فشيأ وقوله (بما أوحينا اليك هذا القرآن) أى بايحائنا اليك هذه السورة (وان كنت من قبله لمن الغافلين) أى انه أى الشان أوالحديث كنت من قبل إيحائنا اليك من الجاهلين به لأن هذه القصة لم تقرع سمعك ولم تخطر ببالك وان مخففة من الثقيلة واللام فارقة (إذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص اذا كان مفعولا به وهو بمعنى المقصوص فأما اذا كان بمعنى الاقتصاص وهو المصدر فيكون إذ منصوبا باضمار اذكر • يقول الله قال (يوسف) بتثليث السين (لأبيه) يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (يا أبت) بتثليث التاء فالضم لاجرائها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء وفتحها لأنها أصلها ـ يا أبتا ـ وكسرها لأنها عوض عن حرف يناسب الكسرة (إنى رأيت) فى المنام فهو من الرؤيا لامن الرؤية (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) نزلن من أماكنهن وسجدن لى سجدة التحية والنجوم فى التأويل اخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمّه راحيل وقوله (رأيتهم لى ساجدين) استئناف لبيان الحال التى

رآهنّ عليها وأجريت مجرى العقلاء لوصفها بالسجود وهو من صفاتهم . ولقد كان يعقوب شديد الحبّ ليوسف لأن الجمال والذكاء مما يضاعف الحبّ فى البنين والبنات كما يحبّ الناس جمال زهر الورد و يقلّ التفاتهم لزهر السنط والصفصاف . ولقد قال علماء الحكمة ﴿ إنّ جمال الظاهر بانتظام العين والأنف والفم والخدّ . وحسن ائتلافها دالّ على جمال الباطن بالعفة والحكمة والشجاعة والعدالة ﴾ فالانسان شغوف بالجمال فى أبنائه لأن نفوس الناس تشعر بجمال بواطن من حسنت ظواهرهم ولذلك حسده اخوته وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن اخوته وأبويه يخضعون له (قال) يعقوب (يابنيّ) تصغير ابن للشفقة ولصغر السنّ وكان ابن اثنتى عشرة سنة (لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا) فيحتالوا لاهلاكك حيلة واللام فى لك صلة كما تقول نصحتك ونصحت لك نخاف عليه حسدهم و بغيهم والرؤيا فى المنام كالرؤية بالبصر وسيأتى ايضاح الكلام عليها قريبا (إنّ الشيطان للانسان عدوّ مبين) ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحوّاء * وفى صحيح البخارى قال ﷺ ﴿ اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدّث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرّها ولايذكرها لأحد فانها لن تضرّه ﴾ ومعنى انها من الشيطان أنه يحضرها أو أنها تسرّه فهى من الله خلقا ولكن تنسب للشيطان مجازا لأن كلا من عند الله * ويقال الرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه . وقد أخذ العلماء من مجموع الأحاديث أن الانسان لايحدث بالحلم وليتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم من شرّها و يتفل ثلاثا وليتحوّل الى جنبه الآخر فانها لاتضرّه وهذه تكون سببا لعدم ضرره كما جعلت الصدقة لوقاية المال وغيره من البلاء (وكذلك يجتبيك ربك) يقول الله تعالى وكما رفع الله منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يصطفيك ربك ويخصك بفيض إلهى فتكون نبيا وملكا وتكون لك أنواع الكرامات بلاسعى منك وتلهم الخير إلهاما . ثم ابتدأ كلاما خارجا عن التشبيه السابق فقال تعالى (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى تأويل الرؤيا فان كانت من أحاديث الملك كانت صادقة أو من أحاديث النفس أوالشيطان كانت كاذبة كما سأوضحه قريبا وتأويل كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلام الحكماء . والأحاديث اسم جمع للحديث وهوليس بجمع لأحدوثة . وسمى تعبيرالرؤيا تأويلا لأنه يؤول أمره الى مارأى فى منامه وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وقوله (ويتمّ نعمته عليك) أى بالنبوّة (وعلى آل يعقوب) وذلك بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة فهم أنبياء فى الدنيا وملوك وفى الآخرة فى أعلى درجات الجنة وآل معناه أهل ولكن الأوّل يستعمل فيمن له خطر كآل النبى فلايقال آل الجاهل وآل العصاة وانما يقال أهل وآل يعقوب سائر بنيه ولقددلّ على شرفهم بضوء الكواكب (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) فجعلهما نبيين (إنّ ربك عليم) بمن هو أهل للاجتباء (حكيم) يضع الأشياء مواضعها (لقدكان فى يوسف واخوته) أى فى قصتهم وحديثهم (آيات) دلائل على قدرة الله وحكمته وعلى نبوّتك (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم واخوة يوسف هم أولاده العشرة ﴿ يهوذا . روبيل . شمعون . لاوى . زبالون . يشجر ﴾ وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين أربعة أولاد وهم ﴿ دان . نفتالى . جاد . آش ﴾ ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف و بنيامين فهؤلاء هم الأسباط بنو يعقوب وعددهم اثنا عشر فستة من ليا وأربعة من سريتين اسم احداهما زلفة والأخرى بلهة واثنان من راحيل أخت ليا بنت ليان بعدموت أختها أوكانت معها على رأى ولقد دهش اليهود الذين قالوا للعرب سلوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان وعجبوا كيف يذكرهذا القصص الموافق لما فى التوراة ولاعلم له بالكتب ولم يجالس الأحبار ولا العلماء . وأيضا فى هذا عبرة وعظة فى عجائب هذه القصة من صبر وحلم وحزن وعفة وسجن وملك وصفح . فكل هذه آيات للسائلين ودلائل للمفكرين

وفى هذا المقام لطائف

(اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى ـ نحن نقص عليك أحسن القصص الخ ـ

(اللطيفة الثانية) فى استطلاع البشر الى معرفة الغيب وغرامهم به وأن منه العرافة ومنه الرؤيا وأن فيهما الصادق والكاذب

(اللطيفة الثالثة) فى الحسد وأسبابه

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ نحن نقص عليك أحسن القصص ـ ﴾

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر فى سورة هود عجائب صنعه وبدائع حكمته فى خلقه وجعل مناط التفكير فيها النظر فى الدواب وسعة علم الله ثم ان ملكه ثابت على مقتضى العلم والحكمة واذا كان ملك الله ودوامه انما كان لثباته على العلم هكذا لا دوام لملك الأمم إلا بالعلم الذى ينالونه . وكل ملك لم يؤسس على العلم آيل للزوال السريع . ولما كان علم الله لانهاية له كان ملكه لانهاية له معروفة وعلم الناس محدد . ولذلك كان ملكهم محدودا . هذا بعض مايؤخذ من سورة هود وقد فاتنى أن أذكر هذا هناك ثم أقول فسورة هود مدار الأمر فيها على النظام فى الحيوان وعلى سعة علم الله وحكمته وقدرته ورحمته وأنه آخذ بناصية كل دابة . فأما فى هذه السورة فقد فتح باب الفكر الانسانى والعقل الآدمى كأنه يقول أيها الناس اقرؤا علوم الطبيعيات والفلكيات وكل ما فى الأرض والسموات ولا يشغلكم ذلك عن القصص والعظات ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ليقرأ الناس علوم الطبيعة وعلوم الأدب

اعلم أيها الذكى أن هذا المقام يحتاج لشرح وايضاح . لقد جاء فى كتاب أميل القرن التاسع عشر مايفيد أن التعليم فى الأمة الفرنسية التى منها مؤلف الكتاب المذكور ناقص لأنها قصرت فى تعليم النشء الروايات والخرافات والاحاديث المستملحة الغريبة وعلل ذلك بأن الاطفال ومن نحا نحوهم لايقبلون إلا على مايوسع الخيال و يفتح باب التصور وسعة القوة المخيلة ولن يكون ذلك إلا بالروايات المدهشة الموسعة للمخيلة المخالفة للحقائق المعروفة . وأيد ذلك بما يصنعه الانجليز فى بلادهم وأن الاطفال والشيوخ الذين لم يتعلموا يحضرون مجالس خاصة فى محال تفتح لهم وفيها تكون تلك الخرافات وضرب أمثالا لذلك مثل الفتاة التى طلب أبوها أن يتزوجها واقترحت عليه ثو باكلون الشمس وثو باكلون القمر وفى آخر الامر اقترحت عليه أن يذبح حماره ففعل كل ذلك ولبست جلد الحمار فصار هذا الجلد يخفيها عن الأنظار والذى أرشدها لهذا الاقتراح جنية . وأطال فى ذلك بأمثال لامحل لذكرها هنا . وانما أقول ان هذه الخرافات قدوضعت بين عامة الجهال من البشر لحكمة من الله دبرها . يقول وأن هذه الخيالات الكاذبة توسع القوة المخيلة حتى اذا ماترعرع الشاب انفتحت بصيرته للعلوم الطبيعية والفلكية فتصقل ذهنه فتذهب تلك الخرافات من عقله ويتم له الكمال . هذا رأيه

ولقد اطلعت على خرافات منقولة عن اليابان وقد ذكروا مع كل واحدة منها للأطفال أن هذه خرافة أما هذا الفرنسى فانه يقول يجب أن لا ننغص على الصبى بأن هذه لاحقيقة لها ولندعه يفرح بها حتى اذا كبر الصبى عرف الحقيقة

هذا ماوصل الينا من علم الأمم حولنا فى هذا المقام . فلنرجع الى مانحن فيه ولننظر فى القصص وأحسن القصص . يقول الله ـ نحن نقص عليك أحسن القصص ـ وهذا يفيد أن القصص فيه حسن وأحسن والله قص الأحسن . ولاجرم أن الناس يقصون الحسن والردىء وهذا فتح باب للحكايات والروايات والقصص مابين صادقة وخيالية . ولقد كانت أمة بنى اسرائيل مغرمة بالقصص والحكايات ومنها ماهو ضرب أمثال . وكان ﷺ يحدث أصحابه عامة الليل . ومن ذلك حديث أم زرع الطويل الذى اعتنى كبار العلماء

والمحدثين

والمحدّثين بشرح معناه وألفاظه اللغوية الأنيقة وكان ﷺ يقول حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج

ولعلّ القصد أن يكون الحديث خاصا بما يفيد علما وحكمة وماعدا ذلك فهو لغو الحديث • ولقد وجدنا أمّتنا الاسلامية قد خلفت لنا آثارا من الروايات كألف ليلة وليلة وكتاب (كليلة ودمنة) وروايات كثيرة فنها ماهى عامّية ومنها ماهى باللغة العربية • ولقد نجد قصة عنترة وغير عنترة وكل ذلك شهادة بأن أمّتنا نهضت نهضة واسعة النطاق • ولقد نجد فى كتاب (كليلة ودمنة) من المحاورات الجارية على لسان البهائم مايعلمك الحكمة والسياسة والأخلاق والمواعظ والعبر وكل مافيه جار على لسان مالا يعقل

فأما كتاب ألف ليلة وليلة فانه جار على ألسنة الناس وفيه المبالغات وحديث العفاريت والجن والشياطين وما أشبه ذلك من الخرافات ومع ذلك تجد فيه مايوسع الخيال كما ترى فى قصة السندباد البحرى وحديثه مع السندباد البرّى وكيف يقصّ عليه من أنباء سياحاته السبع وكيف كان فى كل سفرة منها يلاقى من الأهوال والمصاعب مالا يطيقه إلا الأبطال • وكيف يقصّ عليه نبأ تلك البيضة التى هى كقبة كبيرة جدّا وقد جاء الرخ وجثم عليها وكيف ربط نفسه فى رجله وهو لايحسّ به كأنه برغوث على جسم انسان وهكذا كيف رمته المقادير فوق الجبال وفى الأودية وكيف ربط نفسه فى قطعة اللحم التى التصق بها الالماس فرفعه الطير الى أعلى الجبل وكيف وصل الى أشجار الصندل فاتخذ منها سفينة وجرت به فى البحر وتحت الجبل فى الماء وكيف كانت هذه السفينة تجارة وهو لايدرى وهكذا من شياطين يطيرون به وما أشبه ذلك مما دوّنه أسلافنا فى كتبهم وتركوه الى خلفهم ليطلعوا عليه وينقدوه ويفكروا فيه • فاما الأمّة الاسلامية فانها على مذاهب شتى

فأما الفقهاء وأهل الدين فانهم كانوا منذ قرون كما هو مشاهد الآن يمنعون التلميذ أن يقرأ إلا كتب الدين وعلوم النحو والصرف وما أشبهها والطالب يحقر كل ماعدا ذلك لأن أستاذه حقره • فأما تلك الكتب فقد بقيت عند العامّة والجهلاء • ثم إن علماء أوروبا قد اعتنوا بها وبحثوا عنها وفكروا فيها ووجدوا أن كتاب (ألف ليلة وليلة) نافع لهم فترجموه وقد اطلعت عليه باللغة الانجليزية وألفوا كتبا أخرى يسمونها (الليالى العربية والليالى العربية الجديدة) وقال بعض كتابهم الذين نبغوا فى قومهم اننا لم نصل هذه القوّة إلا من قراءة كتاب (ألف ليلة وليلة) ومعنى هذا أنه قرأه فى صغره وقرأ العلوم الطبيعية فى كبره

فأما الاقتصار على أمثال هذه الكتب فانه يجعل المرء كثير الخرافات مصدّقا بالترهات • هذا وعلى ذلك جاءت هذه السورة عقب سورة هود التى أعلت شأن علوم الطبيعة ليبين الله أن القصص شأنها عظيم ولعمرى لادين ولا أمّة تقوم لها قائمة إلا بضرب الأمثال والروايات والحكايات المنعشات للنفوس المرقيات للخيال

﴿ كيف كانت قصة يوسف أحسن القصص ﴾

وانما كانت قصة يوسف أحسن القصص لأنها جمعت بين مايوسع الخيال من المناهج العجيبة ومايوضح الحقيقة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان العلماء أباحوا الخرافات لترقية الأمم بل جعلوها من الامور اللازمة وذلك لتوسيع الخيال • فهذه القصة مع مافيها من توسيع الخيال جاءت مطابقة للحقيقة لأنها تذكر أمورا جرت فليس يعقوب ويوسف وأخوانه ووجودهم فى مصر أمرا خياليا بل هو حقيقة تاريخية معروفة • وليس ككليلة ودمنة الذى هو حسن حقا ولكنه ليس أحسن لأنه يأتى بحوادث الحيوان مما لاينطبق إلا على الانسان كحكاية السمكات الثلاث اللاتى اختلفن فى الرأى لما حيل بينهنّ وبين ماء النهر فأما الأحزم فيهنّ فانها فرّت بسرعة من مكانها الى النهر وأما الحازمة فانها لما أحاط بها الخطر تماوتت وعامت على وجه الماء كالميتة فرماها الصيادون وأما الغبية فانها لم تفكر حتى أخذها الصيادون فان هذه الحكاية وأمثالها قد استحسنها العقلاء ودرسها جميع الأمم • ولكن قصة يوسف أحسن لأن أشخاصها حقيقيون ووقائعها صحيحة وفيها الحكم والمواعظ التى لايراها الانسان فى قصة أخرى حتى ان قصة يوسف فى التوراة ليس فيها من الطلاوة والأخذ بالألباب

والعظات والحض على مكارم الاخلاق مثل مافى القرآن • فهذا معنى كون هذا أحسن القصص

﴿ كيف تربى أوروبا أبناء الشرق ﴾

لقد علمت أيها الذكى آراء علماء أوروبا فى الروايات وعرفت أن المتأخرين من أمتنا الاسلامية سدّوا الباب فى وجود الطلبة فوقفت العقول وسدّت الطرق • فلما دخل الانجليز بلادنا زادوا الطين بلة فقالوا لا تقرؤا الروايات فانها خرافات وقد علمت أن هـذه تليق للأطفال ولصغار العقول ثم هـم قللوا علوم الطبيعة بحيث لايعرف الطالب ماجاء فى سورة هود من النظر فى الحيوان وأنواعه ولافى عجائب صنع الله تعالى • فهذا الباب أقفل إلا قليـلا وذلك على الكبار وهكذا الاطفال منعوهـم مما يرقى الخيال ثم جاؤا بروايات (شكسبير) ليقرأها الكبار بدل الصغار وكذلك بعض روايات عربية مترجمة الى لغتهم من ألف ليلة وليلة وجعلوها للكبار ليشغلوهم بما يجب أن يكون للاطفال وذلك لاضعاف العقول وموت النفوس • هذا ما أردت ذكره فى هـذا المقام ليقف عليه العلماء بعدنا فيبحثوا فما يصلح للأمّة ومالا يصلح فينظموا التعليم على ماينفع العباد

وانى قبل أن أغادر هذا المقام أذكر أن أحد الفضلاء أخبرنى أنه كان يخاف من خياله فلما قرأ قصة عنتر أصبح شجاعا وصارلايخشى من أعظم الاشياء وأهولها • ولما حضر الى مصر الاستاذ (ادوارد براون) الانجليزى وسمع قصـة عنترة تأسف وقال ان العوام عندكم خير منهم عندنا فانهـم يسمعون مكارم الاخلاق والشجاعة فى هذه القصة وهم يفهمونها فترقى أخلاقهم وعقولهم ثم أخذ قصيدة منها بالفونوغراف وأسمعنى صوته فـكان عجيبا جدّا وهى التى فيها هذا البيت

إياك والفحشاء لا تنطق بها * مادمت فى هزل الكلام وجدّه

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اعلم أن الناس مفطورون على الاستطلاع والتشوّق لمستقبل أمورهـم وقد يعرفون بعض المستقبل برؤيا يرونها أو بعرّاف يجيبهم أو بزجر أو بفال أو بضرب الحصى أو بالنظر فى الاكتاف أوفى الماء أوالتنويم المغناطيسى أو بتحضير الأرواح

﴿ تحقيق هذا المقام ﴾

اعلم أن الله عز وجل أقفل أبواب معرفة الغيب عن البشرولم يرد ذلك إلا رحمة بهم واسعادهم • ولوعلم الناس الغيب لنزلوا الى الحضيض ولـكانوا أخسّ المخلوقين • ذلك أن المرء لو اطلع على الغيب وانه بعـد عشرين سنة سيكون وزيرا أوغنيا أوعالما كبيرا لم يفكر يوما ما فى علم السياسة ولافى جلب المال ولافى قراءة العلم واذن تضيع الحكمة وتذهب الحياة سدى وجهل الناس بالمستقبل هوالذى تـكفل باسعادهم لأنهم يجدّون وهم وجلون وذلك داع حثيث الى اتقان العمل ولانتيجة إلا بمقدّمة والمقدمة لاوجود لها مع العلم بالمستقبل فعلم الناس للغيب أكبر ضرر عليهم وهم لايشعرون • ناهيك بما يكون من اطلاع الناس بعضـهم على مافى قلوب بعض من الحسد والبغض والـكراهة فـكيف يعيش الناس فى صفاء وهـم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء • لهذا منع الله الغيب • ولـكن لما كان اقفال باب الغيب مرّة واحدة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ويوقع فى النفوس أنه لاروح ولاحياة بعد هذه الحياة أغاث الناس ببعض الرؤيا الصادقة وخصص أناسا بالاطلاع على بعض الحقائق واضحة كالأنبياء وغير واضحة ممزوجة بالأباطيل كالعرّافين والرمالين والناظرين فى الـكف وفى الحصى والحاسبين فى علم الزايرجة • فهؤلاء كما تحققنا يأتون بحقائق وأكاذيب وهكذا الرؤيا فمنها الـكاذب وهو الأكثر ومنها الصادق وهو أندر من الندور كما فى رؤيا يوسف عليه السلام

﴿ هل تصدق الأرواح فى اخبارها عند استحضارها ﴾

هذه القاعدة لايشذ عنها شئ فاعلم أن الأرواح التى يحضرها الناس فى الشرق وفى الغرب تأتى بالصادق والكاذب . و بيانه أن الذى يستحضر الروح لأجله اذا كان طالبا مالا أوجاها أوعرضا دنيو يا أعرضت عنه الأرواح العالية واقتربت منه الأرواح الناقصة لمشاكلتها لطباعه فذكرت له ما يناسب ذوقه و بشرته بمستقبل سعيد وعمر مديد ومنزل جديد و بالأبناء والعبيد . وان كان الطالب مريدا الحكمة والعلم والحقائق ولم يكن محكوما عليه بالحرمان لذنب أصابه أقبلت عليه الأرواح العالية وعلمته تعليما يناسبه . ولعمرى لافرق بين عالم الأرواح وعالم الدنيا . فالعالم يضنّ بعلمه على من لايعقله والناس أشكال فكل شكل يحنّ الى شكله و يألف قرينه ويهوى أمثاله . هذا ولأفصل الكلام الى ﴿ مقامين ﴾ العرّافين فى التوراة وحقيقة الرؤيا

﴿ العرّافون فى التوراة ﴾

لقد كان بنو اسرائيل مغرمين بالعرافة موصوفين بمحادثة الأرواح ألا وان أهل أمريكا وأوروبا الآن يشبهون اليهود قديما فى غرامهم بمحادثة الأرواح وما كان ليخطر ببالى أن بنى اسرائيل هكذا لولا مارأيته فى الاصحاح الثانى والعشرين من الملوك الاول من التوراة

ذلك أن (يهوشاقاط) ملك يهوذا نزل عند ملك اسرائيل . فقال الثانى لعبيده ألا تعلمون أن (أرض راموت جلعاد) هى أرضنا ونحن عنها ساهون لاهون فلنحارب لنرجعها لنا ثانيا ونأخذها من ملك (أرام) ثم التفت الى (يهوشاقاط) قائلا أتذهب معى للحرب فقال (يهوشاقاط) شعبى كشعبك وخيلى كخيلك فقاتل أنامعك ثم قال لملك اسرائيل اسأل اليوم عن كلام الرّب فجمع ملك اسرائيل الأنبياء (العرافين) نحو أربعمائة رجل واستشارهم فأشاروا عليه جميعا بالتوجه للحرب لاسيما (صدقيا بن كنعنة) فانه صنع لنفسه قرنين من حديد وقال هكذا قال الرب بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا فقال (يهوشاقاط) أما بقى من هؤلاء الكهنة أحد بعد فقال ملك اسرائيل لم يبق إلا واحد وهووحده لايتنبأ لى بخير وهو (ميخا بن يمله) فأمر باحضاره فسألوه فقال رأيت كل بنى اسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لاراعى لها فقال الرب ليس لهؤلاء أصحاب فليرجعوا كل واحد الى بيته بسلام ولقد رأيت الرب جالسا على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره فقال الرب من يغوى (اخاب) فيصعد و يسقط فى راموت جلعاد فخرج الروح ووقف هكذا أمام الرب وقال أنا أغويه قال له الرب بماذا قال أخرج وأكون روح كذب فى أفواه جميع أنبيائه (كهنته) فقال إنك تغويه وتقتدر فاخرج وافعل هكذا والآن هوذا قد جعل الرب روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء والرب تكلم عليك بشر فعارضه (صدقيا) المتقدّم ذكره فقال له (ميخا) سترى فى ذلك اليوم الذى تدخل فيه من مخدع الى مخدع لتختفى اهـ

فحينئذ حبسوه وضيقوا عليه وصعد ملك اسرائيل ويهوشاقاط ملك يهوذا الى راموت جلعاد فاتفق أن رجلا نزع فى قوسه غير متعمد وضرب ملك اسرائيل بين أوصال الدرع فقال لمدير مركبته ردّ يدك وأخرجنى من الجيش لأنى قد جرحت واشتدّ القتال وأوقف الملك فى مركبته مقابل (أرام) ومات عند المساء وجرى دم الجرح الى حضن المركبة ودفنوا الملك فى السامرة اهـ

هذه هى القصة التى لخصتها من الملوك الاول ومنها تعلم أيها الذكى أن بنى اسرائيل قد شاع عندهم علم الكهانة والعرافة وكذلك تعبير الرؤيا

﴿ حكمة وتبيان لجعل سورة يوسف بعد يونس وهود فى الترتيب ﴾

اعلم أن العالم الروحى والعالم الجسمى كل منهما فيه عوالم لاتتناهى بحسب نظرنا فبينما الانسان الواحد منا نراه واحدا مفردا نجد أن له مالايحصى من الكرات الدموية البيضاء والحمراء لا اقدّر بمئات ملايين الملايين

وهكذا أعضاؤه وعجائبها ثم اننا نرى النبات والحيوان لاتعدّ عجائبهما ولاتحصى وكلها خادمة للانسان • فلننظر نظرة فى العالم الروحى فان آراءنا وأفكارنا متصلة بعوالم أكثر من العوالم المشاهدة ولعلّ أرواحنا تتصل بعوالم تناسبها ومن تلك العوالم مانراه فى المنام ومنها ماجاء على ألسنة الأنبياء ومنها مايجىء على ألسنة العرّافين والكهنة وغيرهم وهؤلاء الذين ذكرناهم بعد الأنبياء يصدقون ويكذبون كما أنا نرى العوالم المحسوسة منها الضارّ ومنه النافع ونحن بين هذه العوالم نربى ونختبر ونميز ونرتقى فى تلك التجارب

وياعجبا لقصة يوسف التى أنزلها الله لفتح هذه الأبواب العلمية ولتبين لنا كيف تكون البشارة للمؤمن فى هذه الحياة الدنيا فيما مرّ فى سورة يونس إذ قال تعالى ـ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ وورد فى الحديث ﴿ ان البشرى فى الحياة الدنيا هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أوترى له ﴾ فهذه السورة أرتنا أن من الناس من يفتح لهم باب السعادة بحسب استعدادهم و يلهمون ذلك أو يرونه فى المنام وهذه الرؤيا تكون بشرى كما بشر يوسف بما هو معلوم فنال مارآه • وكل من الرؤيا وكلام الكهنة فيه الصادق والكاذب ولقد ترى فى كلام (ميخا) المتقدّم مايوهم خلاف جلال الله وجلاله فاعلم أن هذا ليس أمرا مقدّسا وانما ذكرناه لتعلم على كل حال أن القوم كان لهم المام بالكهانة وان لم يكن هذا الكلام موزونا بميزان الشرع فى التعبير

﴿ الرؤيا الصادقة والرؤيا الكاذبة وتحقيق الكلام فى هذا المقام ﴾

اعلم أن الرؤى على أقسام ﴿ القسم الأوّل ﴾ مانشأ من غلبة الدم الناجم من الاكثار من الأغذية الدموية الحارّة الرطبة كالطبائخ الدسمة والحلواء فتهيج الطبيعة فتبخر فى الدماغ بخارا حارا رطبا فيكون الصداع العظيم وفترة الحواس وقد يزداد فتحمر العين ويكون وجع الحلق وذات الجنب وورم الكبد والطحال والامعاء والانثيين ويرى فى منامه الرعاف والاحتجام والدم واللاعبين والرقاصين ﴿ القسم الثانى ﴾ مانشأ من غلبة الصفراء الناجمة من الاكثار من الأغذية اليابسة كالعسل ولحم الكبش الحولى ونحو ذلك فتحترق الطبيعة من الجوف الى الدماغ ببخار صفراوى غير معتدل فيكون صداع فى الرأس وشقيقة وقلة نوم وحرارة اللمس وقد يصفر اللون والعين ويكون الفم مرا ويرى فى منامه النيران والشمس المحرقة والصواعق والحروب ولايزال مغتما مهتما ﴿ القسم الثالث ﴾ الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الاكثار من الأغذية الباردة الرطبة المولدة بخارا رطبا يوقع فترة فى الجسم ورخاوة فى المفاصل وكثرة الريق ولزوجيته وبرد الجسم وقلة شهوة الطعام أوّل النهار وقلة العطش وضعف المعدة وبياض البول وكثرة النوم والكسل والنسيان وأن يرى صاحبه فى نومه الأمطار والمياه والأودية والاغتسال والسباحة ﴿ القسم الرابع ﴾ الرؤى الناجمة من غلبة السوداء الناشئة من الاكثار من الأغذية السوداوية كالعدس والدخن ولحم البقر والباذنجان فيبتدئ المرض السوداوى بفترة فى البدن وشدّة عطش وقلة نوم وقد يطغى المرض اذا لم يتدارك فيكون الجذام والجرب والحكة والفالج والسكتة وخفة الرأس والرعاف والثآليل والباسور والصرع والماليخوليا والقوبا والبهقة والسعال اليابس الخ ويرى فى منامه الأهوال والمخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة ويهرب من كل أحد ويرى الأموات ونحو ذلك وأكثر مايقع ذلك من أكل الملوحة والحموضة والفول والعدس ﴿ القسم الخامس ﴾ أن تكون القوّة المخيلة فى الدماغ مشغولة بصور واردة عليها من الحواس مخزونة فيها • ومن خصائص هذه القوّة العجيبة أنها تحلل تلك الصور وتركبها كأن تتخيل

أعلام ياقوت نشر * ن على رماح من زبرجد

وكأن تتصوّر انسانا مقطوع الرأس وهو لايزال حيا ﴿ القسم السادس ﴾ أن تحاكى القوّة المتخيلة المذكورة ماغلب على النفس من منازعها الشهوية الطبيعية كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل فان تلك القوّة تخترع

الأعاجيب فى المنام فتقدّم للنائم الطعام والشراب والأنس والأصحاب والأوانس والغادات مضاهاة ومحاكاة لما يحصل فى العيان ﴿ القسم السابع ﴾ أن تحاكى تلك القوّة ماغلب على النفس قبل من القوّة الغضبية والحمية والعصبية فتخترع له تلك القوّة آلات للقتال ودروعا للنضال وسيوفا وحرابا لملاقاة الأبطال ومدافع لكفاح الأعداء فتجد ما كان فى النهار قوّة كامنة فى النفس ظاهرا فى النوم عند تلك القوّة تفتك بأقرانه وتجندل أعداءه وهو منصور فى المنام ﴿ القسم الثامن ﴾ أن يكون البدن هادئا ساكنا لم تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا الدم ولا البلغم ولا الشهوة البهيمية ولا القوّة الغضبية ولم تزدحم معدته بالطعام فان هذا ربما يرى فى منامه وارادات من عالم العقل فترتسم تلك المعانى العالية الواردة عليه وتصوّر بصور المحسوسات وقد تكون بديعة جدّا بهية المنظر وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالا لطيفة ورموزا لها معان اجمالية تخبر بأمر فى الحال أو الاستقبال . فهذه هى الأقسام الثمانية التى لايخلو منها أو من بعضها أصحاب الرؤى من الناس

واعلم أيها الذكى أن هذا القول ملخص ماذكره الفارابى فى علم النفس وملخص ماجاء فى علم الطب فى هذا المقام . فهذا المقام أصوله فى فلسفة الفارابى وفى علم الطب قد فصلته لك تفصيلا ومزجته مزجا جميلا وأبنته أيما تبيان . وعلى ذلك تكون الأقسام السبعة وهى حال الصفراء والدم والبلغم والسوداء والصور الواردة من الحواس وغلبة القوّة الغضبية والقوّة الشهوية الرؤى فيها أضغاث أحلام لاتأويل لها وانما هى نتيجة ماقام بالجسم من الأمزجة والأحوال . فأما القسم الثامن فان له ضروبا شتى وأحوالا مختلفة . فمنها ما يكون واضح الدلالة . ومنها مايحتاج الى تأويل . وهذا هو الذى تكون منه الرؤيا الصادقة وهى نادرة فى النوع الانسانى فأما أكثر الرؤى فانها أضغاث أحلام وهى تلك السبع والله يعلم ولكنّ أكثر الناس لايعلمون وهذا خير ما اطلعت عليه مما ذكره أهل العلم فى الرؤى والأحلام والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . هذا ماجاء فى الحكمة الموروثة

﴿ الأحلام فى العلم الحديث ﴾

واعلم أن أهل العلم فى البلاد الشرقية كأبناء العرب بمصر وماجاورها قد نسوا علوم آبائهم وضرب بينهم وبين الماضى بسور لاباب له ولذلك تراهم يتبعون الاوروبيين اثباتا ونفيا فلعلك تحب أن تقف على ماوصلوا اليه . أقول لك قد جاء فى بعض المجلات العلمية بمصر أثناء طبع هذا الكتاب هذه النبذة التى سأذكرها وأنا موقن أنك ستتعجب من أن ما نقلوه عن الاوروبيين هو نفسه ما قاله الفارابى وعلماء الاسلام الذين علموه بقدر امكانهم أما هؤلاء فانهم ينتظرون سببا للرؤى من كلام الاوروبيين ولم يعلموا أنهم قالوا فى كتب كثيرة مثل قول الفارابى ولله فى خلقه شؤن . وقد آن أن أسمعك هذه النبذة وهى

﴿ هل من علاقة بين الأحلام والحوادث ﴾

نشرت إحدى المجلات العلمية فصلا حاولت أن تشرح به مسألة الاحلام وأن تثبت أن بينها وبين الحوادث التى تقع حولنا علاقة لايمكن انكارها وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة كلامها . قالت

يبذل العلماء منتهى الجهد للوقوف على كنه الاحلام وحلّ ألغازها . ومع أن جهودهم فى هذا السبيل ترجع الى أقدم الأزمنة إلا أنهم لم يكترثوا للأمر اكتراثا جدّيا إلا منذ عهد قريب . وفى الواقع أن علماء نصف القرن الماضى لم يكونوا يعتقدون أن الأحلام جديرة بالبحث ولكن علماء هذا العصر ينظرون الى المسألة نظرة أخرى ويجمعون الحقائق التى تعينهم على استجلاء هذا السرّ الغامض . وهنالك أمور ثابتة لاسبيل الى انكارها وفى مقدّمتها أن حوادث كثيرة أشير الى وقوعها أو أنبئ بها بواسطة الأحلام . وهنالك أيضا مايثبت أن بعض الأحلام أوجدت فى أصحابها قوّة النبوّة واستجلاء المستقبل مما لاسبيل معه الى اهمال تلك الأحلام وعدم الاهتمام بها . فمن أمثلة ذلك ما رواه الدكتور (دى سرمين) وهو أنه حلم ذات ليلة أن

ولده الذى كان يحبه محبة فائقة وقع فى نار ملتهبة واحترق وكان الحلم واضحا جدّا حتى انزعج الدكتور فنهض من نومه مذعورا وذهب الى حيث كان ولده مستغرقا فى سبات هنىء . وفى اليوم التالى ظلّ تأثير الحلم عالقا به حتى انه أخذ يراقب ولده لكن يحاول أن يردّ عنه الشرّ ثم يفحص جسمه بكل دقة فوجده صحيح البنية لايشكو علة ولكن الولد أصيب فى اليوم الذى بعده بالتهاب الرئة الحاد وتوفى بعد بضعة أيام فهل كان حلم الدكتور (دى سرمين) من قبيل الاتفاق أم كان بينه و بين وفاة الولد علاقة ما

ومن هذا القبيل ماوقع لسيدة عجوزمن أهالى مدينة (فيلادلفيا) بأمريكا منذ سبع سنوات فانها حلمت ذات يوم بأن ابنها (وهو رجل كهل) سقط بين عجلات الترامواى وقتل فنهضت السيدة من نومها مذعورة ولما علمت أن مارأته لم يكن سوى حلم عادت فنامت ثانية ولكنها حلمت مرة أخرى بأن الترامواى قد قتل ابنها وكان الحلم جليا جدّا حتى انها ركبت القطار فى صباح اليوم التالى وذهبت الى (نيو يورك) حيث كان ابنها يسكن وما كادت تخرج من محطة (نيو يورك) وتجتاز أحد الشوارع حتى أبصرت جمهورا من الناس مجتمعين حول رجل ميت قد دهمه الترامواى وكان ذلك الرجل هو ابنها وهو المستر (وليم كوبر) من كبار أغنياء الأميركيين وقد شهدالكثيرون بصحة ماروته السيدة أمه إذ أطلعت الكثيرين على حلمها قبل أن تسافر من (فيلادلفيا) الى (نيو يورك) ومن جلة الذين شهدوا بذلك العلامة (كاميل فلامريون)

وهنالك أيضا أحلام تنبئ بوقوع حوادث تافهة . فمن ذلك أن فتاة ارلندية حلمت ذات ليلة بأنها واقفة فى احدى مركبات السكة الحديدية وحولها أصدقاؤها وما كاد القطار يقوم حتى شعرت بأن يدا قذفت اليها برزمة ففتحتها واذا بها قطعة من الصابون وأخرى من البسكويت وأرادت أن ترى مابقى بقية الرزمة ولكن القطار دخل فى تلك اللحظة نفقا مظلما ثم استيقظت . قصت الفتاة هذا الحلم على أمها وجمهور من صديقاتها كنّ مجتمعات حولها و بعد ثلاثة أشهر كانت مسافرة بأحد القطارات الاسكتلندية فوقع لها مارأته فى الحلم تماما

وروى (شو بنهاور) الفيلسوف الألمانى العظيم أنه قلب ذات يوم دواة الحبر فى مكتبه فدقّ الجرس واستدعى خادمته لكى تنظف المكان . فلما حضرت قالت له انها كانت قد حلمت بذلك الحادث تماما فى الليلة الماضية فلم يصدّقها الفيلسوف بل ظنّ أنها تهزأ به فاستدعت الخادمة خادمة أخرى كانت قدقصت عليها حلمها واستشهدت بها على صدق كلامها فصدّقها (شو بنهاور)

ترى مامعنى هذه الأحلام وكيف نعلل وقوعها وهل هى من قبيل الاتفاق أو بينها و بين الحوادث التى تقع حولنا علاقة ما . إنّ الكثيرين من العلماء يعتقدون اليوم أن فى الامكان الانباء بالمستقبل بواسطة الأحلام . يروى عن (ادوين ريد) العالم الطبيعى الشهير أنه حلم ذات يوم أنه كان سائرا فى أحد الشوارع فأبصر صليبا من الصلبان التى يضعها المسيحيون على قبورهم و ينقشون عليها تاريخ أمواتهم ورأى على ذلك الصليب اسمه منقوشا كما يلى (ادوين ريد توفى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠)

وقد روى هذا العالم حلمه لجهور من أصدقائه وهو يضحك وفى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ توفى فهل كان من قبيل الاتفاق وهل ثمة شكّ فى أنه كان من قبيل الانباء أوالتحذير . ثم ان من الاحلام ماهو بمنزلة تحذير من مصيبة مقبلة . ومن هذا القبيل أن ضابطا أميركيا يدعى الكابتن (مكجون) قد عزم ذات يوم أن يذهب هو وولداه الى مسرح (بروكلين) بنيو يورك فطلب من ادارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن وفى الليلة السابقة لذهابه الى المسرح حلم أن نارا عظيمة قد شبت والتهمت المسرح فهلك ثلثمائة نفس وكان الحلم جليا جدّا حتى ان الرجل هبّ من نومه مذعورا وفرائصه ترتعد وفى صباح اليوم التالى أخبر ادارة المسرح بأنه قد عدل عن الذهاب هو وولداه وفى تلك الليلة عينها شبت نار هائلة التهمت المسرح كله وهلك بالنار ثلثمائة نفس بين رجال ونساء . وقد فحص كثيرون من العلماء حكاية هذا الحلم فشهدوا بصحته وفى مقدّمتهم

الاستاذ (السر وليم بارات) العالم الانجليزى الشهير

ومن الناس من قد استفاد من الأحلام فربح جوائز اليانصيب أو الرهن على الجياد الفائزة فى ميادين السباق والحوادث التى من هذا القبيل كثيرة متعددة ولكن لا يصعب ارجاع معظمها الى مبدا الاتفاق الذى تسميه العامة المصادفة إلا اذا حلم المرء أن الرقم الفلانى من أرقام أوراق اليانصيب ربح الجائزة الكبرى وفى الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة فان الربح فى هذه الحالة لا يمكن ارجاعه الى ناموس الاتفاق بل يجب تعليله على وجه آخر . إن العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول الى تعليلها تعليلا علميا صحيحا ولا بدّ أن ينتهوا الى حلّ يحسن السكوت عليه فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرّد مشاهد تعرض للنائم بلا سبب منطقى بل ان بينها و بين الحوادث علاقة لاسبيل الى انكارها اه

هذا هو الذى ينقله المتعلمون فى بلادنا وهم أنفسهم يسمعون فى منازلهم ومن أصحابهم بمصر وغيرها أمثال هذا كثيرا ولا يعيرونه التفاتا ولا بحثا حتى اذا سمعوه من أهل أوروبا كتبوه . هذا هو الجهل واحتقار النفس وسيأتى يوم يعرف فيه الشرق أن له أحلاما وأن له عقلا وانه يفكر و يفهم مافى نفسه وماحوله اه

﴿ اللطيفة الثالثة فى الحسد وأسبابه ﴾

اعلم أن الحسد لا يكون إلا بين المتشاركين فى حال كالجار والصهر والقريب والمشارك لك فى صناعة وتجارة أو زراعة أو امارة أو علم أو سنّ أو المقيم معك فى مدرسة أو منزل أو شارع . وكلما ارتفع صيت الانسان حسده من يشاركه فى ذلك الصيت وترى العالم لا يودّ أن يشاركه فى ذلك المجد أحد . و يزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر . وهذه الخصلة انما أوجدت فى الانسان لطلب المجد والرفعة وعلوّ الشأن وليسابق الانسان غيره فى المفاخر والفضائل والمجد فتربو الأحوال ويكثر العمل و يزداد العمران . ومامن خصلة تخلق فى الناس إلا ولها فوائد لمنافعه ومنفعة هذه الغريزة ماذكرناه فيجارى الرجل غيره و يريد مسابقته وهذه تسمى (الغبطة) وهى محمودة فاما أن الانسان يسعى لازالة الفضل عن المحسود فهذا هو المذموم . و يظهر أن هذه الأرض من العوالم المنحطة لأن الذين يسكنونها لا ينالون الفضائل إلا مقرونة بما يؤذى ويؤلم وهل فى العوالم من هو أصفى وأنقى وأرق . ولعلّ أهل الأرض يوما ما يصلون الى هذا المقام . واذا كنا نرى الأغذية فيما تقدّم لها أثر فى أحوال الرؤى والصور التى نتخيلها فى منامنا وهكذا يقول علماء الحيوان أن الحيات السامّة لا تكون إلا حيث يكون العشب فاسدا والمستنقعات عفنة . فأما الحيات التى لا سم لها فانها أكثر من التى لها سم وتبلغ ثلثمائة نوع وهى ثلاثة أضعاف التى لها سم وما السمّ إلا من آثار الغذاء السيء والأعشاب النابتة فى المواضع المستوخمة فالسم إذن نتيجة الأغذية فهكذا نقول إن أرضنا طبعها هو الذى نحن عليه أى ان طينتها ومناخها لا يحوى إلا أناسا هذه حالهم تخلق فيهم الفضائل تكتنفها الرذائل كما يكتنف المرض الأغذية فتحدث فينا صحة يتلوها مرض فموت . هذا طبع أرضنا فالحسد فينا وغيره من طبائع هذا العالم والعلم يلطفه ويهذبه فالدين والفلسفة وجدا فى الأرض ليلطفا من طباع الناس كما لطفت حرارة الشمس كل ماعلى الأرض وأثرت فيه ونما كل حيوان ونبات فنسبة العلوم والديانات الى غرائزنا كنسبة ضوء الكواكب الى المخلوقات الأرضية

هذا هو المقصود من ذكر حسد بنى يعقوب ليوسف عليه السلام فى هذه السورة . انتهى الكلام على القسم الأوّل ولطائفه

(القِسْمُ الثَّانِي)

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه) واللام لام القسم أى والله ليوسف وأخوه بنيامين وهما من أم واحدة وهى راحيل (أحب الى أبينا منا) انما وحد أفعل لأنه اذا لم يكن فيه أل ولم يكن مضافا لايفرق فيه بين الواحد وغيره ولا بين المذكر والمؤنث والحال اننا (عصبة) جماعة أقوياء فنحن أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا وسموا بذلك لأن الامور تعصب بهم (إن أبانا لفى ضلال مبين) غلط بين فى تدبير أمر الدنيا . وكيف يؤثر حب يوسف علينا مع صغره وعدم نفعه ونحن عصبة نقوم بمصالحه من أمر دنياه واصلاح مواشيه . وكيف يترك محبة من هم أكبر سنا وأكثر عددا وأشد بأسا وقوة ومنفعة وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرى لما سأله أى بنيك أحب اليك قال الصغير حتى يكبر والغائب حتى يؤوب والمريض حتى يبرأ . ويوسف كان صغيرا وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء وقوى ذلك الرؤيا العجيبة الدالة على مستقبل باهر . ثم ان أفعال اخوة يوسف كانت قبل أن يوحى اليهم فيكونوا أنبياء والعصمة للأنبياء بعد النبوة وثبوتها والا فالحسد من الكبائر وخطاب الأب بمثل ماتقدم عقوق وكل ذلك قبل النبوة التى ثبتت لهم فيما بعد (اقتلوا يوسف) هذا من جملة ما قالوه كأنهم اتفقوا على ذلك إلا من قال ـ لاتقتلوا يوسف ـ (أواطرحوه أرضا) منكورة مهجورة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم اقبالة واحدة لايلتفت عنكم الى غيركم والمراد بالوجه الذات فلايشغله عنكم شاغل فى محبة وقوله ـ يخل ـ جواب الأمر وعطف عليه قوله (وتكونوا من بعده) من بعد يوسف والفراغ من أمره أوقتله أوطرحه (قوما صالحين) مع أبيكم يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أوصالحين فى أمر دنياكم فانه ينتظم لكم بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم) وهو يهوذا كما قيل وهو أحسنهم رأيا (لاتقتلوا يوسف) فما أعظم أمر القتل (وألقوه فى غيابة الجب) أى قعره

سمى به لغيبوبته عن العيون • والجب البئر الكبيرة التي لم تطو وسمى بذلك لأنه جب أى قطع ولم يطو وفى موضع هذا البئر خلاف لافائدة فى ذكره (يلتقطه بعض السيارة) يرفعه بعض الذين يسيرون فى الأرض (إن كنتم فاعلين) به شيأ أوفاعلين بمشورتى (قالوا) وقد عرفوا أن أباهم أحس منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه (يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف) أى لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وهذا قوله (وانا له لناصحون) يريدون بذلك استنزاله عن رأيه فى حفظه منهم ثم رغبوه بما فصلوه بقولهم (أرسله معنا غدا يرتع) يتسع فى أكل الفواكه ونحوها من الرتعة وهى الخصب والسعة (ويلعب) بالاستباق والانتقال والصيد والركض (وانا له لحافظون) من أن يناله أذى (قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به لشدة مفارقته وقلة صبرى عنه (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) لأنه رأى فى المنام أن الذئب قد شد على يوسف والأرض كانت مذابة (قالوا) والله (لئن أكله الذئب) والحال انا عصبة فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع (إنا إذن لخاسرون) ضعفاء وكيف نحفظ مواشينا من الذئب اذا أكل أخانا وأى خسارة أكبر من هذه وهذه الجملة جواب القسم أجزأت عن جواب الشرط • ثم انه أرسله معهم (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) أى عزموا على انقائه فى أسفل الجب • وهذه البئر كانت على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وجواب لما محذوف تقديره أقدموا على فعلهم وقد انفقت رواية أكثر المفسرين أنهم لما برزوا للبرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما أرادوا إلقاءه فى الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم وأدلوه فى البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى • وكان يهوذا يأتيه بالطعام والشراب • وقد أطال بعضهم وبعضهم اختصر • ونحن لانصدق إلا ما جاء به القرآن أوثبت بالسنة الصحيحة فان ثبت بها فبها والا فلا • ثم انه لما آوى الى الصخرة فى غيابة الجب بكى فجاءه جبريل عليه السلام بالوحى كما قال تعالى (وأوحينا اليه) أى ألهمناه كما فى قوله تعالى ـ وأوحينا الى أم موسى ـ (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) فألهم الله يوسف لتخبرن اخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لايشعرون بأنك أنت يوسف لعلو شأنك • والقصد من هذا الالهام تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وانه سيخلص مما هوفيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره • واعلم أنه لولا مايحس به عظماء الرجال فى نفوسهم من عزيمة صادقة وآمال قوية وأحاديث نفسية توقع الأمل فى قلوبهم مابلغوا مقاصدهم ولانالوا مآربهم • ومستحيل أن يقوم عظيم بأمر عظيم إلا بآمال نصب عينيه يرمى اليها وهواجس تقوم بنفسه تسليه على مصائبه وتشدد عزائمه وتقوى رغائبه والا فلا أعمال ولاعظماء وليس ذلك لهم وحيا وانما هو خواطر تسليهم والقلب مهبط التجلى الالهى ـ والله من ورائهم محيط ـ ثم قال تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) يقول الله جاؤا أباهم آخر النهار بعد ما طرحوا يوسف فى الجب مجترئين على الاعتذار الكاذب • وكان ذلك البكاء حين قربوا من منزل يعقوب وهم يصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج اليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يابنى هل أصابكم شئ فى غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أى نتسابق فى العدو أوفى الرمى (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) وقوله ـ بمؤمن ـ أى مصدق لنا (ولو كنا صادقين) لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف وقوله (بدم كذب) وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته * روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وغاب عنهم أن يشقوه فقال يعقوب كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك (قال) يعقوب (بل سولت) زينت أوسهلت (لكم أنفسكم أمرا) عظيما ارتكبتموه (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أوفصبر جميل أجمل وهو مالا شكوى فيه الى الخلق (والله المستعان) أستعينه (على) احتمال

(ماتصفون) من هلاك يوسف (وجاءت سيارة) رفقة يسيرون من مدين الى مصر فنزلوا قريبا من الجبّ بعد ثلاثة أيام من القائه فيه (فأرسلوا واردهم) الذى يتقدّم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء * يقال أدليت الدلو اذا أرسلتها فى البئر ودلوتها اذا أخرجتها فتعلق يوسف عليه السلام بالحبال وكان أحسن ما يكون من الغلمان * وروى أنه أعطى شطر الحسن وهذا قوله (فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام) نادى البشرى أى هذا أوانك فاحضرى كأنه يقول لأصحابه أبشروا * وفى قراءة – يابشراى – (هذا غلام) صاح بذلك لما دنا من أصحابه يبشرهم به (وأسروه) أى أخفى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه بل يختصّ به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة * وقيل ان يهوذا كان يأتى يوسف بالطعام كل يوم فأتاه يومئذ فلم يجده فاخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا آبق منا فاشتروه فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه وقوله (بضاعة) حال اى أخفوه حال كونه متاعا للتجارة . والبضاعة مابضع أى قطع من المال للتجارة (والله عليم بما يعملون) أى لم يخف عليه أسرار السيارة أوصنيع اخوة يوسف بأبيهم فسيجعل ذلك سببا لتحقيق رؤياه حتى يصير له مجد فى مصر (وشروه) يطلق شرى على البيع والشراء وكلاهما يصح هنا فيقال وباع يوسف اخوته (بثمن بخس) مبخوس ناقص عن القيمة نقصا فاحشا (دراهم) بدل من ثمن (معدودة) قليلة تعدّ عدّا ولاتوزن وزنا لأنهم كانوا يعدّون مادون الأربعين ويزنون الأربعين ومافوقها وكانت عشرين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بالثمن الطفيف . هذا اذا جعلنا شرى بمعنى باع ويصح أن يقال وشروه أى اشتراه الرفقة من اخوته وكانوا غير راغبين فيه لأنهم اعتقدوا أنه آبق . انتهى القسم الثانى من السورة

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

وَقالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللّٰهُ غالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ماجَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ * قالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ * وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ *

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال أصحاب الأخبار إن الذى اشترى يوسف من اخوته بعد أن أخرجه من الجب هو مالك بن ذعر وأصحابه الذين أخفوا أمره عن بقية السيارة ولما اشتروه انطلقوا به الى مصر وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لايابق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير وهو صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز * و يقال ان يوسف كان ابن ثلاث عشرة سنة او (١٧) سنة و يقول أهل الأخبار ان الملك كان يسمى (الريان بن العماليق) ولبث يوسف فى منزل العزيز ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهوابن ثلاثين على الرأى الثانى . وأعطى العلم والحكمة وهوابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهوابن (١٢٠) سنة . وأما ثمنه فقيل انه بيع بوزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وقيل لا بل هوعشرون دينارا وزوجا نعل وثوبان أبيضان وهذه أمور لادليل عليها البتة . قال تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) المسماة زليخا أو راعيل (أكرمى مثواه) اجعلى مقامه عندنا كريما أى حسنا أى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (أونتخذه ولدا) نتبناه وكان عقيما وقد تفرس فيه الرشد * يقول العلماء ﴿ أفرس الناس ثلاثة . عزيز مصر . وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر ﴾ . يقول الله وكما مكنا محبته فى قلب العزيز مكناه فى المنزلة بعد أن أنجيناه من الهلاك بكيد اخوته (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى أرض مصر وجعلناه ملكا ليتصرف فيها بالعدل (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) فهذا التمكين لنتيجتين (١) أن يقيم العدل و يدبر أمور الناس (٢) وأن يعلم معانى كتب الله وأحكامه وتعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها و يشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل بغلات مصر فى السنين السبع الآتى ذكرها وذلك بتأويل الرؤيا واستطلاع الامور قبل حلولها والاستعداد التام (والله غالب على أمره) لايرده شئ فى أمر يوسف وغيره وقد أراد اخوة يوسف أمرا ودبر الله غيره فغلبهم ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون (ولكن أكثر الناس لايعلمون) لطائف صنعه وخفايا لطفه وأن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير كما حصل ليوسف فى الجب وأن الخير والنصر الظاهرى قد يكون وراءه الندامة والحسرة كما نصر اخوة يوسف عليه السلام ورموه فى الجب ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم وأن مافعلوه به كان من أسباب ارتقائه (ولما بلغ أشده) منتهى استعداد قوته وهوسن الوقوف مابين الثلاثين والأربعين أوثمانى عشرة سنة أواحدى وعشرون أقوال لاطائل فى تحقيقها فلندعها (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم مع العمل أوحكما بين الناس (وعلما) أى علم تأويل الأحاديث (وكذلك نجزى المحسنين) أى وكما جزينا يوسف على احسانه فى عمله وتقواه فى عنفوان شبابه نجزى المحسنين فنتمم لهم أمورهم ونؤتيهم ما يستحقون من الكمال . ثم أخذ يذكر بعض الاحسان الذى نشأ عنه أنه جوزى بأنه أوتى حكما وعلما فقال (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) طلبت منه أن يفعل المعصية معها من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شئ ومنه الرائد والمراودة مفاعلة وفى ذكر الاسم الموصول

وتبيان أن يوسف فى بيتها ثم تغليق الأبواب واستعدادها له اعلاء لشان يوسف ومقام عظيم فى البلاغة فى هذه الآية لأن ذكر الاسم فضيحة وكونه فى بيتها أدعى الى موافقتها وتغليق الأبواب كل ذلك داع الى الموافقة فان المستتر لاسيما مع من يملك أمره يفعل مالايفعله الذى استبان فعله وظهر أمره وانكشف حاله وقد راوده من لايملك له أمرا ولايملك له نفعا ولاضرا . فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ماوصل اليه الأخيار وهذا هو قوله تعالى (وغلقت الأبواب) السبعة على ماقيل والتشديد مبالغة فى الاستيثاق (وقالت هيت لك) أى أقبل وبادر أوتهيأت وهى اسم فعل مبنى على الفتح أوعلى الكسر أوعلى الضم قراآت واللام فى ـ لك ـ للتبيين كقولك سقيا لك ومنهم من قرأها ـ هيت ـ بالفتح وكسر الهاء وهئت لك جئت من هاء يهىء اذا تهيأ ومعانى اسم الفعل المتقدم لايغيرها ضم ولافتح ولاكسر لأن هذه فتحات البناء فالمعنى اما تهيأت واما بادر فى جميع تلك اللغات (قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذا (إنه) أى الشأن (ربى أحسن مثواى) سيدى قطفير أحسن تعهدى إذ قال لك ـ أكرمى مثواه ـ فما جزاؤه أن أخونه فى أهله و يصح أن يكون الضمير لله أى انه خالقى واحسن منزلتى بأن عطف على قلب العزيز فلا أعصيه تعالى والأول أقرب (إنه لايفلح الظالمون) المجازون الحسن بالسيء (ولقد همت به) قصدت مخالطته والهمّ بالشئ قصده والعزم عليه (وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه) * حكى أبوحاتم عن أبى عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أى ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها . أقول وهذا المعنى هو الموافق لمساق الآية . ألا ترى أنه ـ قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى ـ وهذا نفسه هو البرهان من ربه وفى التعبير بلفظ الرب نكتة لطيفة وأىّ برهان أعظم من هذه الفضيلة وهى أن الانسان يجب أن يحفظ نعمة المربى والسيد سواء أكان خالقا أم مخلوقا فهذا هو البرهان وهذه صورته هذا ربى أحسن مثواى وكل من أحسن الى انسان وجب عليه تكبيره فتكون النتيجة هكذا . هذا العزيز يجب شكر نعمته ولاشكر لمن خان سيده . فهذا برهان منطقى دينى حسن . فالبرهان فى الآية مذكور فكيف كثرفيه الاختلاف ولاحاجة الى الاطالة فى هذا المقام كأن يقال إنه رأى صورة يعقوب ينهاه أوانه رأى معصما بلاعضد وعليه مكتوب مايفيد تحريم الزنا أوان البرهان هى النبوّة فقد علمت أنه لاحاجة اليه بعد وضوح الآيات . وتعجب كيف عبر بلفظ ـ ربّ ـ فى الأول ثم قال ـ برهان ربه ـ والمعرفة اذا أعيدت معرفة كانت عين الأول فالرّب الأول سيده والرّب الثانى هو عينه كأنه يقول ـ لولا أن رأى برهان احترام سيده وحفظ حقوقه لهمّ بها وهذا التفسير يعضده ماسبق ذكره وماسيأتى . وذلك أن كل من له تعلق بهذه الواقعة شهد ليوسف بالبراءة المرأة وزوجها والنسوة اللاتى قطعن أيديهن وذلك الحكيم قريبها الذى شهد على القميص والله أيضا شهد ببراءته من الذنب و يوسف برأ نفسه . أما المرأة فانها قالت ـ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ـ وقالت ـ الآن حصحص الحقّ ـ الى قوله ـ وانه لمن الصادقين ـ . وأما زوجها فقال ـ إنه من كيدكن إنّ كيدكنّ عظيم ـ الى قوله ـ إنك كنت من الخاطئين ـ . وأما الشاهد فهو ما قال الله ـ وشهد شاهد من أهلها ـ . وأما الله فقد قال ـ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ـ وأى اخلاص لمن همّ بالمرأة . وأما هو نفسه فانه قال ـ هى راودتنى عن نفسى ـ انتهى

ثم قال الله تعالى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) الخيانة (والفحشاء) الزنا (إنه من عبادنا المخلصين) الذين أخلصناهم لطاعتنا (واستبقا الباب) أى تسابقا الى الباب فحذف الجار أوضمن الفعل معنى الابتدار أى ابتدرا الباب . فأما يوسف فقد فرّ منها ليخرج . وأما هى فأسرعت وراءه لتمنعه الخروج واجتذبته من ورائه فاقدّ قميصه . والقدّ الشقّ طولا . والقط الشقّ عرضا وهذا قوله تعالى (وقدّت قميصه من دبر) وقوله (وألفيا سيدها) أى وصادفا زوجها (لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوأ إلا أن

يسجن

يسجن أوعذاب أليم) فهي بذلك ضربت طيرين بحجر واحد فهي من جهة تبرئ نفسها ومن جهة تخيف يوسف حتى يطاوعها فلا تفترى عليه بعد ذلك وما نافية أو استفهامية أى أى شئ جزاؤه إلا السجن (قال هي راودتني عن نفسي) طالبتني بالمؤاتاة (وشهد شاهد من أهلها) وهو قريب لها كان حكيما عاقلا والشهادة على لسان حكيم من أهليا ألزم . والمعنى وحكم حاكم من أهلها فقال (إن كان قيصه قد من قبل) أى من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين) لأنه يدل على أنها قدت قيصه من قدام بالدفع عن نفسها (وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته (فلما رأى قطفير أو الشاهد (قيصه قد من دبر) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها (قال إنه من كيدكن) أى من قولك ـ ماجزاء من أراد باهلك سوأ الخ ـ وكذلك الاحتيال على الرجال (إن كيدكن) معاشر النساء (عظيم) لأنهن ألطف حيلة وأعظم كيدا فيغلبن الرجال * قال بعض العلماء ﴿ إنى أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لأن الله تعالى قال ـ إن كيدكن عظيم ـ وقال ـ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ـ ﴾ * وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد ان هذا الشاهد لم يكن صبيا بل كان رجلا حكيما * وحكى أيضا انه ابن عم المرأة وهذا الرأى وجيه فهو أولى من ذكر أنه صبى (يوسف أعرض عن هذا) أى يايوسف اترك هذا الحديث ولاتذكره لئلا يفشو بين الناس أولاتكترث بهذا الأمر ثم التفت الى المرأة وقال (واستغفرى لذنبك ياراعيل (إنك كنت من الخاطئين) من القوم المذنبين من خطئ اذا أذنب متعمدا وفيه تغليب المذكر على المؤنث وخطؤها بخيانة زوجها ورميها يوسف بالتهمة وهو برىء . وفى هذا دليل على أن العزيز حليم قليل الغيرة إذ لم يزد على ذلك مع امرأته ولذلك كثرت الاشاعة حتى اتهمها نساء المدينة بانها راودته عن نفسه (وقال نسوة) اسم لجمع امرأة ولم يؤنث فعله لأنه بهذا الاعتبار تأنيث غير حقيقى أى أشاع جماعة من النساء وكن خمسا من أشراف مصر فى مدينة ﴿عين شمس﴾ التى كانت عامرة إذ ذاك (امرأة العزيز) زليخا (تراود فتاها عن نفسه) أى عبدها الكنعانى والفتى معناه الشاب حديث السن (قد شغفها) أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها أوشعفها من شعف البعير بالقطران فأحرقه (إنا لنراها فى ضلال مبين) فى خطأ بين ظاهر (فلما سمعت بمكرهن) وسمى مكرا لأنها أفشت اليهن أمرها واستكتمتهن سرها فأفشينه عليها (أرسلت اليهن) تدعوهن وقيل كانوا نحو أربعين (وأعتدت لهن متكأ) وهيأت لهن مايتكئن عليه من نمارق ومساند و يطلق المتكأ على نفس الطعام فان كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد بجلس ويتكئ عليها فيكون الطعام متكأ على سبيل المجاز . وسواء أكان المتكا هو ما يتكأ عليه عند الطعام أوالشراب أونفس الطعام فان المآل واحد وأن امرأة العزيز أعدت لهن الطعام وفيه اللحم طبعا والفاكهة (وآتت كل واحدة منهن سكينا) كما هى العادة المتبعة الآن فى الطبقة العليا فى مصر وفى المدارس تقليدا للأوروبيين وانتظاما فى سلك المتمدينين الناقلين لها عن قدمائنا المصريين فان الموائد اليوم عند هؤلاء لابد فيها من سكين لقطع اللحم وأخرى لقطع الفاكهة . فلما أخذن يأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها انتهزت تلك الفرصة (وقالت اخرج عليهن) يايوسف وهو لايعصى لها أمرا بعد أن زينته وخبأته فى مكان آخر (فلما رأينه) أى رأى النسوة يوسف (أكبرنه) أعظمنه ودهشن عند رؤيته وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وقد أعطى يوسف شطر الحسن * ويقال معنى ـ أكبرنه ـ حضن يقال أكبرت المرأة حاضت والهاء للسكت لامفعول لأن الفعل لازم واذا صح هذا المعنى يكون ذلك لفزعهن وما هالهن من أمر يوسف . وهذا المعنى هو الذى قاله أبو الطيب

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

واعلم أن اعظام النساء ليوسف واجلاله لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات

وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وعدم التفات الى الشهوات من النساء والمطاعم . فاذا كان الجمال مقرونا بتلك الصفات حق لهن أن يهبنه (وقطعن أيديهن) وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج ولم يحسسن بالألم لفرط دهشتهن فما أحسسن إلا بالدم (وقلن) أي النسوة (حاش لله ماهذا بشرا) أي معاذ الله أن يكون هذا بشرا وكيف يكون بشرا والجمال الفائق الذي فضل كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء يصحبه عفة ومكارم أخلاق وحفظ شرف وحسن معاشرة ومقابلة الحسنة بمثلها وهذه صفات الملائكة المنزهين عن شهوات أهل الأرض (إن هذا إلا ملك كريم) وحينئذ وصلت زليخا الى ما كانت تقصده من دعوتهن للطعام فلما رأت ذلك (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) أي هذا هو العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه فلما رأيتن عرفتن (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أي امتنع فقال النسوة له أطع مولاتك فقالت زليخا (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين) أي ما آمره به ويسجنن يحبسن وقوله ـ من الصاغرين ـ أي السراق والسفاك والاباق كما سرق قلبي وسفك دمي بالفراق وأبق مني فلايهنأ ليوسف طعام ولا شراب كما منعني كل ذلك * يقال صغر كفرح صغرا وصغارا ذل فأما صغر كعظم فهو ضد كبر انتهى . وهنا لطيفتان

﴿ اللطيفة الأولى في قوله تعالى ـ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن الخ ﴾

اعلم أن هذه القصة لم تذكر لنعرف جمال يوسف أولنفهم أن نساء مصر قطعن أيديهن فحسب كلا وانما هذه الآيات ترمى لمعان أعلى ومراق أبهى وكمالات أتم وعظات أرقى ترمى الى الاعتبار والاتعاظ أخلاقا وعلما . إن الجمال محبوب والناس متى غفلوا عن الجمال كانوا جهالا . إن جمال الوجوه وحسن الفتيات وبهجة الفتيان يعرفها العام والخاص وجمال الرجال والنساء معروف مشهور . إن الناس لايفقهون من الجمال إلا ماذكرهنا وأضرابه وهوشائع بين العامة وسائر الخاصة . ولكن هناك جمال أجل وحسن أعلى وبهجة أرقى قد شرحناها فيما مضى في هذا الكتاب وهوجمال هذه الدنيا وبهجتها بل جمال الله الذي تجلى في وجوه السموات والأرضين ذلك الجمال الذي حجب عن الجهال وتمتع به أكابرالحكماء والخواص وترنموا به ذلك الجمال البديع في بهجة هذه الدنيا . واذا كان النساء قد غابت عقولهن وقطعن أيديهن لرؤية يوسف وهو مخلوق في العالم فما بالك بمن يحلون رموز هذا العالم ويقفون على بعض أسراره وعجائبه ويرون ماتقطع دونه الأعناق وتقف حيرى دونه الألباب . أفليسوا على حق اذا هم قطعوا أعمارهم في عجائبه وضيعوا ثروتهم في التمتع به وبذلوا راحتهم في سبيل درسه أولئك هم العاشقون حقا . أولئك هم المخلصون صدقا . أولئك هم الذين نظروا الجمال . أولئك هم الذين فازوا بالوصال . أولئك هم الرجال . هم الذين يقطعون قلوبهم ويمزقون أجسامهم بكثرة الفكر والعمل فلا يكتفون بتقطيع الأيدي لأن هذا للحب الأدنى وأين الأدنى من الأعلى . وهل أنبئك بما رأيت الليلة في المنام حين وصلت الى هذا المقام أذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للفضلاء وترويحا من العناء ومسامرة للأجلاء

تذكرت هذه الليلة ما اتفق لي منذ نحو ١٢ سنة إذ زرت صديقا لي بحلوان وهو عالم بعلم النبات مجد في تحصيله دائب على جمع كتبه يدرسه للتلاميذ ويعلمه لأبناء النيل فأخذني الى حجرة خاصة فيها آلة لينظر بها أدق الأشياء وأصغر الذرات بطريق التكبير وهي آلة زجاجية على هيئة خاصة بطريق علم المناظر قبل وجهها بالماء بلا ووضعها وضعا خاصا فنظرت بركة كبيرة فيها ماء غزير مملوءة حشائش وحيوانات مختلفة عجيبة الشكل وبعضها يتناول طعامه بعجلة يديرها دورات سريعة وفي خلال دوراتها تلتقط له بعض القوت فيغتذي به وهناك أشجار عظيمة لها فروع عجيبة . كل ذلك في رطوبة على وجه الزجاجة . هذا ماأحضره الخيال الليلة في منامي وهذه ليست رؤيا وانما هي من الصور التي تحضرها المخيلة من المخزون فيها كما تقدم في

اقسام

أقسام الرؤيا فى أوّل السورة . ولعلّ المخيلة لما أحضرت هذه الصورة التى شاهدتها فى حلوان مع ذلك الصديق العالم النباتى كانت مفكرة فى الجمال وكأنها أحضرتها لتكون درسا لأكتبه فى هذا المقام من دروس الجمال الطبيعى فى هذا العالم الذى خبأه الله عن الجاهلين وأبرزه اليوم فى هذا الكتاب وفى غيره للمسلمين ليحظوا به . وإياك أيها الفطن أن تقول ان هذا تمحل فى القول فانك ترى من نوع الانسان من يغرمون بعلومهم الى درجة الجنون . ومنهم من يموتون من جدّهم فى علومهم . لافرق فى ذلك بين العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والدينية وغيرها ومستحيل أن يكون ذلك إلا بالعشق والغرام فهذا غرام وغرام وهيام وأى هيام فليكن غرام المسلمين بالعلوم اليوم وليعلموا أن هذه السورة انما جاءت لأمثال هذه المعانى التى أعدّت لقوم يعلمون وان لم يكن العلم عن حبّ فليس بعلم

﴿ رأى أفلاطون فى العلم ﴾

قال أفلاطون إنّ رئيس الجمهورية يجب عليه أن يفتح لطبقة الأمراء ورؤساء الأجناد باب اللذة العقلية ولايدعهم قاصرين على اللذة الشهوية والغضبية فهاتان اللذتان دائمتان مع الانسان فهو بطبعه ميال للطعام وللشراب وللاختلاط الجنسى ولغلبة الأعداء ولكنه لايفتح له باب حبّ العلم والغرام به إلا اذا زينت له طرقه واطلع على جماله وعرف بهجته فذلك هو الدواء الوحيد لداء الرشوة . فأما الاقتصار على تينك الشهوتين فانه يوجب أن يكون الأمراء مغرمين بمشاركة الأمّة فى أموالها وأعراضها . فأما اذا فتح باب العلم فانهم يجدون لذة جديدة يكتفون بها عن ازدياد لذة الوقاع والطعام

﴿ اللطيفة الثانية جمال يوسف فى علم الحديث وفى علم الموسيقى والجمال ﴾

قال عكرمة كان فضل يوسف على الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم * وروى أبوسعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ رأيت ليلة أسرى بى الى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر ﴾ ذكره البغوى بغير سند . وقال اسحق بن أبى فروة كان يوسف اذا سار فى أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران . هذا ماعثرت عليه من الحديث فى حسن يوسف . أقول تفكر أيها الذكى فى حسن يوسف ولم ذكر فى هذه السورة . إن القرآن لم ينزل لمجرّد قراءتها . كلا . ولا لاعرابها ولا لمعرفة القصة فحسب وانما جاء للاتعاظ بها . وقد قدّمنا فى أوّل تفسيرها بعض ماتشير اليه من المعانى . فأما الحسن فهذا وقته فلنشر له بعض الاشارة لتكتفى بالقليل عن الكثير فاقول

أنظر كيف ذكر القرآن جمال يوسف وجعله ﷺ كالقمر ليلة البدر وحسن يوسف ماهو إلا بعض مافى هذا العالم من الجمال الذى يجب النظر فيه والبحث عنه والتفكر فيه . واذا كان قصص يوسف أحسن القصص وجماله احسن الجمال فقصة الجمال العام والحسن التام فى نظام السموات والأرض أجمل قصصا وأحسن أملا وخير ثوابا وأعظم بهجة . فالنظر فى الجمال الجزئى يدعو للنظر فى الجمال الكلى

إن هذا العالم الذى نعيش فيه عند علماء الفلك والموسيقى والطبيعة كله جمال فى جمال وليس هذا المقام بمتسع لذلك فانك اذا أردت أن تدرس جمال العالم فانك تحتاج الى العلوم الرياضية كلها والطبيعية . ولكن لأذكر لك مايثلج صدرك فأقول . إن جمال الوجه فى تناسب أربعة أشياء وهى الفم والأنف والعينان والخدان . فهذه ان تناسبت كان الجمال وان تنافرت لم يكن جمال والتناسب والتنافر بحساب دقيق . اعلم أن الشبر هو مقياس لجميع أعضاء الانسان . فقالوا إن طول عينه ثمن شبره وطول أنفه ربع شبره . وكذلك شقّ فمه وشفتيه كل منهما ربع شبره فان زاد أونقص لم يكن جمال وكان القبح على نسبة التفاوت . ويقولون انه اذا فتح يديه كالطائر كان مابين أصابع يده الى مرفقه يساوى مقدار ما بين مرفقه الى ترقوته يساوى مقدار مابين ترقوته الى مرفقه اليسرى يساوى ما بين مرفقه اليسرى وأطراف

أصابعها فكل واحد منها شبران . وانما ذكرت لك ذلك لتعرف أن الشبر هو المقياس سواء أكان بأجزائه كما فى الفم والأنف أو بمضاعفاته كما هنا ولأقتصر لك على ذلك فى هذا المثال فقد كفاك وأفادك

واعلم أن الجمال الذى رأيته فى الأجسام لجسم يوسف الذى نحن بصدده التابع للحساب هو بعينه الذى يكون فى الكلام فان الشعر والموسيقى مبنيان على المتحركات والسواكن . ولو أنك نظرت بحر الطويل لوجدت اللذة فى سماعه راجعة الى حسن النسبة بين متحركاته وسواكنه . وأنت تعلم أن فعولن مفاعيلن أربع مرات ٤٨ حرفا اذا كان غير منزحف ٢٨ منها متحركة وعشرون حرفا ساكنة وهى منقسمة ﴿أربعة أقسام﴾

(١) فنقول ٧ : ٥ : ١٤ : ١٠ و١٤ : ١٠ : ٢٨ : ٢٠

(٢) فهذه نسبة هندسية أسبنا متحركات ربع البيت الى سواكنه فكانت كنسبة متحركات نصف البيت الى سواكنه وهذه منسوبة الى متحركات وسواكن البيت كله وهذا ظاهر للأذكياء العالمين بالشعر وبالحساب . فهذا جمال تشهده الأذنان لأنها تزن الحركات والسكنات فتنفر من غير المتناسب وتستلذ بالمتناسب كما فعلت العين فى الجمال سواء بسواء لافرق بين جمال يوسف ونغمات الأوتار فكما تعرف أعيننا مقاييس الأعضاء المتقدمة وتحكم ولاعلم لنا بأسباب الحكم هكذا تحكم آذاننا فى نغمات الأوتار وعجائبها

(٣) ومثل ذلك نظر العقل الذى لايحظى به إلا علماء الفلك الذين يفكرون فى دورات النجوم والشموس والأقمار ويرون أن النسب محفوظة بحيث إنك لو رقبت السنين القمرية ولاحظت البسيطة والكبيسة لوجدتها فى كل ثلاثين سنة (١٩) سنة بسيطة و١١ سنة كبيسة والدور عندهم ثلاثون فى جميع الدهور والعصور والدور الكبير (٢١٠) أى ٧ فى ٣٠ ويمكننا أن نفعل هنا ما فعلناه فى بيت الشعر سواء بسواء فيرى هناك انتظام تام وأدوار متتالية تقاس كما تقاس النغمات وكما يقاس الفم والأنف والعين بالشبر

(٤) وهكذا نغمات الطير جارية على حساب الحركات . فاذا سمعت الفاختة وهى تترنم ككوه كوه ككوكو علمت أن هذه أوزان بحر الطويل فعولن مفاعيلن . فاذا سجعت أربع مرات فقد أتت ببحر الطويل وقد عرفت وزنه وبناء عليه أصبح جمال يوسف وعزة وليلى يشارك نغمات الأوتار ونظم الأشعار وغناء الأطيار فى أن كلا مبنى على نسب وأن الجمال راجع للنسب فلافرق بين الشموس فى مداراتها والطيور فى أشجارها والشعراء فى أشعارها وجماعة المغنين فى ألحانها والوجوه فى أبهج أنوارها

إن الجهلاء يسمعون قصة يوسف فيفرحون وهم عن الجمال معرضون وما قصها الله إلا للاعتبار بما فيها ومن أهمه النظر فى الجمال فى الكواكب والطبائع والأشعار والأشجار ولأقتصر لك على هذا لئلا يتسع بنا المقال فى ذكر الجمال فى المزارع وكيف كانت نسب أوراقها وأزهارها بمقياس كما كان تركيب عناصرها بميزان وهو نفس الجمال فالجمال فى جميع العالم علويه وسفليه وليس يدركه إلا العالمون الذين للرياضيات والطبيعيات والحكمة دارسون . فان كنت جاهلا فلاتتعد يوسف وما أعطى من جمال وان كنت حكيما فأدر نظرك فى العالم كله بالتفصيل تارة وتارة بالاجمال . هنالك تعلم ماهو الجمال . إن العالم كله جمال ولكن أكثر الناس لايدركون ذلك الجمال

﴿رمز النبوة بحسن يوسف لجمال العالم وايماؤها الى ماقررناه﴾

لايعزب عليك أن الأنبياء يريدون العلم والحكمة وشوق الناس الى الجمال العام الذى مثلنا له بما قدمناه لترقى أممهم وتسعد حالهم . فاذا سمعت أن يوسف أعطى شطر الحسن فياليت شعرى أين منتهاه . أما منتهاه فتجده فى أمثال ما قدمناه . فالعالم الأرضى ليس له من الحسن إلا بمقدار . ولعلك تقول فأين نولى وجهنا حتى نعرف ذلك الجمال . أقول اقرأ الحديث فانظر كيف ذكر الاسراء والسماء والقمر وفضله

على

على النجوم • وكأن هذا التشبيه يرمز به الى المنحى الذى ينحوه الناس فى قصد الجمال أفلا تعجب كيف انتقل من حسن الأجسام الزائلة الى المحاسن العالية لترتقى فى الأسباب ولندخل البيت من بابه وهاأنا ذا قد فتحت لك الباب فلج فيه وذلك لا يكون إلا بالعلوم الطبيعية والفلكية • فاذا ذكرت النجوم والقمر فى باب التشبيه فى حسن يوسف فذلك ليتأمل الناس ذلك الجمال • ومعلوم أن المشبه أقل من المشبه به فكأن النبوّة تومئ الى أنه يجب البحث فى الجمال الأكمل وهو المشبه به وهو ما أدخلتك فى بابه فان كنت من أهله فبها ونعمت والا فقل للمسلمين اقرؤا العلوم فهى الجمال الذى يرمز له خاتم الأنبياء • واذا أعطى يوسف شطر الحسن ففى العالم الجمال الأكمل والحسن الأوفر والبهجة العليا والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وحسبنا الله ونعم الوكيل • انتهى القسم الثالث

(الْقِسْمُ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ)

قَضِيَّةُ السِّجْنِ

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ * وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا

وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ

اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ
يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ
شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ
حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا
وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى
إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ
السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ
مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ
كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ
قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي
دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ
يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ
مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا
لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ
عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي
أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * إِرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ
سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى
يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى

تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا ءَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (قال ربّ السجن) بالرفع والنصب على المصدر فى الثانى (أحبّ الىّ مما يدعوننى اليه) آثر عندى من مؤاتاتها بالنسبة للعاقبة والا فهذا أعزّ مشتهيات النفس * ويقال إن من المؤثرات فى دخوله السجن باطنا هذا القول ولذلك ردّ رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر وأمره أن يسأل الله العافية . واعلم أن هذا القول من علمائنا قد قرّره علماء هذا العصر فانهم جزموا بأن تصورات النفس والأقوال التى ينطق بها المرء فى سرّه وجهره لها آثار فى عواقبه . ويقولون ان حصول الصور فى العقل من حسنة وسيئة لها أثر فى الأفعال والأحوال الظاهرة وضربوا لذلك مثلا بأن اعتقاد الانسان بأنه من الملوك أو التجار أو العلماء أو الأشراف تدعوه الى ان يتزيا بزيهم ويسير بسيرتهم ويتجمل بملابسهم . فهكذا الأحوال العارضة عليه من الخارج ومن القضاء والقدر تكون مناسبة لما فى عقله موافقة لما ينطق به من الآراء والأحوال والأعمال . وهذا القول وان كان خطابيا لايقينيا مناسب لهذا المقام . ثم قال (وإلا تصرف عنى كيدهنّ) فى تحسين ذلك (أصب اليهنّ) أمل الى اجابتهنّ . ويصح أن يقال أصب أى أشتاق من الصبابة وهو الشوق (وأكن من الجاهلين) من السفهاء بارتكاب مايدعوننى اليه فان الحكيم لايفعل القبيح (فاستجاب له ربه) أى فأجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهنّ إنه هو السميع) لدعاء يوسف وغيره (العليم) بأحوالهم وما

بصلحهم

يصلحهم (ثم بدا لهم) للعزيز وأصحابه فى الرأى (من بعد ماراأوا الآيات) الدلائل الدالة على براءته كقد القميص وظهور براءته وشهادة شاهد من أهلها وفاعل بدا مضمر مفسر بقوله (ليسجننه حتى حين) وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبرانى قد فضحنى عند الناس يخبرهم أنى قدراودته عن نفسه فاما أن تاذن لى فأخرج وأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فرأى حبسه الى أن تنقطع مقالة الناس و بعضهم قال انها سبع سنين و بعضهم قال خمس ولاحاجة الى تحقيق ذلك (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة ادخال يوسف (قال أحدهما) أى شرابيه (إنى أرانى) أى فى المنام (أعصر خمرا) أى عنبا سمى العنب بما يؤول اليه والخمر اسم للعنب بلغة عمان فلاحاجة إذن للمجاز (وقال الآخر) أى خبازه (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) تنهش منه (نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون تاويل الرؤيا و يحسنون الى أهل السجن فأحسن الينا بتأويل ما رأينا (قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) فأبين لكما نوعه وكيفيته (ذلكما) أى التأويل (مما علمنى ربى) بالالهام والوحى وليس بطريق الكهانة والعرافة والتنجيم وغيرها وعلل ذلك فقال (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ثم أبان أصل هدايته وعلى أى دين هو فقال (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) فأنا من بيت النبوة فاستمعا الىّ * وقد قال العلماء ﴿ يجوز لحامل العلم أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه ﴾ ثم قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ) أى شئ كان (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) وعلى سائر الناس ببعثنا لارشادهم (ولكنّ أكثر الناس) المبعوث اليهم (لايشكرون) هذا الفضل فيشركون بالله ولاينتهون وانما قال هذه الجمل لاستمالتهما للدين الصحيح ثم أخذ يشرح ماقصده من هذه المقدّمات الدينية فقال (ياصاحبى السجن) ياساكنيه أوياصاحبىّ فيه (أأرباب متفرّقون) شتى متعدّدة يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا (خير) لكما أم يكون لكما ربّ واحد لايغالب ولايشارك فى الربوبية وهذا قوله (أم الله الواحد القهار) والأرباب المتفرّقون هى الأصنام والأوثان ثم خاطبهما ومن كان على دينهما من المصريين لأنهم كانوا يقدّسون أصناما كثيرة وتماثيل بعد أن كانوا قديما يعبدون إلها واحدا (ماتعبدون) يا أهل مصر (من دونه) من دون الله (إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى سميتم مالايستحقّ الالوهية آلهة ثم أخذتم تعبدونها فكأنكم لاتعبدون إلا أسماء لامسميات لها وقوله ـ سميتموها ـ سميتم بها تقول سميته زيدا وسميته بزيد (ما أنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (إن الحكم) فى أمر العبادة والدين (إلا لله) ثم بين ماحكم به فقال (أمر) على لسان أنبيائه (ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى قامت عليه البراهين (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) فيخبطون فى جهالاتهم وهذه المقالة تدرج فيها أوّلا من رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة من طريق الخطابة ثم برهن على أن الآلهة معبوداتهم أسماء لامسميات لها ثم بين الدين الحقّ . ولما فرغ من المهم وهو الدعوة الى الدين الحق الذى هو مقصوده شرع يعبر الرؤيا التى هى مقصودتهما بالذات وهو عدّها وسيلة للدين كما رأيت فقال (ياصاحبى السجن أما أحدكما) يريد الشرابى (فيسقى ربه) سيده (خمرا) أى يعود الى عمله (وأما الآخر) أى الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) وقد كانت رؤيا الشرابى أنه قال إنى رأيت كأنى فى بستان فاذا بأصل شجرة عنب عليها ثلاثة عناقيد فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته . وقال الخباز رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة فاذا سباع الطير تنهش منها . فقال للأوّل مارأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده . وأما العناقيد الثلاثة فانه ثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ماكنت عليه . وقال للثانى مارأيت من السلال فهى ثلاثة أيام ثم تخرج فتصلب . ولما سمع الخباز صلبه قال مارأيت شيأ فقال يوسف (قضى

الأمر الذى فيه تستفتيان) أى قطع وتمّ ماتستفتيان فيه وهو مآل أمركما وهو هلاك أحدهما ونجاة الآخر (وقال) يوسف (للذى ظنّ أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك) اذكر حالى عند الملك كى يخلصنى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك فان صرف الوسوسة الى ذلك الرجل الساقى حتى نسى ذكر يوسف أولى من صرفها الى يوسف (فلبث فى السجن بضع سنين) البضع مابين الثلاث الى التسع وهى هنا سبع سنين تضم الى الخمس الأولى فتكون اثنتى عشرة سنة * قال كعب قال جبريل ليوسف عليه السلام ﴿ يقول الله عزّ وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك الى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمى مثلك ﴾ قالوا فلما انقضت سبع السنين رأى ملك مصر الأكبر رؤيا هالته فانه رأى سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن فى بطونهنّ ولم ير منهنّ شئ ولم يتبين على العجاف منها شئ ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهنّ ولم يبق من نضرتها شئ فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقصّ عليهم رؤياه التى رآها فهذا قوله تعالى (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف) بقرات هالكات من الهزال (وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) وذلك خطاب للأشراف والأعيان من العلماء والحكماء . ثم أخذ يستفتيهم فقال (يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى) يا أيها الأشراف أخبرونى بتأويل رؤياى (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى ان كنتم تحسنون عبارة الرؤيا فتنقلونها من الصور التى صوّرها الخيال الى المعانى الحقيقية التى هى مثالها * يقال عبرت الرؤيا عبارة كما يقال عبرتها تعبيرا ومعبر الرؤيا ينتقل من ظاهرها الى باطنها ليستخرج معناها (قالوا) أى الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (أضغاث أحلام) أى أخلاط مشتبهة واحدها ضغث والضغث فى الأصل الحزمة الحاوية أنواع الحشيش فاستعير للرؤيا الكاذبة وانما كان الجمع لأجل المبالغة كما تقول العرب فلان يركب الخيل (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى المنامات الباطلة فانها ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصحيحة (وقال الذى نجا منهما) وهو الشرابى (وادّكر بعد أمّة) وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أى مدّة طويلة * وفى قراءة - بعد أمه - كنعمة وزنا ومعنى أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة (أنا أنبئكم بتأويله) أنا أخبركم به عمن عنده علمه (فارسلون) أى فابعثون الى يوسف لأسأله فأرسلوه اليه فأتاه فقال (يوسف) أى يا يوسف (الصدّيق) أيها البليغ فى الصدق مما جرّبته فى تأويل رؤياى ورؤيا صاحبى (أفتنا فى سبع بقرات) الى قوله (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك وأتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانتك فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون سبع سنين دأبا) على عادتكم المستمرّة أى دائبين منصوب على الحال أو تدأبون دأبا والجملة حال أيضا وهو بوزن سبب ونصر يقال دأب فى العمل دأبا (فما حصدتم فذروه فى سنبله) لئلا يأكله السوس (إلا قليلا مما تأكلون) فى تلك السنين أى ادرسوا قليلا من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة وهو وقت السنين المجدبة (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يفنين (ماقدّمتم لهنّ) أى يأكل أهلهنّ ما ادّخرتم لأجلهنّ (إلا قليلا مما تحصنون) تحرزون لبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) يمطرون من الغيث أو يغاثون من القحط وهو من الغوث (وفيه يعصرون) مايعصر كالعنب فيكون الخمر والزيتون فيكون الزيت والسمسم فيكون الدهن يراد بذلك كثرة النعم وعموم الخصب فى الزرع والثمار (وقال الملك ائتونى به) بعد ماجاءه الرسول بالتعبير (فلما جاءه الرسول) ليخرجه (قال ارجع الى ربك)

أى الملك (فاسأله مابال النسوة) أى حال النسوة (اللاتى قطعن أيديهن) فقد ثبت يوسف وتأنى فى اجابة الملك وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءته حتى لايرميه الحاسدون بما يضرّ سمعته عنـد الملك و يستدلون بمكثه فى السجن سنين طويلة • وهذا يفيد أن الانسان يجب عليه اتقاء التهم ونفيها * وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولوكنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ـ ارجع الى ربك ـ ولوكنت مكانه ولبثت فى السجن مالبثت لأسرعت الاجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر إنه كان حليما ذا أناة ﴾

ومن حسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ماصنعت به وتسببت فيه من السجن والعـذاب ولم يذكر إلا ـ اللاتى قطعن أيديهنّ ـ وقال فيهنّ لافيها ـ إنّ كيدهنّ عظيم ـ لايعلمه إلا الله وهو يجازيهنّ عليه فرجع الرسول الى الملك برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهنّ ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهنّ (ماخطبكنّ) ما شأنكنّ (إذ راودتنّ يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا اليكنّ (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ماعلمنا عليه من سوء) من ذنب (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقرّ (أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) فى قوله ـ هى راودتنى عن نفسى ـ ثم رجع الرسول الى يوسف وأخبره بكلام النسوة واقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) أى امتناعى من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم) العزيز (أنى لم أخنه بالغيب) بظهر الغيب فى حرمته وهوحال من الهاء أى لم أخنه وهو غائب عنى أوليعلم الملك أنى لم أخن العزيز الخ (وأنّ الله لايهدى كيد الخائنين) أى وليعلم أن الله الخ تعريض بامرأته فى خيانتها أمانة زوجها ويجوز أن يكون هذا من كلام امرأة العزيز أيضا إذ قالت ـ الآن حصحص الحقّ ـ ثم شرعت تقول ـ ذلك ليعـلم أنى لم أخنـه بالغيب ـ أى ليعلم يوسف أنى لم أخنـه فى حال غيبته وهو فى السجن ولم أكذب عليـه فلم أفعل فى غيبته مافعلت فى حضوره وقوله ـ وأنّ الله لايهدى كيدالخائنين ـ على هذا بمعنى انى لما أقدمت على هذا الكيد والمكر قد افتضحت لأن الله لاينفذه ولايسدّده • ثم أخذ يتواضع ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين أن هذه الأمانة انما هى من الله فقال (وما أبرئ نفسى) من الزلل ولست أشهد لها بالبراءة التامّة ولا أزكيها فى جميع الأحوال (إنّ النفس لأمّارة بالسوء) أراد به جنس السوء لما فيها من الشهوات (إلا ما رحم ربى) أى إلا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة ويصح أن يكون هذا من كلام المرأة وهو أظهر كأنها قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بالصدق عند السؤال ـ وما أبرئ نفسى ـ مع ذلك من الخيانة فانى خنته كما هو معروف ثم اعتذرت بان كل نفس أمّارة بالسوء إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (إنّ ربى غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحته مما ارتكبت لأن الله غفور لذنوب عباده ورحيم بهم • هذه الأخلاق من عفة وصبر وأمانة وعلم غزير واناة جلت الملك أن يستخلصه لنفسه أى يجعله خالصا له لايشاركه فيه سواه وهـذا قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) فلما جاء الرسول الى يوسف وقال له أجب الملك أجابه وتنظف ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك ودخل عليه وتحدّث معه (فلما كلمه) وشاهد منه الرشد والدهاء (قال إنك اليوم لدينا مكين) ذومكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل شئ * ويقال إنه كان يحسن العربية والعبرية فكلمه بهما فضلا عن لغات أخرى وقال له العربية لسان عمى اسماعيل والعبرية لسان آبائى وطلب منـه الملك أن يسمعه رؤياه فاسمعها له وذكر له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوّض اليه الأمر وتوفى قطفير فولاه مكانه وزوّجـه زليخا فوجدها عذراء وولد له منها افرائيم وميشا (قال اجعلنى على خزائن الأرض) ولنى أمر أرض مصر (إنى حفيظ) لها ممن لايستحقها (عليم) بوجوه التصرّف فيها وهذا دليل على أن من قدر على المنفعة العامّة فليتولها وليستظهر بذى الجاه

ولو كان كافرا لأن الخلق عباد الله وأقربهم اليه أنفعهم له والنافعون للناس أشبه بالملائكة القائمين بأمره فى تدبير خلقه (وكذلك) ومثل ذلك التمكين الظاهر بأن أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه فى عين الملك (مكنا ليوسف فى الأرض) أرض مصر (يتبوأ منها حيث يشاء) أى كل مكان أراد لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه (نصيب برحمتنا من نشاء) فى الدنيا (ولانضيع أجر المحسنين) الذين يحسنون أعمالهم وأخلاقهم ويحسنون الى الناس فنجعل الناس يودونهم ويحبونهم ويملكونهم ونرفعهم على الجميع فى الدنيا كما فى أمر يوسف وهذا كقوله تعالى ــ وآتيناه أجره فى الدنيا ــ وكقوله تعالى ــ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ــ أى يلق المحبة لهم فى القلوب فيوسف لم يجعله الملك على خزائن الأرض إلا لعلمه وحكمته وكل من لم يكن أهلا للأعمال العظيمة فى الدنيا يحرم منها ولذلك نرى المسلمين قد غض كثير منهم الطرف عن احسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم وجهلوا أكثر ماينفع الناس ولم يحسنوا الصناعات إلا قليلا وفاز بها الافرنج فوفى الله بعدله المسلمين حظهم من التأخر والفرنجة حظهم من التقدم فانه لايضيع أجر المحسنين لأعمالهم فتعجب • ولما كان المقام مقام دين وحث على الآخرة عطف عليه قوله (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا) أى أفضل من أجر الدنيا (وكانوا يتقون) مانهى الله عنه من الشرك والذنوب فان الأجر فى كل شئ بحسبه ويوسف ينال فى الآخرة أفضل مما أوتى فى الدنيا • ولقد جاء فى آية أخرى فى حق بعض الأنبياء ــ وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ــ

* يقال ان الملك لما استوزره أقام العدل وضبط الغلات حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشام وتوجه اليه الناس • ولقد تغالى أصحاب القصص فقالوا إنه باع أولا بالدراهم والدنانير ثم بالحلى فبالدواب فبالضياع والعقار ثم برقابهم ثم أعتقهم بالاتفاق مع الملك • وكل هذا غير معقول تناقله الناس جيلا عن جيل أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان • وقد كان أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب عليه السلام بنيه إلا بنيامين الى يوسف للميرة (فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) أى عرفهم هو أما هم فلم يعرفوه لطول العهد وعظمة الملك (ولما جهزهم بجهازهم) أصل الجهاز مايعد من الأمتعة للنقلة كعدد السفر ومايحمل من بلدة الى أخرى ويطلق أيضا على ماتزف به المرأة الى زوجها * يقال إنه أعطى كل واحد حمل بعير • والجهاز بكسر الجيم قرئ شاذا (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) * يقال انه قال لعلكم جواسيس قالوا كلا وذكروا أنهم (١٢) هلك واحد منهم فى البرية ولهم أخ عند أبيهم وهم هنا عشرة وسألوه حملا لأجل أخيهم الغائب فأعطاهم ذلك ورهن أحدهم وهو شمعون بطريق الاقتراع حتى يحضروا أخاهم الغائب ليعلم صدقهم وأخذ يقيم الحجة على أنهم يجب عليهم أن يرجعوا اليه لفضله عليهم مع اظهار الشدة فى المعاملة وأخذ أحدهم رهنا وقوله (فان لم تأتونى به الخ) هذا جمع بين اللين والشدة وهى خير سياسة بحيث اذا كان الرجل ممن يساقون بالعصا فقد نالها أو بالحلم والفضل فقد ناله وذلك عند جهل حال المسوس كما فى هذه الحال فان يوسف عليه السلام وان كان عالما بهم قد عاملهم معاملة من لايعرفهم فقال (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أتمه (وأنا خير المنزلين) أى خير المضيفين لأنه قد أحسن ضيافتهم وأكرم مثواهم (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولاتقربون) أى ولاتقربونى ولاتدخلوا ديارى (قالوا سنراود عنه أباه) سنجتهد فى طلبه من أبيه (وإنا لفاعلون) ذلك ولانتوانى فيه (وقال لفتيانه) لغلمانه الكيالين (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أوعيتهم وكانت نعالا وادما وورقا وهذه البضاعة كانت ثمن الطعام ووكل بكل رحل واحدا يجعل فيه بضاعتهم (لعلهم يعرفونها) يعرفون حق ردها وحق التكرم بارجاع ثمن الطعام مع الطعام (اذا انقلبوا الى أهلهم) وفرغوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم الى الرجوع (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل) حكم بمنعه بعد هذا ان لم يذهب معنا بنيامين (فأرسل معنا أخانا نكتل) نرفع المانع من

الـكيل (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه (قال) يعقوب (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) وقد قلتم هذا القول فى يوسف (فالله خير حافظا) منكم * وقرئ ـ حفظا ـ فهو على الأول حال وعلى الثانى تمييز • يقول إنى أتوكل على الله فى حفظه (وهوأرحم الراحمين) فأرجو أن ينعم علىّ بحفظه • واعلم أيها الذكى أن قوله هنا ـ وهو أرحم الراحمين ـ لايعقلها الأذكياء إلا اذا درسوا ماتقدّم فى سورة هود وفى سورة الأنعام وفى سورة يونس وفى سائر ماتقدّم من عناية الله بالعوالم الحية ونظره لها نظر رحمةوأن أكثر الناس الا يعرفون من الله إلا منعما فى الجنة ومعذّبا فى النار ومنزلا على الناس مرضا وفقرا وموتا • والجاهل يحجبه ذلك عن التوغل فى العلوم فيعيش مرتبكا معترضا على الله فى قلبه مظهر الرضا بلسانه مملواء حقدا على ابليس وعلى كل مخالف لعقيدته من أهل الأرض وهذه حياة الجاهلين فى جميع الأمم والأجناس فلايرون رحمة الله إلامن رحم ربك وعرفه • والطريق الذى سلكناه فى هذا التفسيرأن تعرف رحمته من جمال هـذا العالم والتوغل فى العلم والوقوف على الحقائق • وأن أمثال سجن يوسف وغربته وسجنه وضررعين أبيه وحسد الاخوة واستعباد يوسف • كل ذلك يظهرللجهال أنه نقمة وماهو إلامقدّمات للنعمة وذلك أشبه بدروس المدرسة يتعلمها التلميذ صعبة قاسية ثم تكون عاقبتها السعادة • فهكذا سائرأحوالنا فبهذا التفسير والسير على منواله ودراسة العلوم التى أشار اليها ونبه عليها تعرف أيها الذكى أن الله أرحم الراحمين فرحمته كرحمة الأب الذى يطعم ابنه ويقهره على تعلم الدروس • ورحمة الجهلاء كرحمة الأم • فتعلم وكن من المفكرين ثم قال تعالى (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت اليهم قالوا يا أبانا مانبغى) أى مانبغى شيأ وراء مافعل بنا قد أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا وردّ علينا متاعنا ثم وضحوه فقالوا (هذه بضاعتنا ردّت الينا) فنستظهر بها (ونمير أهلنا) بالرجوع الى الملك أى نجلب لهم ميرة وهى طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) عن المخاوف (ونزداد كيل بعير) وسق بعير باستصحاب أخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لايتعاظمه (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا) عهدا (من الله) أى حتى تعطونى ما أتوثق به من عند الله أى عهدا مؤكدا بذكر الله أوالحلف به فكأن المعنى حتى تحلفوا بالله (لتأتننى به) هـذا جواب القسم أى والله الخ (إلا أن يحاط بكم) أى إلا أن تغلبوا فلاتطيقوا ذلك أو إلا أن تهلكوا جميعا أى لاتمتنعون من الاتيان به إلا للاحاطة بكم كما تقول أقسمت بالله الا فعلت كذا أى ما أطلب إلافعلك كذا (فلما آتوه موثقهم) عهدهم (قال الله على مانقول) أى قال يعقوب الله شاهد على مانقول فكأن الشاهد (وكيل) أى موكول اليه هذا العهد أووكيل حافظ (وقال يابنىّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة) أمرهم بدخول مدينة مصر من أبواب مختلفة أومن طرق مختلفة لأنهـم أبناء أب واحد لهم جمال وطول قامة بارعان وقد عرفوا هذه المرة بخلاف التى قبلها نخاف عليهم العين • ومعلوم فى علم ماوراء الطبيعة كما فى الاشارات لابن سينا أن للنفس آثارا تنبعث منها بواسطة العين وغـيرها الى الخارج وهذه الآثار إما ضارّة واما نافعة وفعل العين من عانه يعينه أصابه بها من تلك الآثار • ولوأنك درست أيها الذكى مادوّنه المتقدّمون وعلماء العصر الحاضر فى هذا المقام لدهشت من العلوم النفسية فى أمريكا وفى أوروبا من الآثار المغناطيسية فى التنويم وغيره ولعلمت أن الانسان قليل العلم • ففى الأرض اليوم أناس يشفون المريض بمجرّد اللمس مرة أومرات كثيرة وذلك يحصـل بالتمرين ودروس كثيرة • وقد اشتهر أناس فى أصقاع الأرض بهـذه الخاصية • وقد ينوّم الرجـل غيره ويوحى الى المنوّم وقت النوم مايشاء أن يفهمه كالصلاح والتقوى وحبّ الدرس وترك الخمر والتدخين والكوكايين أوالاحسان أوترك الغضب أوقتل فلان فى وقت كذا • فاذا استيقظ المنوّم لم يعرف شيأ من ذلك وانما الأثر فى نفسه يجعله مستعدّا لما أوحى اليه فى النوم فيفعل ما أمر به فى الوقت والساعة والدقيقة والثانية ولايدرى من أين حلّ به هذا • هذا غيض من فيض من علوم العصر الحاضر • وهكذا

ذكر بعض ذلك المتقدمون فالنفس الانسانية لها قدرة مخبوءة تظهر بالعمل والدرس والجد والرياضة تارة وبطبعها تارة أخرى • فالعين مما يؤثر بدون درس ولاتعليم كمن يسمون فى أوروبا اليوم وسطاء بالطبيعة أى ان هناك أناسا خلقوا ولهم قدرة فى الوقت الحاضر على مخاطبة الأرواح متى ألقوا أنفسهم فى السبات المغناطيسى وهكذا آخرون لهم قدرة أن يروا الأرواح باعينهم ويسمى الواحد منهم (الوسيط المبصر) فذلك يكلم الأرواح وهذا يراهم ويكلمهم • فكذلك هنا هؤلاء العائنون خلقوا مجبولين على الشر بهذه القوة كما خلق الأنبياء مجبولين على الخير والشياطين على الشر • فاذا سمعت رواية البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال ﴿إن العين حق﴾ فاعلم أن هذا هو العلم الحديث والقديم • واذا سمعت رواية مسلم عن ابن عباس عن النبى ﷺ إذ قال ﴿العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين واذا استغسلتم فاغتسلوا﴾ ومعنى هذا أنه كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين • فاذا سمعت هذا فاعلم أن العلم اليوم كشف أصول هذه العلوم • والظاهر أن هذه المسائل سيزيد وضوحها فى المستقبل القريب • واذا سمعت قوله ﷺ ﴿اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة﴾ فاعلم أنه لم يجد ﷺ علاجا لهذا البلاء الذى يصدر من النفوس إلا بالالتجاء لخالق النفوس • ثم أخذ يعقوب يذكر بنيه أن هذا من الأخذ بالأسباب والقدر لاملجأ ولامفر منه اذا حتم على امرئ فى هذه الدنيا فقال (وما أغنى عنكم من الله من شئ) أى ان كان الله أراد بكم شرا فلادافع له من التفرق الذى أشرت به ولاغيره وانما علينا الجد والله هو الذى يتولى العباد (إن الحكم إلا لله) فهو منفذ أمره متى أراد (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) التوكل تفويض الأمر الى الله والاعتماد عليه (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) متفرقين (ما كان يغنى عنهم) أى ما كان يدفع عنهم دخولهم من أبواب متفرقة (من الله من شئ) أى شيأ قط فانهم مع هذا التفرق فى الدخول اتهموا بالسرقة وافتضحوا بعد ذلك بسرقة صواع الملك وأخذ أخوهم لان الصواع وجد فى رحله وزاد حزن أبيهم بفقد بنيامين (إلا حاجة فى نفس يعقوب) استثناء منقطع أى لكن شفقة يعقوب عليهم واحترازه من اصابتهم بالعين (قضاها) أظهرها ووصى بها (وانه لذو علم لما علمناه) بالوحى تارة ونصب الحجج تارة أخرى فعرف ماتنقطع دونه أعناق الحكماء بحثا وتنقيبا وهو أن ماهو شائع بين العامة من تأثير العين حق وأمر بالتحرز منه وعرف أن القضاء غالب فذكر الأمرين التوصية والتسليم للقضاء (ولكن أكثر الناس لايعلمون) فلايعرفون من الأسباب إلا ماتلمسه أيديهم وتراه أعينهم وكذلك لايقرون بقوة فوق هذا العالم تدبر شؤونه وتحيط به فامتثلوا أمر أبيهم وسافروا الى مصر (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) ضم اليه بنيامين على الطعام وفى المنزل وذلك انه قال سينزل كل اثنين منكم بيتا وهذا لا ثانى له فيكون معى فبات معه وقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولاراحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه و (قال إنى أنا أخوك فلاتبتئس بما كانوا يعملون) أى لاتحزن بما عملوا فى حقنا فيما مضى (فلما جهزهم بجهازهم) أى هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم (جعل السقاية فى رحل أخيه) وهى المشربة التى كان الملك يشرب بها وهى الصواع يقال انها كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه ﴿الطاس﴾ من فضة أو ذهب وقد جعلها فى وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا فأرسل خلفهم من استوقفهم (ثم أذن مؤذن) نادى مناد وأعلم معلم والأذان الاعلام (أيتها العير إنكم لسارقون) العير القافلة وهى اسم الابل التى يحمل عليها الأحمال فسمى بها أصحابها (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) أى شئ ضاع منكم (قالوا نفقد صواع الملك) وهو الصاع كما قرئ به وبالصوع كنصر وكقفل وبالعين وبالغين وصواغ من الصياغة (ولمن جاء به حمل بعير) من الطعام (وأنا به زعيم) الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن * يقول أنا كفيل أؤديه الى من رده وهذا من باب الجعالة وانه

يجوز ضمان الجعل (قالوا تالله) قسم فيه معنى التعجب (لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) وذلك انهم شدّوا أفواه رواحلهم لئلا تتناول زرعا أوطعاما لأحد من أهل السوق فى المدينة وكانوا ذوى أمانة ظاهرة عرفها الملك و بطانته وحاشيته حتى ردّ بضاعتهم اليهم فوجدوها فى رحالهم (قالوا فما جزاؤه) أى فما جزاء سرقة الصاع (إن كنتم كاذبين) فى جحودكم وادّعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاء سرقته أخذ من وجد فى رحله وذلك هو الحكم فى شريعة يعقوب أن من سرق يكون رقيقا سنة فلما استفتوهم أجابوهم بحسب شرائعهم (فهو جزاؤه) أى فأخذ السارق نفسه هوجزاؤه لاغير (كذلك نجزى الظالمين) أى السراق فنسترقهم (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظنّ هذا أخذ شيأ فقالوا والله لانتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا فوجدها فى وعاء طعامه (ثم استخرجها من وعاء أخيه) وأنث هنا باعتبار السقاية والصواع يذكر و يؤنث (كذلك) أى مثل ذلك الكيد أى الحيلة (كدنا ليوسف) أى علمناه إياه وأوحينا به اليه ثم فسر الكيد وهى الحيلة المتقدمة فقال (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) لأن الحكم فى دين الملك أى شريعته للسارق ان يغرم مثلى ما أخذ و يضرب لا أن يستعبد ولوأن يوسف جرى على شريعة الملك لم يتمكن من أخذ أخيه وقوله (إلا أن يشاء الله) استثناء منقطع أى لكن أخذه بمشيئة الله واذنه (نرفع درجات من نشاء) بالعلم كما رفعنا درجته (وفوق كل ذى علم عليم) أرفع درجة منه (قالوا ان يسرق) بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) وهو يوسف لأنه دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه * وقيل أعطى دجاجة كانت فى المنزل لسائل أوان منطقته لابراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها اسحق ثم وقعت الى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهى عمته بعد وفاة أمّه وكانت لاتصبر عنه فلما شبّ أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت الى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة اسحق فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ما أشاء فتركه يعقوب عندها حتى ماتت * و يقال انهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس اخوته رؤسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسوّدت وجوهنا يابنى راحيل مايزال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع فقال بنو راحيل الذين لايزال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم (فأسرّها) أى مقالتهم انه سرق كأن لم يسمعها (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرّ مكانا) مكانا تمييز أى أنتم شرّ منزلة فى السرقة لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه (والله أعلم بما تصفون) تقولون أوتكذبون (قالوا ياأيها العزيز إنّ له أبا شيخا كبيرا) فى السنّ وفى القدر (فخذ أحدنا مكانه) بدله على وجه الاسترهان أوالاستعباد فان أباه يتسلى به عن ابنه المفقود (إنا نراك من المحسنين) الينا فاتمم احسانك أومن المتعوّدين الاحسان فكيف تغير عادتك (قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) وكيف نظلم غيره فنأخذه على فتواكم (إنا إذن لظالمون) فى مذهبكم هذا (فلما استيأسوا منه) السين والتاء للمبالغة كما فى استعصم أى فلما يئسوا من يوسف (خلصوا) انفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم (نجيا) أى متناجين متشاورين وليس معهم غيرهم وهو مصدر فلذلك أفرد لأن هذه قاعدته فهو يكون مفردا فى كل حال (قال كبيرهم) فى السنّ وهو روبيل أوفى الرأى وهو شمعون (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) عهدا وثيقا لأن العهد كان معه الحلف وهو تأكيد له من جهة الله (ومن قبل) ومن قبل هذا (ما) مزيدة (فرّطتم فى يوسف) قصرتم فى شأنه (فلن أبرح الأرض) فلن أفارق أرض مصر (حتى يأذن لى أبى) فى الرجوع (أويحكم الله لى) أويقضى الله لى بالخروج أوبالموت (وهوخير الحاكمين) لأنه لايحكم إلا بالعدل (ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق) أى نسب الى السرقة (وماشهدنا) عليه

بالسرقة (إلا بما علمنا) من سرقته وتيقنا أن الصواع استخرج من وعائه (وما كنا للغيب حافظين) وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق (واسأل القرية التي كنا فيها) أي مصر أي أرسل الى أهلها فاسألهم عن كنه القصة (والعير التي أقبلنا فيها) وأصحاب القافلة وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب (وانا لصادقون) تأكيد (فلما رجعوا الى أبيهم) وقالوا له ما قال لهم أخوهم (قال) يعقوب (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) أردتموه فقررتموه والا فمن ذا أفهم الملك أن السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) أي فأمري صبر جميل أوفصبر جميل أجمل (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) بيوسف و بنيامين وأخيهما الذي توقف بمصر (إنه هو العليم) بحالي وحالهم (الحكيم) في تدبيره (وتولى عنهم) أي عن بنيه أي وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به (وقال يا أسفا على يوسف) والألف بدل من الياء أي يا أسفي والأسف أشدّ الحزن والحسرة والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلف (وابيضت عيناه) لما أكثر البكاء ومحقت العبرة سواد عينه فجعلته بياضا وكان يدرك ادراكا ضعيفا (من الحزن فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لايظهره أي مكظوم من كظم السقاء شدّه على ملئه (قالوا تالله) لا (تفتؤ تذكر يوسف) أي لاتزال تذكره تفجعا * ومن هذا

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولوقطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح وقوله (حتى تكون حرضا) أي مريضا مشرفا على الهلاك (أوتكون من الهالكين * قال انما أشكو بثي وحزني الى الله) البث أصعب الهم الذي لايصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أي ينشره فهو لايبثه الا الى الله * روى في باب المواعظ أن يعقوب اشترى جارية معولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت (وأعلم من الله مالاتعلمون) وأعلم من رحمته أنه يأتي بالفرج من حيث لايحتسب الناس (يابنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما • والتحسس هو المعرفة (ولاتيأسوا من روح الله) ولاتقنطوا من رحمة الله وفرجه (انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لأن من آمن بالله ودرس هذا العالم كما تقدّم في هذا التفسير يعلم أن رحمته وسعت كل شئ علما يقينيا لاتقليديا فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ) أي الشدّة والفقر والجوع • والأهل هم من خلفهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) رديئة قليلة كاسدة لاتنفق في ثمن الطعام الا بتجوز من البائع * قيل هي صوف وسمن وحبة خضراء وما أشبه ذلك (فاوف لنا الكيل وتصدّق علينا) أي فأتم لنا الكيل وتصدّق علينا بردّ أخينا على اعتبار أن حرمة الصدقة خاصة بنبينا ﷺ أو بالمسامحة وقبول المزجاة (إنّ الله يجزي المتصدّقين) أي المتفضلين أحسن الجزاء * يقال انه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك وفي آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا أيها الملك انه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال انكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي و يحزن لفقد واحد منا فكيف اذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا ان كنت فاعلا ذلك فابعث بأمتعتنا الى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى و (قال) يوسف لاخوته (هل علمتم مافعلتم بيوسف) أي هل علمتم قبح مافعلتم بيوسف (وأخيه إذ أنتم جاهلون) لاتعلمون قبحه (قالوا أئنك لأنت يوسف) اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ و يوسف خبره والجملة خبران (قال أنا يوسف وهذا أخي) من أبي وأمي (قد منّ الله علينا) بالسلامة والكرامة وهذه الجملة التي تعمهما لأجلها ذكر أخاه وان لم يدخل في سؤالهم (إنه من يتق) الله (و يصبر) على مايبتلى به وعلى الطاعات وعن المعاصي (فانّ الله لايضيع أجر المحسنين) الذين يجمعون بين التقوى والصبر ولهذا المعنى وضع المظهر موضع المضمر (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وجمال العلم والحلم والتقوى والصبر (وان كنا لخاطئين) وان شأننا وحالنا ـ إنا كنا خاطئين ـ متعمدين للاثم لم نتق ولم نصبر • لقد أعزّك الله

بالملك وأذلنا بين يديك (قال لاتثريب) لاتعيير ولا تأنيب (عليكم اليوم) متعلق بتثريب . واذا لم تؤنبوا اليوم فكيف بما بعده ثم ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) مافرط منكم * روى أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ماترونني فاعلا بكم قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخي يوسف ـ لاتثريب عليكم اليوم ـ * وروى أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس اذا أتيت رسول الله ﷺ فاتل عليه ـ قال لاتثريب عليكم ـ ففعل فقال رسول الله ﷺ غفر الله لك ولمن علمك * ويقال ان اخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه ﴿ انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك فقال يوسف ان أهل مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الىّ بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنى من حفدة ابراهيم ﴾ اه

واعلم أن هذه الحكاية المنقولة عنهم وأضرابها انما أذكرها لتقف على المحاورات الحسنة التي تفيد قوة أدبية وان لم يكن هناك دليل على ثبوتها لا بالكتاب ولا السنة ولكن هذا أدب يحسن أن يقال وقوله (وهو أرحم الراحمين) من الوالدين وغيرهما . ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا عمى من كثرة البكاء عليك فقال (اذهبوا بقميصي هذا) أي القميص الذى كان عليه (فألقوه على وجه أبي يات بصيرا) يصر بصيرا فأتى هنا بمعنى صار كما تقول جاء البناء محكما أى صار . قال يهوذا أنا أحمل قيص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء وتوجه به من مصر الى كنعان (وائتونى بأهلكم أجمعين) لينعموا بآثار ملكى كما اغتموا وحزنوا لأجلى (ولما فصلت العير) خرجت القافلة من عريش مصر . يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من القوم (إنى لأجد ريح يوسف) وذلك قبل وصوله اليه (لولا أن تفندون) وهو نقصان عقل يحصل من هرم أى لولا تفنيدكم اياى لصدقتموني (قالوا) أى الحاضرون (تالله انك لفي ضلالك القديم) أى لفي خطئك القديم من حب يوسف وتوقع لقائه وكان عندهم أنه مات (فلما أن جاء البشير) أى يهوذا (ألقاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجه يعقوب (فارتد) فرجع (بصيرا * قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالاتعلمون) من حياة يوسف وانزال الفرج (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) وقد اعترفنا بذنوبنا فنحن أهل لصفحك عنا وأن تسأل لناالمغفرة (قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وقد أخره الى السحر أوالى صلاة الليل أوغيرذلك ثم ان يوسف وجه الى أبيه جهازا ورواحل فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف ومعه الجند والملك فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) ضم اليه (أبويه) أباه وأمه واعتنقهما . ومعنى دخولهم عليه دخولهم مصر وكانوا إذ ذاك اثنين وسبعين رجلا وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة و بضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) من ملوكها وكانوا لايدخلونها إلا بجواز . وقد ثبت فى التاريخ أن الأمة المصرية كانت تضن على الغرباء بالدخول فى البلاد فلما فتحت أبوابها اقتحمها الأجانب فالمشيئة راجعة الى الامن مما تقدم ومن المكاره ومن القحط . انتهى القسم الرابع والخامس

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ ﴾

اعلم أن هذه الآية نزلت لتخرج المسلمين من جهالتهم العمياء إذ هم اليوم أقل الأمم علما وهذه السورة فيها سر العلوم . ألم ترأنه بعد أن قص قصص يوسف واخوته قال كما سيأتى ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ـ فقوله ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ مقدمة لذلك لأن العلم يكون بما ذرأ الله فى العوالم فهذه السورة وهذه الآية تطلبان من امة الاسلام رقيا فى العلوم بلانهاية فاذا كان المسلمون

اليوم أجهل الأمم فانهم فى المستقبل سيأخذون فى الارتقاء ومن الممهدات له هذا التفسير . ولأذكر لك نبذة من كتاب ﴿الدنيا فى أمريكا﴾ لتنظر كيف ارتقوا فى كل شئ وأن المسلمين سيقولون انهم أعلم منا وأن هذه آيات الله وهم تمتعوا بها ونحن محرومون

﴿ عجائب الصناعات فى أمريكا ﴾

فيها بناآت شاهقات فولاذية تناطح السحاب وتفاخر الشهب فهناك عمارة (ولورث) فى نيويورك لها ستون طابقا والصواعد الكهربائية التى تقل سكانها ثمانون ويسكنها اثنا عشر ألف نفس ولا تعد البناآت التى لا تتجاوز عشرين طابقا مرتفعة . وتجد فى البناية الواحدة ستة طوابق تحت الأرض ولا تشيد المبانى إلا من الفولاذ والحجر فى المدن وفى كل عمارة ضخمة فى الطوابق التى تحت الأرض آلة للتهوية والتدفئة . تحرك هذه الآلة مروحة كبيرة تأتى بالهواء النقى من الخارج وتبعث به الى كل غرفة فى البناء . ومتى أقبل الشتاء مرروا هذا الهواء فى تيار ساخن فدفأت جميع الغرف

﴿ طرق المواصلات ﴾

يوجد منها فى المدن الكبيرة مما يوصل الى أجزائها المختلفة ﴿ ثلاثة أنواع ﴾ نوع يسير تحت الأرض كما فى باريس ولندن وبرلين . ونوع يسير فوق الأرض كما فى مصر وغيرها . ونوع معلق بين الأرض والسماء على عمد كبيرة الارتفاع يجرى فوقها قضبان تسير عليها تلك القطرات بمحاذاة البنايات الشاهقة ولا نظير لهذا فى الممالك الأخرى وهناك قطرات تسير تحت قاع النهر أى داخل أنابيب تحت الأرض التى يعلوها ماء البحر

﴿ تسهيل الأعمال ﴾

فى مدينة (نيويورك) تضع قطعة من النقود فى ثقب هناك فهناك يفتح لك الباب للدخول للقطار بلا مراقب ولا مفتش وتضع فى ثقب التلفون قطعة من النقود ثم تضع السماعة على أذنك بدون أن تقرع الجرس فتجيبك العاملة على الفور

﴿ تسهيل العمل فى المطاعم ﴾

هناك مطاعم فسيحة أنيقة تقوم فيها المحركات مقام العمال ففيها آلاف من الثقوب النحاسية فوق كل منها مصباح موقد وثمن واسم طعام من الأطعمة من لبن وشاى الخ من كل مايخطر ببالك من طعام وشراب تضع الثمن فى الثقب الذى تريده فيبرز أمامك رف صغير فوقه طبق الطعام الذى ترغب فيه . وهناك أجهزة لمسح الأحذية من تلقاء نفسها بعد القاء قطعة من النقود فى ثقب فيها . ومثل ذلك آلات لغسل الأطباق والشوك والملاعق وأدوات الطبخ وتجفيفها وهكذا مما لاحصر له وهم يستعملون الكهرباء للانارة ولطهى الطعام ولغسل الثياب وغير ذلك . فى مدينة نيويورك ١٧ ألف صناعة يتلقى طلبة المدارس ٢٠٢ صناعة فقط منها

﴿ التلغراف الذى لاسلك له ﴾

هذا هو الذى اخترعه العالم (ماركونى) الأمريكى وقد بلغ عدد المحطات التى تبعث الى السكان ليلا ونهارا سنة ١٩٢٣ م (٤٦٤) محطة غير ما للحكومة وهو (٢٢٣) محطة وغير المحطات الخاصة وعددها (١٨٦٥٨) وبلغ عدد الأجهزة اللاسلكية فى ولايات أمريكا المتحدة خمسة ملايين وثمن الجهاز من ستة ريالات الى ألف ريال على حسب توصيله فى المسافات بعدا وقربا وقد بلغ من منافعها مايأتى

ان رئيس الولايات المتحدة يقف أمام آلة التلفون المعتادة فى قصره ويلقى خطابه بحماس وحمية وتكون آلة التلفون متصلة بشركة اللاسلكى وهذا يطيرها الى كل مالديه من جهاز فيسمع خطبة الرئيس الملايين من النفوس ويسمعها الناس فى سائر أنحاء أمريكا وأوروبا . وتراهم يقسمون الأوقات باللاسلكى فيقولون

من

من الساعة ٤ الى الساعة ٤ والدقيقة ٥ مثلا أخبار محلية ومن ٤ س و٦ ق الى ٤ س و١٥ ق موسيقى وهكذا من حكاية فكاهية للأطفال الى عظة شائقة . إنّ الانسان يسمع بهذه الأجهزة كل صوت فى الصين وفى أوروبا وأمريكا متى كانت هناك أجهزة للاستعمال فيكون الناس على الأرض أمّة واحدة بل العلماء هناك يقولون إن فكر الانسان يؤثر فى عالم الأثير بحركات لطيفة ويظنون أنهم سيعرفون كيف يقرؤن الأفكار فلاتبقى إذن للناس أسرار وهذا ظنهم — والله عاقبة الامور —

﴿ الحركة الفكرية والتجارب العلمية ﴾

فى مدينة نيو يورك مدرسة شهيرة ثانوية يدفع الطالب فيها سنويا (١٥٠٠) ريالا ويفضلها على مدارس الحكومة التى لايدفع فيها قرشا واحدا . وغرض هذه المدرسة وضع مقررات غيرثابتة فهى فى تغيير مستمر والتغيير يكون على حسب الفائدة بالنتائج . وهناك حقول لتجارب الزراعة فيزرعون الفواكه والخضر ويستبدلون الحبّ بغيره ليكون الناتج أكبر حجما وألذ طعما وأبهج منظرا وهكذا عملهم فى تربية الحيوان وكم يتبرع العلماء بالمال لأجل الفوائد العلمية مثل مايأتى

الى أىّ حدّ تكون الامتحانات العمومية دليلا على قوّة الطلبة العلمية وقد كانت النتيجة بعد أن وضع الدرجات على أوراق الطلبة الامتحانية مئات من المدرّسين وتلك الأوراق قد طبعت وكل مدرّس لايعلم ما فعله الآخر . أقول كانت النتيجة أن الطالب الواحد تختلف درجته فى العلم الواحد بحسب تقدير مئات وألوف المدرّسين من ٣٠ الى ٩٠ فى المائة من النهاية العظمى وهكذا فعلوا مع المدرّس الواحد فهو يصحح الورق الذى صححه هو منذ شهور وهو لايعلم أنه هو الذى صححه فكانت النسبة أيضا من ٣٠ الى ٩٠ فى المائة . فلذلك استبدلوا هذه الامتحانات بامتحانات أخرى . وأيضا برهنوا بالعمل على أن العقل لايتعب بل الجسم هو الذى يتعب . وأيضا برهنوا على أن عدم النوم لايؤثر فى المذاكرة والحفظ فقد يفقد المرء النوم ثلاث ليال متوالية ومع ذلك يستطيع القيام بحلّ المسائل وتحرير الرسائل كالمعتاد . وأيضا برهنوا بالتجارب أنه خير للطالب أن يدرس علما أو يتذكر درسا ثلاث ساعات كل يوم لمدّة ستة أيام من أن يدرس نفس الدرس ست ساعات كل يوم لمدّة ثلاثة أيام مع ان عدد الساعات واحد . وأيضا برهنوا على أن تعليم البنت والولد فى مدرسة واحدة خير وأبقى للأخلاق وأكثر صيانة لها . وذلك بانهم علموا كلا من الجنسين على حدة فى مقاطعة والاثنين معا فى أخرى وراقبوا النتائج سنين عديدة . وبرهنوا أيضا على أن الطالب المقتدر فى اللغات مقتدر أيضا فى العلوم الرياضية بعكس مانظنه فى بلادنا . وأيضا كذبوا بالتجارب هذه القاعدة أن القوىّ فى العلوم ردىء الخط وانما أثبتوا أن الميل الى الواحد قد يزيد عن الآخر فتقل اللذة فيه أوتضعف فلاتتكافأ معلومات الطالب فى الاثنين . وكذبوا بالتجارب أيضا قاعدة أن الذكى كثير النسيان فقد برهنوا على ان اكثر الناس نسيانا أقلهم ذكاء . وأيضا قام البرهان على أن حفظ قواعد اللغة لايساعد فى الانشاء كثيرا . وأيضا كذبوا بالتجارب ماقيل ان الهندسة مثلا والجبر يساعدان على تثقيف العقل . وهذه القاعدة وضعها أفلاطون فى كتابه الجمهورية عن أستاذه سقراط فقد وصل هؤلاء الى تجارب دلت على أن هذه العلوم لاتفيد تقوية ملكة التفكير ولاتثقيف العقل . وأيضا أسقطت التجارب مايظنه الناس من أن أولاد المدن أقلّ ذكاء من أبناء القرى . قد بلغت الصحافة هناك أنهم لا يكادون يمسكون سارقا حتى تطير صورته الفوتوغرافية بواسطة (اللاسلكى) الى جميع أنحاء أمريكا وتنشر تلك الصورة جميع الجرائد مذيلة بالاسم والعنوان والعمر والصناعة وشرح الجريمة . وهناك جرائد مصوّرة يومية لاتنشر إلا أخبار السوء الشائنة . وقد ذكرت لك أن ذلك يستنتج من آية فى سورة النساء فاقرأها هناك ولما كتبت ذلك هناك لم أكن اطلعت على ماقلته لك الآن فى أمريكا

﴿ رقى المرأة ﴾

بلغ من رقى النساء فى أمريكا أنك ترى الطلبة فى جامعة (كلومبيا) مثلا أربعين ألفا وجيع مساعدى الأساتذة وكاتبى أسرارهم من النساء وكذلك ألوف الموظفين فى التسجيل والخزينة والبيانات المخصصة للطلبة الداخلين كلهم أوجلهم من النساء وهناك فرقة واحدة فيها (٣٢٠) طالبا يتلقون الفلسفة وأكثر من النصف نساء والسواد الأعظم من طلبة مدرسة الصحافة فى هذه الجامعة من البنات وكذلك السواد الأعظم من المحررين والمكاتبين فيهن وفى كلية المعلمين فى تلك الجامعة أكثر من ثلاثة آلاف طالب خمسهم من الذكور فقط والباقى من النساء وقد ثبت أن (٩٠) فى المائة من الأساتذة فى أمريكا من السيدات وأن فى مدينة (نيويورك) وحدها (١٩) ألف معلمة وأخت الرئيس (هاردنج) معلمة . ان فى كل خمسين من السكان فى أمريكا طالبا فى المدارس الثانوية وعدد البنات فى المدارس الثانوية أكثر من عدد الذكور فى حين أن فى ألمانيا طالبا ثانويا فى كل مائة وثلاثين من السكان . وعدد الطلبة فى فرنسا فى الأقسام الثانوية بنسبة طالب فى كل مائة وخمسين . وفى انكلترا طالب فى كل مائة مع العلم أن الأغلبية الساحقة فى هذا العدد من الذكور . إن فى أمريكا أكثر من عشرين مليون طالب وفى الأقسام الثانوية فقط أكثر من مليونى طالب أكثر من نصفهم من الاناث . ويؤم أمريكا من الأمم المختلفة أكثر من عشرة آلاف طالب ليتلقوا العلم فى كلياتها وجامعاتها . وقد بنى (روكفلر) أغنى رجل هناك بناء عظيما يسكن فيه جمع عظيم من الأمم . والأعضاء فى هذه الأيام ألف ومائتان ثلثهم فقط من الذكور وهؤلاء الأعضاء يمثلون (٧٥) أمة ويتعارفون ويتحابون وكل يعطى الآخرين مافى بلاده من أحوال ليكون فى غاية المسرة والانشراح

﴿ الحركة العلمية فى أمريكا لها أغراض سبعة ﴾

﴿ الغرض الأول ﴾ الالمام بالمعلومات العامة كالكتابة والقراءة والحساب وتقويم البلدان وغيرها وحذفوا بعد الاختبار ما اصطلح الناس على أنه يثقف العقول فقط كأكثر النظريات الهندسية والجبرية ويقولون ان المهندس لايحتاج إلا الى سبع نظريات وغيره لايحتاج اليها . ويقولون ان حل الألغاز الجبرية والهندسية لاتفيدنا فى حل ألغاز الحياة والشعر لايسهل علم الكيمياء وهل يستفيد المزارع والطبيب والمحامى والتاجر من تحليل الكميات الى عواملها وإيجاد جذور الأعداد الرمزية والكميات الخيالية ﴿ الغرض الثانى ﴾ الاستعداد للمهنة وذلك أن علماء التربية يجعلون فى حصص الدراسة المعتادة حصصا تتخللها الأعمال اليدوية الصناعية ليعرف الطالب صناعة منذ نعومة أظفاره وليحترم العمل اليدوى ولتظهر مواهبه الكامنة فيه ﴿ الغرض الثالث . الصحة ﴾ ولقد جعلوا الصحة فى مستوى الأغراض الأخرى فلهم برك صناعية للعوم والسباحة ومسابقات وألعاب مختلفات تقوية لأبدانهم ﴿ الغرض الرابع . خدمة الوطن ﴾ يفهمون التلاميذ أن يعيش الفرد للمجموع ويشعر بالمسؤلية الملقاة على عاتقه ويقرأ التلميذ تاريخ آبائه وأجداده وما أتاه الأبطال من جلائل الأعمال ويقرؤن خطبهم وحكمهم وترى علم البلاد خفاقا ليلا ونهارا فوق سارية ﴿ الغرض الخامس . استخدام أوقات الفراغ ﴾ يقولون ان ساعات الدراسة لاتتجاوز الثمان أوالتسع ساعات وما يبقى بعد ذلك ضعف هذا العدد فيقول هؤلاء ان أوقات الفراغ أكثر دلالة على تربية المرء من أوقات العمل ويقولون أرنى ما تفعل فى أوقات فراغك وأنا أريك من أنت . وعلى هذا المبدأ وضع القائمون بشؤون التعليم فى أمريكا مبدأ عاما لجميع معاهدهم وهو وجوب تعليم الناشئة كيف يستخدمون ساعات الفراغ فى أحسن وجوهها فيجعلون للطلبة نوادى كنادى السباحة أوالسياحة أوالخياطة أوالبطاطس أى زراعته أوركوب الخيل أوالخطابة أوالتأليف أوالصحافة أوالمطالعة ﴿ الغرض السادس . الحياة العائلية والعمل على اسعادها ﴾ يقولون ليست المرأة وحدها مسؤلة عن المنزل والعمل على تهيئة وسائل السعادة فيه . فدروس علم الاجتماع يدرسها الرجال

والنساء

والنساء ويعرفون آداب المائدة والزيارة والاستقبال ومعاملة أفراد العائلة بعضهم لبعض وطبخ الطعام يتعلمه الذكور كما يتعلمه الاناث ﴿الغرض السابع﴾ من أغراض التربية تكوين الأخلاق ولكن لايدرسون علم الأخلاق ولكن الأخلاق بالقدوة والمثال اكتسابا تكتسب فى المنزل على صدر الأم وركبتى الأب وعلى المائدة وفى غرفة الاستقبال كما فى المطبخ وفى حجرة الدراسة من المعلم أوالمعلمة ومن علاقات الطلبة بعضهم ببعض

﴿التعليم المشترك بين الجنسين﴾

ان اليابان تربى البنت جنبا الى جنب الولد فى المدارس الابتدائية الأوّلية وتفصل فى الأقسام الثانوية ثم تنضم اليه مرة أخرى فى الكلية والجامعة . ويقال ان ألمانيا وفرنسا وانجلترا أميل الى هذا الرأى . أما أمريكا فان فيها نحو مليونين ونصف مليون من الطلاب فى الثانوى منهم مليون ونصف مليون من الاناث وهكذا الحال تقريبا فى بلاد اسوج ونروج وهولانده والدانمرك وجزائر الفلبين يتبعون النظام المشترك فى جميع مدارسهم من الأقسام الأوّلية والابتدائية والثانوية الى الكليات والجامعات . وهكذا جزائر (الهواى) السحيقة الواقعة فى عرض المحيط الهادى فان تعليمها مجانى اجبارى مشترك لكل طالب وطالبة بين سنّ السادسة والسابعة عشرة . وهكذا (بورت ريكو) التى آلت الى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ فان عدد سكانها لايربو عن مليون نسمة ومع ذلك بها مائة ألف طالبة وبجانبهن مائة ألف طالب

هذا ما أردت تلخيصه من كتاب ﴿الدنيا فى أمريكا﴾ لأريك أيها الذكى المسلم المصلح للأمّة الاسلامية صورة من صور التعليم فى الدنيا التى نعيش فيها . ذكرت لك ذلك ولم أقل نفعل مثلهم حذو القذة بالقذة ولكن أقول هؤلاء فاقونا فى العلوم والصناعات والأعمال والأحوال وأساس ذلك كله العلم إذ لاعمل إلا بعلم ولاعلم إلا بتعليم والعلم هو الذى جاء فى هذه الآية ـ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ـ

فهاأنت ذا أيها الذكى ترى أن الناس قداخترعوا وجدّوا وصنعوا وارتقوا وكلما وصلوا الى درجة ظهرت لهم درجات إذ لانهاية للعلم لأن فوق كل ذى علم عليم هكذا فى سورة طه بعد هذه السورة بسبع سور يقول الله لرسوله ـ وقل ربّ زدنى علما ـ . إن المسلمين أولى بهذه العلوم . إن المسلمين أولى بهذه العلوم . ان المسلمين هم خير أمّة أخرجت للناس فهل يكونون خير أمّة أخرجت للناس وهم قد تركوا مواهبهم وعجائب صنع ربهم فلم ينتفعوا بها وجهلوا كل شئ . إن المسلمين فى المستقبل سيزدادون علما وحكمة كما أمرهم ربهم ويقرؤن علوم الأمم ويصطفون لهم طرقا تناسب أحوالهم ولايتكلون على نظريات غيرهم بل يجرّبون ويدرسون كما فعلت أمريكا . واذن يكونون ممن قال الله فيهم ـ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ـ وانما قال هم أولوا الألباب لأنهم عرفوا الأحسن بالبرهان لا بالتقليد ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ ـ فالأمم فى تعاليمها أشبه بعباد الأصنام يدرسون ماسنه غيرهم ولا يفكرون بأنفسهم ولكن علماء العصر الحاضر أخذوا يفكرون كما ذكرت لك فى هذا الملخص والمسلمون أولى بهذه الآراء والتحقيق والبحث والتفكير . إن الأمم الاسلامية اليوم أجهل الأمم وبعد هذا التفسير وغيره من المؤلفات سيقوم فى هذه الأمم الاسلامية من يفوقون الأمم فى أقرب زمن

واذا كنا ـ خير أمّة أخرجت للناس ـ . واذا كنا من الواجب علينا أن نسمع القول فنتبع أحسنه . واذا كنا كآباء للأمم . واذا كنا شهداء على الناس . اذا كنا بهذه الصفات كلها فواجب علينا أن نتحلى بها فعلا والا فكيف نرى أهل أمريكا وأهل أوروبا يسمع الرجل منهم الخطب ودروس العلم من جميع الأقطار وهو فى حجرته ونحن غافلون جاهلون . وكيف يتعلم الذكور والاناث ونحن فى غفلة ساهون . أليس عموم التلغراف الذى لاسلك له جعل الشرقى يسمع الغربى والغربى يسمع الشرقى وكأن الناس كلهم أمّة واحدة .

أليس ذلك يذكرنا بآية ـ كان الناس أمة واحدة ـ ولعل الناس فى أزمان مجهولة لنا كانوا متواصلين بهذا النمط ثم لما انحطت مداركهم صاروا على ماهم عليه اليوم • ولعل هذه الحركة الحاضرة مبشرة بأيام يتحاب فيها الناس جميعا من جميع أهل الأرض المسماة أيام نزول المسيح والله أعلم اهـ

﴿ لطيفة فى اعتراض لأحد العلماء وجوابه ﴾

ولما وصلت الى هذا المقام واطلع عليه أحد الاخوان الفضلاء قال • لقد أتيت هنا بالعجب العجاب وذكرت عجائب العلماء فى أمريكا • ولكن بالله قل لى انى ألاحظ عليك أنك ماقرأت علما ولارأيت حكمة إلا ألصقتها بالدين • فقلت له ما الذى رابك فى هذا • قال ﴿مسألتان﴾ الأولى علمية والثانية دينية • فقلت فما المسألة العلمية • قال ألم تذكر أنهم يرون أن الهندسة والجبر ونحوهما أصبحتا لا قيمة لهما وانهما أجدر أن يحذفا وأن هناك سبع نظريات هى التى يجدر بالمهندسين معرفتها الخ • وهكذا مسائل من هذا القبيل • فقلت وهل أنا قلت اننا نأخذ بهذا عينه • ألم أقل ان هذه المباحث تغرينا بالبحث عنها وعن غيرها فنصطفى مارق وراق ونترك ماليس لنا عليه برهان • أنا ذكرت ذلك كله لغرض أن نجعله موضع البحث والا اذا سألتنى عن رأيى أقول ان العلوم كلها فروع لشجرة واحدة هى الحياة • العلوم كلها مشتركة مشتبكة فأعلاها محتاج لأدناها • هذا كله لاريب فيه ولعل القوم يريدون أن الطالب لايجوزله التغالى فى علم إلا اذا كان مستعدا للاختصاص فيه والا فالعلوم كلها متضامنة اهـ

ثم قلت فما المسألة الثانية • قال هى مسألة الدين • إنك ذكرت أن النساء يتعلمن مع الرجال من الصغر وانهم وجدوا أن هذا أقرب الى العفة وحسن المعاشرة والرقى فى العلوم فاذا أنت رويت هذا فمعناه أن المسلمين فى نظرك يفعلون هذا فيتعلم نساؤهم ورجالهم معا وهذا يناقضه قوله تعالى ـ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أوآبائهن أوآباء بعولتهن أوأبنائهن أوأبناء بعولتهن أواخوانهن أو بنى أخوانهن أو بنى أخواتهن أونسائهن أوماملكت أيمانهن أوالتابعين غير أولى الاربة من الرجال أوالطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ـ فأنت اذا قلت للمسلمين ذلك فمعناه أنك أبحت رفع الحجاب وهذا يأباه الاسلام والمسلمون فقلت إن علماء الاسلام أباحوا رؤية الوجه ونحوه اذا مست الحاجة وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والمحاسبة ومأأشبه ذلك • كل ذلك وغيره ذكره العلماء ودونوه فالمدار عندهم على الحاجة ثم انى لم أقل ان التعليم يجب أن يكون الذكور فيه مع الاناث وانما حكيت مافعل القوم لاغير وقلت فلنتبع أحسن السبل • قال فاذا ثبت أن طريقتهم أحسن السبل فى التعليم وأن اختلاط الاناث بالرجال فى سن التعليم أخرج لنا رجالا ونساء أفضل من الموجودين الآن اذا ثبت ذلك فرضا فماذا نفعل • قلت ألم أقل لك ان الاختلاط أجازه العلماء للحاجة • قال هذا القول لايشفى من علة ولايروى من غلة • فقلت له سيأتى فى سورة النور مسألة الحرام والحلال فى هذا المقام • فلنذر الكلام فيه ولنبحث فى أمر الأمة الاسلامية العام فنقول

إن المسلم يعيش ويموت وهو لايعلم أن سوأة أمته مكشوفة أمام جميع الأمم وامام الله والنبى ﷺ فلقد أجمع العلماء أن ترك الصناعات والعلوم التى تعيش بها الأمة وتحفظ كيانها تكون كلها ذنوبا على الأمة فيصبح المسلم كل يوم وفى رقبته ثمانية آلاف ذنب فانه مأمور بصناعات وعلوم قدامتلأت بها أوروبا وحاربتنا بها فان لم نعرفها كنا جميعا مذنبين • فهذه سوآت وعورات مكشوفات لله وللناس وللنبى ﷺ فان لم يقم بها رجالنا ونساؤنا أى لكل علم ولكل صناعة جماعات من الطرفين فان الأمة كلها مذنبة • فهذه سوآت عرفتها أوروبا فأتت وأخذت بعض بلاد الاسلام وهذا لأننا خلعنا لباس التقوى غالبا

جعل

جعل الله لباس التقوى أفضل من اللباس الحسى وهذا حق" فلباس التقوى متى عرى منه الانسان وقد لبس أنخر الملابس حقره الناس جيعا . فالجاهل بين العلماء واللصوص والزناة وأرباب السوابق وهكذا كل ذى ذنب وعيب كل هؤلاء يحتقرهم الناس ويكرهونهم وعوراتهم بادية ظاهرة وأحوالهم مكشوفة فهؤلاء نزع عنهم لباس التقوى وان كانوا مستورى العورات . فاذا بقى المسلمون على هذه الجهالات فانهم قد كشفت سوآتهم وان لبسوا أنخر الملابس فالمدار على التقوى والتقوى تشمل جميع العلوم والمعارف وجميع الآداب والمسلمون اليوم أكثرهم عارون من هذه الملابس فاذا لبس الشبان والشابات لباس العفة والأدب والأخلاق والعلوم وكانوا أعف ولو قليلا من جيلنا الحاضر فهم أفضل منا ألف مرة وهم أعلم بالقرآن وفهمه . فقال لله درك والله موفقك وخلق الحكمة على لسانك والحمد لله رب العالمين

فقلت إذن أنت توافقنى أن المسلمين يجب عليهم أن يرتقوا فى الأسباب وأن يقرؤا علوم الأمم ولايعوقهم عن ذلك عائق وأن القرآن لم يترك فرصة لجاهل من المسلمين ينتحل بها عذرا فانه جاء فيه ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ وجاء فيه أيضا ــ وقل رب" زدنى علما ــ والآية الأولى خبر لايدخله النسخ والآية الثانية ليست منسوخة فأصبح المسلم بين هاتين الآيتين ملزما أن يقرأ علوم الأمم وأن يترقى فيها أما قراءة علوم الأمم فلنعلم مالانعلم . وأما الارتقاء فهو واجب فنحن فى كل حين يجب أن نزداد علما والعلم لانهاية له إذ فوق علمائنا علماء فنحن اذن ملزمون بالازدياد فى كل شئ ولولم يكن فى القرآن سوى هاتين الآيتين لكفتا فى وجوب ارتقاء المسلمين فى كل علم وكل صناعة . هذا سر" قوله ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ انتهى

﴿ ابتكار أهل أمريكا أيضا فى علم الزراعة وقوله تعالى ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ ﴾

(موازنة بين الهواء والدخان والصخور و بين الذهب والملوك والقديم من الديانات)

لعلك أيها الذكى القارئ لهذا التفسير تعجب من هذا الموضوع الذى طال بصدد الكلام على أهل أمريكا فى قوله تعالى ــ وفوق كل ذى علم عليم ــ وأنا أقول ان هذه الاطالة لابد" منها لايضاح المقام والقرآن كلام الله والناس عباده ونحن نسطر فى تفسيره مايشرح الصدور ويسر الجمهور واعلم أن الناس لايشرح صدورهم إلا مايشرح صدر المؤلف والمؤلفون المتكلفون هم الذين لايفلحون قال تعالى ــ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن" نبأه بعد حين . ولم يؤخر المسلمين و يوقعهم فى السبات العميق الا انتقاء الكتب التى كتبها مؤلفوها تكلفا فهذه لاتؤثر فى قارئيها لأن المتكلف ليس منشرح الصدر لما يكتب وهناك صلة بين الكاتب والقارئ والمتكلم والسامع ولست تعرفها إلا بالتجربة والذى خطر لى اليوم مايأتى . ذلك انى قرأت فى رحلة نشرها أحد أصدقائى المصريين أثناء طبع هذه السورة يوم (٧) اكتوبر سنة ١٩٢٧ وهذا نص ما أريده منها . قال

﴿ وقد توصل القوم فى أمريكا الى استخراج (البوتاسا) من الهباب الذى يتطاير من مداخن المصانع بحيث حصلوا منه مائة ألف طن أفادهم فى زراعتهم ومعلوم أن الطن نحو (٢٢) قنطارا وقد توصلوا الى عمل (حمض الفوسفوريك) من الحجر والصخور واستعملوه ضمن الأسبخة الزراعية وهم الآن يدرسون طبيعة التربة ويرسمون خريطات مختلفات لدرس المسائل (الازوتية) بصفة عامة والتجارب التى يهتمون بها الآن هى البحث عن الازوت الموجود فى الجو" على هيئة (نوشادر) لاستعماله ضمن الأسبخة ﴾

فلما قرأت هذا خطر لى هذا الموضوع الذى ابتدأت به هذا المقال فلأشرحه فأقول . أنظر الى الأمم قديما وحديثا وتعجب من صنع الله فى الأرض . ويظهر أن الله عامل النوع الانسانى كله معاملة نفس واحدة فهو كله أشبه بصبى أرسله أبوه الى المعلم فى صغره وأطاق له الحرية فى كبره . ألاترى أن دراسة تاريخ الأمم تكشف لنا النقاب عن هذه الامور

(١) التعامل بالنقود من الذهب والفضة وغيرها قد جعل فى الأمم طبقة المرابين الذين يعيشون من ثمرات ﴿العاملين﴾ وهم لايعطون الناس مطعما ولاملبسا ولاغيرهما

(٢) الملوك فى جميع الأمم يستبدّون بالرعية و يبطشون

(٣) وهكذا رجال الدين فى جميع الأمم السالفة استبدّوا بالناس بعد أنبيائهم كما هوحاصل فى الدين المسيحى فى القرون الوسطى وفى الدين البرهمى الى الآن • فههنا ظهرأن الأمم كانوا أطفالا وأكثرهم لايزالون كذلك يخضعون للملوك ولرؤساء الدين ولأرباب المال • وتفرّع على ذلك أن قوما بحثوا عن الذهب من علم الكيمياء وأضاعوا فى ذلك أعمارهم • وهكذا ترى رجال الدين فى أكثر الأمم يجدّون فى العلو على الناس ويحرصون على الرئاسة والعظمة والمال بطريق الدين • وهكذا أكثر علماء الفقه قديما فى أمّتنا الاسلامية كما نقلته لك عن الامام الغزالى فى سورة المائدة فانظر حال الأمم الآن وتعجب من فعل الله عزّ وجل فانظر كيف حبس عقول القدماء فى استخراج الذهب بطريق الكيمياء وجعلهم خاضعين للملوك ولرجال الدين فكأن الناس إذن عند علماء دينهم وعند ملوكهم أطفال جهال يسخر منهم ملوكهم ورؤساء دينهم ويسخرونهم

ألاتعجب الآن كيف أصبح الناس يبحثون فى الهواء عن (الاوزوت والنوشادر) لأجل نجاح الزراعة ويكسرون الأحجار والصخور لاستخراج (حمض الفصفوريك) ولا يضيعون الدخان المتطاير من المداخن فيأخذون منه أكثر من (ألفى ألف) قنطار فى السنة من (البوتاسا) وهكذا كان المسيحيون يحرّمون جميع العلوم فلما أن جاء الاسلام أخذوا يفكرون ونبذوا القديم وقرؤا العلوم وهكذا المتأخرون من أمّتنا الاسلامية أصبحوا كالمسيحيين القدماء حرموا من العلم وهانحن أولاء الآن نجدهم مشمرين عن ساعد الجدّ لحوز العلوم اليوم وهذا التفسير من مقوّمات هذه النهضة

فاعجب لصنع الله عزّ وجل • حرّر العقول الواهمة فأراها أن النعم الحقيقية فى استخراج المنافع من هواء ومن صخور ومن دخان • من هذه كلها يستخرج الناس سمادا لمزارعهم وهذا أفضل وأجلّ وأعظم من استخراج الذهب بما لاحصر له • هذا هو تحرير العقول الانسانية واخراجها من الجهالة • فالديانات الآن أصبحت لاتمنع العلم ولكن الاسلام يوجبه فسلطان الدين إذن لايمنع من العلوم • هاهوذا العلم أخرج الناس من الظلمات الى النور • أخرجهم من قيود المذلة للملوك وصارت المجالس النيابية قائمة مقامهم • هاهوذا العلم زلزل قواعد الملكية وفتح باب المشورة • أخرجهم من الأوهام القاتلة الفاتكة بهم إذ استبدّ بهم الملوك فسلبوا أموالهم فقعد العلماء والشعراء بأبوابهم يستعطفونهم ليرزقوهم مما نهبوا من الرعية • اخرجهم من سجن الذهب إذ كان العالم البارع هوالذى يعثر على طريقة استخراج الذهب بطريق الكيمياء • وهيهات هيهات النوال والغنى بل كانوا يموتون فقراء • لماذا هذا • لأنهم جهلوا الحقائق • ذلك أن الذهب انما هو واسطة التبادل للمنافع ولوأن الذهب ملأ الأرض وليس فيها قوت ولاملابس لمات الناس فالذهب كالحجر عند عدم المنافع المادّية من مأكل وملبس • كلا بل الحجر أصبح أفضل من الذهب بالعلم لأنهم استخرجوا منه كما رأيت الموادّ التى تسمد بها الأرض • وهذا السماد حياة الزرع والزرع به حياة الانسان والحيوان والذهب ليس له إلا أن تعرف به القيمة فحسب • إذن العلوم قلبت أوضاع العقول الانسانية التى تقدّس الذهب فأرتها أن أحجار الجبال التى تزدرونها ودخان معاملكم خير وأبقى والذهب انما هو أمر ثانوى للتبادل فمن استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير فهوجهول

هذا كله داخل فى قوله تعالى ـ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ـ فهؤلاء الذين عرفوا نعمة ربهم واستخرجوها من الدخان المنبوذ ومن الهواء المتروك ومن صخور جبالهم وهؤلاء الذين لم يقيدهم دينهم ولم يقعد بهم عن المعالى ولااستناموا لملوكهم أرفع درجات من أولئك الجهلاء الذين جهلوا نعم ربهم أوظنوا

أن دين الله الذى أنعم على الناس بهذه الدنيا كلها يمنع من تلك النعم أو استبد بهم ملوكهم فأذلوهم • ولما كان رفع الدرجات المذكور ليس له سبب إلا العلم أعقبه بقوله ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ اهـ

(الْقِسْمُ السَّادِسُ)

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (ورفع أبويه على العرش) السرير الذى كان يجلس عليه يوسف • والرفع النقل الى أعلى (وخرّوا له سجدا) أى يعقوب وأمه واخوته * وقيل خالته لموت أمه وكانت تحية القوم إذ ذاك السجود وهو الانحناء والتواضع (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) التى رأيتها فى أيام الصبا (قد جعلها ربى حقا) صدقا (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) وأعرض عن ذكر الجبّ لئلا يكون تثريبا عليهم (وجاء بكم من البدو) من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون بها فى المياه والمناجع (من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين اخوتى) أى أفسد بيننا وأغرى * يقال نزغ الرائض الدابة اذا نخسها وحملها على الجرى

(إن ربي لطيف لما يشاء) لطيف التدبير فلاصعب إلا وله فيه تدبير ينفذ فيه مشيئته (إنه هوالعليم) بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) الذي يفعل كل شئ في وقته * يقال ان يوسف طاف بأبيه في خزائنه فلما أدخله خزانة القراطيس قال يابني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الي قال أمرني جبريل قال أوما تسأله قال أنت أبسط مني اليه فاسأله فقال جبريل الله أمرني بذلك لقولك ـ وأخاف أن يأكله الذئب ـ قال فهلاخفتني (رب قد آتيتني من الملك) ملك مصر (وعلمتني من تاويل الأحاديث) تقدم تفسيرها في أول السورة يا (فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة) تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي (توفني مسلما) طلب الوفاة على الاسلام كما قال يعقوب لولده ـ ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ـ أو مخلصا ومسلما اليك أمري (وألحقني بالصالحين) من آبائي وغيرهم (ذلك) أي ماذكر من نبأ يوسف كائن (من أنباء الغيب نوحيه اليك) خبر (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) يقول تعالى هذه من أنباء الغيب بالوحي لأنك لم تكن مع اخوة يوسف حين هموا أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به و بأبيه ليرسله معهم يرتع و يلعب • ولقد لبثت في قومك أربعين سنة قبل هذا ولم تلق أساتذة معلمين ولاقرأت كتبا وذلك قد ذكر في آية أخرى ـ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ـ (وما أكثر الناس ولوحرصت) على ايمانهم (بمؤمنين) لأنهم معاندون (وما تسألهم عليه) على الانباء أوالقرآن (من أجر) جعل كما يفعله القصاصون (إن هو إلا ذكر) عظة (للعالمين) عامة (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها) على الآيات و يشاهدونها (وهم عنها معرضون) لايتفكرون فيها ولا يعتبرون بها (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فاذا سئلوا من خلق السموات والأرض وأنزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الأصنام وهذه الآية في أهل الكتاب والمنافقين والمشركين (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله أوتأتيهم الساعة بغتة) فجأة من غيرسابقة علامة (وهم لايشعرون) باتيانها ولااستعداد عندهم (قل هذه سبيلي) أي الدعوة الى التوحيد والاعداد للميعاد حال كوني (أدعو الى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة (أنا) تأكيد للضمير المستتر في أدعو (ومن اتبعني) عطف عليه (وسبحان الله) أي وقل يامحمد سبحان الله أي تنزيها له عن كل مالايليق به (وما أنا من المشركين) أي وقل يامحمد ـ وما أنا الخ ـ (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) مثلك (نوحي اليهم من أهل القرى) لأنهم ذووعلم وحلم فأما أهل البوادي ففيهم الجهل والغباوة (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدارالآخرة) أي ولدارالساعة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك وآمنوا (أفلا تعقلون) فلايغرنهم تمادي أيامهم فان من قبلهم أمهلوا (حتى اذا استيأس الرسل) من النصر (وظنوا أنهم قد كذبوا) أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم أنهم ينصرون (جاءهم نصرنا) أي للمؤمنين والأنبياء فجأة (فنجي من نشاء) أي النبي وقومه (ولايرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) أي الكافرين (لقد كان في قصصهم) أي في قصص الأنبياء وأممهم (عبرة لأولي الألباب) حيث نقل يوسف من غاية الحب الى غيابة الجب ومن الحصير الى السرير • فاذن عاقبة الصبرالجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التصبر (ما كان) القرآن (حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه) أي ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب السماوية (وتفصيل كل شئ) يحتاج اليه في الدين (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خيرالدارين (لقوم يؤمنون) يصدقون انتهى التفسير اللفظي • وهنا ﴿خمس جواهر﴾ في هذه السورة

﴿ الجوهرة الأولى في رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك ﴾

(رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك مطلعان من مطالع كواكب العلم مشرقان ﴾

هذا كتاب سماوي ومن دأب أمثاله أن يسمو بالعقول الى المدارك الشريفة بطريق الاشارات الحكمية

ليفتح للبصائر أبواب الفهم وهناك تتشعب الآراء و يبحث العقلاء و يجدّ المفكرون وتكون تلك الأنوار العلمية أشبه بضوء الشمس إذ يسطع على الأحياء من مملكتي الحيوان والنبات وعلى الجماد فتقبل كل مملكة من النور مايلائم أشكالها و يوافق أحوالها و يلائم نظامها

فهاتان الرؤيتان قد فتحتا ﴿ بابين ﴾ من العلم ﴿ الباب الأوّل ﴾ ما سأذكره من عوالم اليقظة وعوالم الأحلام فى المنام ﴿ الباب الثانى ﴾ ماقدّمته فى أوّل هذه السورة من أنهما قد كانتا سببا فى نشر المقالة المتقدّمة المبنية على أن فرعون مصر فى تلك الأحقاب قد كان مغرما بأمر الرعية فرأى فى المنام السنبلات الخ ثم أبنت أن الفلاح وثوره يحتاجان الى طيور تأكل الدود الفاتك بالزرع وانه ترك ذكرها لأنها أشبه برجال القضاء والمحاماة أولئك الذين اضطر اليهم الناس اضطرارا ولوكان الناس جميعا كاملين لم يكن لهم قضاة ولامحامون هكذا هنا لولا مافى الأرض من حشرات مخلوقات فيها لتمتص الرطوبات لم تكن فى حاجة الى أنواع الطيور الخاصة بأكل الحشرات • كل هذا ذكرته أوأشرت اليه لتبيان السبب فى ترك ذكرها فى رؤيا الملك • ثم استطردت بذكر أنواع تلك الطيور التى عرفتها أمّتنا المصرية ورسمت صورها

﴿ بيان السبب فى ذكر تلك الطيور فى هذا التفسير وكيف جاز تصويرها فيما تقدّم ﴾

أما السبب فى ذكر الطيور فى هذا التفسير التى حرّم صيدها أهل بلادى فذلك ليكون ذكرى للمسلمين أن يتبينوا مابلادهم من الطيور النافعة لزرعهم بأكل الدود أوالفيران ولن يتمّ لهم ذلك إلا بأن يكون عندهم علماء اختصاصيون فى هذه العلوم ويكونوا دارسين لعلوم الأمم المحيطة بهم • هذا أمر أصبح واجبا وتركه حرام لأنه فرض كفاية كما شرحناه مرارا فى هذا التفسير فى أواخر سورة البقرة عند قوله ـ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ـ وفى أوائل سورة المائدة عند قوله تعالى ـ فبعث الله غرابا الخ ـ وفى مواطن أخرى تقدّمت • وليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أنهم محاسبون معذّبون فى هذه الدنيا قبل الآخرة اذا أهملوا دراسة الطيور ودراسة سائر العلوم • اللهم إنى قد أدّيت الأمانة و بذلت النصيحة وأنت أيها القارئ الذكى أصبحت مسؤلا مثلى فاجعل كل حياتك لخدمة أمّتك ولتكن من حاملى لواء العلم ومن أعمدة النظام العام فى الأرض فبهذا قد استعددت لتكون خليفة فى الأرض ونورا مبينا ونجما طالعا وشمسا مشرقة

﴿ لطيفة ١ ﴾

لقد تقدّم فى سورة هود عند تفسير البسملة الكلام فى رحمة الحيوان والأحاديث الواردة فى ذلك وكيف أمر النبى ﷺ أن يردّوا الطائر الصغير الى أمّه لشدّة شغفها به وقد بينت هناك أن الرحمة هنا واجبة وأن الأمم الاسلامية غالبا لايفكر علماؤها فى نصح العامّة فى هذا

﴿ لطيفة ٢ ﴾

وقد تقدّم فى سورة يونس أن رسم الصور الشمسية مباح وقد ذكرنا هناك آراء بعض هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف باباحة رسم الحيوان بالتصوير الشمسى وانى أرى أنه واجب فى مثل هذا الكتاب لأجل التعليم والا فمن أين يعرف المسلمون أنواع الطيور ان لم يروا صورها بأنفسها • هذا ما أردته فى هذا المقام لتعلم أن مارسم من صور الطيور فى هذه السورة واجب لأجل تعليم الأمّة لا حرام والله هوالولىّ الحميد انتهى الكلام على ﴿ الباب الثانى ﴾

﴿ الباب الأوّل ﴾ فى الكلام على أن هاتين الرؤيين قد فتحتا عوالم اليقظة وعوالم الأحلام فى المنام ﴾

اعلم أيدك الله أن القرآن بسبب كونه كتابا سماويا يفتح مغالق من العلم لم يكن فتحها بالحسبان • ذلك لان الناس فى أمثالهم يقولون ﴿ كلام الملوك ملك الكلام ﴾ وليس هذا القرآن كلام ملوك بل هوكلام ملك أولئك الملوك • فاذا رأينا أمم الأرض اليوم تهتزّ أسلاكهم البرقية وتكتب جرائدهم ماينطق به رئيس

الولايات المتحدة أوملك انكلترا أو نحو ذلك ويعلقون على الجملة الواحدة وقد يعبروا أكثر فى جرائدهم ومجلاتهم فى الشرق والغرب فكيف بكتاب نزل من رب أولئك الملوك فهو أحق بالتعليق والتذكرة إذن نقول يذكر الله رؤيا الملك ورؤيا يوسف ويبين لنا فيهما الزرع والدواب والسجود والكواكب والشمس والقمر ففيهما العالم الكثيف واللطيف والعلوى والسفلى فلنشرح هذا المقام بما فتح الله به فنقول

(١) حبس الناس فى هذه الأرض مع النبات والحيوان . أول درجة من درجات الحياة أدنى الحيوان كالدودة فى لب الثمار و بطن الحيوان ذلك الذى ليس له إلا حاسة واحدة هى حاسة اللمس ثم يترقى قليلا بحاستين فثلاث فأربع فخمس فيكون ارتقاء حتى يصل الى الآساد والنمور والقردة والانسان وهو درجات أعلاه الحكماء والأنبياء

(٢) هذه طبقات أدناها مالا يحس إلا بما يمس جلده كالدود وأعلاها يعرف عالم الأرض وعالم السموات فأعلاها يجاور الأفلاك والملائكة وأدناها مغمور فى الطين مسجون . إن هذه الدرجات كتاب مفتوح ظاهر مقروء ولكن قراؤه قليل فى هذا الانسان وأعلاهم هم الذين يقرؤنه وهم مستبصرون وأكثر هذه الطبقات الانسانية مغمورة فى الجهالة لا تبصر هذه الدرجات المشروحة فى الطبيعة فامتاز أناس فنظروا فى أنوار السموات وأنوار العقول

(٣) قالوا إن العالم الذى نعيش فيه عالم جميل مصوغ من النور بهى حسن الشكل بديع النظام ولكن الناس لم يدركوه وان كانوا يشاهدونه لأنهم مغمورون فى مطالب شهواتهم وغرائزهم ومن امتاز منهم بعقل راجح وفكر صائب نظر فرأى أن نور الشمس هو أصل الموجودات الأرضية فلولا الحرارة المنبعثة منها على الهواء والماء لم يكن بخار ولم يكن هواء إذ لابخار إلا بحرارة ولا رياح إلا بدافع يدفع الهواء وأصل كل دافع يرجع للحرارة والحرارة منبعثة من الشمس . واذا سكن الريح لم يكن سحاب واذا لم يكن سحاب لم تكن أنهار كما هو واضح فى هذا التفسير فى غير ما موضع . الله أكبر . جل الله وجل العلم . اذن يكون النور فى أرضنا أصل وجود ماعليها وهذا قوله تعالى ـ وفى السماء رزقكم ـ فلولا نور الشمس لم يتهيأ لنا رزق فى الأرض والشمس فى السماء وعطف عليه قوله ـ وماتوعدون ـ والذى نوعده أيضا فى السماء

ألا ترى الى ماتقدم فى سورة آل عمران عند ذكر الجنة والنار من أن الجنة مستحيل أن تكون فى الأرض إذ الأرض فى باطنها نار فاذن تكون الجنة فى عالم السموات وهى الجنة الحسية

(٤) فى السماء رزقنا لأن النور مع الحرارة المشاهد لنا أصل رزقنا بل أصل حياتنا وهذا مشاهد فلنقس ماغاب على ماشوهد ولنقل ان ماوعدنا به فى السماء فالسماء فيها الرزق الدنيوى وفيها الموعد الأخروى

واذا كنا نرى فى هذه المخلوقات الأرضية اختلافا بينا من دودة فى بطن بقرة الى حكيم ونبى يحيط علما بكثير من العوالم الأرضية وغيرها فليكن فى عالم السموات طبقات بحيث تكون نسبتنا نحن اليهم كنسبة الدود الينا وذلك فى العالم الذى وعدنا به وتكون تلك الدرجات أدناها وهم أهل الجحيم أشبه بالدود وأعلاها وهم أهل الجنة أشبه بالحكماء والأنبياء عندنا والذى نوعده هو الجنة والنار موعد ذوى النفوس الضعيفة الغبية

(٥) لهذا ترى الله يقول لنبينا ﷺ ـ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ـ ويقول ـ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض الخ ـ ويقول هنا ان يوسف رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر كلها ساجدات له رأى العالم المشرق فى نومه مشاكلة لروحه وكان يمكن تصوير حال تلك الرؤيا بغير الأجرام المنيرة ولكن فطرة الأنبياء متجهة الى العلو . تتجه الى السماء عقول الحكماء وعقول الأنبياء ليطلقوا الناس من ضيق الأرض الى فسيح عالم السماء ويوحى اليهم فى النوم ليقولوا للناس أيها الناس انكم كل ليلة تموتون ثم تحيون صباحا . إن النوم نوع من الموت واذا كان كذلك فالموت لاخوف منه واذا كان يوسف يرى فى النوم

أن اخوته وأبويه خروا له سجدا على هيئة الأجرام العلوية ثم ظهر صدقه فى آخر أمره وإذا كان الملك يرى البقرات والسنبلات ويظهر فى آخر الأمر أن الرؤيا حق وأن السنين المجدبة قد أقبلت فأكلت الحرث والنسل وأتت على كل ما ادّخر فى سنى الخصب السبع فمعناه أن عالم المادّة تابع للعالم العقلى فرؤيا يوسف فى إخوته وسيادته عليهم قد تمت ورؤيا الملك فى خصب مصر وفى قحطها قد تحققت وكما أن النور والحرارة من الشمس أنتجا عالم المركبات الأرضية . هكذا عالم الفكر والعقل أساس نظام الأمم . إن هذه السورة تفيد أن الامور العقلية الروحية أصل للمادّية الظاهرة

(٦) أمر النفوس بعد الموت واضح فى هذه السورة . نام الملك ونام يوسف أى توفى الملك وتوفى يوسف عليه السلام توفاهما الله ولما توفاهما أطلعهما على صور سماوية وصور أرضية . فاذن الوفاة ليست عدما . إذن الوفاة فيها علوم أشبه بما نحن عليه فى الدنيا وهذه العلوم تناسب عقولنا بدليل أن الملك لما توفى رأى ما يناسب عقله والنبي يوسف كذلك . ان النوم وفاة ولا عجب فى ذلك . يقول الله تعالى ــ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ــ فجعل النوم وفاة والحياة بعثا وأوضح ذلك أكثر فى آية أخرى فقال ــ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ــ الى قوله ــ لقوم يتفكرون ــ وملخصها أن الله يتوفى أنفس النائمين وأنفس الميتين ولكنه يرسل نفس النائم الى جسده ويمسك نفس الميت الى يوم القيامة . واعلم أن علماء الأرواح سالوا بعضها فأجابتهم بهذا المعنى فقالت ﴿ انكم اذا نمتم تقابلون أرواحا من جنسكم أو أعلى منكم وتعلمكم ﴾ وأكثرما أنتم عليه من حبّ أو بغض ناشئ مما تشاهدونه فى حال نومكم من أحوال لا تعلمونها فى اليقظة (اقرأه فى كتاب الأرواح تأليفى فهو واف فى هذا المقام)

(٧) واعلم أن جميع ما يصنعه الناس فى هذه الأرض لا يتم منه شئ إلا بمبدأ فكرى فكما اتجه فكر الصديق فى رؤياه وفكر الملك لما يناسبه هكذا كل عالم وحكيم على مقدار طاقته يكون منه فكر فعمل على مقتضاه إن كمال هذا العالم ﴿ بأمرين ﴾ النور السماوى والعقل الانسانى وقد اجتمعا فى رؤيا الصدّيق نور المشرقات وتنزلت على مقتضى عقله واستعداده فليعمم الناس العلم وتهذيب الأخلاق

(٨) لا يقوم العملة ببناء المنازل والحصون إلا بعد تفكير المهندسين . ولا يظهر اختراع إلا بعد فكر المخترعين . هكذا لا يكون هذا العالم ولا يبرز إلا بعلم تقدّم وجوده والله عليم حكيم . فالفكر مبدأ العمل والأعمال بالنيات التى تقدّمتها وحال الانسان فى البرزخ مقدمة لحال أخرى بعدها كما أن حاله فى الدنيا مقدمة لحاله فى البرزخ . وذلك نظير حال يوسف الصدّيق والملك إذ كانت حال كل منهما فى يقظته مقدمة لحاله فى رؤياه التى تشبه حال الناس فى البرزخ بعد الوفاة وحالهما فى تلك الرؤيا مقدمة لما بعدها من ظهور مصداقها فى الوجود الذى يشبه حال البعث للناس . فللناس حياة فبرزخ فبعث وكلها متشابهة متلازمة كما تشابهت وتلازمت حالهما فى يقظتهما ونومهما ومصداق رؤياهما والله عليم حكيم

(٩) ﴿ لطيفة فى ذكر حالى فى مبدأ حياتى ﴾

اعلم أنى كنت وأنا فى حال الطفولة أقول فى نفسى (١) ياليت شعرى لم لا يكون الناس كلهم أسرة واحدة يساعد بعضهم بعضا (٢) ثم انى أجد فى نفسى نزوعا الى أمر عظيم فأحسّ بان هناك مجدا أوملكا قد فقده قومى وأريد ارجاعه وهذا كان أمرا مبهما جدّا فى النفس ولكن الخاطر كان شديدا والباعث قوىّ الهجوم . وأتذكر أنى مرة نظرت حولى وقلت أين ذلك الملك الذى أرجعه وأنا لا أرى فى قريتنا ولا فى أسرتنا أثرا لهذا الملك وكنت أعجب من هذه الخواطر الهاجة القوية التى لا تستند على شئ أراه فى قريتنا ولا فى أسرتنا إذ لا أرى إلا المحاريث والفؤس والبهائم والزرع والشجر ولا ملك ولا دولة أرى أثرهما . فلما قرأت فى الأزهر علم النحو والفقه (وأنا لا علم لى بأن فى القرآن الذى أحفظه بلا فهم أىّ أثر للعلم) أخذت

أنظر الى مايقرب قريتنا من الطرق الحديدية والتلغراف وأقول ياليت شعرى لماذا اختص بهذه الصناعات أمم النصارى . ولماذا لم يتعلمها المسلمون . واذا كان هؤلاء أرقى صناعة وعلما فياليت شعرى ما رأيهم فى صانع العالم . أنا لابدّ لى من الوقوف على آرائهم فى ذلك . وأقول أيضا اذا كان الله هو الذى أنزل القرآن وهو نفسه الذى خلق هذه المزارع التى أراها فى القرى . فلماذا لانسمع فى ديننا أثرا لذكرها واذا كان صانع العالم هومنزل الكتاب فكيف يذكر الصلاة والصيام والبيوع ويعرض عن ذكر المزارع والأشجار مع أن المتكلم ينطق بما يعمل وبما يصنع . كل هذا لأنى كنت أتصوّر ديننا على حسب ماتعلمت لأن الانسان أوّل مايتعلم انما يقرأ الفقه . فأما جمال الله وحكمه وبدائعه فهذه فى القرآن والمسلمون مستغنون عنها وهذا المقام وضحته فى كتابى ﴿ التاج المرصع ﴾

ولقد ظهر أثر الفكرة الأولى وهى أن العالم يكون أسرة واحدة فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ أما فكرة ارجاع المجدومسألة تقصير المسلمين فى العلوم فهى مقاصد أكثر كتبى وأهمها هذا التفسير . هذه هى الخواطر أما الرؤى التى رأيتها فقد ذكرت بعضها فى أوّل سورة الأنعام وأكثرها وهو الأهم الأكثر لا أجد محلا لذكره الآن وعسى أن ينشرح صدرى لذكره فى آخر هذا التفسير وقدكانت هذا الرؤى سببا فى تأليف هذا التفسير ولولاها لم يكن له وجود . وكان ابتداؤها فى نحو سن الخامسة والعشرين وأهمها كان مابين سنّ الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين انتهى

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

(فى البلاغة والاعتبار بالقصص عندالعرب وموازنته بقوله تعالى ـ قال هل آمنكم عليه الخ ـ)

من كتابى ﴿ المذكرات فى أدبيات اللغة العربية ﴾ صفحة (٨٠) وهذا نصه

كانت العرب تضرب أمثالها على ألسنة الهوام . قال المفضل الضبى يقال امتنعت بلدة على أهلها بسبب حية غلبت عليها فخرج اخوان يريدانها فوثبت على أحدهما فقتلته فتمكن لها أخوه بالسلاح فقالت له هل لك أن تؤمننى فأعطيك كل يوم دينارا فأجابها الى ذلك حتى أثرى ثم ذكر أخاه فقال كيف يهنأ العيش بعد أخى فأخذ فأسا وسارالى جحرها فتمكن لها فلما خرجت ضربها على رأسها فأثرفيه ولم يسمعن فطلب الدينار حين فاته قتلها فقالت له مادام هذا القبر بفنائى وهذه الضربة برأسى فلست آمنك على نفسى * فقال النابغة الذبيانى فى ذلك

تذكر أنى يحدث الله فرصة * فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما وقاها الله ضربة فأسه * وللبر عين لاتغمض ناظره
فقالت معاذ الله أعطيك اننى * رأيتك غدارا يمينك فاجره
أبى لى قبر لايزال مقابلى * وضربة فأس فوق رأسى فاقره

وقال الله تعالى ـ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خيرحافظا وهوأرحم الراحمين ـ وقال فى هذا المعنى ـ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون ـ وقال أيضا ـ ولورحمناهم وكشفنا مابهم من ضرّ للجوا فى طغيانهم يعمهون * ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرّعون ـ انتهى . وهذه الأبيات كنت خمستها منذ بضع عشرة سنة وهاهى ذه

سعت حية يوما لتسكن قرية * فأودت سرى القوم باللدغ بغتة
فنادى أخوه للمشورة فتية * تذكر أنى يحدث الله فرصة
* فيصبح ذا مال ويقتل واتره *

فأعطته ما لاتتقى شرّ بأسه * وأفضل مال المرء فدية نفسه
ففاجأها بالفأس بعد لتحسه * فلما وقاها الله ضربة فأسه
* وللبر عين لاتغمض ناظره *
انى طامعا فى المال يعدو ولم بن * فقالت نقضت العهد ظلما وختنى
فقال وربى لا أسيء لمحسن * فقالت معاذ الله أعطيك اننى
* رأيتك غدّارا يمينك فاجره *
أما كان يغنى أن حبوتك نائلى * أليس جزائى أنك اليوم قاتلى
وهل يحسن الانسان يوما لصائل * أبى لى قبر لايزال مقابلى
* وضربة فأس فوق رأسى فاقره *

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ـ ربّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ـ الى قوله ـ وألحقنى بالصالحين ـ ﴾

اعلم أن هذه الآيات قد جاء فيها ملخص السورة وملخص حياة الانسان ومماته وعلومه . ذلك أن الانسان فى هذه الدنيا يسعى لاصلاح الجسد واصلاح النفس . ثم إن جميع العوالم التى تحيط به إما علوية واما سفلية والعلوم انما هى شرح لهذه العوالم والأحوال لاتعدو أمرين إمادنيا واما أخرى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ (١) الجسم والروح (٢) والعالم العلوى والسفلى (٣) والدنيا والآخرة فأشار للأوّل بقوله تعالى ـ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ـ فالأوّل للجسم والثانى للروح . وأشار الى الثانى بقوله تعالى ـ فاطر السموات والأرض ـ والى الثالث بقوله ـ أنت وليى فى الدنيا والآخرة ـ ثم ان قوله ـ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ـ هوملخص حياته فان أيام الجبّ وأيام السجن كانت محنة تخللها علمه بتأويل الأحاديث ويلى ذلك أنه أعطى الملك . فهاتان الجلتان ألمتا بتاريخ حياته . فاما قوله تعالى ـ فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ـ فما هو إلاملخص سورة الفاتحة . أليست الفاتحة ثناء ودعاء وثناء الفاتحة حمد الله على نعمه التى أنعم بها على جميع العوالم العلوية والسفلية . أفليس نداء الله بانه فاطر السموات والأرض هو عين الحمد وما الحمد إلا ثناء بجميل لأجل جميل حصل من المحمود راجعا الى الحامد أوغيره وههنا ينادى ربه أنه فطر السموات والارض . وهذه الجلة يدخل فيها جميع العلوم فان العلوم الرياضية والطبيعية والالهية لاتخرج عن هذه الجلة إذ العلوم كلها ترجع للسموات والارض فهذا هو الثناء أما الدعاء فى الفاتحة فهوطلب الهداية الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم . وههنا يقول ـ أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ـ فالولاية لله عليه فى الدنيا والآخرة وطلبه من الله أن يتوفاه مسلما راجع الى طلب هداية الصراط المستقيم وقوله ـ وألحقنى بالصالحين ـ يقابل ـ صراط الذين أنعمت عليهم الخ ـ

﴿ مقاصد الدعاء والثناء فى دين الاسلام ﴾

الأمم الاسلامية أمرت بالثناء فى أوّل الفاتحة وفى أوّل التشهد فيثنى المسلم على ربه أنه هو الذى ربى العالمين وفى تشهده بأن التحيات والتعظيمات والمباركات والصلوات والطيبات خاصة بالله وفى ركوعه فينزّه الله ويصفه بالعظمة ويظهر له الخشوع فى سمعه وبصره ومخه وعظامه وعصبه وما استقلت به قدمه وفى رفعه واعتداله فيصف الله بأنه محمود حمدا يملأ السموات والارض ويملأ مابينهما ويملأ ما يشاء الله بعد ذلك حتى يشمل العوالم السديمية التى ظهر كشفها والتى لم تعلم بعد . وهكذا فى سجوده فينزّه ربه الأعلى ويقول المؤمن ان وجهه سجد للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره . هذه أهم أنواع الثناء التى يقولها المسلم فى

صلاته . وكل هذه ترجع الى قول يوسف ـ فاطر السموات والارض ـ وأما دعاء المسلم فهو طلبه الهداية الى الصراط المستقيم وهكذا فى قنوت الصبح فانه يطلب الهداية والمعافاة وأن يتولاه الله و يبارك له فيما أعطاه و يصرف عنه الشرّ الخ وهكذا فى الجلوس بين السجدتين فهو يطلب المغفرة والرحمة والرزق والهداية والعافية فههنا ﴿ أمران ﴾ فى كلام يوسف ثناء ودعاء . وأمران فى صلاة المسلم ثناء ودعاء . وانظر وتعجب ثناء يوسف أكثر من دعائه وثناء المسلم أكثر من دعائه . أثنى يوسف بست عشرة كلة ودعا بأربع كلمات فثناؤه ربع دعائه . وهكذا المسلم ثناؤه أكثرمن دعائه فهو يثنى فى الفاتحة وفى الركوع وفى الرفع وفى السجود الأوّل وفى السجود الثانى وانما يدعو فى بقية الفاتحة وفى الجلوس بين السجدتين وفى القنوت . إذن الثناء أكثر من الدعا نتيجة هذا المقال

﴿ العبادة جسم روحها العلوم ﴾

من تتبع هذا التفسير أدرك أن جميع أنواع العبادات انما جعلت لبعث الهمم الى العلوم والعلوم هى المقصودة من وجود هذا الانسان فلا دنيا إلا بالعلوم ولا آخرة إلا بالعلوم . لذلك كثر الثناء فى قول يوسف وكثر فى صلاة المسلم ولامعنى للثناء إلا على نعمة ولا ثناء على نعمة إلا اذا عرفها المثنى فالمسلم الذى يحمد ربه لأنه ربى العالمين والذى يتكلم عن السموات والأرض ومابينهما وعن أعضاء جسمه من سمع و بصر ومخ وعظم الخ هذا المسلم اذا ظنّ أن تكرار هذه الألفاظ هو الذى يرقيه عند ربه و يقرّبه منه فانه مخطئ . نعم هذه الألفاظ أنطق بها عباده مع استحضار الخالق فذلك فيه ثواب العبادة وثواب العبادة أشبه بجسم ولكن التحقق من المعنى هو الروح ولا يتحقق المعنى إلا بالدراسة والتأمّل والتفكر . الله أكبر جلّ العلم وجلّ الدين . اللهم انك أنت الذى أوحيت بدين الاسلام وأنت الذى خلقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين والدول المحيطة بنا وأنت الذى أنزلت فى القرآن مئات الآيات للحث على العلوم جميعها ولكنى أرى انك أتيت لنا بأمر أعجب أمرتنا بالصلوات فكررناها صباحا ومساء والصلوات فيها ملخص علوم الأمم التى تحيط بنا وفيها ملخص علوم القرآن . يثنى المسلم على ربه بخلق العالم العلوى والعالم السفلى و يثنى عليه بأنه خشع له سمعه و بصره الخ وأنه سجدت له جميع الأعضاء التى للحسّ والتى للحركة . كل ذلك يقوله المسلم فى صلاته والمسلم غافل لا يقرأ تلك العلوم . تلك العلوم التى ملأت أوروبا وأمريكا واليابان والصين وهى التى يكرّرها فى صلواته صباحا ومساء و يكرّرها فى القرآن والله يقول ـ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ ومن القرآن مايقرأ فى الصلاة . اللهم إن الصلاة عبادة والعبادة روحها الفكر والفكر فى الصلاة يهدى الى العلم وكيف يكون حمد المسلم وثناؤه على ربه مجديا حيا إلا اذا هداه لدراسة مصنوعاته وجمال خلقه فى هذه الدنيا . إذن يكون حمده مستندا الى حقائق علمية ومشاهد طبيعية جميلة والى بدائع هذا الوجود الذى درسته الأمم حولنا ونحن ساهون لاهون . فياليت شعرى هل يظنّ المسلم أن كلمات يكررها صباحا ومساء بلا عقل ولا هدى ترفعه فى الدنيا والآخرة . اللهم إن ما حلّ بالمسلمين اليوم هو عين ما جاء فى قوله تعالى ـ فو يل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ـ فالمسلمون اليوم يصلون وهم عن صلاتهم ساهون . سهوا عن الصلاة فلم يتدبروها ولو تدبروها لأدركوا أن الثناء على الله بلا علم بما فى العوالم العلوية والسفلية من العلوم كلا ثناء . فالويل اليوم حلّ بالمجموع الاسلامى لجهالته بما تفيده الصلاة من تضمنها دراسة العلوم جميعها . وليس معنى هذا أن كل امرئ يعرف جميع العلوم فهذا مستحيل بل القصد أن تكون العلوم العامّة فى الأمّة بحيث يدرس كل امرئ مايقدر عليه فالعامة يعرفون ظواهر العجائب بالتعليم الأوّلى و بعد ذلك تكون درجات العلماء . هذا ما عنّ لى فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

﴿ الجوهرة الثالثة فى نفس هذه الآية وهى ـ ربّ قد آتيتنى الخ ـ وذلك بهجة العلم و برد اليقين ﴾

ما أعجب الحكمة والعلم وأبهجهما . أنظر الى أوائل سورة يوسف وأواخرها . الأوّل هو الآخر . فيها مايشبه ردّ العجز على الصدر عند علماء البديع . أوّل ماخطر ليوسف فى حياته وقت النوم اشراق الشمس والقمر والكواكب وقد أوّل ذلك بما يناسب هذه الدار من الأنساب الانسانية . فأما فى الحياة الأخرى فقد ضرب القمر والشمس مثلين لله عزّ وجل . انظر فى حديث الرؤية المذكور فى سورة الأنفال إذ جاء فيه أن الله يرى كالشمس ليس دونها سحاب فى حديث أبى داود وانه يرى كالقمر فى حديث أبى رزين . الشمس أشرقت والقمر ليوسف فى أوّل حياته مناما . فلما أن ختم الحياة خاطب الله قائلا يافاطر السموات والأرض فذكر السموات والسموات موضع اشراق الشمس والقمر والكواكب المذكرات بالله كما كان شمسها وقمرها مذكرين بالوالدين فى أوّل الحياة * ففى الحديث ﴿ اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى ﴾ وهذه الذكرى هى التى يقولها المسلم فى كل صلاة — وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين — يقول الله تعالى لنبيه ﷺ — فبهداهم اقتده — فنحن من باب أولى فكان ﷺ يقوم فى آخر الليل و يقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران وهى قوله تعالى — إنّ فى خلق السموات والأرض الخ —

إنّ المسلم فى هذه الحياة الدنيا مأمور أن يتجه قلبه لله ولكن الله لايرى له هنا فكيف يتجه لمن لايراه انما يتجه الانسان لمن يحبه والمحبوب فى الدنيا يرى والله لايرى فى الدنيا فتوجهت العناية الى صفاته وصفاته تعرف بآثاره وآثاره أجلاها المشرقات العلوية لهذا قال يوسف يافاطر السموات والأرض وقال المسلم — وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا الخ —

إن ذلك داع حثيث لمعرفة العلوم كلها . السموات اجمالا والأرض اجمالا لايهيجان القلوب الى خالقهما وانما التفصيل بالحكمة والعلم هما الشائقان لمبدعهما . إن ذكر السموات والأرض على لسان المسلم فى كل صلاة على طريق العبادة فتح لباب العلم . الله أكبر العبادة فى الاسلام دروس علمية جهلها أكثر المسلمين

﴿ الله والشمس ﴾

جلّ الله صانع الشمس . اذا كان الله عزّ وجل لانراه فقد فتح حديث الرؤية لنا باب المثال إذ مثل بالشمس ومثل بالقمر . الشمس تصبح كل يوم ولديها خزائن النور فتنثرها على سياراتها وأرضها والأقمار الدائرات حول تلك السيارات ولايحظى بذلك النور إلا مايقابل وجهها . أما الذى لايقابل من الأرض ومن السيارات ومن الأقمار ومن المذنبات فليس له حظ من النور بل هو فى ظلام حالك . النور الذى تنشره الشمس على هذه السيارات وعلى توابعها يجرى فى فضاء شاسع وماهو إلا حركات فى عالم الأثير لا اشراق لها بل هو ظلمات . إن الجوّ الذى بين أرضنا و بين الشمس البالغ بسير قلة المدفع (١٢) سنة و بسير القطار البخارى (٣٦٥) سنة تقريبا مظلم كله فالنور الذى قذفته الشمس لايرى فى تلك المسافة وماهو هنالك إلا حركات فى ظلمات حالكات وتلك الحركات تنقلب على الأرض فجأة نورا ساطعا مشرقا هكذا الله عزّ وجل يرسل الادراك والغرائز والمواهب العقلية من عالم قدسه ومهابط وحيه لايحجب عنها أحدا فهو دائما وهاب لتلك القوى السامية كما أن الشمس وهابة للنور دائما . فكما أن الشمس لايحظى بنورها إلا مااتجه لوجهها من المخلوقات الأرضية مثلا . هكذا لايحظى بالكمال الادراكى من هذه العوالم الحية من حيوان وانسان أحد إلا على مقدار استعداده . الله بذر فى العوالم بذور الادراك و بثها فيها فليس بمانع عطاءه عن أحد كما أن الشمس أرسلت أضواءها لم تحجب عنها أحدا من توابعها فأخذ كل حيوان منه على مقدار طاقته فنظم النمل جمهوريته والنحل مملكة قفيره والغربان جمهوريتها وهكذا كل حيوان . هكذا الانسان قبل من ذلك النور العقلى على مقدار ما استعدّ له فلم يتنزّل الى درجات البهائم ولم يتعال حتى يدبر العوالم العلوية والسفلية بل أخذ على مقدار استعداده . الله ضرب بفعله الشمس مثلا لنوره و بهذا المثل أدركنا أن عطاءه دائم وذلك من

دوام اشراق نور الشمس وكما أن اظلام ناحية من نواحى الأرض والقمر والسيارات لم يكن من نفس الشمس وانما كان من انحراف تلك الناحية عن وجه الشمس . هكذا نقول هنا ليس حجب العلم والحكمة عن المعادن وعن النبات وعن الحيوان لامساك وبخل من الله بل ذلك لعدم استعداد هذه المخلوقات لتلك النعم فلم يمنع النمل عن علم الأنبياء ولا الأسد عن عمل خلايا النحل ولا النمل عن بناء القصور الانسانية إلا أن ذلك ليس من مصلحتها فى شئ والمصالح تابعة للاستعداد كما كان من منافع الأرض أن تظلم أوجهها تارة وتضىء أخرى ولو دام أحدهما لهلك من عليها . فقول المسلم وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ليس يراد به الوجه الجسمى لأن الله ليس بجسم وانما التوجه الجسمى يصح فى توجه الأرض والسيارات والأقمار للشمس فهذه اذا توجهت نحوها استضاءت بنورها . إذن هذا التوجه روحى عقلى فالتوجه فى كل شئ بحسبه فى الأجسام جسمى وفى الأرواح روحى والتوجه الروحى بحصر الفكر وحصر الفكر له مقدمات ومقويات فالركوع والسجود والقراءة وما أشبه ذلك كلها مساعدات على ذلك التوجه والتفكر فى ملكوت السموات والأرض الذى كان ﷺ يفعله فى سحر كل ليلة إذ يقوم ويقرأ آية ـ إنّ فى خلق السموات والأرض من أهم أسباب التوجه لله ونحن الذين لسنا أنبياء لاتكفينا تلك النظرة فى السحر بل علينا دراسة العلوم كلها فى السموات والأرض على سبيل فرض الكفاية من جهة وهكذا يدرس كل مسلم من تلك العلوم متى كان قادرا عليها كل مايزيده شكرا لربه ومعرفة لقوله تعالى ـ وقل ربّ زدنى علما ـ ولقوله تعالى أيضا ـ واشكروا لى ولاتكفرون ـ ويوضح ذلك قوله هنا بعد آيات ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ فهذه الآية تعرفنا معنى ـ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ـ فليس توجيه وجهنا لله من حيث نفس ذاته لأنه ليس فى طاقتنا بل ذلك للنظر فى آياته التى وبخنا على اعراضنا عنها فى هذا المقام فيوسف توجه لله بآياته فى السموات والأرض ورسول الله توجه له بذلك وهكذا المسلم . إذن الصلاة فى الاسلام مفتاح العلوم لهذا تأخر المسلمون عن الأمم لأنهم لم يفهموا صلاتهم يصلون وأكثرهم لايعقلون مايقولون . يتوجه المسلم فى الصلاة ويقول ـ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ـ وهو فى الوقت نفسه معرض عن السموات والأرض والله تعالى يوبخه قائلا ـ وكأين من آية فى السموات والارض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ

﴿ خطاب للمسلمين ﴾

أيها المسلمون . هل يعجبكم هذا . هل يعجبكم أنكم عشتم قرونا وقرونا وأنتم تصلون وتقولون باللفظ انكم وجهتم وجوهكم للذى فطر السموات والأرض وفى الوقت نفسه يقال لأكثرنا انكم معرضون عن الآيات فى السموات والأرض . اللهم اليك المشتكى . دين تكون صلاته مذكرة بجميع العلوم بل فيها مفاتيحها ومامفاتيحها إلا عجائب السموات والأرض التى اندمجت فى سورة الحمد إذ الحمد على النعم والنعم هى جميع هذه العوالم فكيف يكون تابعوه أجهل الأمم بعلومه المذكورة فى سورة الفاتحة . ولما علم الله أن الناس ربما لايفطنون لهذه العلوم من سورة الحمد أنزل على نبيه ﷺ وأوحى اليه أن يقرأ ـ وجهت وجهى الخ ـ فى أوّل كل صلاة وأنزل فى هذه السورة أن يوسف قال ـ فاطر السموات والأرض ـ وأتبعه بما يشبه التفسير له إذ ذم القوم الذين أعرضوا عن الآيات التى فى السموات والأرض فكأنه بهذا يبين قول يوسف ـ فاطر السموات والارض ـ وانه ليس معرضا عنهما فهو مقبل عليهما وبهما يتوجه لله فاذا قال المسلم ـ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ـ ثم هو فى الحال معرض عن الآيات فى السموات والأرض ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ يجهل هذه العوالم التى نعيش فيها فهذا هو باب غضب الله عزّوجل عليه لأنه صار كاذبا فى قوله فهو يقول انه وجه وجهه لفاطر السموات والارض ولامعنى لهذا التوجه إلا بالاقبال على الآيات فيهما وهو لم يقبل . إذن

نحن

نحن فى هذا كالـكاذبين أوكالساخرين وان كنا لانقصد لذلك تأخر المسلمون وانحطوا وتقهقروا لأنهم أعرضوا عن الآيات فى السموات والأرض فكأنهم استهزؤا بآيات الله لاعراضهم عنها ولأنهم اتجهوا لفظا ولم يتجهوا فعلا بالعلم . هذا هوالذى فتح الله به فى هذا المقام ولعل هذا من أسباب أن هذه السورة أحسن القصص ذلك لأنها أبانت حال المسلمين الآن إذ تبين أن السورة بأكملها رجعت الى اشراق المشرقات فى منام يوسف وانتهى ذلك بصدق الرؤيا ثم انتقل الأمر الى التوجه لله بالنظر فى آياته المشرقات فى السموات والأرض والمسلم هكذا توجهه كما توجه الصدّيق وتبع ذلك ذم المعرضين عن آيات السموات والأرض والمسلم اليوم اتجه لفظا فى الصلاة ولم يتجه عقلا فحرم من ميراث الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض فأرسل الله عليه الأمم فأذلته . المسلم اليوم جاهل والله يعاقبه فى الدنيا بتألب الأمم عليه . وهاهوذا الآن أخذ يقبل على العلوم جميعها وهذا التفسير من مقدّمات تلك النهضة وسيرقى المسلمون قريبا ـ ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز ـ

﴿ تذكرة بهية فى الخليل عليه السلام وقوله ـ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات الخ ـ ﴾

لقد تبين لك أن توجه يوسف للذى فطر السموات والأرض الخ موافق لتوجه المسلم فى صلاته كذلك وأزيد الآن أنه قد تقدّم فى سورة الأنعام قول الله تعالى ـ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ـ هنالك أخذ الخليل يدرس النجم والقمر والشمس ولما أتمّ ذلك قال ـ إنى وجهت وجهى الخ ـ أليس ذلك معناه أن اليقين انما يكون برؤية ملكوت السموات والأرض . أولست ترى أنه لاتمكن رؤية ملكوت السموات والأرض إلا بدراسة العلوم فى هذه الأرض التى نسكنها ولذلك الاشارة بدراسة الخليل هذه الكواكب . أولست ترى أن الخليل عليه السلام لم يقل ـ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض إلا بعد دراسة ملكوت السموات والأرض بحسب طريقته

ههنا تبين لك أيها الذكى أن ماذكرته فى هذا المقام استنتاجا جاء فى قصة الخليل صريحا فانه نظر فأيقن فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض وبهذا توقن أن قول المسلم ـ إنى وجهت وجهى الخ ـ لايتم له اذا كان قادرا على التعلم إلا بدراسة هذه الدنيا التى نعيش فيها فبهذا يكون المسلم متوجها لربه لأنه درس السموات والأرض فأما التوجه اللفظى فهو قليل الجدوى عديم الفائدة . هذه هى المسألة التى تخطتها الأمم الاسلامية فجمدت قرائحها فبارت تجارتها وضلت طريقها وكانت غالبا من الغافلين . ولما كان هذا المقام من أهم مافى القرآن ورد بعد ذلك فى الأنعام مايؤيد ذلك مثل (١) قول ابراهيم ـ أتحاجونى فى الله وقد هدان ـ ومثل (٢) ـ نرفع درجات من نشاء إنّ ربك حكيم عليم ـ (٣) وفى آية أخرى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ فهذه الدرجات المذكورة هنا كالتطبيق على ذكر درجات أولى العلم لأن الخليل علم نظام الكواكب والشمس فارتقى ومثل (٤) انه ذكر ذرّية الخليل وهم الأنبياء وختم المقال بقوله ـ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ـ ولم يجئ فى القرآن جملة بهذا النص إلا فى هذا المقام للاشارة الى أن الايقان وقراءة علوم هذه الدنيا وعلوم الفلك وغيرها ذات مقام سام ومنزلة رفيعة فلذلك أمره بالاقتداء بالأنبياء من ذرّية ابراهيم و بأبيهم ابراهيم . بهذا تفهم أن قول المسلم فى الصلاة ـ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ ـ لايكون تاما إلا بعلمه بهذا النظام الذى نعيش فيه كما فعل الخليل نظر فدرس فتوجه والحمد لله رب العالمين انتهى

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى ـ إنّ ربى لطيف لما يشاء ـ ﴾

اعلم أن لطف الله عزّ وجل سار فى كل مخلوق ولكن الاجمال شئ والتفصيل شئ آخر . ان معرفة هذا اجمالا لاتفيد فالناس يحيط بهم اللطف ولكنهم لايفطنون والتفطن لبعض المخلوقات يفتح بابا واسعا للناس وأى

مورد لك الآن بعض ما ستقرؤه فى سورة النحل عند قوله تعالى ـ وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ـ فسترى هناك أن اللؤلؤ ﴿ ثلاثة أنواع ﴾ طبيعى ومولد وصناعى فلا أطيل الآن فى بيان هذا لأنك ستقرؤه هناك وانا أذكر لك كيف ظهر لطف الله فى هذا . ذلك أولا أن الجير والفحم انما هما مادتان حقيرتان معروفتان ولكن حسن الوضع وجمال الصنع هما اللذان جعلا هذا المنبوذ المحقور جوهرة بديعة فان اللؤلؤة انما هى كربونات الجير فالجير معروف والكربون هو مادة لحمية والمادة الفحمية منها وقودنا وسير قطرنا وادارة آلاتنا للطحن والخبز و بقية أنواع الحياة ومنها دهننا ودهن الحيوان . فانظر كيف ظهر لطف الله بحسن الصنعة حتى صار الفحم تارة دهنا وأخرى نورا فى شوارع القاهرة مثلا وأخرى أنواعا من الصباغة وآونة يظهر بهيئة جميلة فى أجياد الغادات الحسان . إن هذا العالم الذى نعيش فيه يرجع أوله وآخره الى اللطف وحسن الصنعة والتفنن وهذا هو السحر الحلال

أنظر الى هذا اللطف فى اللؤلؤ الطبيعى واللطف فى اللؤلؤ الصناعى الذى ستقرؤه فى سورة النحل أيضا فسترى هناك أن مادة لماعة خلقها الله على جرم السمك لأجل أن يكون نورها الفضى المنعكس من فوق بطن السمكة مغشيا على أعين أعدائها فيكون ذلك وقاية للسمكة . فانظر كيف عرف رجل فرنسى هذه الخاصية فاستخرجها من فوق جلد السمكة وطلا بها الزجاج فصار ذلك الزجاج أشبه باللؤلؤ الطبيعى . ذلك كله باللطف وحسن الصنعة . فالله أعطى السمكة فى البحر هذه المادة لتحفظها من أعدائها بقوة شعاعها والانسان استعملها لتكون بهجة وجمالا للغادات الحسان . هذا من معنى قوله ـ إن ربى لطيف لما يشاء ـ فقد ظهر لطفه فى الفحم المتنوع استعماله وفى هذه المادة السمكية التى تحفظ السمكة من عدوها وتجلب للغادات الحسان من يعشقها فتلد منه البنين والبنات حفظا و بقاء لنوع الانسان . ها أنت ذا رأيت بعض لطف الله فى اللؤلؤ فانظر فى سورة يوسف التى نحن بصدد الكلام عليها فانك تجد اللطف فيها كاللطف فى خلق اللؤلؤ وهاك البيان

ألم تر أنه اشتق من بلوى يوسف وذله بحسد اخوته ورميهم له فى غيابات الجب نعمته وعزه بادارة ملك مصر ولولا هذه البلوى وهذا الذل لم ينل هذا المجد والشرف . واشتق من سجنه سبع سنين قربه من الملك وتمام النعمة بالملك . أليس ذلك هو عين ما رأيت فى اللؤلؤة الطبيعية فان الجير والكربون أى الفحم مادتان حقيرتان فهما فى حقارتهما أشبه بما أحاط بيوسف من حسد اخوته ورميه ثم سجن العزيز له ثم اشتق من ذلك الذل عزه بالملك كما اشتق من هاتين المادتين الجمال والبهاء وغلو الثمن والمجد فى اللؤلؤ . فكما ظهر لطف الله فى قصة يوسف ظهر لطفه فى جميع المخلوقات الطبيعية فكلها انما ترجع الى اللطف فهذا فتح باب لفهم معنى قوله تعالى ـ إن ربى لطيف لما يشاء ـ

واعلم أن اللطف محبوب عند عقول النوع الانسانى فترى الجاهل والعالم كلاهما مغرم بادراك أسرار اللطف ولذلك ترى الجهال والمتوسطين من هذا النوع الانسانى جميعا مغرمين بقراءة الروايات التى يخترعها الناس لما يرون فيها من حسن التلطف والتحيل وادخال العجائب فى وقائعها . ذلك لأن هؤلاء يعجزون عن ادراك اللطف فى الطبيعة التى يعيشون فيها فلذلك يلجؤن الى مايتخيله الناس فى الروايات حتى يعرفوا شيأ من اللطف الذى جبلوا على حبه وهم لايشعرون

واعلم أن الأرواح الانسانية انما هى لطائف نورية سماوية فلذلك تهش وتفرح بتلك العجائب اللطيفة و بينها و بين خالق هذا العالم صلة وان كانت محجوبة عن تلك الصلة . والدليل على ذلك أن الانسان متى سمع قولا أوتكلم هو دخلت معانى ذلك الكلام بهيئة صور ترسم فى النفس فيشعر الانسان بتلك الصور ولايعرف كيف رسمت ولامن أين جاءت . فاذا سمع لفظ شمس أوقمر أوشجر أوأسماء أوأراضى رسمت

الصور حالا فى نفس الانسان فكأننا نحن فى هـذه الأرض عالم كبير . فاذا كان الله يخلق الخلق بحيث اذا قال له كن كان أى حصل ووجد فعلا بحيث نراه ونلمسه ونعقله فهكذا أرواحنا التى هى فى أصل نشأتها من نور إلهى لها قدرة عظيمة جدّا وان كنا لانشعر بتلك القدرة المستمدّة من موجد نورنا الممدّ لنا وهو الله سبحانه وتعالى فاذا سمعنا قولا أوتكلمنا به رأينا نفوسنا قد أظهرته فى ألواحها . إذن نحن مملكة واسعة الأطراف وكل روح من أرواحنا توجد بأسرع من لمح البصر عوالم وعوالم فى خيالنا ونحن لانفهم هـذا السرّ بل نحقره ونقول إنه خيال . نعم هو خيال ولكن هذا الخيال أمر عجيب . إن هذا الخيال وسرعته ونقش الصور التى لانهاية لها فى أدمغتنا كل ذلك من لطف الله المذكور فى هـذه الآية - إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم - فهو لطيف وعليم وحكيم ومن لطفه وعلمه وحكمته أن فطرنا جميعا على هيئة متجانسة من حيث اننا نرسم فى نفوسنا صورا سريعة ثم نرسم أخرى وأخرى وهذا هو عين ما نشاهد فى هذا العالم فهو صور تتلوها صور وهكذا الى الأبد ونفوسنا نقرأ فيها فنرى فيها نفس هذا العالم المشاهد كله ونحن نمحوه ثم نجدّده ونمحوه ثم نجدّده مشاكلة لما يفعله الله تعالى كأن هـذا رمز الى أن هناك بينكم و بين صانع هـذا العالم صلة خفية والفرق بين قدرتكم وقدرته كالفرق بين عوالم الخيال وعوالم الحقيقة فالعوالم التى نعيش فيها حقيقية والعوالم التى فى خيالنا مجازية فتكون النسبة أشبه بنسبة الوجود الى مايشبه العدم وهذا هو المذكور فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام إذ قال الخضر مامعناه ﴿ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى جانب علم الله إلا كمقدار ما أخذ هذا الطائر من ماء البحر﴾ . واذا كنا نرى ربنا يوم القيامة فمبدأ الرؤية موجود فى الدنيا وهو الاستعداد العظيم الكامن فى نفوسنا فهى بهذه القدرة العجيبة الخيالية قادرة أن تسرع فى التعلم والتعقل حتى يقوى علمها فتخلق لها فى الآخرة أعين روحية بها تعاين الله وهذا كله من قوله تعالى - إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم - فقد ظهر لطفه فى المادّة فاستخرج من موتها حياة للانسان وعلما حتى صار كأنه عالم يشبه العالم الكبير وهو يوما سيرى ربه وهذا أعجب اللطف فهو لطف أجل وأبدع من لطف الله فى اللؤلؤ الطبيعى واللؤلؤ الصناعى لأن ذلك لطف فى المحسوسات استخرجه من الفحم ومن الجير ومن موادّ أخرى . ولكن اللطف فى استخراج العقول الكاملة التى تستخرج من بواطنها عوالم مثل هذا العالم الذى نعيش فيه . فهذا لطف أعجب وأكمل وأجل . ذلك كله من قوله تعالى - إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم -

﴿ جوهرة السورة كلها ﴾

أيها الذكى هاأنت اذا قرأت سورة يوسف وعرفت تفسيرها ولكن لم يكن فيها من العناية بعجائب الكون ماكان فيما قبلها من السور . لقد ازدانت السور السابقة بجواهر الكون ودرر النظام وجمال العالم ومحاسن الطبيعة وبهجة الدنيا وزخرف النبات وسعادة الحيوان برحمة ربه . أما هذه السورة فلم يكن فيها حظ من ذلك الأهم إلا ما استنتج من جمال يوسف والبحث فى جمال الوجوه وجمال النغمات وجمال الشعر وجمال الفلك ودقة حسابه . فاذا خطر ببالك ما ذكر فهاأناذا سألقى عليك قولا يبين اجمال مافيها . ثم أردفه بالجوهرة التى أضاءت فيها فكانت زينة تاجها وقرة لعين قارئها و بهجة للمفكرين فقامت مقام الآيات الطوال فى السور الأخرى وجمعت من العجائب أعلاها ومن المحاسن أبهاها فى هذه الكائنات فهاأنا ذا أتلو عليك ماوعدت وأقص عليك ماقدّمت فأقول

﴿ سياسة النفس ﴾

لقد عرفت من قصص يوسف أحسن القصص وآثاره وعالم الرؤيا والعبارة والحسد وأخباره والعشق والجمال والعفة والكمال وكيد الغانيات وعدم الغيرة فى البيوتات وذلك فى علم الحكمة هو تهذيب الشخص المسمى بسياسة النفس

﴿ سياسة المنزل ﴾

ثم إن آدابه مع أصحاب السجن وصدق قوله وما أسدى اليهم من النصائح وأورد لهم من الدرر الغوالى فى الدين وما بدا لهم من كماله و بهجة جماله وفصيح مقاله واعلامهم بما يأكلون وتفسير ما كانوا يرون فى المنام . كل ذلك أشبه بعلم تدبير المنزل ونظامه

﴿ سياسة المدينة ﴾

ثم إن حسن سيرته مع الرعية ألزمت الملك بالاقبال عليه وتسليم مقاليد الامور اليه وأصبح الجميع له لا عليه فلقد شهدن له بعد أن تناهين فى ضلال القيل والقال ونظم الدواوين وأراح الرعية ودبرالامور وأفرح الجمهور فرضى الله عليه وأرسل اخوته وأبويه اليه وخروا له ساجدين وارتد بصرأبيه اليه . كل ذلك لتحقيق رؤياه

﴿ خاتمة القصة ﴾

ثم إنه نظر نظرة الى العالم الأعلى وخاطب ربه ناظرا فى أرضه وسمواته قائلا ﴿ فاطر السموات والأرض أمتنى على الاسلام وألحقنى بأولى الفضل الأنبياء الأعلام ﴾ هذا ملخص قصص يوسف أمليته عليك اجمالا بعد أن ذكرته تفصيلا

﴿ المقصود من هذه القصة ﴾

ههنا أخذيخاطب نبينا ﷺ وهذا هو بيت القصيد فقال له إنك لم تحضر يوسف وأباه ولم تدرس ماذكرناه فأنت وقومك نشأتم أميين فالعلم عنكم عازب والدين من داركم نازح فكيف يلقى هذا إلا ما أوحيناه أو يفصله إلا ما بيناه . وههنا آن أن أريك الجوهرة النفيسة تلك هى قوله تعالى ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ـ فكأن الله يقول أيها الناس هاهوذا نبى قص عليكم أحسن القصص فاذا لم تعملوا بنصائحه الغالية ودرره الثمينة وعجائبه البديعة فليس ذلك بدعا منكم ولاخارجا عن مألوفكم فان فى السموات والأرض التى تشاهدونهما من العجائب ماتخر له العقلاء سجدا وأنتم عنها غافلون فلابدع اذا لم تعيروا قصصا من قصص أنبيائى الذين هم كزهرات فى بستان الأرض ومن جهل جمال النجوم و بهجة الشمس والقمر فما أحراه أن يجهل بعض ما فى هذا العلم كالقصص الذى أنزلناه . فبهذه الجوهرة فى السورة جمعت كل يابسة وخضراء وناطقة و بكماء من عجائب الأرض والسماء . وهاأنا الآن لا أدرى أأكتب كل علم وكل فن وكل نجم وكل شمس وكل قمر أم أدع الكتابة جانبا فى هذه الآية . فأما القسم الأول فهو محال لأن هذا العالم كله عجائب وعلم العلماء والأنبياء لاتحصيه وانما يحصيه مبدعه وخالقه وهو الحكيم العليم

﴿ علم الذرة ﴾

ولأذكر لك الكلام على الذرة فان ذرة واحدة من ذرات هذا الكون حار فيها العلماء والحكماء وتاهت عقولهم ولم يصلوا لمنتهى العلم فيها فكيف بالعالم كله . ألم تر الى ماحققه العلامة (لو بون) فيها وهو أن كل مادة تتحول الى قوة والقوة تتنوع الى ضوء وحرارة وحركة وهى وتنوعاتها ترجع الى الأثير فأصبح الرأى الحديث أن المادة تفنى ولا يكون لها وزن ومتى صارت قوة أمكن أن تصير أثيرا وهذا أمر فرضت العقول وجوده تسبح فيه جميع الكائنات و يقول إن الذرة الواحدة العلمية (التى لانستطيع رؤيتها ولاوزنها إلا بطريق المباحث العلمية الاستنتاجية) تنحل انحلالا بطيئا و يزيد انحلالها تسليط النورأوالحرارة أوالضوء عليها دهورا ودهورا فحينئذ تفنى وأسرع المواد الى الانحلال (الراديوم) فان جزأ من ألف جزء من جرام (الراديوم) يبقى دهرا وهو يشع ملايين وملايين من تلك الذرات الى أن تتلاشى مادته أخيرا أى تتحول الى قوة وهذا الانحلال والتحول لايمكن إلا بقوة عظيمة جدا فان هذه الذرات تقذفها أجزاؤها المنحلة المتحولة

الى

الى نور سرعته (٣٠٠٠٠٠) كيلومتر فى الثانية فاذن هى مستودع قوة مدهشة وهى أشد القوى المعروفة اليوم ولوأمكن العلماء تحليل المادة لنالوا قوة خارقة للعادة فلوانحل جرام من الحديد بحيث ينحل فى ثانية واحدة لوجدوا أن هذا الجرام يتحول الى قوة تعادل ستة آلاف وثمانمائة مليون حصان وهذا المقدار كاف لأن يجر قطارا حديديا حول الكرة الأرضية أربع مرات وقرر العلامة المذكور أن الكهرباء والحرارة والنور ماهى إلا انحلال للمادة فهى تتحول الى تلك الأعراض . فاضوء الشمس ولا كهرباء البطاريات ولاحرارة النار إلا أعراض قد تحول الجسم اليها . فما المادة إلا قوة متكاثفة والأثير تكاثف فى الأزمان الغابرة فصار مادة كما تتكاثف المواد الدخانية (الغازية) والعلم الآن يريد أن ينال استخدام القوة التى فى المادة فانها لاحد لها متى انحلت ومتى نلناها كانت للناس سعادة لا آخر لها . واذا كان (الروديوم) يشع فهكذا جميع المواد ستصير شعاعا ولكنه هوأسرع منها وما المسك ورائحته العبقة الذكية إلا كالرديوم ينحل الى ماهو ألطف فيصير رائحة وهذه تنحل الى ماهو ألطف فتصير ضوأ والضوء يرجع الى الأثير والأثير هوالأصل الذى فرضوه أرق من الهواء ومن الحرارة ومن الضوء * هـذا هوالمبحث الذى يدور فيه بحث العلماء الآن فاذا كان الجرام الواحـد وذراته فى الأرض وفى السماء قد حوى كل هـذه العجائب والقوى وانحل فصار حركات وحرارات وأضواء تغنى أمم الأرض بأسرها وتحمل أثقالهم وتوسع ثرواتهم فكيف يتسنى للناس ان يعرفوا جميع العجائب وأنى لهـم ذلك فاذا قال الله هنا ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها الخ ـ فان المباحث فى العجائب لا آخر لها ولاقوة لمخلوق على استقصائها . وخير ما أقوله فى هذا المقام قوله تعالى ـ ولوأن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ـ فهذا هو التعبيرالعام فى أمر العجائب ولامطمع فى استقصائه . هذا ماينبغى فى هذا المقام

﴿ بيان تقصير المسلمين فى هذه السورة ﴾

أفليست هذه الآية ناطقة بأن آيات السموات والأرض التى لاتتناهى والعجائب التى لاحصر لها من آيات الله جاء فى أول السورة ـ تلك آيات الكتاب ـ وفى آخرها آيات الأرض والسموات وقد ذم الله المعرضين عن الآيتين فاذا حللنا الآيات فى سورة يوسف وعرفنا معانيها وحللنا ألفاظها واستفدنا فوائدها فبالأحرى نحلل آيات الأرض والسموات ونستجلى فوائدها ونستخرج حكمها . هذا هوالذى جاء له القرآن فبأى حق يقتصر المسلمون على جزء من (٣٦) من القرآن وهى الآيات المختصة بعلم الفقه ويذرون بقية القرآن كقصص الأنبياء وعجائب الكون والأخلاق فلايؤلفون فيها استنتاجا وتعليما كما ألفوا فى كتب الفقه وكيف يتركون بقية آيات الله التى هى آيات الأرض والسموات . أفليس هذا هوالقرآن . أفليس هذا كلام الله والله هوالذى خلق السموات والأرض وأنزل القرآن وطلب فى سورة يوسف قراءة آيات السموات والأرض فبأى حق ساغ للمسلمين أن يناموا ويسبقهم الفرنجة الى آيات الله ـ إن الله لايغير ما بقوم ـ من الذلة والانتكاس ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ من الوسواس والوقوف عند الحواس . إن هذه الآية الكريمة بيت القصيد فى سورة يوسف ومحك العقول ومهبط الحكمة . فاذا قال يوسف بعد أن حظى بما كان يتمناه يافاطر السموات والأرض ملتجئا اليه مشيرا الى منهج الانبياء والعلماء من المقصد العلوى والمنهج الحكمى فى العلم ومعرفة حقائق الكون وأن ذلك هونهاية المطالب وحقيقة الحقائق . فقدخاطب الله نبينا ووضح له الامر ايضاحا وشرحه شرحا وضاحا فذم قوما أعرضوا عما ذرأ فى الأرض والسموات . والحق أن كل قصص وكل علم فانما هى مقدمات للمقاصد العليا من علوم العوالم العلوية والسفلية والله يهدى من يشاء . تم تفسير سورة يوسف عليه السلام

﴿ سورة الرعد هي مدنية وقيل مكية الا قوله تعالى ـ ويقول الذين كفروا الآية ـ ﴾

(وهي خمس وأربعون آية)

هذه السورة قسمان ﴿ القسم الأول ﴾ من أول السورة الى قوله ـ كذلك يضرب الله الأمثال ـ في العلوم الطبيعية وعلم التوحيد

﴿ القسم الثاني ﴾ في الأخلاق والثواب والعقاب من قوله تعالى ـ للذين استجابوا لربهم الحسنى ـ الى آخر السورة

﴿ القِسْمُ الأوَّلُ ﴾

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

المر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ * اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ *

فى هذا القسم علم الشمس والقمر والأرض والجبال والأنهار والأشجار والأزهار والنخيل والأعناب واختلاف الثمرات وتنوّع الحاصلات مع اتفاق العناصر والأنوار والهواء والماء وعلم الأجنة فى البطون واختصاصها بعلمه المكنون واستواء السرّ والعلن عند الله ونظام البرق والسحاب والرعد فى الجوّ وسجود العالم لله طوعا وكرها وظلالهم غدوّا وعشيا وكيف كان الحق يخفى أمدا طويلا ويغشيه الباطل ويحجبه عن الناظرين ثم يتجلى سناه ويظهر فى الخافقين منفعته وذلك كما فى المطر اذا سقى الأرض فامتلأ الوادى به امتلاء وغطاه الزبد ثم زال الغطاء وبقى الماء فكان للزرع نماء ولصاحبه ثراء هكذا كان العلم والدين

﴿ تفسير الكلمات تفسيرا لفظيا ﴾

قال تعالى (عمد) أساطين (ترونها) صفة عمد (ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر الخ) تقدّم بايضاح فى سورة هود وسورة يونس فالله استولى على ملكه ونفذ فيه أمره (رواسى) جبالا ثوابت من رسا الشئ اذا ثبت جمع راسية (وأنهارا) جعلت بعدها لأنها منها تنشأ (زوجين اثنين) جعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى فى أزهارها عند تكوّنها فقد أظهر الكشف الحديث أن كل شجر وزرع لايتولد ثمره وحبه إلا من بين اثنين ذكر وأنثى فعضو الذكر قد يكون مع عضو الأنثى فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار وقد يكون عضو الذكر فى شجرة والآخر فى شجرة أخرى كالنخل وما كان العضوان فيه فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا فى زهرة واحدة واما أن يكون كل منهما فى زهرة وحده . والثانى كالقرع والأوّل كشجر القطن فان عضو التذكير مع عضو التأنيث فى زهرة واحدة وسيأتى تفصيل هذا المقام فى سورة الحجر (يغشى الليل النهار) يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجوّ مظلما بعد ما كان مضيئا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة (قطع متجاورات) بعضها طيبة وبعضها سبخة وبعضها رخوة وبعضها صلبة وبعضها تصلح للزرع وأخرى لاتصلح وهكذا (صنوان) نخلات أصلها واحد (وغير صنوان) متفرقات مختلفات الاصول

(فى الأكل) فى الثمر شكلا وقدرا ورائحة وطعما وخواص (فعجب قولهم) حقيق بأن تتعجب منه (أئذا كنا ترابا الخ) بدل من قولهم (وأولئك الأغلال فى أعناقهم) مقيدون بالضلالة لا يرجى خلاصهم (بالسيئة قبل الحسنة) بالعقوبة قبل العافية إذ كان كفار مكة يطلبون العقوبة استهزاء إذ يقولون ﴿ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم ﴾ (وقد خلت من قبلهم المثلات) عقوبات الأمم أمثالهم من المكذبين أى وقد مضت من قبلهم فى الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم * والمثلة بفتح الميم وضم الثاء وفتحها نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثلا ليرتدع به غيره وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع الثاء فيهما (لذو مغفرة للناس على ظلمهم) تجاوزعن المشركين منهم اذا آمنوا (لشديد العقاب) للمصرين (لولا أنزل عليه آية من ربه) كعصا موسى وناقة صالح ـ لولا ـ أى هلا (منذر) أى ليس عليك إلا الانذار والتخويف والنصح متى ثبت أنك نبى بأى آية فقد كفى وأما اتباع اقتراحهم كأن تفجر لهم من الأرض ينبوعا أوتسقط السماء كسفا فذلك ليس عليك (ولكل قوم هاد) قائد يقودهم الى الخيرجبله الله عليه باستعداده كالأنبياء والحكماء والمجتهدين والصالحين وأنت هاد لهؤلاء . ولما كانت الآيات المقترحات لاتصلح الأمم وفوائدها وقتية وفوائد العوالم كلها ونظامها ودراستها تورث اليقين أعقبه بآيات نظام الكائنات فقال (الله يعلم ماتحمل كل أنثى) يعلم الذى تحمله الأنثى أذكر هوأم أنثى وحسن هوأم قبيح وطويل أم قصير وفقير أم غنى وشقى أم سعيد (وماتغيض الأرحام وماتزداد) يقال غاض الماء وغضته أى نقص ونقصته وازداد الشئ وازددته . والمعنى و يعلم الذى تنقصه الأرحام وتزداده (١) من عدد الولد فقد يكون واحدا أواثنين أوثلاثة أوأربعة (٢) ومن جسده فقد يكون تاما وقد يكون ناقص الخلق وهوالمخدج وقد يكون تاما (٣) ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون أكثر فتكون سنتين وأربعا وخمسا الأول عند أبى حنيفة والثانى عند الشافعى والثالث عند مالك وقد تكون أكثر من ذلك كما ظهر فى الكشف الحديث (٤) ومن دم الحيض فاذا حاضت المرأة نقص غذاء الولد لأن الدم هوالذى يغذيه واذا لم تحض يتم الولد ولاينقص فقوله تغيض الأرحام وتزداد أى فى عدد الولد وفى جسد الولد وفى مدة الحمل وفى دم الحيض زمن الحمل (وكل شئ عنده بمقدار) أى كل شئ فى السماء والأرض له وقت معين وحال معينة فلافرق بين شئ وشئ حتى نقص الولد والجسد ومدة الحمل والدم وتمام ذلك كله فليس هذا بالمصادفة العمياء بل هو بقدر (الكبيرالمتعال) العظيم الشأن المستعلى على كل شئ بقدرته (ومن هومستخف بالليل وسارب بالنهار) طالب للخفاء فى مخبأ بالليل و بارز بالنهار يراه كل واحد من سرب سروبا برز أوذاهب فى سربه ظاهرا والسرب بوزن النصر الطريق (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) معقبات جماعات يعقب بعضها بعضا من عقبه اذا جاء على عقبه ومنهم الملائكة لأنهم يعقب بعضهم بعضا فى حفظه وفى كتابة أقواله وأفعاله فهؤلاء وغيرهم يكونون من جميع جوانبه يحفظونه من المضار و يراقبون أحواله وهؤلاء المعقبات أنفسها من أمر الله لأنها حصلت بكلمة ـ كن ـ أوهى تحفظ من أمر الله كالمهلكات والممرضات العامة فى الكون فهذه من أمر الله فالحفظ منها حفظ من أمر الله وسيأتى ايضاحه (إن الله لايغيرمابقوم) من العافية والنعمة والعز والاستقلال (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من العلم والكمال والاخلاص والأخلاق الجميلة (ومالهم من دونه من وال) من دون الله من وال يلى أمرهم فيدفع عنهم السوء وهذا المعنى تقدم الكلام عليه مطولا فى سورة الأنفال (هوالذى يريكم البرق خوفا وطمعا) البرق لمعان يظهر من خلال السحاب يريه الله لنا للاخافة والاطماع فهو يشبه النعم والنقم . نخاف من الصواعق ويخاف من المطر المسافر ومن فى جرينه أى بيدره وفيه الثمر أوالزبيب أوالقمح وكذلك نخاف من المطر اذا نزل فى غير مكانه أوزمانه (وينشئ السحاب الثقال) أى بالمطر يقال أنشأ الله السحاب فنشأت والسحاب جمع سحابة وهوالغيم المنسحب

فى الهواء (و يسبح الرعد بحمده) أى يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر فيصيحون بسبحان الله والحمد لله أى يسبحون ملتبسين بحمد الله أوالرعد نفسه يدل على وحدانيـة الله وتنزيهه ملتبسا بالدلالة على فضله ونزول رحمته (والملائكة من خيفته) أى الله (و يرسـل الصواعق) الصاعقة نار تسقط من السماء (وهـم يجادلون فى الله) أى الذين كذبوا رسول الله يجادلون فى الله و ينكرون على النبى ومايصفه به من القدرة على البعث و ينكرون الوحدانية باتخاذ الشركاء وذلك بالمغالبة والمنازعة فى الخصومات وهذه الجملة حالية

روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ر بيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله ﷺ قاصـدين قتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه رسول الله ﷺ وقال اللهـم أكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته ورمى عامرا بغدة فمات فى بيت سلولية • وكان يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية وقوله (وهوشـديد المحال) أى المماحلة والمكايدة لأعدائه * يقال محل فلان بفلان اذا كايده وعرّضه للهلاك • ومنه تمحل اذا تكلف فى استعمال الحيلة (له دعوة الحقّ) أى الدعوة المجابة فان من دعاه أجاب أودعوة الصدق والتوحيد وهى شهادة ألا إله إلا الله (والذين يدعون) أى والأصنام الذين يدعوهـم المشركون (من دونه) أى من دون الله (لايستجيبون لهم بشئ) لايجيبونهم بشئ يريدونه من نفع أودفع ضرّ (إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه) أى إلا استجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لاشعور له ببسط الكفين ولاقبضهما فكيف يجيب دعاءه هكذا أصنامهم يدعونها فلاتحير جوابا (ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) فى ضياع لامنفعة فيـه فان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الأصنام لم تستطع اجابتهم (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى يسجد الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا فى الشـدّة والرخاء والكفرة كرها فى حال الشـدّة كما مرّ فى آيات كقوله تعالى ـ واذا مسكم الضرّ فى البحر ضـلّ من تدعون إلا إياه ـ وكذلك يسجد جميع مافى السموات والأرض سجود انقياد (وظلالهم) فانها تنقاد تبعا لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس فيصرفها الله بالمدّ والتقلص وسيأتى شرحه (بالغـدوّ والآصال) حال من الظلال لظهور الامتداد والتقلص فيها أكثر فى هـذين الوقتين والغدوّ جمع غداة والآصال جمع أصيل والغداة أوّل النهار والأصيل مابين العصر والمغرب (قل من ربّ السموات والأرض) خالقهما ومتولى أمورهما (قل الله قل أفتخذتم من دونه أولياء) أى أبعـد أن علمتموه ربّ السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة (لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا) لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضررا عنها فكيف يستطيعون لغيرهـم وقدآثرتموهم على موجد الأحياء مقدّر الآجال والأرزاق وهذا ضلال بين (قل هل يستوى الأعمى والبصير) الكافر والمؤمن أومن لايبصرشيأ ومن لايخفى عليه شئ (أم هل تستوى الظلمات والنور) الشرك والتوحيد (أم جعـلوا لله شركاء) بل أجعلوا والهمزة للانكار (خلقوا كخلقه) أى خلقوا مثل خلقه والجملة صـفة شركاء فهم إذن لم يتخذوا لله شركاء قد خلقوا مثـل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) أى فاشتبه عليهـم مخلوق الله بمخلوق الشركاء أى ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر بل اذا تفكروا بعقولهـم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء والشركاء أنفسهم مخلوقون له أيضا فلم يخلقوا شيأ حتى يشـتبه خلق الله بخلق الشركاء • فالحجة إذن قد لزمت المجادلين (وهو الواحد القهار) المتوحد بالالوهية الغالب على كل شئ (أنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فسالت اودية) أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ثم استعمل فى الماء الجارى فيه مجازا (بقدرها) بمقدارها على ماتقتضيه المصلحة (فاحتمل السيل زبدا) الزبد مايعلو على وجه الماء عنـد الزيادة كالحبب • وهكذا مايعلو على القدر عنـد غليانها • والمعنى فاحتمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) أى عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه • هذا مثل أوّل • المثل الثانى ان الناس يطرحون الذهب والفضة

وسائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص فى الحرارة النارية فيكون منها زبد راب كما أن الماء فى الأودية يطفو عليه زبد ويتخذ من الذهب والفضة الحلية ومن الرصاص والحديد والنحاس وما أشبهها متاع وهو مايتمتع به الناس كالأوانى من طبق وقدر وغيرها وماتحرث به الأرض أو يدفع به فى الحرب أوغيرها فهذه الفلزات يعلوها زبد وهى تذوب بحرارة النار كما يعلو الماء وهذا قوله تعالى (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أومتاع زبد مثله) فزبد مبتدأ ومما يوقدون خبر (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافى الثابت والباطل هو الزبد الطافى الذى لاينتفع به (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى ضائعا باطلا والجفاء مارمى به الوادى من الزبد الى جوانبه والجفاء أيضا المتفرق • والمعنى أن الباطل وان علا فى وقت فانه يضمحل ويذهب (وأما ماينفع الناس) وهو الماء الصافى والجوهر الجيد من الأجسام التى تذوب وهى الفلزات كالذهب والحديد (فيمكث فى الأرض) أى يثبت ويبقى ولايذهب (كذلك يضرب الله الأمثال) أى ليوضح بها المشتبهات • انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة

اعلم أن الله لما ذكر فى سورة يوسف تلك الدرة اليتيمة والجوهرة البديعة ــ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ــ وقد ذكرنا هناك أن هذه وأمثالها أهم مقاصد القرآن فلعمر الله أن من عرف هذا الجمال وتغلغل فى علم الطبيعة اعتلت نفسه أفق الفضائل وعلا فى أفق الجمال واستوى الى سماء الكمال وارتقى فكره ونما عقله وعرف ربه ونفسه وأيقن أن الخرافات التى يبتدعها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لاقيمة لها وأقبل على الله ونبذ البدع فهذه الكائنات كلفنا بها لارتقاء عقولنا

كان علماء الفلسفة قديما يقولون ليس يعرف الناس ربهم إلا اذا عرفوا علوم الرياضيات والطبيعيات حتى اذا أتموهما عرفوا ربهم • هكذا القرآن كتاب الله تعالى يكلف المسلمين أن يعرفوا مافى السموات والأرض وألا يغفلوا عنها ابتغاء ارتقاء عقولهم وا كمال صناعاتهم ومتى كملوا عقلا وجسما أدركوا خالقهم وعرفوا ماوراء الطبيعة • فلما كان هذا شأن العلوم الطبيعية وقد أشار لها فيما تقدم قبلا شرع فى هذه السورة يفصل بعض تلك العجائب تفصيلا ويأمرنا أن نشرحها شرحا طويلا فى هذا التفسير • يقول الله ــ ثم إن علينا بيانه ــ وبيان القرآن على أنحاء شتى ومنه مانحن بصدده وأن الله عزوجل قد خلق وسيخلق أناسا يتكفلون ببيان العلوم الطبيعية لارتقاء العقول أولا ثم معرفة الله • فأما من ظن من المسلمين أنه متى زعم أنه عرف الله جاز له أن ينام على المهاد ويظل خائر القوى عديم النفع فأولئك هم الكاسلون النائمون وكثير ماهم • ولقد ضل كثير من الصوفية بهذا القول وهم لايعلمون أن الله أوجب تقوية الجسم وتقوية العقل ومعرفة الله تعالى • فانظر كيف قال فى هذه السورة • إنى نظمت هذا العالم وفصلته شموسا فدارت ثم دارت ثم دارت فانفصلت من الشموس سيارات ومن السيارات أقمار وكلها دائرات فى مدارات وأنتم على أرضكم هذه ترون مافوقكم وهى تلك العوالم المحيطة بكم الملونة بالزرقة الحاملة لتلك الشموس لاتقع عليكم لحفظها فى أماكنها بنواميس عامة تسمونها الجاذبية ونحن أعلم بها فنحن نمسك السموات والأرض أن تزولا وهذا الذى أحاط بكم وعلا فوقكم من جميع الجهات هو المسمى سماء فلا عمد به رفعناها ولا قائمة بها ثبتناها ولما أتممتها فى مداراتها ونظمتها فى أفلاكها كان ذلك استيلاء عليها واقامة لأمرها وتمكنا منها فاستويت على عرشها بالحفظ والتدبير وأقمت قسطها بلا تقصير ولها حساب معلوم ونظام مرسوم وقانون مكنون فلا تجرى شمس خارج مدارها ولا أقمار فى غير شمسها وجميعها تجرى الى أجل ضربته وموعد أبدته حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات وتمزق كل ممزق وترجع الى عالم الهباء ثم يدور عليها الدور ويتم لها الأمر وأنظمها من جديد وأستوى على عرشها فى عالم غير عالمكم فأنا أدبر الأمر فى العالم العلوى تدبيرا وأفصل الآيات تفصيلا • فلئن دبرت ملكى وأحكمت نظامه وأقمت بنيانه لقد بينت ذلك فى كتابى

وفصلته فى تبيانى نظمت الملك والملكوت وأوحيت به ورسمته فى العقول فالأفلاك منتظمة والعقول بعلومها مرتسمة فلى الخلق فى الأول والأمر فى الثانى . واذا كان نظامى قضى أن تعرف العقول بعض ما دبرته وتعقل بعض ماخلقته فهل يكون ذلك عبثا . كلا بل ان العقول متى أدركت الجمال طلبت الجيل ومتى أحست بالحسن والبهاء والنظام الذى عرفه العلماء وفهمه الحكماء وأوحى الى الأنبياء طلبت الوصول الى ذلك المقام وفرحت بالوصول اليه وهـذا قوله ـ يدبر الأمر يفصـل الآيات ـ الى قوله ـ بلقاء ربكم توقنون ـ والايقان هنا مسبب من ذلك الجمال المرسوم فى العقول فهل مثل هـذا يخلق فى عقولنا عبثا . ولما فرغ من عالم السماء وعلومه شرع يفصل ماعلى الأرض فقال بسطت الأرض وأوسعتها وثبت الأقدام عليها وجعلت فيها الجبال الثوابت والأنهار الجارية من الجبال وجعلت الثمار مختلفة الاصول عنـد ازدواجها بحيث دبرت الذكور والاناث فى العنب والتين والزيتون والنخل والزرع وسائر ماينبت على الارض وليس يعرف هـذا إلا من درسوا علم النبات دراسة واسعة . وجعلت الليل والنهار يتناوبان على تلك الثمرات والزروع وغيرها فيتمّ نظامها . فهذه دلائل للتفكرين وحكم للعاقلين ونعمة للؤمنين وقوّة على الحياة للعاملين . ومن الأرض ماهى سبخة وطيبة ورخوة وصلبة وفى الأرض حدائق غناء ومزارع وأصناف شتى ففى ذلك تجول العقول فتفهم منها الفروع والاصول وينظمون مدنهم كما يعرفون ربهم . ولعمرى كيف يعرف الله أو يحبه من عمى عن منافع الثمرات وغفل عن هذه الآيات

فلئن تعجب يامحمد من انكارهم البعث فحقيق بأن تتعجب منـه فان من قدر على انشاء ماقصّ عليك كانت الاعادة أيسر شئ عليه فان هذا المبدأ الوطيد اذا لم يكن الميعاد فهوقليل الثمرة . ان أولئك مقيدون بالضلالة مخلدون فى النار . هم يستهزؤن ويقولون أنزل بنا العذاب الذى أوعدتنا به فلم يستعجلونك بالعقوبة أوماعلموا كيف أهلكنا الأمم قبلهم وجعلنا ذلك مثلا لهم ـ وانّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ـ بالامهال والستر كما أمهلنا هؤلاء لننظر ماذا يصنعون ـ وانّ ربك لشديد العقاب ـ لهم اذا لم يؤمنوا وهم متمادون فى الضلالة . واذا كان مافى السموات والأرض مماذكرناه لم يكفهم فى الدلالة على الله واليوم الآخر فانهم لايؤمنون بغيره ـ إنّ الانسان لظلوم كفار ـ يمرّ على آيات الأرض والسموات ولاتكفيه ولايؤمن بها لغفلته وبلاهته ويتجاوزها فيقول هل من آية كناقة صالح وعصا موسى وما أشبه ذلك فدع قولهم ـ فانما أنت منذر ولكل قوم هاد ـ وأنت الهادى لهذه الأمة . ولما ذكر السموات وأتبعها بالزرع والشجر الذى لايقوم إلا بضياء النيرات وحركات الأفلاك وصلاحية الأرض أتبعه بما هو المقصود فى العالم الأرضى وهو العالم الانسانى المنتفع بالثمرات وبالأضواء وبحركات الأفلاك فأبان أنه تعالى يعلم ماتحمل الاناث من ذكور واناث الخ ثم أبان أن كل شئ عنـده بمقدار وهو عالم بما غاب وماشوهـد وهو الكبير المتعال . يعلم مايسرّ الناس ومايعلنون وقد جعـل لهم جماعات يحفظونهم من سائر العوالم المشاهدة والغائبة يكتبون أعمالهم وأحوالهم وأن كل مايتصفون به من الضعة والشرف والخفض والرفع تابع لما فى النفوس من الصفات كما يتبع الظل الشبح . فالأحوال الظاهرة شبح الأحوال الباطنة . ولما شرح العالم النباتى والانسانى أتبعه بعالم الجوّ من البرق والسحاب والرعد والصواعق وأخذ يذم الأصنام وتابعيها . ثم أتبع ذلك كله بجملة تشمل جميع ماتقدّم فى الأرض والسماء إذ أبان طاعة كل مخلوق فى الأرض والسماء فكلها ساجدة سجود تسخير وهكذا ظلالها التابعات لها وذلك يشمل السحاب والانسان والنبات والارض والسموات فهذه كلها ساجدات وظلال المظلمات منها ساجدات بالغـدوّ والآصال . ثم ختم ذلك بأن من لم يفهم هـذا فهو فى عمى وضـلال ومن فهمه فهو على نور من ربه وأتبعه بمثل أتم وأكمل وأبين فذكر الأودية والماء والزبد والمعادن ومثل للحق بصافيها وللباطل بالزبد فوقها والزبد ذاهب والجوهر باق . هذا ملخص هذه الآيات مع تبيان المناسبات وتناسق العبارات وفى هذا القسم لطائف

(اللطيفة الاولى) فى قوله تعالى ـ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ـ (اللطيفة الثانية) فى قوله ـ ثم استوى على العرش ـ (الثالثة) فى قوله ـ وفى الارض قطع متجاورات ـ (الرابعة) فى قوله ـ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ـ (الخامسة) فى قوله ـ ولكل قوم هاد ـ (السادسة) فى قوله ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ (السابعة) ـ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ـ (الثامنة) ـ إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ (التاسعة) فى البرق والسحاب والرعد (العاشرة) فى الصواعق (الحادية عشرة) فى الظلال (الثانية عشرة) فى قوله تعالى ـ فأما الزبد فيذهب جفاء ـ

﴿ اللطيفة الاولى فى قوله تعالى ـ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ـ ﴾

وهذه تقدّمت فى سورة البقرة وقد شرح هناك أمر السموات وعددها ووجودها وما أشبه ذلك ويكفى الذكى الاطلاع عليه • وهكذا ما تقدّم فى سورة الانعام عند قصة الخليل عليه السلام وفى سورة يونس عند قوله تعالى ـ هو الذى جعل الشمس ضياء الخ ـ ولكن نذكر هنا ﴿جوهرتين﴾

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

(موازنة بين وصف العرب ووصف القرآن من كتابى ﴿ مذكرات فى أدبيات اللغة العربية ﴾ صفحة (٣٨)

قال الحارث بن حلزة فى معلقته يصف ناقته

وانى اذا اشتدّ الخطب أستعين على امضاء همى وقضاء وطرى (اذا خفّ أى ذهب بالرجل المقيم بلاعمل النجاء أى الانكماش) بناقة سريعة كأنها نعامة طويلة الساقين ذات أولاد (ملازمة للدوّ أى الوادى الواسع ذات خف محدودب) سمعت صوتا خفيفا فخافت على نفسها الصياد وقت العصر وقد قرب المساء فتراها ترجع قوائمها وتوقعها على الأرض فيثور غبار دقيق كأنه الاهباء (أى ما يرى فى شعاع الشمس النافذ من الكوّات جمع كوّة وهى الطاقة) وترى أطباقا من أخفافها خلفها أطباق أخرى سقطت من وعر الصحراء فهذه الناقة أتلهى بالركوب عليها وقت الهجير من ألم يعيينى وهمّ يلحقنى إذ يكون كل ذى همّ كالناقة البلية أى العمياء التى ربطت على قبر صاحبها حتى تموت وهذا معنى قوله

غَيْرَ أَنِّى قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمْ ... مِ إِذَا خَفَّ بِالثَّوِىِّ النَّجَاءُ
* بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ ... أُمُّ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفَاءُ
* آنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا الْـ ... قَنَّاصُ عَصْراً وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ
فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْـ ... ـعِ مَنِيناً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ *
وَطِرَاقاً مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقٌ ... سَاقِطَاتٌ أَلْوَتْ بِهَا الصَّحْرَاءُ
أَتَلَهَّى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ كُلْـ ... ـلُ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ *

أقول ولما كان القرآن لا يتنزّل لمثل هذه الأوصاف وجب أن نذكر وصفا ما كقوله تعالى ـ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ـ الى قوله ـ لآيات لقوم يعقلون ـ

فانظر

فانظر كيف وصف الشاعر الناقة وسرعتها وشبهها بالنعامة الخائفة من القانص وذكر الغبار وضعف خف الناقة ووصف الله فى القرآن السموات بلا عمد والأرض وتسخير الشمس والقمر وجريهما الى انقضاء العالم ثم ذكر تدبير العالم وتفصيل كل شئ ثم استنتج لقاء الله المدبر لهذا العالم ثم ذكر مد الأرض وأنهارها وثباتها بالجبال ومافيها من أنهار وأبان كيف كانت قطع الأرض متجاورة ثم هى مختلفة فنها الحدائق الجيلة والجنات ذات الأعناب وذات المزارع والنخيل الذى نشأ من أصل واحد وغيره وكيف سقيت كلها بماء واحد وفضل بعضها على بعض فى الطعم واللون والذوق • اهـ

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

(اشراق النفس • بهجة السماء وجمالها من كتابى سوانح الجوهرى)

أذكر أنى ليلة خرجت من القاهرة مساء لزيارة صديق فجلست فى حقله وكان ذلك وقت الترويض والظلام حالك والليل قد أرخى سدوله وأحاط ظلامه بكل حى فنظرت السماء اذا هى جنة ذات بهجة للناظرين هى بحر من نور تتلألأ ثواقب الزهر فى مائه وتسطع شوارق الأنوار فى أرجائه خيل لى أن نور جمال الكواكب قد ملأ الجوّ وأحاط بما حولى من العوالم وتأملت نفسى والعوالم حولى اذا أنا فى عالم عظيم كبير أصغر كوكب فى نظرى قد يفوق الشمس حجما ونورا والشمس تفوق الأرض آلافا مؤلفة وهذه النجمة القطبية تبعد عنا خمسين سنة مقدّرة بسير ضوئها مع ان الشمس يخترق نورها الآفاق فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية فكيف يكون مقدار ذلك الكوكب وكيف حال المجرة وهى جميعها كواكب تضامّت فى نظر الانسان وأصبحت بالنسبة لنا ذرات تكاد تشبه اللبن وكل واحدة من تلك الذرات شمس كشمسنا • عالم واسع وملك كبير - واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا - فما الأرض ومن عليها وما الدول والملوك والحروب والسياسات وما الأرض إلا ذرّة لاقيمة لها ولاوزن فمن الناس ومن أمراؤهم وخزائنهم ما أصغر الأرض وما أضعف الناس وما أوسع العالم وما أكبره • الله أكبر كبيرا • لقد صغرت فى عينى هذه الدول والملوك وسياساتهم وممالكهم وأيقنت أن هناك حالة لنفس الانسان سينسى فيها الارض وماعليها والاحقاد لما يغشيه من العلم وما يوحى اليه من الحكمة • الناس يخضعون للجمال والقدرة والعلم فأرباب الأموال وذوو النفوذ والجاه ذوو قدرة الأولى مالية والثانية جاهية وذوو الجمال يجذبون النفوس اليهم وذوو العلم يتبعهم السامعون والفاهمون • فاذا زجّ بهم فى بحر من نور العلم وأشرقت على قلوبهم شموس الحكمة واطلعوا على سعة العوالم ونظامها وجمالها فبهرهم الجمال وأدهشهم العلم وغشى على أفئدتهم سعة تلك المخلوقات الهائلة أنساهم ذلك ما كانوا فيه من العيش واللذة والألم ولكن متى يخلص الانسان من ذنوبه القواطع فيحاط بتلك الأنوار * قال أرسطاطاليس ﴿ إن هذه البهجة لاتدوم أكثر من لحظة ﴾ وتبعه الامام الغزالى فى ذلك وأكبرها ابن سينا فى آخر الاشارات وأتى فيها بمقامات تبلغ العشرين • أما أنا فأتخذ ما أجده منها دليلا على جمال وبهاء سيصل اليه المرء بعد التجرّد من عالم الطبيعة كما استنتجه الأقدمون من أحوال نفوسهم

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى - ثم استوى على العرش - ﴾

أنظره فى سورة يونس وسورة هود

﴿ اللطيفة الثالثة - وفى الأرض قطع متجاورات - ﴾

تقدّم بعضه فى سورة البقرة ونذكر هنا زيادة عليه فنقول

يذكر الله فى هذه السورة - وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب - من جملة ما فصل فيها تبيانا لقوله فى سورة يوسف - وكأين من آية فى السموات والأرض الخ - أفلا يعجب المسلمون كيف كانت عناية الله بالعجائب الأرضية والسماوية فانه لما أجملها فى سورة يوسف فصلها فى سورة الرعد ورمز الى أغلب

علم الطبيعة وهل هـذه العناية وجهت الى الوضوء مثلا والى البيع ونحوهما . كلا فالعناية هنا أتم ويا ليت شعرى ماهذا القصور وماهذا التقصير وما هذا الغرور أمة هذا شأن كتابها فى العناية بالعجائب الكونية ثم هى تفصل القول تفصيلا فى فروض الوضوء والماء المستعمل وغيره وتؤلف فى هذا وتوسع الدائرة حتى اذا وصلت الى ماتوجه اليه عناية الله فى العوالم نكص الناس على أعقابهم . فلماذا لم تسوّوا أيها المسلمون بين آية وآية . هل هـذه الآيات ليست من القرآن . أرا كم تقيسون الوجه طولا وعرضا فى كتب الفقه لما سمعتم قوله تعالى ـ اغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ ـ وكذلك بينتم كل عضو وحدوده وأحسنتم احسانا عظيما فى هذا ولكن هلا فعلتم ذلك وأمثاله فى مسألة القطع المتجاورات وكيف كان فعل الله فيها . واذا كان هذا هوالذى سيكون فى مستقبل الاسلام والأمة الاسلامية ستأخذ حظها من العلوم فلأبين هذا المقام فأقول نقلا من كتاب لى فى الفلسفة ملخصا

إنّ سطح الأرض جبال وبحار وبرارى ومزارع . والجبال ﴿ أربعة أقسام ﴾ القسم الأوّل الجبال الصخرية كجبال تهامة فما هى إلا صخور صلدة وأحجارصلبة لاينبت عليها إلا يسير * والقسم الثانى منها جبال ذات نبات لأنها صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصيات ملس متلبدات ساف فوق ساف متماسكة الأجزاء كثيرة النبات والاشجار والحشائش مثل جبال فلسطين وجبال لكام وطبرستان * والقسم الثالث منها جبال النار فانه يرى فى أعاليها ليلا ونهارا دخان معتكر ساطع فى الهواء مرتفع فى الجوّ . وكان القدماء يعللون ذلك بأن فى باطن الارض كهوفا ومغارات وأهوية حارّة تجرى اليها مياه كبريتية أونفطية دهنية فتكون مادّة لها دائما مثل التى بجزيرة (صقلية) وبجبل (زامهر) من خورستان

أما علماء العصر الحاضر فانهم يقولون ان الأرض كرة نارية وقشرتها لاتزيد عن قشرة البطيخة بالنسبة لكرة الارض وقد تقدّم شرح ذلك فى تفسير سورة (آل عمران) * والقسم الرابع جبال ذات هواء لطيف يهبّ عليها دائما أوفى بعض الأوقات مثل جبل الثلج الذى بدمشق والذى ببلاد (داور) من جبال (غور) وجبل دماوند فهذه الجبال لما كان الثلج فوقها فانه عندذوبانه يتحلل الى أجزاء بخارية لطيفة فيرتفع فى الجوّ و يلطف الهواء

﴿ الأنهار ﴾

ثم إن الأنهار تتبع الجبال لأنها منها نشأتها والى البحار نهايتها فمنها مايجرى من الشرق الى الغرب كنهر (ماوند) ومنها مايجرى من الغرب الى الشرق كنهرين ببلاد (أذربيجان) ومنها مايجرى من الجنوب الى الشمال كنيل مصر . ومنها مايجرى من الشمال الى الجنوب كدجلة

وأما البحار فانها جميعها ملحة وذلك لتلطف أبخرتها الجوّ وتختلط بالهواء وتموّج معه يمينا وشمالا وشرقا وغربا فتدبغه وتملحه وتمنعه من التغير والفساد والتعفن ولولا ذلك لمات الحيوان المستنشق للهواء دفعة وأيضا لولا الملح المستكن فى الماء الممتزج به لصار الماء آسنا وتغير ومات الحيوان الذى فيه جملة واحدة فتعجب من الملح كيف صار نعمة فى البحر ونعمة فى البرّ . فأما البرارى والقفار فانها تدخل فيما سنذكره من خصائص الاماكن لأنها مناطق يتنازعها النبات والحيوان

(١) الفيلة لاتتولد إلا فى جزائر البحار الجنوبية تحت مدار برج الحمل

(٢) الزرافة لاتتولد إلا فى الحبشة

(٣) السمور وغزال المسك والسنجاب لاتتولد إلا فى البرارى والقفار

(٤) الصقور والبزاة والنسور وأمثالها لاتفرخ إلا فى رؤس الجبال الشاهقة

(٥) القطا والنعام لاتفرخ إلا فى البرارى والفلوات

(٦) البط والطيطوى وأمثالها لاتفرخ إلا على شطوط الأنهار

(٧) العصافير والفواخت والقمارى وأمثالها لاتفرخ إلا بين الأشجار والدحال والقرى والبساتين

﴿ أماكن النبات ﴾

(١) النخل والموز لاينبتان إلا فى البلاد الحارة والأرض اللينة

(٢) الجوز واللوز والفستق والبندق وأمثالها لاتنبت إلا فى البلاد الباردة

(٣) الحلبة والدلب وأم غيلان لاتنبت إلا فى البرارى والقفار

(٤) القصب والعفصاف لاينبتان إلا على شطوط الأنهار

﴿ المعادن ﴾

(١) الذهب لايتكوّن إلا فى البرارى الرملية والجبال الصخرية

(٢) الفضة والنحاس والحديد والرصاص وأمثالها لاتكون إلا فى الجبال والأحجار المختلطة بالتربة اللينة

(٣) الكبريت لا يكون إلا فى الأرض الندية والرطوبات الدهنية

(٤) الجص والاسفيذاج لا يكونان إلا فى الأراضى الرملية المختلطة بالجص

(٥) الزاج والشب لايتكوّنان إلا فى التراب العفص

(٦) الدرّ والمرجان لايتكوّنان إلا فى البحار فى أحوال خاصة

﴿ عجائب هذه الدنيا ﴾

فانظر كيف رأيت الجبل فوقه النسر والباز والصقر والثلج والنار ورأيت فى باطنه ماء وزئبقا ورصاصا وحديدا وذهبا وفضة وفيه عيون نابعات وقير ونفط وملح وكبريت ثم اذا نزلت من الجبل رأيت القطا والنعام فى الفلوات والبط على شط النهر والعصفور فى المرج والنخل والموز فى الأرض الحارّة والجوز فى الباردة والحلبة فى القفر والقصب على الماء . فانظر للعجب العجاب فى هذه الأرض التى نحن راحلون عنها الى عالم أعلى منها كيف جلت وحسنت وظهرت و بهرت وازّينت للناظرين فما أجمل أرضنا وما أبهج حسنها وما أعظم شكلها وما أبدع اتقانها . هذا هوالذى يكون أمثاله فى تفسير قوله تعالى - وفى الأرض قطع متجاورات الخ -

﴿ حكايات عجيبة ﴾

فى أيام تأليف هذا التفسير وردت حكايات عن نباتات عجيبة فى الجرائد والمجلات العلمية فرأيت أن أذكرها هنا تفكهة وتبصرة لمناسبة هذه الآية إذ جاء فيها - يسقى بماء واحد الخ -

﴿ الأولى . الضوء من الأشجار ﴾

تمكن عالم فرنسى من كشف طريقة استخراج الضوء من نفس الأشجار اذا وصل لوحا نحاسيا مدفونا فى الارض بآخر بطه فى الشجرة بجهاز (حلفانومتر) وهوجهاز يقيس التيارات الكهربائية الصغيرة ثم زاد القوّة بجمع ثلاثة أشجار ثم أوصلها الى عشرين شجرة ثم لوحين نحاسيين فى الارض و بينهما ستة أقدام وتمكن بواسطة التيار الكهربائى الذى حصل عليه من اضاءة لمبة كهربائية صغيرة . وهذه المسألة الآن تحت التجربة . انتهت الحكاية الاولى

﴿ الحكاية الثانية . النبات المضحك ﴾

لقد كنا نقرأ فى أسفار السندباد البحرى من الاساطير مانظنه لاحقيقة له كقوم رآهم فى إحدى سفراته فى جزيرة وكان معه أصحابه فأطعموهم طعاما نباتيا فغير أخلاقهم وجعلهم شرهين على الطعام وزالت قواهم العقلية وأخذوا يسمنون بسرعة وأعدّهم القوم للذبح كأنهم غنم أما هو فانه سلم بمرضه وضعفه فهرب الى بلدان أخرى وما كنا نعلم ماجاء اليوم فى الجرائد يوم (٢) اكتوبر سنة ١٩٢٤ إذ وصف أحد علماء الطبيعة

لجمعية علميـة بعد رجوعه من بلاد العرب نباتا غريبا سماه ﴿ الضاحك ﴾ وانما سماه كذلك لأن كل من أكل من بذره يستمرّ مدّة قصيرة فى الضحك المفرط وينتهى أخيرا بنوبة عصبية والوطنيون هناك ينشفون أوراقه و يسحقون بذوره و يحفظون المسحوق للوقت المناسب فيقدّمونه للذين يكرهونهم واذا ضوعف المقدار المأخوذ تؤدّى النتيجة حتما الى الجنون فيسقط الانسان بعد تعاطى المقدار فى نوم عميق وقد أضاع ذاكرته وتبدّلت عاداته . انتهت الحكاية الثانية

﴿ الحكاية الثالثة . زيت يستخرج من الجراد ﴾

ذكرناه فى هـذا المقام لانه شارك النبات فى اعطاء الزيت . جاء فى المجلات والجرائد أن بلاد جنوب أفريقيا مصابة بالجراد الذى يأكل مزارعها كما أصيبت مصر بدودة القطن لكن الجراد وجـدوا فيه زيتا عجيبا به تدار آلات الطيارات . تلك البلاد تصدّر الآن مقادير كبيرة لهذا الغرض . وتقول جريدة أخبار مديرى السكك الحديدية التى تصـدر فى (جوهانسبرج) بجنوب أفريقيا أن ثمانيا وثمـانين بالة من الجراد تزن تقريبا ثمان عشرة (طونولاته) صـدرت أخيرا من (كازيرن) الى دربان لشحنها الى (هولاندا) وهذه المقادير من الجراد تستعمل بصفة طعام للدواجن وغيرها من الحيوانات المنزلية الأليفة بعدأن يستخرج منها زيت تدار به آلات الطيارات . وقد أذيع أن لهذا الزيت خواص نافعة جدّا وانه يبقى فى أعلى طبقات الجوّ سائلا كما هو على سطح الارض . هذا ما جاء فى الجرائد يوم (٢٩) اكتوبر سنة ١٩٢٤ أثبته هنا فهل يعلم المسلمون ذلك . أفلا يعلم المسلمون أن هذه النعم خلقت لنا وللفرنجة معا . أولا يعلم المسلمون أن الله ادّخر الجراد وخزن فيـه الزيت . ولما خلق الطيارات أفهـم العقول أن زيت الحيوان الطائر يناسب الطيارات فهو يمتاز عن زيت النبات لأنه مخلوق فى طائر فليكن فى الطيارات . أليس هـذا قوله تعالى فما سيأتى ــ وكل شئ عنده بمقدار ــ فمن الأشياء هذا الزيت النافع للطيارات ولم يعلمه الناس قبل الآن لا بخلا من الله ولكنه أبقاه لينتفع به الذين يرتفعون بالطيارات ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزّله إلا بقدر معلوم ــ وهلا يرى المسلمون أن ظهور عجائب القرآن فى هـذا التفسير وفى غيره بوضوح قد جاء مناسبا للزمن وأن ظهور ذلك بهذا الوضوح قبـل الآن لم يكن مناسبا للزمن وأن الله خزن علوم القرآن كما خزن الزيت فى الجراد حتى اذا جاء أجله أبرزه . أوليس لهذا القول حظ من قوله تعالى ــ ولما يأتهم تأويله ــ أفليس هذا بعض مايؤول اليه القرآن من انكشاف حقائقه . أوليس ظهور هذه العلوم فى القرآن اليوم مناسبا للمسلمين المتعطشين للعلم كما ظهر الزيت لرجال الطيارات المتعطشين للطيارات . فليقرأ المسلمون العلوم فكفى جهلا وخزيا وعارا وشنارا و بعدا عن الله ربّ العالمين

﴿ جوهرة مضيئة فى قوله تعالى ــ وفى الأرض قطع متجاورات ــ وقوله تعالى ــ و ينشئ السحاب الثقال ــ وفى قوله تعالى ــ جعل فيها زوجين اثنين ــ ﴾

اعلم أن الأجسام كلها لاتخلو اما مضيئة وهى مايصدر عنها النور كالشمس والنار واما مظلمة وهى مالايصدر عنه نور بل ينعكس عنـه نور غـيره اذا وقع عليه وهذه لاترى إلا بنور مكتسب من غيرها كالقمر والحجر ثم الأجسام من حيث نفوذ النور منها إما شفافة أوشبيهة بالشفافة أوظليلة . فالشفافة ماتعيق النور قليلا عن سيره كالزجاج فترى الاشباح من ورائه والشبيهة بالشفافة هى التى تعيق النور كثيرا عن نفوذه كالورق المزيت ونحوه فلاترى الاشباح من ورائها والظليلة هى التى لاينفذها النور كالحجر ونحوه وتلقى ظلا كثيفا على الارض وعلى ذلك نرى أن الهواء أشبه بالزجاج فهو شفاف وهكذا المـاء واليابسة كالقارات أشبه بالظليل ثم ان انعكاس الانوار أى رجوعها عن الاجسام بعـد وقوعها عليها من جسم منير على نوعين نوع يسمى (النور المستطير) اذا كان الجسم الذى يقع عليه النور خشن السطوح فاذن تتفرّق الأشعة منه الى كل مكان فيرى من كل جهة

ونوع يسمى (النور المنعكس) اذا وقع على سطح أملس صقيل فتندفع أشعة النور عنه الى جهة واحدة أو الى جهات معينة فلا نرى الاشباح منه إلا اذا وقفنا فى تلك الجهات المعينة . ومثال الاول الجبال والا ودية والمنازل فهذه نراها بالنور المنعكس من كل مكان أى نرى نفس الجبال الخ ومثال الثانى المرآة مثلا فاننا لانراها وانما نرى الصور التى ظهرت فيها وانما لانراها لأنها صقيلة فنحن نرى المنزل ولانرى المرآة الصقيلة وانما نرى مافيها من الصور ولانراها هى إلا اذا قلت صقالتها ويكون ذلك بالنور المنتشر

اذا علمت هذا فتعجب من العالم الذى نعيش فيه وابتهج بما ستسمع من حكمة وماترى من جمال فى العالم الذى خلقك الله فيه . أنظر أرضنا ففيها الاجسام الظليلة كالجبال والاجسام الشفافة كالماء ومثله الهواء وكما نرى الهواء والماء ينفذ النور من خلالهما نرى الاحجار ظليلة فالمبانى مثلا نورها مستطير والبحار العظيمة اذا قرأنا العلوم الفلكية عرفنا أن نورها من نوع المنعكس أى ان النور منعكس عنها كما ينعكس عن المرآة

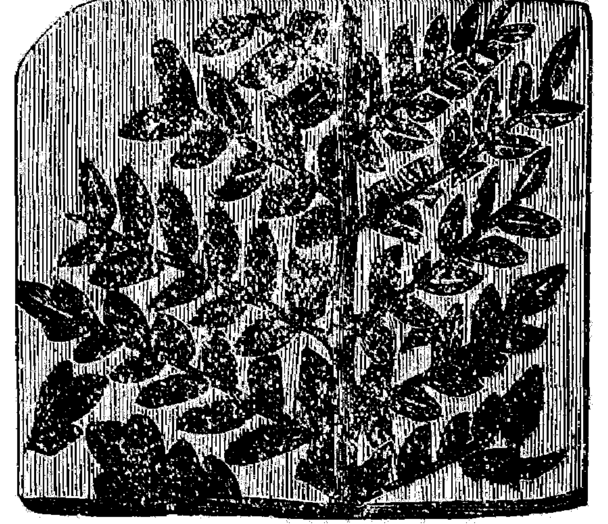
إن للأرض نورا منعكسا على القمر . ان الارض قمر للقمر تلقى عليه نورا اذا لم تضئه الشمس يساوى النور الواصل منه الى الارض نحو (١٤) مرة . إذن البحار مرآة الارض . ألاترى أن الماء أشبه بالزجاجة ووراءه من قاعه أرض يابسة فهو إذن يعكس النور كما تعكسه المرآة فالهواء زجاج والبحر مرآة واليابسة ظليلة . واذا أوقدنا نارا على الأرض كان عندنا إذن الجسم المضىء . ضع شمعة متقدة وأمامها حائط ومرآة ولوح زجاج الشمعة كالشمس والحائط كاليابسة والبحر كالمرآة والهواء مثل لوح الزجاج

نحن نعيش فى وسط كامل مضىء ومستضىء وشفاف وعاكس لضوء منتشر وعاكس لضوء منعكس . إن العالم الذى نعيش فيه جميل نور مشرق وأجسام لطيفة شفافة وأجسام أخرى مختلفة . إن الله جعل هذه الأرض قطعا متجاورات ليتم الانتفاع بها . هل لك إذن أن أريك جمال تلك القطع المتجاورات أبين من هذا

﴿ فصل فى الفحم الحجرى وفى البلور الصخرى وفى الزجاج ﴾

(الفحم الحجرى)

إن الفحم الحجرى يستخرج من باطن الارض كان قديما غابات عظيمة غطت سطح الارض قبل خلق الانسان ثم دفنت وضغطت عليها طبقات أرضية فوقها . وأكثرها كانت من نباتات خفية الزهر كأنواع السرخس التى كانت فى ذلك الزمان مكونة لأشجار عظيمة . وهذا شكل أوراق بعض الأنواع التى تكون عنها الفحم الحجرى (شكل ١)



(شكل ١)

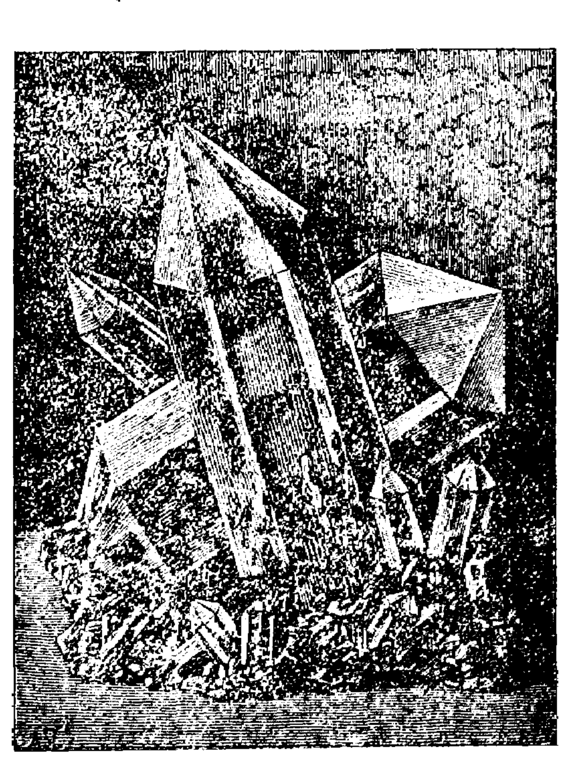
وأنواع الفحم الحجرى كثيرة الاستعمال فيها قوام كثير من الصنائع ولوفقد النوع الانسانى الفحم دفعة واحدة لاختل نظام الهيئة الاجتماعية اختلالا تاما . ولقد ذكرت لك فى أول سورة الأنعام أنواع الفحم وكيف استخرج الناس منه غازا به تضاء الشوارع فى المدن وهكذا أصباغ كثيرة تعد بالمئات وبفحم المعوجات أيضا نور الكهرباء . فياعجبا هذا هو الفحم وهو فى بعض قطع الأرض المذكورة فى الآية . ومن هذا الفحم المظلم اشتقت الأنوار وانبعثت عنه كما انبعثت عن الشمس . إن نور الشمس قد خزن فى الفحم

والناس يستخرجونه الآن بالطرق الصناعية • فاذا رأينا شمسا تضيء لنا من السماء فهاهي مخازن أنوارها حاصلة فى الفحم الغائر فى الأرض على بعد عظيم • الفحم جسم ظليل معتم لاينفذ النور منه و بالعمل فيه يصبح جسما مضيئا فهو جسم أرضى على حاله و بالعمل فيه يصير جسما مضيئا • إن فى الفحم الضدين الظلمة والنور والماس الذى تكوّن منه جسم شفاف فقد جمعت مادّة الفحم نورالشمس وكثافة الأرض وشفافية الهواء • واذا وضع وراء قطعة من الماس جسم ظليل انعكس النورعنه فكان كالمرآة • هذه الدنيا عجب وكلها جمال و بهجة وحكمة وسعادة للمفكرين العاقلين • هذا هو وضع العالم الذى نعيش فيه • أنظر ماذا ترى فيما بعده وهو

﴿ البلور الصخرى ﴾

اعلم أن من القطع المتجاورات فى الأرض (الكورس) وهوالمسمى عند العامّة (الزلط والحصى) والرمل منه فهو كورس على هيئة حبوب صغيرة ويدخل فى أعمال الزجاج والبلور ومن أنواعه الصوّان وشظف البنادق • ومنه نوع هو المقصود فى هذا المقام يسمى (البلورالصخرى) هو كورس عديم اللون شفاف منظره كالبلور متبلوز بلورات منشورية مسدّسة منتهية بهرمين كما فى الشكل الآتى (شكل ٢)

وهذا النوع موجود فى جبل الطور وقد يكون متلونا باجسام مختلفة تشبه بعض الأحجار الكريمة وتسمى بأسمائها فمنه (الكركهان) الملون بالبنفسجية (وياقوت بوهيم) وهوكورس وردى لطيف المنظر نادر جدّا (والياقوت الاصفر الهندى) وهوكورس أصفر هندى • أنظر هذا النوع من الكورس وتأمّل كيف كان مسدّسا هرميا • وتعجب كيف رأينا التسديس فى بيوت النحل وفى نظام الثلج كما تراه مرسوما فى سورة آل عمران وستراه قريبا وهكذا هذا تسديس متقن وجمال باهر ثم كيف ترى أن بعض القطع من الأرض كالطور برز فيها مايشبه الأحجار الثمينة جمالا و بهجة وقد خرج عن حال الظلمة الى حال الجسم الشفاف فكان كالماء وكالهواء ليفتح للناس باب العمل واستخراج الزجاج



(شكل ٢)

﴿ الكلام على الزجاج ﴾

اننا نعيش فى عالم عجيب • نظرنا فرأينا ماء شفافا وهواء شفافا • نحن محتاجون الى الاجسام الشفافة لماذا • لنجعلها فى نوافذنا فتمنع عنا الغبار والهواء وتدخل الضوء • والهواء والماء ليسا جامدين حتى نفعل بهماذلك والثلج فى البلاد الباردة يذوب من حرارة الشمس فسلطانه فى البرد • فماذا نفعل إذن وأيضا نحن فى حاجة الى أجسام زجاجية تكبر لنا الصغير عند الحاجة وتقرّب البعيد فبالأولى نريد أن نعرف خفايا النبات ونكشف خبايا الاجسام فنرقى الطب والصناعات • و بالثانية نعرف الاجرام السماوية وندرس جبالها وأنهارها ولا يكون ذلك كله إلا بالأجسام الشفافة • هكذا نحن فى حاجة الى مايقوّى أبصارنا على عملها اذا

ضعفت

ضعفت ويكبر الحروف لنقرأها . كل ذلك يحتاج الى جسم شفاف صلب لاسائل كالماء ولاغاز كالهواء . لهذا خلق الله هذا البلور الصخرى وكأنه يقول أى عبادى أنظروا الى المادّة الارضية المعتمة . هاهوذا البلور الصخرى جسم شفاف فهاأناذا فتحت لكم الباب فادخلوه

﴿ تاريخ الزجاج ﴾

قال المرحوم أستاذنا فى هذا العلم أحمد أفندى عبد العزيز ماملخصه

انه قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف سنة كانت صناعته فى مصر وفى فينيقيا متقدّمة متقنة جدّا والمصريون هم الذين علموا اليونان والرومان صناعة الزجاج والطريقة عند القدماء هى نفس الطريقة الحالية والرومانيون نبغوا فيه . وفى القرن الخامس حينما أغار البربر على الرومانيين (المراد بالبربر هم آباء الاوروبيين الحاليين) اضمحلت هذه الصناعة ومكثت أوروبا زمانا طويلا لاتتقن هذه الصناعة وكانت مزهرة فى الشرق ثم إن أهل (البندقية) تعلموها ومنهم انتشرت فى أوروبا الحديثة

﴿ الزجاج وكيف يصنع ﴾

الزجاج مادّة شفافة قابلة للكسر . ومنه ألواح الشبابيك المعروف منفعتها . ومنه (المرايا) التى يسهل بها الاعتناء بالنظافة وهى ألواح من الزجاج مغطى أحد سطحيها بطبقة من القصدير أوالفضة وكالأوانى الكثيرة الاستعمال والعدسات والأنابيب . ولولا هذه وماقبلها لم يصل علم الكيمياء والطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعى وغيرها الى حال التقدّم والفلاح

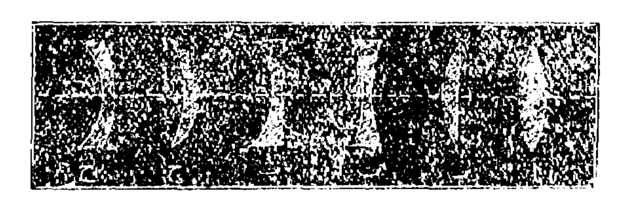
﴿ تحضير الزجاج ﴾

الزجاج يحضر من الرمل والجير أوالطباشير والصودا أوالبوتاسا . تمزج الموادّ التى يجهز منها جيدا وتسخن فتصهر بتأثير الحرارة وتستحيل الى عجينة يعطى لها الشكل المطلوب

﴿ البلور ﴾

هو زجاج استبدل فيه الجير أوالطباشير بأوكسيد الرصاص . ويستعمل فى تحضيره رمل أبيض . هذا قبس من نور قوله تعالى ــ وفى الأرض قطع متجاورات ــ . هذه هى القطع المتجاورات أيها المسلمون . فقطعة فيها الفحم الذى يضىء منازلكم وشوارعكم ويولد الكهرباء . وقطعة فيها رمل وأخرى فيها جير أوطباشير . وقد تقدّم فى سورة آل عمران كيف كان الطباشير مترا كما من حيوانات دقيقة لاتعدّ فأصبحنا نكتب به على (السبورات) لتعليم الاطفال . وقطعة فيها الصودا وأخرى فيها البوتاسا . هذه القطع منها أخذنا هذه الموادّ وصنعنا الزجاج فتعلمنا علوم السماء وعلوم الارض وارتقينا ولكن الذى عرف ذلك فى زماننا غير المسلمين . إن المسلمين يحتاجون لجيل واحد يتعلم ثم ترتقى الأجيال الأخرى بعده وسيكون هذا إن شاء الله قريبا . القطع المتجاورات أشبه بمخازن خزن الله فيها عناصر السعادة والحياة ودلنا عليها . لولم تكن الأرض قطعا متجاورات لكانت الحياة عليها لاتطاق . ولكنها قطع متجاورات فيها الانواع المختلفة وكأنما هى أسواق تباع فيها جميع ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . إن هذه الدنيا جميلة عند العلماء والحكماء مظلمة عند الجهلاء . انهم لايرون شيأ مما نقول بل هم من هذا يسخرون أنظروا منتشرا من الشمس وأجساما ينفذ الضوء منها وأخرى ينعكس الضوء عنها وهى الهواء والارض . كيف جعل لنا فى الارض قطع متجاورات لنتخذ منها مانشاء لما نشاء . ياسبحان الله . رمل وجير و بوتاسا نجمعها من أماكن مختلفة ونكوّن منها تلك العدسات المختلفة الأشكال التى بها نجمع النور تارة ونفرّقه أخرى . العدسات الآتى رسمها ﴿ قسمان ﴾ قسم يجمع النور وقسم يفرّقه وهى لاتخرج عن ستة أنواع ثلاثة للتفريق وثلاثة للجمع . أنواع العدسات ست . فهذه الأشكال مقسمة قسمين لاثالث لهما قسم للجمع وقسم للتفريق

ياسبحان الله . إن فى هذه السورة قوله تعالى ـ جعل فيها زوجين اثنين ـ وفى آية أخرى ـ ومن كل شئ خلقنا زوجين ـ ولقد علمت أن الكهرباء ﴿ زوجان ﴾ موجبة وسالبة وفى النبات زوجان ذكر وأنثى وهو واضح فى سورة الحجر فيما سيأتى فيما ترجمته عن كتب (اللوردأفبرى) فالزوجان كما كانا فى النبات كانا أيضا فيما صنعه الناس من العدسات الآتى بيانها وهكذا الحساب جمع وتفريق إذ علم الحساب كله لايخرج عن الأمرين فالجمع والضرب للجمع والطرح والقسمة للتفريق . وليس الحساب كله إلا هذين هكذا هنا جمع للنور بزجاجات ثلاث وتفريق بزجاجات ثلاث وهذه صورتها (شكل ٣)



(شكل ٣)

هذه هى العدسيات والعدسية فى الأصل بلورة بشكل العدسة ثم توسعوا فيها فأطلقوها على كل جسم شفاف له سطح واحد منحن على الأقل والعدسيات ﴿ قسمان ﴾ محدبة ومقعرة وكلها تندرج تحت ستة أشكال (ا) مزدوجة التحديب (ب) مفردة التحديب (ت) مزدوجة التقعير (ث) مفردة التقعير (ج) هلالية (ح) مقعرة محدبة . فالأولى والثانية والخامسة تضم أشعة النور والبواقى تفرجها

هاهى ذه صنع الانسان وذلك صنع الله . صنع الله لنا الصخر البلورى والهواء والماء ووضع لنا فى القطع المتجاورات فى أرضه مخازن منها نتخذ مانصنع فصنعنا تلك العدسيات لمنفعتنا . فماذا جرى . رأينا أن المزدوجة التحديب هى التى وضعها الله فى أعيننا . اختار الله هذه العدسية المزدوجة ووضعها فى أعيننا . لماذا . لأنها تجمع النور وكلما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها المنضمة والبؤرة هنا مجمع النور الداخل من العدسية وكلما بعد عنها قربت صورته منها ولكن رأيناه صنع فى أعيننا مالانقدر على صنعه نحن . ألم تر ان العدسية التى نضعها فى ثقب الخزانة المظلمة التى نستعملها لتصوير ما أمامنا لاترسم الصور بواسطتها إلا على بعد مخصوص . ولكننا نحن نرى الأشياء على أبعاد مختلفة . ولو كانت بلورية عيوننا جامدة كالتى نصنعها لم يمكننا أن نرى الأشياء إلا على بعد واحد . إن العين لو بقيت على تحدب واحد لوقعت الصورة تارة على الشبكية وتارة أمامها وتارة وراءها . إن الشبكية (التى يمكن أن تعرفها فى سورة آل عمران هناك موضحة) بمنزلة الحاجز تلقى الصور عليه فى الخزانة المظلمة فى يد المصور واذن لاينظر الرائى صورة نظرا صحيحا إلا على بعد مخصوص ولكننا نرى أن الصور جلية على أبعاد مختلفة لأن الانسان يكيف العدسية فيزيد تحديبها و ينقصه كما يشاء فنحن نزيد تحدب البلورية فى النظر الى البعيد ونقلل التحدب فى النظر الى القريب بحيث تقع بؤرتها على الشبكية فى الحالين

﴿ قصر النظر وطوله ﴾

و يقال للانسان انه قصير النظر اذا كان لايرى الكتابة الصغيرة الحروف ونحوها إلا على بعد ينقص عن عشرة قراريط أواثنى عشر تقريبا . و يقال له طويل النظر اذا كان لايرى هذه الحروف ونحوها إلا على أبعد من ذلك . إن قصر البصر من زيادة التحدب فى القرنية والبلورية (انظرهما فى آل عمران) وطول البصر يحصل من تسطح البلورية بعكس قصر النظر ولقصر النظر توضع عدسات مقعرة أمام العين و يصلح طول البصر بوضع عدسات محدبة أمام العين فالأولى تفرج الأشعة أمام العين والثانية تضمها قبل انكسارها

﴿ جمال هذا المقال ﴾

انى أحمد الله عز وجل إذ انتهيت فى هذا المقام الى نتيجة بهجة جميلة تحتاج الى درس طويل فى علم الضوء وعلم المعادن وعلم الكهرباء وغيرها من العلوم والصناعات . وقد غصت لك على الجوهر واجتزيت من العقد بدرة واحدة أهديتها لك جميلة بهجة تسر الناظرين . العلم جمال والعالم جمال . نظرنا فى النور ونفوذه فى الأجسام الشفافة كالهواء وانعكاسه عنها مستطيرا تارة كالبيوت وغير مستطير تارة أخرى كالمرآة وجلنا جولة فى العوالم فرأينا الصخر البلورى مسدسا جميلا شفافا فانفتح للناس طريق عمل الزجاج . فماذا حصل . أخذوا الرمل مصحوبا بالجير والصودا أو الطباشير والبوتاسا فصنعوا أنواع الزجاج فكان منها أنواع العدسات وهى لم تخرج عن جامعة للنور ومفرقة له ثم انتهينا الى أن العدسة الموضوعة فى أعيننا أحسن صنعا وأتقن وضعا وأعجب من البلورية التى نحن نصنعها . فماذا جرى . رأينا أن أنواع العدسات التى صنعناها المنقسمة الى القسمين قد ساعدتنا فكان قسم منها مساعدا لنا فى قصر النظر والقسم الآخر مساعدا فى طوله

ياعجبا . جاء فى أول السورة ــ جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ــ فالليل والنهار زوجان والنبات كما قدمنا زوجان والعدسات المفرقة والجامعة للنور زوجان والكهرباء زوجان موجبة وسالبة وأعيننا يقصر نظرها ويطول وذلك زوجان . وقد جعل الزوجان فى العدسات على مقتضى الزوجين فى القصر والطول فى أعيننا ــ إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ــ فهذا هو اللطف وهذه هى الحكمة . اللطف فى خلق بلوريتنا أعجب من بلورية الخزانة المظلمة والحكمة فى أنه هيأ لنا الأسباب حتى صنعنا عدسات تقصر النظر وتطوله عند الحاجة

﴿ وجوب درس هذه العلوم ﴾

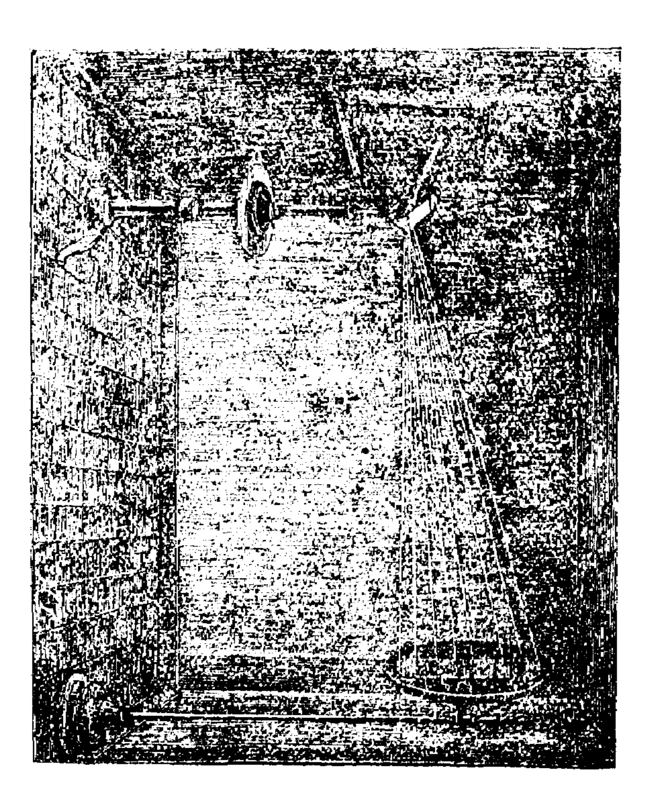
ذكرت فى سورة المائدة فى قصة ابنى آدم والغراب أن هذه العلوم كلها واجبة على سبيل فرض الكفاية أعنى أن يكون فى الأمة قائمون بها جميعها ويكفونها عن أوروبا وغيرها . وقد ذكرت هناك نص الامام الغزالى إذ قال ان علماء الاسلام فى زمانه شر من الشياطين لأنهم لما عكفوا على علم الفقه وحده وزينوا للناس ذلك صرفوهم عن العلوم الأخرى . أقول لك وهذا هو الذى أوقع المسلمين فى المذلة والهوان . لهذا ألفت هذا التفسير وبأمثاله أرجو أن تنقذ العقول الكبيرة من هذا الجهل وبهم تستنير هذه الأمة . ثم إنى أقول الآن ان هذه المباحث التى أقولها الآن ليست علما خاصا بل تجدها من علوم مختلفة لأن هذا هو الذى يجب على من يتصدون لقيادة الجموع . ومعنى هذا أن الذين يتصدون لقيادة الأمة الاسلامية من علماء وملوك وأمراء يجب أن يتعلموا من كل فن طرفا صالحا جميلا أشبه بما كتب فى هذا التفسير . أقول هذا فرض عين على القادرين والخواص من الأمة كما يؤخذ من كلام الأئمة الأعلام . فأما النبوغ فى علم أو صناعة فذلك فرض كفاية كمسألة العدسات المتقدمة فانى وأنا أكتب هذا لست طبيبا حتى أتقنها فالطب مثلا فرض كفاية ولكن معرفة الأشياء العامة أمثال ماذكرته لك فرض عين على الخاصة وقواد الأمة ومن العار أن يكون رؤساء الدين فى الاسلام يجهلون هذه العلوم العامة . فانظر لعلم تفرعت عنه صناعة كصناعة العدسات وهكذا كل العلوم يتفرع منها الصناعات كالطب والزراعة والتشريح وعلم النبات . وقبل أن أترك هذا المقام أريد أن أريك جمال العدسات وبهجتها فى الأنوار وتحليلها للضوء وكذلك السحاب

﴿ الطيف الشمسى . لون ضوء الشمس البياض ﴾

فاذا وقع على منشور أو عدسية ونفذه فانه فضلا عن أنه ينكسر ويميل عن استقامته كما مر ينحل أيضا الى ﴿ أضواء سبعة ﴾ وهى البنفسجى والنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى والأحمر على هذا الترتيب وقد نظمها بعضهم فقال

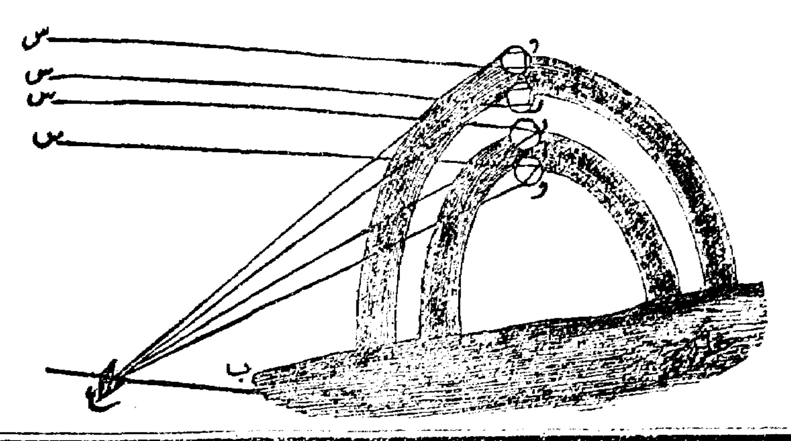
بنفسجى ثم نيلى يلى * وأزرق يليه ثم الأخضر
وأصفر وبرتقالى كذا * وفى ختام الكل يأتى الأحمر

وهذه نعرفها باحدى حالين ﴿ الحال الأولى ﴾ أن ندخل حبلا من ضوء الشمس من خرق فى الحائط الى غرفة مظلمة ونلقيه على منشور ثم نستقبل النور بعد نفوذه منه بقرطاس أوما أشبهه فانا نجد الألوان سبعة مرتبة كما سمعت وهذه صورته (شكل ٤)



(شكل ٤)

﴿ الحال الثانية ﴾ أن ننظر نفس هذا العمل فى السحاب المذكور فى الآية التى نحن فى الكلام عليها فنجد ذلك فى قوس قزح . قوس قزح منطقة مستديرة ملونة بألوان الطيف الشمسى من الأحمر الى البنفسجى كما تقدّم وهذا القوس يقابل الشمس عند وقوع المطر وسبب ذلك انكسار ضوء الشمس وانعكاسه عن نقط المطر فينحل الى ألوانه السبعة وقد يرى قوسان معا احداهما واضحة وهى الداخلية وتسمى (القوس الأصلية) والأخرى أقل وضوحا منها وهى الخارجية وتسمى (القوس الفرعية) وتخالف الأصلية فى مواقع ألوانها فلون الحمرة فى الأصلية فوق البقية وفى الفرعية تحتها وهذه صورته



(شكل ٥)

ما أجل العلم وأبدع الحكمة وأبهج هذه الأنوار . أضاءت الشمس فأشرقت بنورها الأرض فأثارت بحرارتها بخارا من الماء واستخرجته من البحار والأنهار والآجام وسائر الرطوبات فى الأرض أى من جميع القطع المتجاورات فحملته الرياح فكان سحابا مبتعدا عن الأرض لئلا تبتل منه الأمتعة والناس والحيوان ولم يكن بعيدا جدا فلاتراه العيون لئلا ينزل على الناس وهم لايشعرون فيستضرون ولايزيد بعده عن ١٦ ستة عشر ألف ذراع تقريبا وجعل له برق ليستعد الحيوان و يتأهب فلايؤخذ على غرة وهكذا الرعد ثم يمطر وقد يكون من ذلك البخار المنعقد ثلج و برد ومنه صقيع وجليد وغيرهما . قلنا ان الشمس هى التى أثارته بحرارتها والرياح هى التى رفعته . فماذا جرى بعد ذلك . أرسلت الشمس نورها على قطرات الماء فى السحاب فحللت تلك القطرات الضوء الى ألوانه السبعة البسيطة . فالشمس أثارت السحاب والهواء حمله وهى بضوئها زوقته — إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم —

﴿ الآلات البصرية ﴾

هذه الآلات أصبحت كأنها حاسة سادسة وهى ﴿ثلاثة أقسام﴾ الأول آلات مكبرة (مكرسكوب) وهو الذى نرى به دقائق الاشياء وهو لم يخترع قبل غرة القرن السابع قد كشف به علماء النبات النسيج الخلوى فى النبات ودوران العصارة فيه ووظيفته وأوراقه . وكشف علماء الحيوان عجائب جة مثل أن القطرة من الماء الراكد فيها ألوف ألوف من الحيوانات المختلفة الأصناف ومثل أن العفن الذى نراه على الخبز مؤلف من نبات كما تتألف الغابة من القصب . هذا هو (المكرسكوب) ﴿القسم الثانى﴾ الآلات المقربة للأشياء البعيدة سماوية كانت أوأرضية * يروى أن أولاد رجل فلمنكى كانوا ينظرون بعدسيات الى برج كنيسة فاتفق أن أحدهم وضع عدسة محدبة فى مقعرة ونظر بها شبحا مرآه كبيرا وقريبا فأخبر والده مندهشا فوضع والده العدسيتين فى أنبوبتين ينزل أحدهما فى الآخر فصنع (التلسكوب) ﴿القسم الثالث﴾ آلات شتى لالقاء صور الأشباح مكبرة أومصغرة على حجاب أونحوه تسهيلا لتصويرها أوكشف دقائقها الخ . ثم ان القسمين الأولين غالبا لابدّ فيهما من عدسيتين واحدة يقع النور عليها من الشبح وتسمى (بلورة الشبح) وأخرى تنظر بها العين الصورة . وهذه الآلات كلها لم تخرج عن تنوّعات فى وضع العدسيات المتقدّم ذكرها وهذا آخر ماوصل اليه الناس . استخدموا الرمل والجير والصودا وأمثالها فى توسيع نطاق العلم والاطلاع على خفايا الاجسام وتقريب مابعد من الاجرام والمسلمون غافلون — والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم —

﴿ لم خلق الله الصحراء والأرض القفراء ﴾

هـذا هو السؤال الذى كان يجيش بخاطرى حينما أخلو بنفسى وأتفكر فى نظام هذه الدنيا . ولطالما هجس بالقلب هـذا الخاطر أيام زيارتى لحلوان القريبة من القاهرة وأذكر أنى مرة زرتها و بت فيها ليلة وقد خرجت الى الصحراء المحيطة بها من كل جانب فى الهواء الطلق وقد أحسست فى نفسى بانشراح و بهجة فى ذلك الهواء النقى الصافى الجاف وصرت أقول لماذا تكون جبال وصحارى وأودية لا أنيس فيها ولاجليس ولاديار ولانافخ نار . إذن لم خلقت ثم أجبت نفسى بنفسى وقلت ان الله اذا فعل ذلك فقدخلق لنا اللسان والحواس وأنامها طول الليل فاذا كان اللسان لاينطق ليلا فليس معناه أنه لاحكمة له بل أبقاه لينطق بالنهار وان لم تظهر حكمته بالليل وقد كان هذا وأمثاله جوابا عن أكثر ما أجهله فى هذا الوجود و بينما أنا كذلك إذ سمعت حشرات لها طنين موسيقى فى غاية العجب فقلت أليس هذا من المخلوقات التى تطرب فى هذه القفار فهذا بعض حكم الصحراء . هـذا ما كان فى الأيام الخالية ولكنك الآن قد رأيت ماهو أبدع وأجمل من المنافع العجيبة التى شرحتها لك تارة بالصور وتارة بالعبارة وأزيدك الآن بيانا وتفصيلا وحكمة وجمالا حيا الله العلم وحيا الله العلماء . هاأنذا أريك من آيات الله العجب فى الصحراء كما اطلعت عليه اليوم

فى كتب الفرنجة والمسلمون نائمون . أنظر رعاك الله الى عجائب الحكمة فى الصحراء

(١) حرارتها (٢) رياحها (٣) تنقيتها للهواء (٤) تجفيفه (٥) ولولاها لم يعش حيوان ولا انسان فيما جاورها من البلدان

(١) و (٢) إن الله عزوجل خلق الصحراء لغير ما كنا نعلم وحجبه عن أكثر الناس وهو لا يعطى العلم إلا لطالبيه ولا الحكمة إلا لمن يشتاق اليها . احتجب الله بجماله وتعالى فى كماله وخبأ العلم عن العقول والمعلوم حاضر منظور . نحن نسير فى الصحراء ونسافر كثيرا فى الخلاء ولكننا ننظر ولا نعلم فهاك البيان

إن الصحارى تتقد حرارة بما ترسله لها الشمس من الأشعة النورية فيخف هواؤها ويعلو فى طبقات جوّها كما رأيت فى الكلام على الرياح فى سورة الأعراف وغيرها فيحل الهواء البارد محل ما ارتفع بالحرارة ولا معنى للرياح إلا هذا . ما الرياح إلا هواء تحرك ولا حركة إلا بباعث والباعث تلك الحرارة فى هذه المواضع التى خلت من الرطوبة . تجرى الرياح إذن وتحمل السحب وتمطر على ما جاورها من البلدان فتنعش الأبدان وتحرك ماسكن وترفع البخار من البحار الى الحقول فى القرى والأمصار

(٣) و (٤) ثم انها خاليات من المزارع فهواؤها لا رطوبة فيه ولا عفونة . فاذن هى مجففة له ملطفة ومنقية من الجراثيم الناتئة الفاتكة بالانسان

(٥) إذن لولا الصحارى والقفار ما كان العمران ولم يعش انسان ولا حيوان بجانبها لترادف الرطوبات وتكاثر العفونات . وقد ضربوا لذلك مثلا نهرين نهر النيل ونهر الكنج

إن نهر النيل فى بلادنا المصرية ينتهى بالوجه البحرى المشتمل على مايسمى الدلتا . إن هذه البلاد تحيط بها الصحراء من كل جانب . يقولون فلولا الصحراء بقربها ماعاش حيوان فيها ولا انسان لأن الصحراء لها تبعث الرياح وتجففها وتنقيها بخلاف دلتا نهر الكنج . هذا ماقرأته اليوم . ألست بهذا تفهم قوله تعالى — إنّ ربى لطيف لما يشاء — . أليس من اللطف أن يخلق صحراء لا أنيس بها وتكون هى السبب فى الأنس والحياة لجيرانها . إذن الغامر جعل تنورا للعامر من الأرض . فالتنور يجفف الخبز وهذا يجفف الهواء وجعل مخزنا للحياة تنبعث منه على العامر . إن العلم يعكس قضايا الجهل فبينما الجاهل يقول لا حكمة فى خلق الصحراء اذا بالعلم يقول * كل الصيد فى جوف الفرا * ويقول * أطرق كرا إن النعامة فى القرى * ومن أنت حتى تعلم . اللهم إنك أنت الذى حكمت على الأمم الاسلامية أن تنام آمادا وآمادا وقضيت على الخلف أن يتبعوا السلف وأنت الذى جعلت الليل والنهار آيتين يخالف كل منهما الآخر فأرنا آية نهار العلم فى هذه الأمم باستيقاظها بعد أن أريتنا آية ليل الجهل بنومها — إنك على كل شئ قدير — واجعل هذا الكتاب من موقظاتها ومرشداتها واملأ أقطارهم بنور العلم والعدل كما ملئت بظلمة الجهل والجور — إنك أنت السميع العليم — انتهى

إن الصحراء منبع الحياة فالحياة تحتاج الى منبعين ﴿احدهما﴾ يكون من الجبال فيعطى الماء لسقى الزرع والحيوان ﴿وثانيهما﴾ يكون من الهواء فوق القفار ليعطى الجفاف والصفاء فلولا الأنهار لم تكن حياة ولولا الهواء ونقاوته وهبوبه لم تدم الحياة . تحتاج الى منبع ماء ومنبع هواء . فمنبع الماء من المطر النازل على الجبال وما والاها ونحوذلك ومنبع الهواء تلك الصحارى والقفار . وهناك دواع أخرى للصحراء كأن تكون مأوى المظلومين فى المدن ومباءة الذين يحبون أن يعيشوا أحرارا فارين بدينهم أو بعرضهم كما كان يفعل الرهبان وكما ستراه فى سورة الحديد فى قوله تعالى — ورهبانية ابتدعوها — وكم نشاهد العرب فى صحراء مصر أصح أبدانا وأقوى أجساما وأقرب للفضيلة كما يقول ابن خلدون من سكان الحضر . ثم هى أيضا حرم آمن فاصل بين الممالك ليمنع بعضها عن بعض حتى تستقر كل أمة فى مأمنها عاكفة على عملها آمنة

مطمئنة لاترهب غزو جاراتها إلا فى الأزمنة النادرة . هذا ماعنّ لى فى هذا المقام وهذا ماحضر فى تفسير قوله تعالى – وفى الأرض قطع متجاورات – انتهى

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى – يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل – ﴾

يقول الله تعالى – يسقى بماء واحد – ولم يقل يتغـذى بغذاء واحد . علم الله عز وجـل أننا معاشر المسلمين ستمرّ علينا القرون تلو القرون ونحن لاهون عن عجائب النبات كما أننا لاهون عن غـيره وعلم أننا لانصدر ولانرد إلا عن القرآن وعلم أن هناك طائفة من المسلمين قليلة تتعلم العلوم لذات العلوم وهى تظن أن الدين لايطلبها أو يعاديها ولايلائمها فأشار فى هـذا المقام بقوله – يسقى بماء واحـد – الى معنى عجيب دقيق يهدى جميع طوائف المسلمين الى النبوغ فى علم الحيوان والترقى فيـه لنظام هذه الحياة ولنظام العقول ورقيها بالحـكمة . ولعلك تقول . ولماذا تشير هذه الجملة فى الآية . أقول لقد أظهر الـكشف الحديث أمراً عجبا أظهر مالايخطر ببال ولايتصوّره خيال بل لاتسيغه الأحلام ولاخطرات الأوهام . اللهم إن فضلك علينا عظيم اللهم لولم يكن فى هـذا التفسير بل لولم يكن فى العلوم كلها سوى ما سأذكره فى هذه المقالة لـكفى الأمم كلها سـعادة علمية وجمالا حكميا وكمالا عقليا . ولوأن امرأ قيـل له إن فى النبات مايفترس الحيوان ويفعل ماتفعله الوحوش والاسود والنمور فى اقتناص الغزلان والأنعام . أوقيل ان النبات له من الحيل ماللانسان فى استغفاله واحتياله على الآساد . يحفر حفرة فى طريقه حتى اذا مرّ عليها وهو لايشعر وقع فيها الأسـد وهوأسير . أوكما تفعل دول أوروبا مع أهل الشرق إذ تغـدق النعم على عظماء الشرق وبذلك تستدرجهم الى احتلال بلادهم وابتلاع ثروتهـم . اذا قيل ذلك عدّ قائله غيرعاقل يهرف بما لايعرف . ولـكن هذه أصبحت اليوم حقائق ثابتة لاتقبل الشك كما ستراه وسترى صور هذه النباتات فى هذا المقال

﴿ أقسام النبات ثلاثة ﴾

اعلم أن النبات ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قسم يتغذى بالموادّ الأرضية ممزوجة بالماء وبالموادّ الهوائية وقسم يتغذى بجسم نبات آخر كما تتغـذى البراغيث والقمل والحيوانات الضارّة من جسم الانسان مثـل (المـكروبات) اللاتى تحدث الأمراض المختلفة كالحمى والجدرى الخ وقسم لايكون غذاؤه إلا من الحيوان فالقسم الأوّل من النبات هو المعروف والقسم الثانى من النبات هو المسمى (الـكشوثى) وهو نبات يعيش على غيره لاجذر له فى الأرض بل يمتص من جسم نبات آخر وقد رأيت بعينىّ نوعا منه فى حديقة مصرية فى بعض الدواوين عنـدنا . والقسم الثالث هو الذى أفردت له هـذا المقال ولم أره إلا فى كتاب ﴿ الموسوعات ﴾ بالانجليزية الجزء الأوّل من صفحة ٢٤٠ الى ٢٤٨ ولعمر الله لم يكن ليخطر لى قبل هذه الأيام أن أطلع على موضوع شائق جميل مثل هذا فأحمد الله على توفيقه وأشكره على أن أرانى هذا وفوق ذلك وفقنى لايضاحه لأذكياء المسلمين . وقبل أن أترجم هذا الموضوع من الـكتاب المذكور أبين مناسبته لقوله تعالى فى الآية – يسقى بماء واحد – كما وعدت من قبل . ذكر الله عز وجل أنه يسقى النبات بماء واحد ولم يذكر التغذى لأن كل نبات لابدّ له من الماء والماء واحد ولـكن ليس غذاء النبات واحدا . لم يقل هو غـذاء واحد ولم يقل هو متعدّد أى انه ترك هذا لنا لندرسه فهانحن ندرسه الآن فوجدنا الغذاء ﴿ ثلاثة اقسام ﴾ قسم معـدنى عام وهو الذى يتغذى به النبات المعروف وقسم نباتى وهو الـكشوثى وقسم حيوانى وهو ماسأبينه فأقول

هذا ملخص مافى ذلك الـكتاب المسمى ﴿ علوم للجميع ﴾ للعلامة (روبرت براون) قال

معلوم أن جمهور النبات من الطوائف العليا انما يجتذب غـذاءه من الطين بواسطة عروقه الضاربة فى الأرض واذا كان يعيش فى الماء كالأعشاب البحرية التى تنبت فى الطين اجتـذب غذاءه من الماء الذى يعيش فيه . ثم قال اننا نعلم أن العروق النباتية الضاربة فى الأرض لايتسنى لها أن تمتص الموادّ الجامدة

وأنها لاتمتص غذاءها إلا على هيئة موادّ سائلة أوموادّ (غازية) وهناك قاعدة وهى أن الجذور ليس لديها طريقة كيمائية بها تحوّل الجوامد الى حال السوائل أوالغازات . كلا . إن فى النبات عددا محصورا الاغذاء له إلا من الحيوان بطرق تخالف ماعليه سائرالنبات وأهمّ أغذية هذا النبات هى الحشرات وحيوانات أخرى صغيرة ولذلك تسمى هذه الأنواع (ممزقة الحشرات) أو (آكلة اللحوم) وههنا أحضر الكاتب نوعين من النبات وهما (ندى الشمس ذوالورق الملتف) و (بترورد) وصورتهما ستأتى فى (شكل ٦ و ٧) فلنخص الأوّل الآن بالكلام

﴿ وصف ندى الشمس ذى الورق الملتف ﴾

ورقه فيه حمرة له زهر أبيض يظهر فى شهرى يوليو وأغسطس من كل سنة والأوراق مدوّرة وهى اشبه شئ بالملعقة المفرطحة وسطح الورقة الأعلى يشبه الشعر وهومنته برؤس مغطاة بسائل لزج . وأحسن ما تسمى به أن يقال (قرون الحشرات) ان هذه القرون التى تغطى رؤسها بسائل لزج صمغى اذا نحن لمسناها بطرف قلم الكتابة رأينا بعضها يمتدّ امتدادا عظيما وهو يحمل مايشبه الصمغ الذائب أوالدّبس . فاذا وقع على تلك المادّة اللازجة حشرة أوحب أو شئ صغير فان ذلك القرن ينقبض و يمسك بذلك الواقع عليه كما يحصل للطائر الصغير اذا وقع على غصن مغطى بمادّة لزجة معدّة لصيده أوكما يحصل للذبابة اذا وقعت بجهالة وغرور على دبس . اذا نحن نظرنا الى أوراق (ندى الشمس) المذكور فاننا نشاهد أن كل ورقة قد حصل فى جسمها أجسام صغيرة معطلة فيها بواسطة تلك القرون كالذباب والحبوب والأوراق الصغيرة وما أشبه ذلك . و بينما نحن نبحث فى تلك الأوراق قد نجد ذبابة وقعت على ورقة وقد اشتبكت أرجلها فى تلك القرون أونجد حبا أو ورقا عصفت به الريح . ثم قال الكاتب . ان الانسان عادة لايحتمل البقاء فى المستنقع الذى فيه النبات المذكور فاذن يمكن الانسان أن يحفر عليه و يأخذه الى منزله و يزرعه هناك ويجعله فيما يماثل ما كان فيه من المستنقع الذى لاينبت عادة الا فيه واذن ندرسه فى حال فراغنا . فاذا شرع الانسان فى استخراج ذلك النبات لاحظ أن جذوره ضعيفة جدّا وتغذيته قليلة . فاذا استوى ذلك النبات فى منازلنا هنالك نأخذ فى امتحانه فنبتدئ أوّلا فنضع ذبابة فوق رأس (قرن صمغى) من تلك القرون ونلاحظ نتيجة ذلك فيكون ما يأتى

(١) ان ذلك القرن الذى وقعت عليه الذبابة لاتمضى عليه دقيقة حتى يبتدئ يحنى نفسه نحو مركز الورقة و يستمرّ فى ذلك الانحناء حتى يصل الى المركز

(٢) و بعد انحناء ذلك القرن تسرع القرون التى تجاوره فى الأخذ بيده كأنها عرفت حديث ﴿ يد الله مع الجماعة ﴾ أوكأنها جميعها تريد الاشتراك فى الغنيمة فتنحنى جميعها لاغتنام هذه الفرصة وأخذ القنيصة

(٣) السائل اللازج الذى يصبه رأس ذلك القرن يأخذ فى زيادة المقدار حتى يغطى الذبابة جميعها وهذا يكون سببا فى موتها لأن هذا السائل يسدّ مسام جسمها . ولاجرم أن المسام فى الحشرات بها التنفس فمتى سدّت المسام انقطع التنفس فمات الحيوان

(٤) ان هذه الذبابة التى أصبحت أسيرة فى قبضة تلك القرون تتدحرج نحو مركز الورقة بتحريك القرون الطويلة التى فى الأمام وتسليمها الى القرون القصيرة التى جهة المركز

(٥) ان حافة الورقة تكون منحنية كثيرا أوقليلا حتى ان حواشيها تكوّن هيئة حوض عند قاعها الذى استقرّت فيه الذبابة وغمرها ذلك السائل اللازج الذى أفرزته تلك القرون

(٦) و بعد بقاء الذبابة فى هذا الوضع ساعات بل ربما كان ذلك أياما معدودة نرى تلك القرون تأخذ فى الانتصاب والاعتدال كرة أخرى وترجع بالتدريج الى سيرتها الأولى ووضعها المعتدل المستقيم وترجع الورقة

كما

كما كانت مفرطحة كالملعقة مثل عادتها ويقل فرز القرون لسوائلها بل ربما نراها جفت . واذا نحن بحثنا عما بقى من تلك الضحية وجدنا أنه لم يبق منها إلا مالاينفع للغذاء كالجلد والأطراف والأجنحة وماعدا ذلك فلا وجود له وهذا تمام التجربة الأولى ﴿التجربة الثانية﴾ نضع بدل الذبابة أى طعام آخر مقبول كقطعة من اللحم والجبن و بياض البيض والحبوب الصغيرة وهكذا كل شئ يؤكل فاذا فعلنا ذلك وجدنا مايفعله النبات هنا هو عين مافعله مع الذبابة غاية الأمر أن الانهماك والاسراع يكون أقل أو أكثر على حسب المادة الموضوعة فترى اللحم وكل طعام آخر للحيوان أقوى وأسرع تأثيرا من غيرهما ﴿التجربة الثالثة﴾ أن نضع بدل ماتقدم شيأ لايصلح لطعام كشئ من الشعر أو الخيط أو العظم أو الزجاج وما أشبه ذلك . اذا وضعنا هذه رأينا القرن المذكور ينعطف ولكنه ليس بالسرعة التى سبقت مع غيره والسائل يكون افرازه بطيئا وقليلا والقرون بعد انعطافها زمنا قليلا ترجع الى سيرتها الأولى ﴿التجربة الرابعة﴾ أن نلمس بابرة مثلا الرأس المدوّر لقرن من تلك القرون مرة أو مرتين فاننا نلاحظ أنه لا يكون لذلك أثر ما وأما اذا كررنا ذلك اللمس مرارا أو اتخذنا الضغط بذلك سبيلا فان القرن يأخذ فى الانعطاف كما فى الأحوال المتقدمة . فمن هذا ينتج أن اللمس مرة أو مرتين لا أثر لهما كما فى حال ضعيف الأوراق المجاورات لذلك النبات اذا هبت الرياح فلمست تلك القرون فذلك لا أثر له . وهكذا هطول الأمطار وما أشبهه

﴿ مسألة من الكيمياء فى هذا المقام ﴾

اعلم أن هذه المادة المفرزة ليست من الأحماض . كلا وليست تكون من الأحماض إلا اذا أفرزت فى حال التهييج كما يتأثر ريق الانسان ويفرز عند شهوة الطعام وحضوره وكما تفرز المعدة مادة حمضية عند مقابلة الطعام . وقد جرب العلماء لذلك تجاريب فوضعوا على ذلك السائل ورقة كيمائية تسمى (ورقة ليتمس) ومن شأنها أنها اذا غمست فى خل أو أى حامض آخر فانها تلون باللون الأحمر فلما غمسوها فى ذلك السائل وهو على حاله لم يلون باللون الأحمر فلما أن قرّبوا لتلك القرون قطعة لحم وتحركت نحوها بانعطاف هنالك غمسوا الورقة الكيمائية فى السائل فصار لونها أحمر فاستدلوا من ذلك على أنها عند تقريب الطعام منها تفرز حامضا كما تفرز المعدة فأما اذا لم يقرب الطعام فذلك السائل ليس من الحوامض فدل ذلك على أن هذه النباتات تهضم بهذه الحوامض طعامها ولاتفرز إلا عند تعاطى الطعام . وهنا أتى المؤلف بهذا المحصل فقال

(١) ان قرون أوراق (ندى الشمس) لها قدرة على القبض على الذباب وصغار الأشياء والاستحواذ عليها متى لامست المادة اللزجة على رأس تلك القرون

(٢) ان القرون وأطراف الأوراق لها قوّة على الحركة بحيث تنعطف على ما تصطاده بأطراف القرون المذكورة وتدحرجه الى مركز الورقة

(٣) هذه الحركة انما تحصل برأس ماسميناه (قرون الحشرات) اما بتكرار اللمس أو بدوامه

(٤) القرون يدوم انعطافها وانحناؤها على الفريسة وهى مطمئنة ساكنة زمانا طويلا اذا كانت الفريسة صالحة للأكل وقليلا فى عكس ذلك

(٥) المواد العضوية لاسيما المواد الحيوانية القابلة للهضم أسرع تأثيرا مما لا تصلح للأكل فالأوّل كاللحم والثانى كالعظم و بقاء انحناء القرن على الفريسة يطول فى الأوّل و يقصر جدّا فى الثانى

(٦) ان حركات القرون يصحبها افراز سوائل من رؤسها لاسيما اذا كان مسبب الحركات مادة تصلح للأكل

(٧) ان نتيجة افتراس مادة صالحة للأكل بهذه القرون أن يعمها ذلك السائل المفروز وأن الأجزاء الصالحة للتغذية لاتظهر بعد ذلك ومالايؤكل لايبقى عليها أثرما

(٨) المادة المفروزة من تلك القرون ليست تكون من الأحماض إلا عند ملامسة مايهيجها من المواد

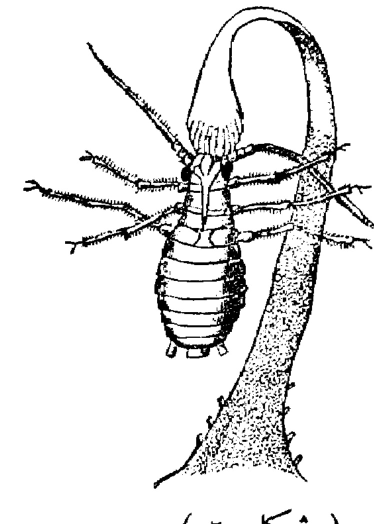
المأكولة . هذا واعلم أنهم قد تحققوا أنه لافرق بين المادّة الهاضمة فى معدة الانسان المسماة (بيسين) و بين المادّة الحامضة فى هذا النبات فهما سواء . وهذا الحامض الذى فى النبات يكثر عند ملامسة موادخاصة

﴿ فائدة جذور هذا النبات ﴾

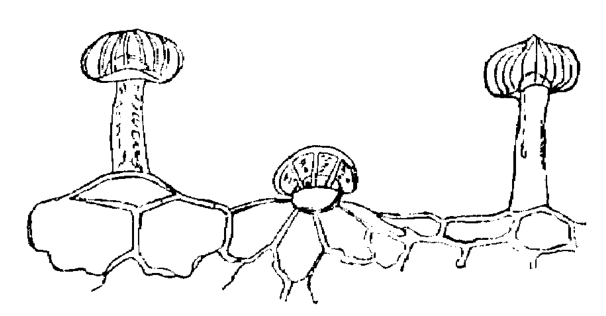
(سؤال) . علمت أن هذا النبات يتغذى من الحشرات وغيرها فما فائدة جذوره فى الأرض (الجواب) أن فائدة هذه الجذور ﴿أمران﴾ الأوّل انها لتثبيت النبات فى الأرض . الثانى انها تجذب له الماء الصاعد فى أوراقه فأما جلب الغذاء فلا . انتهى الكلام على نبات (ندى الشمس) المذكور (شكل ٦)

﴿ عدد النباتات المفترسة هى تبلغ مائة ونيفا ﴾

قال المؤلف ان عدد النباتات التى تأكل الحيوان فى بلاد الانجليز غير هذا الذى شرحناه وهو (ندى الشمس الملتف الورق) نوعان فقط فأما الموجود فى العالم من ذلك فهو نحو مائة نبات وكلها من غير استثناء تصطاد الحشرات كالذى شرحناه سواء بسواء وكل غذائها منها. واذ فرغنا من الكلام على النبات الأوّل وهو (ندى الشمس الملتف الورق) فلنبين حال الثانى وهو (بتروورد) شكل ٧



(شكل ٦)



(شكل ٧)

ولقد أخذ الكاتب يشرح هذا النبات و يذكر التجارب التى صنعت فيه كما كان ذلك مع النبات الأوّل فلا نطيل به



(شكل ٨)

هذه النباتات الست قد وصف الكاتب بعضها . وها أنا ذا أوجز القول فيها فأقول

النبات نمرة (١) فهذا يسمونه (النبات الجزار) وهو نحو (٣٦) نوعا وليس من الأشجار بل هو ر

من نوع الأنجم أى التى لاساق لها و ينبت فى البلاد الحارة والذى كشفه هوالمستر (هوكر) أنظر الى ورق هذا النبات فى الركن الأعلى من اللوحة فى جهة الشمال فانك ترى الجزار فيه على شكل الآلة الموسيقية أوعلى هيئة آنية بأحجام مختلفة يتصل به ساق قد يطول جدّا وهوعند أعلى الورقة وهذا الجزار قد يطول من عقدة وعقدتين الى أكثر من قدم و يقوّيه غطاء ذوفتحة صغيرة أوكبيرة • واعلم أن فم ذلك النبات والسطح الداخل منه جيلان بلون بديع وهيئة جيلة وقد يفرز أيضا مادّة عسلية • فههنا اجتمع جمال المنظر وحلاوة العسل فهذان يغران الحشرات المسكينات فيدخلن ذلك النبات • وهنا أخذ الكاتب يفرض أن أحدنا لوكان مكان الحشرة ورأى ذلك المنظر والمذاق الحلو لكان حقا يسرع الى ذلك الجمال والحلاوة ويهجم على المكان هجوما شديدا فندخل أوّلا باب ذلك الجزار قال وقد نجد مايغرّنا من جمال الداخل فنزيد فى التوغل فى الداخل حتى ندخل فى الأنبوبة التى تشبه المدخنة • ولسوء طالع الداخل يرى أنه يتعذر عليه الرجوع فيزيد فى التوغل داخلا • فماذا نرى • نرى هناك سطحا أشبه بالزجاج لاتستقرّ الرجل عليه فاذن تنزلق عليه وحينئذ يجد هذا الداخل أنه قد غرق فى ذلك السائل الذى يعم جسمه فيقطع أنفاسه ويكون طعاما سائغا مهضوما • وهنا نرى العجب • نرى أن هذا النبات الجزار لم يصطد فريسته بقوّته ولابثقله وانما اعتمد على خطة الغشّ والخداع بجمال الألوان و بالعسل أوّلا و باستدراج الفريسة الى الدخول فى الأنبوبة السهلة الدخول المانعة من الخروج ثم يكون الاستقرار فى المكان الذى يشبه الزجاج فى نعومته ثم يكون الموت والهضم • وهذه التجربة كانت بمعرفة الاستاذ (هوكر) وقدمها للجمعية البريطانية فى اجتماع (بلفاست) سنة ١٨٧٤ م ووصف الكاتب النبات الثانى (نمرة ٢) الذى تحت الأوّل أى فى الركن الذى جهة الشمال من الأسفل فى اللوحة فقال إنه ينبت فى شمال بلاد (كردولينا) وهو مثل النباتين المذكورين أوّلا هنا • قال وهو ينبت فى أرض المستنقعات مثلهما والورقة ذات فصين يكوّنان مع بعضهمازاوية أقلّ من القائمة وترى عند مركزكل فص من الفصين ثلاث شعرات تشبه الأسنان • ومن العجب أننا اذا لمسنا واحدا من هذه الشعرات بابرة مثلا أسرع الفصان فانطبقا معا حالا و يبقيان هكذا معا فيعسر فصلهما إلا بتمزيقهما • واذا نحن نجحنا فى فصلهما رجعا فاتحدا ثانيا ويبقيان نحو يوم لايريدان الانفصال • واذا لمسنا جزأ آخر بابرة مثلا من الورقة غير تلك الشعرات لاتتحرّك الورقة وهكذا لاحراك لها بهبوب النسيم ولابنزول قطرات المطر على تلك الشعرات التى تشبه الأسنان كما قلنا سابقا • ولواننا وضعنا على الورقة ذبابة مقطوعة مثلا أوقطعة من لحم لرأينا أن رأس الشعرات التى كالقرون التى مستها الذبابة أوقطعة اللحم أخذت تفرز سائلا لزجا وأخذ الفصان اللذان انقسمت اليهما الورقة يقتربان و ينطبقان • وهذه التجربة قد حصلت فى كل ما يصح أكله فكانت النتيجة ماحصل فى اللحم والذباب فهناك افراز وهناك انطباق الفصين أومصراعى الورقة • أما مالا غذاء فيه كالزجاج ونحوه فلايتحرّك له الفصان ولايفرز النبات له سائلا • واذا انطبق الفصان على الفريسة فانهما لايفترقان نحو ثلاثين يوما ثم اذا انفصلا فانهما تقلّ قوّتهما بعد ذلك وتصعب عليهما الفريسة الكبيرة التى قدرا عليها فى أوّل مرة • ومتى فتح الفصان بعد انقضاء عدّة الأيام للانطباق فاننا لانرى للفريسة أثرا إلا ماصعب هضمه كالجلد والرجلين ونحوهما • ثم وصف النمرة الثالثة وهى الموضوعة فى أسفل اللوحة فلم يطل الوصف فيها اتكالا على ماسبق • ووصف النمرة الرابعة التى فى الجانب الأيمن من الأسفل باللوحة فقال ان ورقتها ملتفة ولها قرون وهى من نوع (ندى الشمس) المتقدّم ولم يطل فيه ولافى الخامس ولافى السادس لأن أوصاف هذه النباتات متقاربة • ثم ختم المقال بقوله • ان اقتناص النبات للحيوان كان موضع شكّ من العقلاء ولكن ماذكرناه الآن أثبت هذه الفكرة وأن بعض النباتات مفترسة كما يفترس الحيوان • انتهى ملخص هذا المقال مترجما يوم الأحد ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧

﴿ جوهرة ﴾

ها أنت ذا أيها الذكى اطلعت على عجائب ما كان ليخطر لأحد أنها حقة . اطلعت على عجائب تدهش العقول . الناس عرّفوا النبات بأنه يتغـذى وينمو ويلد ويموت . وعرفوا الحيوان بأنه متصف بذلك كله ويمتاز بالحس والحركة ولكن بعد هذا البيان أصبح الحيوان لايمتاز عن النبات فاذا قلنا النبات لايحس ولايتحرك فما بالنا نرى بعض الذى رسمناه ووصفناه فى هـذا المقام يتحرك لأدنى لمس للشعرات الثـلاث اللاتى خلقت فى مركز الفصين المتقدمين فى أحد النباتات التى فى اللوحة المذكورة ومابالنا نراها كلها تتحرك عند حصول ذباب أوغـير ذباب عليها . أليست هذه حركة . أليس هذا هو الحس بعينه . اللهم إنك بهذا فتحت البصائر وأنرت القلوب . ولما وصلت الى هذا المقام حضرأحد أصدقائى الفضلاء واطلع على هذا فقال ياعجبا لك أباختلاط الحقائق فتحت البصائر أنت تقول ان النبات والحيوان قد اختلطا وأصبح أمرهما غير مضبوط فالنبات حيوان فهل هذا انفتاح البصائر . كلا بل هذا هواظهار جهـل أهل الأرض قاطبة بهذا الوجود فأوضح هـذا المقام والا فالقول غـير مقبول . فقلت لماذا عجلت علىّ فلأوضح المقام الآن فأقول . إنى قصـدت بانفتاح البصائر هنا ﴿خمسة أمور﴾ الأول أن هذه النباتات أرتنا سرّ قوله تعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ـ ﴿الثانى﴾ أنها أرتنا لطف الله فى الاماتة كلطفه فى الاحياء ﴿الثالث﴾ انها أرتنا كيف تتنوّع الأرزاق بتنوّع المخلوقات مع عجائب التدبير والاحكام والنظام الغريب ﴿الرابع﴾ انها أرتنا معنى قوله تعالى ـ ما من دابة إلا هو آخـذ بناصـيتها إنّ ربى على صراط مستقيم ـ ﴿الخامس﴾ انها أرتنا أن تحريم اللحم لأجل الرحمة لابرهان عليه . فقال فما ايضاح الأمر الأول . فقلت إن الله يقول ـ يسقى بماء واحد ـ كما قدّمت سابقا ولم يقل يتغذى بغـذاء واحد وههنا ظهر السرّ ظهر هنا بأعظم وضوح فتعجب . ألم ترأن جـذر بعض تلك النباتات المفترسة لم يكن له عمـل إلا جذب الماء وتثبيت النبات فى الأرض فأما جلب الغذاء فلا لأنه يتغذى من الحشرات وغيرها . إذن الماء هو المادّة العامّة لكل نبات وليس الطين كذلك فهـذا سرّ قوله ـ يسقى بماء واحد ـ ولم يكن الناس يعلمون ذلك قبل زماننا هذا ولم يكن أحد ليعقل أن النبات لايتغذى من المواد الأرضية وانما يتغذى من نفس الحيوان فهذا سرّ قوله تعالى ـ يسقى بماء واحد ـ ولم يقل يتغذى بماء واحد . أليس هذا من عجائب القرآن . ومن عجب أنك سترى فى هذه السورة صورالثلج أنواعا كثيرة وترى أنه قد ظهر بأساليب عدّة وهومحلى بما يشـبه ورق الأشجار وبهجتها . فهذه الأشكال النباتيـة التى ستراها فى الثلج دليل على أن نظام النبات أسه من الماء ولذلك كان منه مايأكل جمادا وما يأكل حيوانا فـكانت جميعها كأشـكال الثلج التى ستراها اه

﴿ ايضاح الأمر الثانى ﴾

أما ايضاح الأمر الثانى وهولطف الله عنـد اماتة الحيوان فانظر وتعجب . أليس الناس على الأرض يموتون بالمرض تارة وبالحرب والقتال تارة أخرى . فياللعجب يموت الناس غالبا وهم فزعون من الموت أما هذه الحشرات فان الله عزّوجـل قد مهد لها السبيل الى الموت فى راحة وسعادة . ألم تر الى العسل الذى أعدّ لها والى الأنبوبة اللطيفة التى تدخلها والى المنزل الذى يشبه الزجاج فى نعومته . أعدّ الله ذلك للحشرة وزين لها ظاهر الورق وباطنه ومدخله لترى جمالا فتسرع اليه وقد فعل الله معها مافعـله مع هذا الانسان إذ قال له ـ حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا الخ ـ فهـذه الحشرات التى تدخل النبات المفترس يغرها الجمال الفتان فى الورق والعسل الحلو فى داخـله والمزالق اللطيفة حتى اذا اطمأنت جاء لها السائل الذى تفرزه تلك القرون من رؤسها فتموت حالا فهذا موت لا ألم فيه بل أخـذها الموت فى حال لاتحس بها . وأما ايضاح ﴿الأمر الثالث﴾ وهو تنوّع أسـباب الأرزاق

بتنوّع الحيوان فهو ظاهر واضح فانك ترى بعض هـذه النباتات يقتنص الفريسة بالخداع واظهار الجمال والعسل فتخدع الحشرات و بعضها يعتمد على حركته واخراج السائل فيقبض بشعرة من شعراته على القنيصة ثم يتبعها بأخرى و يفرز السائل الذى يقتل الحشرة • فهذا اعتمد على قوّة بطشه وعلى آلة قتـله كما يفعل الانسان وأما ماقبله فقد اعتمد على الحيلة والدهاء والمكر كما يفعل السياسيون وكما يفعل الانسان مع السباع

أما ايضاح ﴿ الأمر الرابع ﴾ وهو قوله تعالى ــ مامن دابة إلا هو آخـذ بناصيتها الخ ــ فاعلم أن ذلك تقدّم فى سورة هود مفصـلا ولـكن هنا نذكر ماينـاسب هذا المقام • أنظر الى هذه العجائب نبات لا ينتقل من مكانه وقد حكم عليه أن لا يأكل إلا من حيوان • فماذا فعـل الله له • خلق له الحشرات وأكثرها ولم يغفل عن خلقها وخلق هـذه النباتات وقال لهـا أيتها النباتات اننى حكمت عليك بالبقاء فى المكان ولـكنى سهلت لك السبيل ومهدت الطريق وجعلت من الحشرات أفئدة تهوى اليك فرزقتك من اللحوم وغيرها • أنا الذى حكمت عليك بالبقاء وأنا الذى أنعمت عليـك بالحشرات الطائفات لتغتذى بها غذاء تاما • هذا معنى قوله تعالى ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ فهذا هو الأخذ بناصية الدواب وهذا منها

أما ايضاح ﴿ الأمر الخامس ﴾ فان تحريم اللحم لأجل رحمة الحيوان لابرهان عليه لأنا رأينا الحيوان يقتنصه الحيوان و يقتنصـه النبات • وهاهى ذه النباتات حرم عليها أن تأكل غالبا إلا من حيوان وهكذا الاسود والنمور حرم عليها أكل النبات ووجب عليها أكل الحيوان فعلمت أن نظام هـذه الدنيا راجع الى ﴿ أمرين ﴾ الموت والحياة والموت مقصود فى هذه الأرض والحياة أيضا مقصودة فهما أمران كل منهما واجب وجوده • وعليه لامعنى لتحريم أكل الحيوان الذى نريحه بقتله واخراجه من ضيق الأرض الى فسيح الفضاء

هذه جنة العارفين • إن العلم بهذه الحكم والعجائب جنة العارفين ونعمة الحكماء و بهجة الأولياء • واعلم أن علم الله لاحدّ له وفضله لانهاية له ــ وقل رب زدنى علما ــ اهـ

﴿ منظر جميل فى قصر منيف ﴾

(أحقيقة أم خيال)

لما كتبت هذا الموضوع كان ذلك فى صباح ليلة الأحد وقد كنت قبل الـكتابة مشغوفا به شغفا لاحدّ له فما كدت أتمه حتى أحببت أن أستريح مقاوما ما يساورنى من المعانى التى تحوم حول هذا الموضوع مكتفيا بماكتبت • ولكنى فى ليـلة ٢٣ أغسطس سـنة ١٩٢٧ خطر لى وقت الصباح خاطر لم أقدر على مدافعته وظلّ يملك علىّ وجدانى وأنا به ثمل فقد خيلت لى هذه الدنيا كأنها قصر جميل ذات بهجة وحسن وكأن السماء جميعها مضيئة مشرقة تحيط بى من كل جانب وكأنى فى حياة أسـعد من حياة أهل الأرض التى أعيش فيها فلم أر بدّا من كتابة ما ألاحظه فى هذا المقام • وهنا أخذنى مايشبه سنة النوم وكأن هذه السماء التى تبدّت لخيالى مضيئة قد صارت قصرا جميلا بهيا بديعا فأخذت أنظر فى جوانبه وأتأمّل عجائبـه وأسرّح الطرف فى محاسنه • هنالك تبدّت لى حيطانه الأربعة مصنوعة من الذهب مزخرفة باللآلئ البديعة والأحجار الثمينة وأنواع المرجان وكل ماهو جميل وتخيلت أن فى أركان القصر نورا يشع ثم أخذ يزداد شيأ فشيأ فأخذ بمجامع لبى لما تنوّعت ألوانه وأشرقت صوره فكنت أرى صورا مشرقة بديعة بهيئة ألوان (قوس قزح) وهنا رأيتنى فى عالم غريب عجيب فحرت فى أمرى وصرت أقول ياليت شعرى أين أنا الآن • أنا أكتب فى موضوع ذلك النبات الآكل اللحم الذى كشفه القوم وهاهى ذه صورته مرسومة أمامى فما هذا القصر وماهذا الجمال • فبينما أنا على تلك الحال إذ رأيت شخصا كأنه طيف خيال • فقال أراك فى حيرة فسلنى عما تريد فقلت ماهذا القصر ولمن هو • فقال هذا القصر لك أنت ولأمثالك • فقلت وكيف ذلك • فقال قد حضر فى خيالك ليمثل ماتـكتبه الآن • فقلت لم أفهـم ما تقول • فقال ألم تعلم أنك الآن تـكتب فى عالم الحيوان

والنبات وقد أتيت بأعجب مافيهما وهوالنبات الذي يأكل اللحم . فقلت بلى . قال إن المعدن والنبات والحيوان والانسان تمثل حيطان القصر الأربعة فأما أركان القصر فهي الصلة بين كل حائط ومايجاوره فركن يمثل اتصال المعدن بالمادّة الأصلية كالجص والزاج وأمثالهما فهذه معادن أقرب الى المادّة الأصلية ومثل ذلك أنواع الشبوب وأوسط المعدن الرصاص والذهب ونحوهما . والركن الثانى يمثل اتصال المعدن بالنبات وأعلى المعادن الياقوت والذهب ونحوهما وأقل النبات مايظهر بالغدوات أيام الربيع من نبات صغير ويجف فى ضحوة النهار وفى اليوم الثانى يطلع كعادته ويجف ضحى وهكذا ويسمى (خضراء الدمن) والركن الثالث يمثل اتصال النبات بالحيوان والركن الرابع يمثل اتصال الحيوان بالانسان وذلك فى أنواع القردة والفيلة والخيل فالقرديقرب من الانسان فى تقليده والفيل فى ذكائه والخيل فى أدبه . فأما الركن الثالث فهو الذى كنت تكتب فيه وأنا أبين لك مافى نفسك . لقد تبدّى لك فى هذا الركن الذى يصل مابين النبات والحيوان نور أوّلا قليلا ثم ازداد وتلألأ وتنوّع . فأما ظهورالنور أوّلا فهو ماكنت تقرؤه فى كتب أسلافك من أن أعلى النبات النخل والكشوثى أما النخل فلأنه يشبه النبات من حيث انه اذا قطع رأسه مات كالحيوان وأماالكشوثى فانها تعيش على غيرها من النبات فنفسه حيوانية وشكله نباتى . فهذه أشبهت الحيوان من حيث انها تأكل النبات والنخل أشبهه من حيث انفصال الذكر عن الأنثى ومن حيث انه اذا قطع رأسه مات

وأدنى الحيوان دودة فى جوف أنبوبة تنبت على الصخر الذى فى سواحل البحار وشطوط الأنهار . هذه هى الأركان الأربعة وأمثالها . هذا هومعنى النور الذى ظهر لك أوّلا فى هذا الركن . فأما النور المتلألئ الذى ظهر بعد ذلك فانه يمثل لك الجمال الذى ابتهج به قلبك والعلم الذى نلته بالاطلاع على نفس صور النباتات المفترسة وكيف أدهشك ذلك النبات الجزار الذى قد رسم أمامك فى أعلى اللوحة المتقدّمة من جهة اليسار الذى كشفه الاستاذ (هوكر) فانك لما رأيت صورته ووجدت وصفه وأن فوهته وأسفل سطح الغطاء متلألئان جميلان فى غاية الحسن مزودان بالعسل . أقول انك لما رأيت ذلك دهشت أشدّ الدهش لأنك تطلب الحقائق وصارت نفسك تحدّثك قائلة هذا نبات لاحراك له إلا قليلا فما هذا الجمال وما هذا العسل . هذا الجمال وهذا العسل خلقا ليغشّ بهما الحيوان فيقدم عليهما ليموت فأخذت نفسك تحدّثك قائلة أيضا إن الذباب وكثيرا من الحشرات عمرها قصيرفأ كثرها يموت فى أوائل الشتاء والحكمة قضت أن لا معطل فى الوجود فلذلك أعدّت هذه المذابح ووضعت هذه الأعاجيب بلطف وحيلة حتى يكون لموت هذا الذباب فائدة لأنه اذا مات فى العراء فلافائدة منه فأما اذا التهمه هذا النبات فقد أصبح غذاء له واذن الموت مطلوب والحياة مطلوبة كلاهما مقصود ولكن موت الحشرات على هذا النمط أجلّ حكمة وأشرف مقصدا

وهكذا لما رأيت النباتين اللذين رسما فى جهة اليمين من اللوحة المتقدّمة وعرفت وصفهما بحيث ان الفم وأسفل الغطاء شكلهما ولونهما جميل وقد وجد فيهما العسل كما تقدّم أيضا وهذا العسل قد يسيل الى الأرض ليغر الحشرة ويهديها الى طريق الموت بسهولة فاذا جاءت لتشربه فرحت بالمنظر فسارعت لتدخل فيقابلها دهليز أملس ثم تمرّ على ممرّ زجاجى لاتستقرّ الأرجل عليه ثم يقضى عليها فتكون طعاما موضوعا سائغا للآكلين . فهذه المناظر البديعة التى رأيتها فى علم الحيوان زادتك علما وأنارت بصيرتك فانتعشت قوّتك العلمية فبعد أن كانت معارفك فى هذا لاتعدو النخلة ونبات الكشوثى المتقدّم وهكذا تلك الدودة التى تنبت على شطوط الأنهار وكنت تقرأ فى كتب المتقدّمين أن تلك الدودة حيوان نباتى لأنها أعطيت الحركة وحاسة اللمس وذلك لأنها تمتدّ لأكل الرطوبات المناسبة لها فهى إذن شاركت الحيوان فى حاسة اللمس وفى الحركة وأيضا ان كل نبات فى الأرض يحسّ بالضوء . وبرهان ذلك أنه اذا وضع فى مكان مظلم وذلك المكان دخله نور من نافذة فان ذلك النبات يميل للنور فدل ذلك على أنه يحسّ بالنور . وهوأيضا يمدّ عروقه للمواضع

الندية وفروعه الى جهة العلوّ فهو إذن يعرف جهة العلوّ وجهة السفل . وترى النبات اذا امتدّ على حبل فانه لايتعدّاه ولايميل عنه . هذا ما كنت تقرؤه فى كتب المتقدّمين . فلما أن رأيت عجائب الاحكام وتبدّى لك ما كنت تجهله من قبل إذ رأيت الحكمة العالية القدسية لم تذر هذا النبات مهملا بل جعلت له عدّة وقوّة وسهلت له السبل وأغرت الحشرات بطرق تخدعها وتستدرجها حتى تقع فى فخ هذا النبات فيقتنصها فهالك الأمر ورأيت تدبيرا محكما وقصدا ظاهرا وليس هذا أمرا اتفاقيا ولاحادثا جاء مصادفة وانما الذى فعل هذا يقصده ويدبره . هذا هوالذى خطر لك فبعد أن كان النبات يتحرّك حركات بسيطة ظهر لك الآن أنه له مملكة منظمة وسلاح . وكما أن الأمم لها مدارس للحرب ومعامل للسلاح لتسطو على غيرها . هكذا هذا النبات له سلاح وجنود وسلاحه الجمال وجنوده العسل كما فى قول معاوية رضى الله عنه ﴿ ان لله جندا من عسل ﴾ قالها لما دسّ السم الى الأشتر بعض قوّاد سيدنا على من قتله بالعسل المسموم . فهذا السلاح العسلى هو الذى استعمله النبات . هذا هوالذى هالك وأدهشك فانشرح قلبك فتمثل لك ذلك بالألوان البديعة والصور المشتبكة المتدخلة التى تتموّج بألوان (قوس قزح)

ثم قال فهذا القصر الذى رأيته واركانه مثال خيالى للعلم الذى درسته الآن وقدقام بذهنك أن ماتكتبه الآن سيقرؤه كثير من شبان المسلمين فى حياتك و بعد موتك فزاد سرورك لأنك اعتقدت وأنت على حق أن شبان المسلمين حين يقرؤن هذا يكونون قد وقفوا بغتة على آخر ما وصل اليه العلم فيتعاطونه شرابا لذيذا سائغا للشاربين ويكون هناك جيل جديد لم تحلم به الأوائل لأن المسلمين قد حرموا من هذه العلوم حرمانا تاما وليس لهم ملجأ يلجؤن اليه فاذا عرفوا أن القرآن يطلبه كما تكتبه أنت انحلت العقدة وانطلقوا سراعا الى العلوم وفتح لهم الباب على مصراعيه فيتعلمون وهم مجدّون . هذا هوالنور الذى رأيته لامعا ثم ازداد حتى صار سرورا للناظرين . فقلت أوضح لى مسألة الخيال والحقيقة ايضاحا أتمّ . فقال لكل امرئ من الناس قوّة ترسم فيها الصور كهيئة الآلة المصوّرة يقال لها المخيلة وقوّة أخرى تدرك المعانى الكلية وهى تسمى (المفكرة) فالمفكرة تفهم المعانى والقوّة المخيلة تجاورها . فالمعانى الجميلة التى فى القوّة المفكرة تصوّر لها فى المخيلة صور تماثلها وتكون مشاكلة لها . فهذا القصر وهذا النور يمثلان مافى قوّتك العاقلة من المعانى . فقلت له وهل لهذا نظير فى القرآن . قال نعم ألم تقرأ سورة الواقعة ألم يذكر هناك هذه الحيطان الأربعة لهذا القصر وهذا النور الذى ابتدأ صغيرا ثم تلألأ . فقلت وكيف ذلك . قال ذكر الله أوّلا خلق الانسان فقال ـ أفرأيتم ماتمنون الخ ـ وهذا يتضمن خلق الانسان والحيوان لأنهما معا مخلوقان ـ من ماء مهين ـ فهذان حائطان من حيطان القصر . ثم ذكر الزرع والماء والأوّل هوعالم النبات والثانى يعبرعما ليس نباتا ولاحيوانا ومن ذلك المعادن . فهذه هى الحيطان الأربعة وأركانهافيها . إن الذى يطلع على هذه الحيطان الأربعة وأركانها يدهش اذا عرف حقائقها فلذلك تراه أخر ذكر النار فقال ـ أفرأيتم النار التى تورون ـ ولاجرم أن النار لاتختص بالشجر المذكور فى الآية بل النار تكون فى دهن الحيوان وفى المعادن وما أشبهها كالسائل المسمى (بالبترول) وكذلك يحترق بها بعض الناس يوم القيامة والأحجار كما قال تعالى ـ وقودها الناس والحجارة ـ فالنار عامّة لذلك أخرها وهذه النارالحسية يقابلها نارالشوق للعلم والعشق للحكمة التى ظهرت لك أوّلا فى الاتصال بين سلسلة النبات والحيوان فى كلام المتقدّمين قليلا وشأن العلم أن يكون أوّلا قليلا فاذا ثابر صاحبه عليه أنار الله قلبه وزاده علما كما قال تعالى ـ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ـ فمن فتح الله عليه بعلم استنارت بصيرته أوّلا بقدر ماعلم وعند المثابرة تفتح له أبواب العلم من عند العليم الحكيم . ونظيره فى سورة الواقعة أنه ذكر النار بعد ذلك فقال ـ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم ـ فذكر النار وأتبعها بالتسبيح ثم أشار الى الفتوح السماوى فأقسم

بالنجوم

بالنجوم وأبان أن هذا القسم عظيم وانه لايعرف عظمة هذا القسم إلا العالم بالمقسم به

فهاهوذا ابتدأ بالحيطان الأربعة وهي المخلوقات الأرضية التي تحيط بكم • ثم ذكر النار التي تتقد بها كما يشرق قلب الانسان بعلمها • ثم أبدع فذكر النجوم وأفاد أن أمرها عظيم لمن يعلمون فأما الجهال فليس لهم حظ من هذا الجمال • ففي (الواقعة) ذكر العوالم الأرضية وختم بنارها ثم بالكواكب وفي هذه السورة ذكر أنه رفع السموات بغير عمد ثم استوى على العرش وذكر تسخير الشمس والقمر ثم تدبير الأمر اجمالا ثم تفصيله ثم أتبع ذلك بعجائب الأرض في قطعها المتجاورات والجنات من الأعناب • إذن المذكور هنا العالم العلوي أولا ثم السفلي وفي سورة الواقعة السفلي ثم العلوي اشارة الى أن كلا منهما مرتبط بالآخر • فاذا درستم النجوم فلتدرسوا ما أثرت فيه بالمنافع والنمو • واذا درستم النبات والحيوان فلتدرسوا ما أفاد فيهما • إذن اذا درستم السبب فادرسوا المسبب والعكس بالعكس فهذا ايضاح ماتمثل لك في خيالك ومايطابقه من القرآن فاذا قال الله هنا ــ يدبر الأمر ــ فهاهوذا تدبير الأمر وأي تدبير أعجب من هذا • يعمد الى نبات لاقوة له ولاقدرة فيزينه ويعطيه عسلا ويرسل له الحشرات فيختطفها النبات • إن هذا تدبير عجيب يسر الحكماء وأن مارسمته في هذه المقالات من الصور التي عرفها أهل أوروبا من تفصيل الآيات الذي ورد في القرآن فهو الذي يدبر الأمر وهو الذي يفصل الآيات • فآيات الله التي تظهر على هذه الأرض كلها منفصلات بعلمه وأتبع ذلك بقوله ــ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ــ

عبر عنها بالايقان كما عبر في سورة الأنعام في قصة الخليل إذ قال ــ وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ــ فبهذا التفصيل الذي ذكرته أنت في هذا التفسير وبالعجائب التي اخترتها ووضعتها فيه يكون الايقان • أما الايمان فلا يكفي الأمم الآن ولا يكون اليقين إلا بمثل العلوم التي أخذت تشرحها فبهذا يكون اليقين والمسلمون إن لم يسعوا الى هذا اليقين فهم هالكون • فقلت له إن الآيات هي آيات القرآن • فقال والقرآن معناه هو هذه المخلوقات فالمخلوقات آياته والقرآن آياته فاذا قال ــ تلك آيات الكتاب ــ فقد قال ــ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ــ وهكذا غيرها في مواضع كثيرة من القرآن وأن تفسيرك للقرآن اليوم هو نفس العلوم التي انتفع بها الناس في الأمم الراقية فأصبحت جميع هذه الدنيا ونظمها مقصودة للقرآن بهذا التفسير واذن كل من برع في علم من هذه العلوم وهو مؤمن بالقرآن يكون موقنا • وكما أن كتاب الله للناس قاطبة هكذا تفسيرك سيقرؤه كثير من عقلاء الأمم لأنهم يجدونه فسر القرآن بهذا العالم الذي يعيشون فيه وليس أحد من أهل الأرض يشك في هذه الدنيا ونظامها وانها موجودة فاذا اطلع على هذا الجمال وانتظام العلم مع الدين دهش أشد الدهش • فقلت له ان ما كتبته في هذا المقام منقول عن أهل أوروبا كما تعلم فكيف يقرؤنه • فقال انك تنقل مثل هذا المقال عن الكتب العالية عندهم وليس كل امرئ مطلعا عليها • ثم ان القوم هناك بالنسبة لحكماء الشرق أشبه بالفلاحين عندكم بالنسبة لنساجي القطن • قلت فما معنى هذا • قال معناه أن الفلاحين في مصر يزرعون القطن ولكن الذي ينتفع به هم أهل الصناعة في أوروبا • فهكذا علماء أوروبا الذين تعلموا من آبائكم الأولين وفاقوهم ورقوا العلوم • ها أنتم أولاء أخذتم تنقلون آخر ماوصل اليه العلم عندهم ثم تجعلونه في أصل الدين وهو القرآن فسيظهر في الشرق رجال يفعلون بعلوم أوروبا مافعله صناعهم بقطنكم • فكما غزل صناع أوروبا ونسجوا قطنكم لأنهم أعلم بالصناعات • هكذا سيظهر بعد هذا التفسير وأمثاله في السويداء رجال ويتخذون علوم القوم قاعدة لهم ويتفننون فيها كما تفنن صناعهم في قطنكم لأن العقول الشرقية النائمة الآن هي التي ستنتفع بعلوم القوم وترجع لسابق عهدها في التفكير والتنظيم وتحدث آراؤها رجة في الشرق والغرب وسيكون ذلك بعد تمام هذا التفسير وأمثال هذا التفسير

فسألته قائلا . لم أزل لا أفهم ماذا تعنى بقولك ان هـذا القصر لى ولأمثالى . فقال كان ينبغى لك أن تكتفى بما قلته فنى ذلك مقنع للاجابة ولكنى أزيدك ايضاحا فأقول بضرب مثل

مثل الناس مع ربهم كمثل صبية أدبهم حكيم و بنى لهم قصرا وزينه بأحسن زينة وملأه بالخيرات وأعطاهم الحرية فيما يختارون فأخذ كل يبحث فى القصر عما يلائم طبعه فمن منكب على لذاته ومن عاكف على زخارفه ومن مستريض فى حدائقه . وهكذا أخذ كل منهم يتخذ لنفسه ما يناسبها . هكذا حال الناس مع ربهم وله المثل الأعلى . لقد زين الله هـذه الأرض بأحسن زينة وملأها بكل خير ولم يدخر عن عباده شيأ . إن من أمثال هذه الدنيا ما صنعه قدماء المصريين من بناء الهرم الأكبر . لقد أحسنوا صنعه وجعلوه منظما بحيث يشاكل العالم العلوى من حيث هندسته وحسابه و يفيد أهل الأرض فى موازينهم ومكاييلهم كما سبق فى سورة يونس موضحا فجل الله وجل العلم . أبدع قدماء المصريين هرمهم بحيث نقل نظام السموات فأعطاه لأهل الأرض كما تقدم . هذا ضرب مثل لحال هـذه الدنيا وان كان الممثل له أجل وأكمل . فياليت شعرى ماذا يفعل الله للناس بعد ماخلق لم يذر ضربا من ضروب الحكمة والعلم إلا ابدعها ولا فنا من فنون الابداع إلا أحدثه ولا حكمة من روائع الحكمة إلا أودعها فى أرضكم هذه وأى ابداع أجل مما رأيناه فى هذا المقام

نبات لاقوة له ولا حول يعطى قدرة وقوة وحكمة ويخضع الحيوان لغذائه فيتخطى عالم النبات وعالم الأنعام والبهائم و يشارك الآساد والنمور فى افتراسها . إن هـذا لشئ عجيب . ذلك هو الابداع . ماذا يريد الله بذلك . يريد أن يصطفى من الناس أقواما فى كل أمة و يقول ـ هاؤم اقرؤا كتابيه ـ هذا كتابى كتبته بيدى . لمن كتبه الله . كتبه للناس قاطبة . ولكن لا يفرح به ولا يعقله إلا الأقلون

هؤلاء هم الذين كنز الله لهم هذه الكنوز . كنزها لهم وألهمهم أن يستخرجوها . الله أكبر . هؤلاء هـم خلفاؤه فى الأرض . هؤلاء هم الهداة الحكماء الفضلاء . هؤلاء الذين يفرحون بهذا النظام و يعقلونه و يسكرهـم و يبهجهم . هـم الذين يبينونه للناس . هم الذين يهدون الناس السبيل وتنشرح صدورهم لذلك و يبثون فى قلوب الناس حبا وغراما وعشقا وهياما لهذا الوجود . الله أكبر ماهذه النباتات الجزارة المتقدمة وأى شئ هى وأى شئ هو . ذلك النبات المسمى (ندى الشمس) إن بعض هـذه النباتات انما تنبت فى المستنقعات . لماذا . لأن الله يعلم أن هذا النبات لا يفيد الناس غذاء ولا كساء وانما يفيدهم حكمة وعلما فوضعه فى أخس الأماكن . لماذا . ليبحث عنه المغرمون به . هؤلاء المغرمون لا تعاف أنفسهم شيأ فيرون الجمال والحكمة أينما تكون لا يفرقون بين حال وحال . ثم ماذا يرون . يرون فى النبات الجزار مثلا المتقدم رسمه عسلا سائغا للشاربين وجمالا و بهجة وألوانا منظمة أشكالها فماذا يفعلون يقفون مبهوتين و يقولون إن السوائل كثيرة كالزيت وكالمياه المعدنية وهكذا مما لا حد له . وهكذا الجوامد والغازات فلم اختير العسل خاصة لهذا النبات . نعم اختير العسل لأنه هو الجاذب للحشرات حينئذ يقولون هذا معنى قوله تعالى ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ و يقولون هذا معنى قوله ـ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هـدى ـ فها هوذا أعطى هـذا النبات الجزار هذا العسل ثم هدى اليه الحشرات لتكون فريسة له . ويقولون أيضا هذا معنى قوله تعالى ـ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ـ و يقولون أيضا هذا هو حق اليقين . و يقولون أيضا اذا كان هـذا النظام على هذا المنوال كما نشاهده فستحيل أن يكون بلا عقل يدبره والا فما هذا الاحكام . فما هذا الذى خصص هذا النبات بالعسل وهذا العقل هو الذى كان يقوله القدماء . انه هو العقل الكلى المدبر للعالم خلقه الله لذلك ومنه اشتقت العقول كلها كما أن الشمس منها اشتقت السيارات حولها وهـذه السيارات تستمد من الشمس . فهذه النفوس الأرضية من نباتية وحيوانية وانسانية كأنها أشعة من العقل العام الذى نظم السموات والأرض وذاك العقل العام خلق من خلق

الله

الله يسمى بلسان الشرع (ملك) و بلسان الحكمة (عقل) كما علمت . ثم أخذ يقول لى

إن أمثال هذه العلوم عند المغرمين بها هى الجنة الحقيقية والقائم بها اليوم يحس فى نفسه بسعادة يجهلها أكثر الناس فى الأرض فأما قولى لك إن هذا القصر لك ولأمثالك فمعناه أنك فى حال اشراق نفسك بهذه المعانى تكون فى حال تحجبك عن رذائل هذه الدنيا ومشاغلها فتنسى هموم الحياة مادمت على هذه الحال وتحس أنت بسعادة يجهلها أكثر المتعلمين . فهذا الشعور ليس يفقهه ولا يصدّقه إلا من رزقه . هذا معنى كون هذا القصر لك ولأمثالك والا فهذه الحال يصغر فى جانبها أهل الأرض وقصورهم وصورهم لأن العقل المتصرف فى الامور العامّة يتعالى عن هذه المحسوسات و يستغرق فى أنوار الجمال و بهجة الكمال

فلما سمعت ذلك وعيته وفتحت عينى وكتبته فأنا الآن لا أدرى أكنت فى أحلام أم كان ذلك حديث نفسى فى اليقظة أم هو إلهام — والله هو الولىّ الحميد — اهـ

﴿ أسمعت النغمات فى الأحجار كما تسمعها من الأوتار ﴾

(مقدّمة لفهم هذا العنوان)

ربما يظنّ بعض العقلاء أن هذا العنوان فى هذا المقام من المبالغات أوالامور الشاذة فى تفسير قوله تعالى — وفى الأرض قطع متجاورات الخ — . ليس من السهل على جميع الناس ادراك الجمال فى هذا الوجود . إن هذه الدنيا دار جمال وهذا الجمال لايدركه حقّ ادراكه إلا قليل . إن الله عزّ وجل أبرز للناس فى هذه الدنيا بعض الجمال ليعرفه العامّة والخاصة ثم أخذ يصطفى طائفة وراء طائفة لادراك خبايا الجمال والبهاء والحسن والبهجة والكمال وذلك فى حسن النغمات وجمال الوجوه وبهجة النجوم وحكمة التشريع وعجائب الجبال وأحجارها ومعادنها . اصطفى الله أحسن الأشكال والأوضاع لهذه الدنيا . فلنبدأ بالنغمات المشهورة فنقول

كل بنى آدم يفرحون بالنغمات المطربات و يعشقون الوجوه الجميلات . ذلك أمر يستوى فيه الجهال والعالمون والحكماء والمدّعون فترى جميع الناس يصبون للنغمات المطربات وللوجوه ذات المحاسن والأشكال البهجة وانتظام العينين والفم والأنف والخدّين . هذا هو الأمر العام فى سائر الأمم والأجناس

وانما استلذوا بالنغمات فى العيدان واوتارها لما هناك من النسب المنظمة التى لايسعها هذا المقام ولنكتف بوصف (أوتار العود) لا لنضرب عليه وانما لنريك مامعنى الجمال الذى عشقه الانسان فى العود ولماذا يهتزّ طربا . أكثر الناس يطربون للعود وهم لايعلمون سبب الطرب كما يستلذون بالمأكل ويجهلون سبب تلك اللذات فأقول

انه لامعنى للجمال ولا للحسن إلا النسب والوزن واتقان الحساب أونظام الهندسة أونحوهما . فكلما كان الوجود أكثر نظاما كان أوفق لحواسنا وكلما قلّ النظام كان أبعد عن ذوقنا والعود لم تستلذه الآذان إلا لما فيه من حسن الاتقان فى وضعه . انظر الى أوتاره عند القدماء فقد جعلوها أربعة وزاد المتأخرون عليها غيرها . ولكنا نكتفى بهذه الأربعة لندلك على سير هذا العلم . والأوتار الأربعة هى (البم والمثلث والمثنى والزير) فالبم (٦٤) طاقة حرير ابريسم والمثلث (٤٨) طاقة والمثنى (٣٦) طاقة والزير (٢٧) طاقة . هذه هى الأوتار الأربعة تمدّ على وجه العود مشدودة أسافلها فى المشط ورؤسها فى الملاوى فوق عنق العود . فهذه الأوتار الأربعة بعضها أغلظ من بعض على النسبة الأفضل فغلظ البم مثل غلظ المثلث ومثل ثلثه وغلظ المثلث مثل غلظ المثنى ومثل ثلثه وغلظ المثنى مثل غلظ الزير ومثل ثلثه وهذه عندهم نسبة فاضلة فهذه الأوتار الأربعة لها هناك تقسيمات أخرى ذكرها ابن سينا واخوان الصفاء وغيرهما وزاد المتأخرون كثيرا . ولسنا من علماء هذه الصناعة ولكننا طلاب حقائق والحقائق هنا أن هذه الأوتار لما وضعت على

نسب فاضلة تقدّم بعضها فى سورة آل عمران فى أوائلهااستلذتها النفوس لأنها قدامتزجت فيها نغمات غليظات ثقال بنغمات حادات خفاف . فالغليظات كالأجساد والحادّات كالأرواح وعلى قدر الانتظام يكون الامتزاج فيحصل للنفس طرب وهى لاتدرى من أين جاءها . إنّ النفس مولعة بالنظام عاشقة للاتقان وأقرب الأشياء اليها النغمات لأنها سهلة سريعة فتدركها النفس وتعرف متنافرها وموزونها . لذلك كان الناس على الأرض غالبا يدركون هذه المزية ولكل قوم مغان تخصهم وموازين تناسبهم وانما جعل الله هذا عاما ليعطى للناس جميعا نموذجا لحكمته وذكرى لصنعته . فنغمات العود الموزونات يألفها الناس بل الطيور والحيوانات والسماك كما هو معروف متداول

﴿ نغمات الأشجار والحشائش وأنواع الرياح ﴾

ومن الناس من يطربون لما يسمعون فى الحقول والحدائق والمروج وأعشابها وفى الغابات وملتف الشجر وأصوات الرياح المختلفات وغوير الأعشاب وحنين الطير وتغريدها و يطربون لترنح الأغصان كأنها الولهان وترنم عيدان الزان وأوراق الشجر المختلفات وتفتح لهم معان ومدارك يجهلها سواهم والناس حولهم غافلون لايعلمون

﴿ علم الفلك ﴾

وما عجائب علم الفلك وحركاته الموزونات وطرائق نجومه وحسن نظامه إلا كأوتار العيدان ونغماتها فاقرأ مامرّ فى قوله تعالى ـ إنّ فى خلق السموات والأرض الخ ـ فى سورة البقرة وفى آل عمران تركيف كان للفلك حساب منظم يشابه فى نظامه انتظام حركات العيدان . إن الناس طربوا لنغمات العود لما فيها من النظام والحساب المتقن ولكن الخاصة اوتوا علما أعلى فأدركوا نظام الفلك وألفوه متقنا فابتهجوا أكثر من ابتهاج العامّة بالعيدان فالعامّة بالعيدان يطربون والخاصة يزيدون عليهم بنظام حركات الشموس والأقمار والسيارات ويرون الشتاء والصيف والربيع والخريف والليل والنهار نغمات لحركات الأفلاك فحركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس أحدثتا ظلاما وضياء وحرا وبردا مع النظام فى البدء والنهاية فأى فرق بين العود و بين نظام الأفلاك . العود نظمت حركاته وجملت هناك نسب . ههنا نظمت الحركات وصحت النسب . هذه نغمات لايعقلها إلا العالمون

﴿ جمال الوجوه ﴾

إن جميع الناس يدركون جمال الوجوه . وما جمال الوجوه إلا بالتناسب بين العينين والخدين والأنف والفم . هذه أربعة كلما اعتدلت كان الجمال أتمّ وكلما اختلفت كان القبح وعلى قدر التوافق والاختلاف يكون اشتداد الحسن والوسامة أوالقبح والدمامة . انما أظهر الله هذا للناس لأمرين ﴿أوّلا﴾ ليستدلوا بالظاهر على الباطن غالبا فعلى قدر جمال الظاهر يكون جمال الباطن وقد يعكس الأمر ﴿ثانيا﴾ ليفتح لأناس اصطفاهم لقربه فيبحثون عن جمال أتمّ ومعان أكمل فى تشريح الاجسام ونظام أعضائها . لقد مرّ فى سورة (آل عمران) نموذج من جمال الأعضاء ونموذج من الوضع الموسيقى الحسن وأن للاعضاء مقاييس خاصة متى صحت مقاييسها كان الجمال ومتى لم تصح كان القبح فلانعيده هنا

﴿ الجمال فى التشريح ﴾

وانما نريد هنا أن نبين أن تناسب الباطن أجل وأوسع مدى والباطن ﴿قسمان﴾ قسم خلق وقسم جسمى . فالقسم الخلق هوأربعة العفة والشجاعة والحكمة والعدل . هذه أربعة تقابل الاربعة التى فى الوجه فتى كان الانسان عفيفا فى الشهوات شجاعا فى القوّة الغضبية حكيما بالقوّة العقلية معتدلا فى هذه الثلاثة فهو الحسن الخلق وللخلق جمال كما للوجه وهذا هوالجمال الحقيقى فى الانسان والقسم الجسمى هونظام الاعضاء

ولن

ولن يعرف إلا بالتشريح وقد تقدم في سورة آل عمران في أوائلها . ياليت شعري أليس من العجب أن نرى صدرا حوى رئتين وقلبا بينهما ولم يختلط ذلك القلب بالامعاء والمعدة إذ لاتجانس بين العضوين . الامعاء والمعدة خاصتان بالطعام أما القلب فخاص بالدم فجعلت الرئة بجانبه لتصفى له الدم فيسير في الدورة ولم يجعل في هذا الصندوق كبد ولامعدة ولا امعاء ولا كليتان . لماذا هذا . لأن هذه الاعضاء كلها عاملات في الطعام حتى تجهزه وتصفيه ليكون دما فالمعدة تطبخه والامعاء تخلصه من الفضلة الغليظة والكليتان تصفيانه من الماء وعضو الكبد له عمل في الدم والصفراء تنقى الدم من خلطها والطحال كذلك . فكل هذه الأعضاء جعلت في مقام أدنى حتى تحضر الدم و يرسل للقلب والرئة بجانبه وجعل بين الطائفتين حجاب حاجز . ان ذوى العقول السليمة يطربون لهذا النظام والتناسب طربا لاتبلغه نغمات الموسيقار . كلا

﴿ الحكماء والمغنون ﴾

تباركت يا الله وجل فعالك وحسن وضعك و بهر نظامك . أحببت عبادك وأبرزت لهم مكنون فعالك وجوهر صنعك . يا الله خلقت في كل أمة من هم أحسن وجوها وأبهج جمالا وأرق أصواتا وأحسن نغمات لتدل الناس على جمال صنعك حتى يظهر الجمال للحكيم والجاهل والذكي والغافل والعالم والبليد

أراك اصطفيت في كل جيل وكل قبيل فتيانا وفتيات جلت أصواتهم وحكمت عليهم بالفقر ليسمعوا الناس جمال نغماتهم لتتم حكمتك وتعم نعمتك ثم لم تشأ أن تدع الخاصة بلاجمال يرونه فاصطفيت في كل أمم أناسا للبحث في الحكمة والعلم حتى يسمعوا نغمات العوالم العلوية والسفلية فيخبروا الناس بما يسمعون و يحببوهم فيما يحبون . فهؤلاء يدركون في الأحجار ونظامها وأنواعها مايدركه غيرهم في الأجسام ونظامها والنغمات وأوتارها والأفلاك وحركاتها والوجوه واشراقها

﴿ النغمات في الأحجار كالنغمات في الأوتار ﴾

ههنا قد وصلت الى المقصود من المقال بعد المقدمات فأقول

ياعجبا لهذه الدنيا و ياعجبا لهؤلاء الناس الذين خلقنا فيهم . اللهم اننا جئنا الى هذه الأرض ونحن راحلون عنها . خلقتنا مسافرين فيها . حكمت علينا بهذا السفر الطويل وأريتنا جمال صنعك واتقانه . وحكمت علينا ألا نصل الى مقام القدس والبهاء الأسنى إلا بعد أن نمر على الأوضاع الأرضية وندرسها وحينئذ نستحق أن ندرس ماهو أجل من صنعك العالى الذى هو أبدع اتقانا وأحسن نظاما في عوالم أخرى بعد موتنا

هذه أرضنا التى تجلى فيها نورك وظهر حسنك وخلقت منا أناسا يعيشون و يموتون وهم لايعقلون . نعم يعقلون أن هذه الأجسام تطلب الغذاء والشراب والنساء والبنين و يموتون وهم لايعلمون كيف ركبت ولا لماذا خلقوا . واذا نظروا الى هذه الأرض وماعليها لم يعنهم منها إلا أن يسيروا فيها ليالى وأياما آمنين ليحظوا بالغانيات القاصرات في القصور أوليقتحموا الأخطار و يتجشموا الأسفار لطلب الربح والمال بالتجارة أوليكونوا سفراء للدولة أوليقابلوا الملوك أوتضرب لهم المدافع وتصطف لهم الجنود وترفع لهم الأعلام والبنود ثم يموتون ولاهم يذكرون صم بكم عمى فهم لايعقلون

هذه هى حال أغلب أهل الأرض التى خلقنا عليها فأهل أوروبا اليوم قد برعوا في كل العلوم وأكثر من يشار اليهم بالبنان انما يهتم بما ينفع الأمم من هذه المواد . أما جمالها ونظامها فلايدركه إلا خواصهم وقليل ماهم — وقليل من عبادى الشكور — اللهم إنا خلقنا في الدنيا للعلم والعمل ونحن اذا اقتصرنا على العمل كنا كالنحل أوكالنمل ولكن علينا العلم وعلينا العمل والعلم الآن هو ماجاء في آية — وفي الأرض قطع متجاورات — فلنذكر كيف كانت الأحجار وأنواعها نغماتها عند الحكماء أبهج وأدوم من نغمات الأوتار في العيدان لحسن النظام والعدل والبهجة والاتقان . ولأذكر لك أيها الذكى قلا من كل من المخلوقات وانى اذا

أتقنت القليل فى هذا المقال كفاك عن الكثير ولأقتصر على ما يكثر وجوده

الأرض والماء والهواء والبخار والملح الجبلى والحجر الجيرى والحجر الرملى والرخام والجرانيت وحجر الرصف هذه أربع مخلوقات كلية وستة أنواع جزئية من الحجارة بصراختلفت أحوالها ومنافعها فكانت منفعة الغافلين ولذة المفكرين . ان هذا الموضوع يعوزه بحث فى أمرين ﴿أوّلا﴾ الجاذبية العامّة ﴿وثانيا﴾ قوّة التلاصق

اعلم أن الأرض والشمس والكواكب كلها متجاذبات متحابات ولولا ذلك لم نعش يوما واحدا . فلولا أن الأرض تجذب من عليها لطاح الحيوان والانسان وكل مخلوق عليها فهذه الجاذبية نعمة أنعم الله بها على المخلوقات فاستقرّت . ولولا هذه الجاذبية لطاحت أرضنا وغابت عن الشمس وتاهت فجئنا فى أقرب زمن ولكن جذب الشمس لها أبقاها فى أمان وسلام . أما قوّة التلاصق وهى المقصودة هنا فاعلم أنها من أعجب النعم وأبدع الاحكام فهذه القوّة تختلف فى المخلوقات اختلافا بينا وهذا الاختلاف لمصالح المخلوقات . انظر انظر الى الماء والى الهواء . إن الهواء تباعدت أجزاؤه ولم يشتدّ التصاقها فكان أخفّ من الماء (٨٠٠) مرة أى ان الرطل من الماء يوازنه من الهواء مايملأ مقدار الحيز الذى يشغله ثمانمائة مرة . ثم ان الماء اذا صار بخارا بالغليان مثلا أو بحرارة الشمس فان الماء إذ ذاك يأخذ حيزا أوسع من حيزه وهو ماء (١٧٢٨) مرّة إذن البخار أبعد تلاصقا من الماء ومن الهواء فانظر لتلاصق الماء ولتلاصق الهواء ولتلاصق البخار الذى كان أصله ماء فتجد الماء أشدّ التصاقا والهواء أقلّ التصاقا والبخار أقلّ من الجميع . ولهذا رأينا الهواء يعلو على الماء ورأينا البخار طائرا فى الجوّ وارتفع كما يرتفع المنطاد وعلا علوّا عظيما ثم صار سحابا

هذا مانراه فى الماء والهواء والبخار وهذا وضع عجيب عند الحكماء . أما الجهال وأنصاف المتعلمين فى الأمم الاسلامية وغيرها فهم لايهتمون بمثل هذا النظام ويكونون فى نظر هذا أشبه بالجهال فى كل أمّة إذ يعيشون فى أجسامهم ويتركونها للدود وهم لايعرفون نظام هياكلها ولايدرسون عجائبها ولاهم يعقلون ولايذكرون . أفلاترى أن هذه أوتار أرسلها الله فى الطبيعة لخواص الأمم فيرون للبخار وللماء وللهواء من الخصائص ما كان يراه العامّة والخاصة فى أوتار العود من الاختلاف المنظم الذى أنتج حسن النغم . فكما كان البم والمثلث والمثنى كل واحد أثقل مما بعده وأخفّ مماقبله بنسب خاصة كذلك هنا كان للماء وللهواء وللبخار وللأرض خواص فى التلاصق اختلافها أوجب حسن النظام والائتلاف لجرى السحاب فى أعلى الجوّ وزين بقوس قزح وأرسل المطر وكان الهواء فوق الماء . فكما ترى فى العود البم والمثلث والمثنى والزير هكذا ترى فى الطبيعة الأرض والماء والهواء والبخار فالأرض كالبم والماء كالمثنى والهواء كالمثلث والبخار كالزير . هذا هوالوجود عند الحكماء . وهذا هوالنغم عند عامّة الناس وعند خواصهم . الخاصة يشاركون العامة فى النغم المعروف ولكنهم يختصون بعجائب هذه الدنيا وكما انتظمت الأرض ومافوقها اجمالا انتظمت الأحجار تفصيلا . البم أغلظ من المثلث والأرض أثقل من الماء والمثلث أغلظ من المثنى والماء أغلظ من الهواء والمثنى أغلظ من الزير والهواء أغلظ من البخار ــ إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هوالعليم الحكيم ــ سبحانك خلقتنا فى جوّ من الموسيقى والجمال . خلقتنا فى نغمات عقلية ولكنّ أكثر الناس لايسمعون . أبرزت تلك النغمات لنا فى العود وأكثر الناس لايفهمون الأحجار وجمالها ونظامها

أنظر الى الملح انه يكون فى الجبال كما يكون فى البحار كما قدّمناه فى آخر سورة آل عمران تعجب من ذلك . أنظر اليه . اننا نأكله لأنه يدخل فى تركيب عظامنا . قد احتجنا اليه فخلقه الله لنا وجعل قوّة التلاصق فيه ضعيفة جدّا والا لم نقدر على فصله من الجبل ولاعلى هضمه فى معداتنا

﴿حجر الجير﴾ الحجر الجيرى لونه البياض المائل الى الاصفرار وهو حبات صغيرات التصق بعضها ببعض يكسر بسرعة ويخدش بالسكين بسهولة . إذن هو سهل النحت والكسر لذلك استعمله الناس فى البناء

ومتى سخن عدّة أيام مع الفحم فى ﴿قمين﴾ تحوّل الى جير وهذا الجير يجعل ﴿ملاطا﴾ ويسمى فى مصر (المونه) تطلى به الحيطان ويحضر منه ماء الجير للاستعمال فى الطب ويكون مطهرا ونحو ذلك

﴿الحجر الرملى﴾ ألوانه مختلفة السمرة أوالصفرة أوالحمرة وهو حبات مستديرة من الرمل التصق بعضها ببعض فكوّنت طبقات رقيقة وهوأيضا سهل الكسر والنحت يستعمله الناس فى البناء وفى أساس الأبنية . ومنه نوع اختلط به حبوب من حجر (الصوّان) . وهذا يجعل أحجار (الرحى) ويجعل فى أساس المنازل ودعامات القناطر

﴿الرخام﴾ والرخام من الحجر المذكور قد اشتدّت صلابته ولذلك يقبل الصقل فاذا عاملناه بالرمل صار سطحه صقيلا جميلا . وكلما زدناه حكا بالرمل زاد رونقا وجمالا ولمعانا وبهجة وهو أبيض أوأخضر أوأحمر أوأصفر أوأسود أوأبيض فيه عروق سود وقدتكون فيه بقع ذوات ألوان جميلة بهية تسرّ الناظرين . ومن هذامايسمونه المرمر . واذا أردت أن ترى الرخام فادخل المساجد والكنائس وانظر الأعمدة وتأمّل البهوات الواسعة عند أهل الثراء والغنى . وكذلك السلالم والمغاسل والمناضد والتماثيل التى تصنع من الذى لونه البياض الناصع

﴿الجرانيت﴾ الجرانيت أشدّ صلابة وأصعب كسرا ونحتا يغلوثمنه فلذلك جعله قدماء المصريين فى معابدهم وتماثيلهم ومسلاتهم التى تراها فى (المطرية) بمصر وهى فى بلاد الانجليز والفرنسيين وغيرهم . إن الجرانيت فيه البياض والصفرة الضاربة الى الحمرة والبياض اللامع كما تلمع الفضة

﴿الصوّان﴾ هو أصلب وامتن من كل ماسبق لا يؤثر فيه الحديد الصلب ولونه إما البياض واما الصفرة واما السواد . ولقد شاهدنا هذا الحجر فى أيدى الزراع من بلادنا المصرية أيام الشباب وهم يشعلون به النارفيأتون منه بحجرين يضربون أحدهما على الآخر فيخرج من بينهما شرر يتلقونه بمادّة تسمى (الصوفان) وهذا يسمى (الزناد) وهذا الحجر يستعمل فى رصف الشوارع

هذه هى الأحجار الشائعة فى مصر ويقاس عليها البلاد الأخرى . علم الله قبل أن يخلق السموات والأرض أننا فى حاجة الى مأكل والمأكل لابدّ لها من الملح نخلقه لتتكوّن منه العظام وسلطنا عليه وسهل لنا تذويبه فى الماء وهضمه ولوأنه فعل به مافعل بالصوّان أوبالجرانيت لم ننتفع به فهو جعله موافقا لأمزجتنا وسهله لنا وأكثره فكان أقل التصاقا حتى نستعمله ثم هو يعلم أننا نعيش على الأرض . فماذا فعل . خلق (حجرالجير) وصوّره قابلا للنحت وللكسر وسلطنا عليه فأوقدنا عليه النار واستخلصنا منه مانشاء لنظام منازلنا وجعل (الحجرالرملى) قريبا منه حتى نستعمله فى أساس منازلنا وجعل من هذا الحجرنوعا قويا لما فيه من حبوب صوّانية لنطحن به حبو بنا (أنواع الغلال) ويساعدنا على سهولة الغذاء وليكون من مقوّيات القناطر . وعلم أننا نحتاج الى اقامة أماكن عظيمة للعبادة أوللدولة فخلق الرخام وحلاه بألوانه الجميلة

وجعل الجرانيت أصعب مكسرا وأقوى وأمتن حتى حفظ به القدماء العلوم لمن بعدهم وصنعوا التماثيل التى كانت جائزة عندهم ولم نجد فى زماننا أصلح لبناء سدّ خزان اسوان منه فاستعمله المهندسون المصريون ومن معهم فيه فهل يسدّ الحجرالجيرى أوالرملى مسدّه . كلا ولوأنهم وضعوهما فى مكانه لغرقت البلاد ولحقها الفساد . نعم فى الأرض قطع متجاورات فيها الملح والرخام والمرمر والجرانيت والجير والصوّان والحجرالرملى اختلفت قوّة التصاقها فتباينت نتائجها . لايسدّ الصوّان مسدّ الجير ولا الملح ولايسدّ الملح مسدّ الجير . كل له عمل لايصلح له الآخر . لولا الجرانيت لم نطلع على المسلات التى نحتها المصريون . ولولا الجير لم نطهر بيوتنا من كل مايكون سبب الوباء والأمراض . نعم فى الأرض قطع متجاورات . هذا هوتفسيرالآيات اختلف الماء والهواء والبخار والأرض اختلفت فى قوّة الالتصاق فأشبهت أوتارالعود البم والمثلث والمثنى

والزبر . هكذا اختلفت الأحجار فى الجبال وهى متفرقات فى أركانها متعاونات فى نتائجها . اعتزل الجير والحجر الرملى والجرانيت والصوان . اختلفت أماكنها وقوتها وصلابتها واتحدت وجهة غاياتها . فغاياتها نظام هذا الانسان . فنها مايدوم لأجل بقاء علومه فى رسومه . ومنها مالايدوم إلا أزمانا على قدر الحاجة

إن اختلاف حجر الجير والجرانيت والملح والصوان مثلا أشبه اختلاف الأرض والماء والهواء وأمرها عجب - إن ربك هو الخلاق العليم -

﴿ نغمات الأحجار والأشجار ﴾

تبارك الله ما أجل صنعه . اختلفت النفوس وعواطفها كاختلاف الأحجار والأشجار ومنابتها فمن النفوس من لاتعقل من النغمات إلا ماتسمعه من الأوتار ولامن الجمال إلا ماتراه فى الوجوه الحسان . ومنها من صفت سرائرها وارتاحت وعلت على هذه المادة وتخلصت من قيود الذلة فرأت مالاتراه العيون وسمعت ما لايسمعه الغافلون . فصرير الأقلام وحفيف الأشجار ونغمات الطير وخفة الهواء وارتفاع البخار وبهجة السحاب وألوان (قوس قزح) كل ذلك لأسماعهم طرب ولعيونهم جمال ولقلوبهم بهجة وبهاء

فاذا ترنحت العذبات فى أشجار البان أوغرد القمرى على الأفنان أوسمعوا غوير الأعشاب أوأصوات الرياح فى الفجاج أوصوت أحجار الرحى دائرات فى ظلمات الدجنات فهموا معانى مطربات وتجلت لهم من المعانى آيات وأدركوا نبأ من قوله تعالى وفى الأرض قطع متجاورات - اه

﴿ فائدة ﴾ جاء فى بعض المجلات العلمية فى شهر ابريل سنة ١٩٢٧ م مايأتى

﴿ شجرة تأكل الناس ﴾

عادت مؤخرا من (جزيرة مدغشكر) بعثة علمية انكليزية أمريكية سافرت اليها تحت رئاسة (يونغ) العلامة الشهير وأكدت للصحف تلك الأسطورة القائلة بأن فى تلك الجزيرة شجرة تأكل الانسان والحيوان وقبل ثلاث سنين نشرت صحف ومجلات أوروبا مقالات ضافية عن هذه الشجرة الغريبة التى تتغذى بلحوم الانسان والحيوان . وأول من أذاع هذه الفكرة الدكتور (سولون أوسبورن) وهو من علماء الجغرافيا المبرزين سافر الى (مدغشكر) فسمع تلك الاشاعة ولم يتمكن من رؤيتها لأنها فى الغابات الموحشة وقد قال هو انه لامانع يمنع من وجودها لأن هناك نباتات تأكل الحشرات . وفى حديقة النباتات بلندن نبات يأكل الفيران والصحف الانجليزية كتبت عنه كثيرا والذى أكد ذلك العالم النباتى (ليكسيه) الذى وصف الحفلات الدينية التى يقيمها الأهالى حول تلك الشجرة ويقدمون لها وقتا دون وقت ضحايا بشرية وقال أيضا فى رسالة للدكتور (فريدلوف) إن تلك الشجرة كشجرة الصنوبر باسقة وجذرها ذوعقد كثيرة ناتئة وعليها أربع ورقات فقط يبلغ طول الورقة أربعة أمتار وعرضها فى الوسط (٨٠) سنتيمترا وثخنها (٤٠) سنتيمترا وهى تتدلى من رأس الشجرة الى أسفلها وتشبه جلد الجاموس الثخين وأطراف الأوراق مسننة وتوجد أزهار على رأس الشجرة تشبه الأقداح تتصاعد منها رائحة كريهة اذا شمها انسان اعتراه دوار شديد وتسيل منها نقط مادة مسكرة . والأهالى فى احتفالهم الدينى يتبرعون على من يقدم ضحية وقد أصابت القرعة امرأة فأرغموها على أن تتسلق الشجرة وتشرب من المادة المسكرة وماكادت شفتاها تمسان الزهرة حتى ارتفعت الأوراق المتدلية وأطبقت عليها من كل جهة ولبثت ملتفة عليها مدة أسبوعين وعادت بعدها الى ما كانت عليه ولم يبق من جثتها غير رأسها المسلوخ المعلق . وقال (ليكسيه) انه رآها بعينى رأسه ورفع بشأنها تقريرا مسهبا الى الجمعية النباتية فى لندن اه

﴿ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى - ولكل قوم هاد - ﴾

اعلم أن هذا المقام قد اتضح فى كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ ولكن لأقل قلا من كل

اعلم أن هـذه الدنيا منتظمة عند الحكماء مختلة عنـد صغار المتعلمين . فانظر تجد الذكور والاناث فى الأرض عددا واحدا تقريبا فى كل أمم الأرض متوحشين ومتمـدينين كأن الحكمة قضت أن يكون لكل ذكر أنثى . وهذه القاعدة لم تختل قط فى هذا العالم وقد يحصل حرب أونحوه فيموت رجال فيقلون ويكثر النساء ولكن هذا أمر عارض لاعبرة به واذا ظهر هذا فى الذكورة والانوثة فانظره فانه عام فى سائر الاعمال من صناعة وامارة وتجارة فان النبوغ فى كل منها مخبوء فى العقول محفوظ فى النفوس ولو علمت الأمم تعليما صحيحا لخرج من كل أمة هداة على مقدار حاجتهم وصناع وسوّاس وهكذا على مقدار الأمم . هذا هو الذى يستخرج من هذه الآية وهو المشاهد فى العالم ولكن يعوزه التدقيق وفى كتابنا (أين الانسان) شفاء للمقام

﴿ اللطيفة السادسة فى الكلام على قوله تعالى - وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال - ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . اللهم انك محمود على نعمك العامّة وحكمك التامّة فى عالمنا الذى نعيش فيه . اللهم إنك أنت أنعمت علينا بنعمة العلم وأحييت قلوبنا بالحكمة وأريتنا من عجائب ملكك وغرائب حكمك ماجعل قلوبنا فرحة بك مستبشرة مبتهجة بالنظام التام والاحكام العجيب - فأينما تولوا فثم وجـه الله إنّ الله واسع عليم - . نحن أينما اتجهنا وقلبنا وجوهنا وفكرنا رأينا اتقانا مبناه العلم وتنوعا كثيرا مبناه سعة القدرة والعلم

هانحن أولاء سمعنا قولك - وكل شئ عنـده بمقدار - وقولك - إنا كل شئ خلقناه بقدر - وقولك - وان من شئ إلا عنـدنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم - وقولك - إنّ الله سريع الحساب - وقولك - الذى خلق فسوّى * والذى قدّر فهـدى - وقولك - وخلق كل شئ فقدّره تقـديرا - وقولك - وهو أسرع الحاسبين - وقولك - ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت - وقولك - وما كنا عن الخلق غافلين - وقولك - وأنزلنا من السماء ماء بقدر - وقولك - وأحصى كل شئ عددا - وقولك - وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين -

اللهم إنّ هذا هو مناط الحكمة والعلم والسعادة فى هذه الدنيا . الناس على هذه الأرض لاحظ لهم من العلم فى دين ولادنيا إلا اذا أيقنوا بما فى هذه الآيات ونظروها بعقولهم التى أودعتها فيهم وهذه الأمم الاسلامية مضى لها (١٣) قرنا كان أكثرها فى غفلة عن ذلك وقليل منهم هم العارفون بهذه الحقائق ولكن كانوا فى زوايا الاهمال . اللهم إنك اليوم أذنت لأمة الاسلام بالرقى والاطلاع على عجائبك والتحلى بمحاسن العلوم فى السموات والأرض فهاأناذا اللهم أكتب لهم فى تفسير كتابك نظرة فى عالمك الذى خلقتنافيه قبل أن أغادره وأسألك أن تهدى به أمما وتشرح به قلوبا وتنقذ به أناسا من الجهل والذّل وترفعهم الى غاية الحكمة والمجد والسلام . أيتها الأمم الاسلامية اسمعى فليت شعرى أىّ الأشياء أذكر لنعرف نظامه . ولقد مضى فى هذا التفسير وسيأتى ان شاء الله مافيه غنية لذى لبّ

(١) أأذكر الجسم الانسانى . وقـد مضى فى سورة آل عمران من نظامه وبديع احكامه مايدهش اللبّ ويثير الاعجاب من ترتيب أعضائه ونظام هيكله ودقة عينه وحكمة أذنه فهذه هناك مفصلة أى تفصيل وهل أزيد أمرا يشاهده الناس ولايعبؤن به وهو

﴿ المحل الهندسى ﴾

إن الانسان اذا توهمنا أن هناك فيه سطحا مستويا قسمه من فرق رأسه الى أسفل قدمه قسمين مستويين فهذا السطح الموهوم نسميه ﴿ المحل الهندسى ﴾ ومعنى هذا أنك تجد الأذنين والعينين والخدين والصـدغين والترقوتين واليدين والثديين والفخذين والركبتين والساقين والقدمين . كل هـذه على أبعاد متساوية من هذا السطح الذى توهمنا أنه قسم الانسان . فياعجبا نحن نعيش ونموت ولاندرى أن هناك نظاما فينا بحيث

يتساوى بعد العينين والأذنين الخ عن ذلك السطح الذى يقسم الجسم وهـذا جمال نتج من الاتقان وحسن النظام كما نشاهد نظيره فى المبانى المنظمة بحيث نشاهد شبابيك أونافذتين على بعدين متساويين من باب البناية

(٢) أم أذكر نظام الأحجار الساقطة من أعلى الجبـل الى أسفل البئر . وقـد مرّ ذلك فى أوّل سورة آل عمران بحيث ترى هناك عجبا عجابا وأن نظام أعضاء الجسم وحسنها الموزون بالأشكال الهندسية له نظير فى حركات الأحجار الساقطة بحيث نرى الحجر يقطع فى نزوله المسافة بطريق التربيع فلا أطيـل به هنا لئلا يكون التـكرار المعيب فاقرأه هناك واعجب من حجر مجذوب الى الأرض تزداد سرعتـه فى الثوانى الزمنية المتوالية على طريق التربيع بحيث ينزل الحجر فى الثانية الأولى (١٦) قدما مثلا وفى الثانية التى بعدها (١٦) فى مربع اثنين وهو أربع وهكذا . ولأذكر هنا لطيفتين تناسبان المقام

﴿ اللطيفة الأولى فى معرفة عمق الآبار ﴾

اذا رمينا حجرا فى بئر وعددنا الثوانى التى تمرّ قبل أن نسمع صوته عنـد وقوعه فى أسفله فانا نربع عدد الثوانى ونضربها فى (١٦) قدما يكون الناتج عمق البئر أقداما وتعـدّ الثوانى إما بساعة واما بدقات النبض فنحسب كل دقة ثانية

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

ان النور يقطع (١٩٢) ألف ميل فى الثانيـة ولعظم سرعته لا يشعر به على الأرض فيظهر للناس جميعا فى لحظة واحـدة ولودار حول الأرض لأكمل دورته أسرع من لمح البصر . وسرعة الصوت فى الهواء هى (١٠٩٠) قدما فى الثانية فاذا رأينا البرق ثم سمعنا الرعد بعده بخمس ثوان علمنا أن البرق لمع على بعـد (٥) فى (١٠٩٠) أو (٥٤٥٠) وتعرف الثوانى إما بالساعة واما بضربات القلب . فاعجب لنظام بهيج حركة تمرّ حول الأرض فى أقلّ من لمح البصر وأخرى ألف قـدم وتسعون . إن الصوت بالنسـبة للضوء كالسلحفاة بالنسبة للأرنب والصوت بالنسبة للجياد من الخيـل أشبه بتلك النسبة معكوسة وهكذا ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ . لذلك يرى البرق قبل الرعد ولهذا قدّم الله البرق على الرعد فى الآية

(٣) أم أذكر ﴿ جنة العرفان فى تفسير القرآن ﴾ وهى

(١) إن شدّة الصوت تقلّ بمقدار مايزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما اذا أتينا بأربعـة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد (٤٠) ذراعا ووضعنا جرسا آخر بحجمها أيضا على بعـد (٢٠) ذراعا فانا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد لأن بعدها كبعده مرتين و(٢ فى ٢) تساوى (٤) فاذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب فأصواتها كلها كصوته وهو المطلوب

(ب) شدّة النور تقلّ بمقدار مايزيد مربع بعده عن الجسم المنير فاستبدل المصابيح بالأجراس فى المثال فيكون نور المصباح القريب مساويا لنور الأربعة البعيدة بالمقادير المتقدّمة

(ج) ان شدّة الحرارة تقلّ بمقدار مايزيد مربع بعدها عن الجسم المتقد نارا فاستبدل المواقد بالمصابيح والأجراس وفى تلك المواقـد نيران متساوية فان الموقـد القريب تساوى حرارته حرارة الأربعـة البعيـدة بالمقادير المتقدّمة

(د) الجاذبية . وهاك نظام الجسمين الخفيفين كالفلين السابحين على سطح الماء كما تقدّم فى آل عمران وكيف يجرى أحدهما ليلاقى الآخر بطريق الجذب على عكس التربيع بحيث يكون اسراعهما اذا كان بينهما ذراعان مثلا أقل مما لوكان بينهما ذراع واحد فاذا كانت السرعة فى الحال الأولى مترا فى الثانيـة فانها فى الحال الثانية تـكون أربعة أمتار أى ان بعد الذراعين أخـذ مربع الواحد وهو واحد و بعـد الذراع أخذ مربع الذراعين وهو أربعة

هذه

هذه مسائل أربع الجاذبية والصوت والنور والحرارة . أنظر وتعجب هذه كلها قاعدة واحدة تزداد فى القرب وتنقص فى البعد بعكس التربيع . فياليت شعرى كيف نفسر القرآن فى هذا الزمان . تالله هذا هو التفسير . هذا هوالدين الاسلامى . كيف يقول الله — وكل شئ عنده بمقدار — ويقول — إنّ الله سريع الحساب — ويقول — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — فأىّ تفاوت وجدناه بين الضوء والحرارة والجاذبية والصوت . لم نجد تفاوتا بل وجدنا اتحادا . وهذه الأربعة عليها مدار حياتنا فأصول حياتنا متحدة نظاما عجبا . هذه نبضات القلب كيف كانت كدقات الساعة فى الثوانى . كيف يكون القلب ونبضات العروق على نظام تقريبى أشبه بنظام الساعة من حيث الثوانى حتى أمكننا أن نقيس بها عمق البئر ثم كيف ربعنا الثوانى حين ضربها فى الأقدام كما ربعنا أبعاد الضوء والصوت والجاذبية العامّة والحرارة

هذا هو علم دين الاسلام والمسلمون فى المستقبل هم الذين يدرسونه . هذا هوعلم التوحيد وهذا هو شكرالله وهذا قوله تعالى — وقل ربّ زدنى علما — فليزدد المسلمون علما فى مثل هذا اقتداء بالخليل عليه السلام ونبينا ﷺ وشكرا لله وتوحيدا ورقيا فى دنيانا وآخرتنا والحمد لله ربّ العالمين

(٤) أم أذكر نظام رقاصى الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر وهما فى مكان واحد فان بينهما نسبة التربيع كما هنا وكذلك ذراعا ميزان القبان أى ذراع القوّة وذراع المقاومة ﴿و بعبارة أخرى﴾ الذراع الطويل الذى فيه الرمانة والذراع القصير الذى يعلق فيه الموزون فهناك بينهما نسبة منظمة لامحل لاطالة شرحها هنا لئلا نخرج عن المقصود

(٥) أم أذكر نظام الكواكب السيارة بالنسبة للشمس . أم نظام السنين الكبيسة والبسيطة

إنى اذا ذكرت ذينك النظامين هنا أخرج عن المقصود ولكن أقول قولا وجيزا فيهما . أما أبعاد السيارات عن الشمس فهو أمر سهل بسيط تفهمه بما يأتى

اذا حفرنا مكانا أثريا فوجدنا فيه تماثيل والتمثال الثانى يبعد عن الأوّل ثلاثة أذرع والثالث يبعد عن الثانى ستة أذرع والرابع يبعد عما قبله (١٢) ذراعا والخامس (٢٤) والسادس (٤٨) والسابع (٩٦) ذراعا . اذا عثرنا على التماثيل على هذا النظام لم نشك أن واضع التماثيل حكيم ومهندس ماهر وقد جعل كل تمثال فى البعد ضعف ماقبله من التماثيل . هذه هى الحال فى السيارات بالنسبة للشمس . فاذا جعلنا لعطارد صفرا والزهرة (٣) والأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مجهول عرفت آثاره (٢٤) والمشترى (٤٨) وزحل (٩٦) اذا فعلنا ذلك نكون قد عرفنا أبعاد السيارات عن الشمس مع اضافات لكل منها مذكورة فى محالها فاذن تكون هذه السيارات التى نراها موضوعة فى أماكنها بقوانين ترجع الى النسبة الهندسية فان نسبة ٣ الى ٦ كنسبة ٦ الى ١٢ وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين أى ان ٣ فى ١٢ تساوى ٦ فى ٦ وهذا من العجب أن نرى كواكب موضوعة بنظام هندسى بديع وهو المسمى المتوالية الهندسية والناظر بالعين لايعرف شيأ من ذلك والناظر بالعلم يعرف هذا النظام . اللهم انك أدهشتنا بأحجارك وحركاتها وأدهشتنا بنظام كواكبك ونظام أجسامنا وكل نظام

(٦) أم أذكر حساب السنة الكبيسة والبسيطة العربية لأبين لك حركات الكواكب كما بينت وضع أماكنها أعنى أنى أذكر حساب حركات الأرض حول الشمس فى السنة لتعرف أن هذه الحركات لها حساب منظم كما أن بعد السيارات عنها بحساب منظم ولكنى لا أذكر هذا هنا لأنه تقدّم فى آخر سورة آل عمران وفيه أن السنة القمرية (٣٥٤) يوما وسدس يوم وخمس يوم وهذا السدس وهذا الخمس بتكرارهما كل سنة يزيدان ١١ يوما فى مدّة ثلاثين سنة فترى كل ثلاثين سنة تكون منها ١١ سنة كل منها (٣٥٥) يوما و١٩ سنة كل منها (٣٥٤) يوما فالأولى هى الكبيسة والثانية هى البسيطة . ولأذكر لك الحساب هنا

لأنه تقدّم هناك ولئلا نخرج عن المقصود من النظام التام . فكما رأينا أبعاد الكواكب بنظام هندسي هكذا رأينا حساب سير كل كوكب بحساب محتم فأولهما هندسة فى المكان وثانيهما حساب فى الزمان . هذا هو النظام التام

(٧) أم أذكر لك نظام الشعر العربى ونحوه والموسيقى . إن ذلك يطول شرحه ولكنى أبين لك أن الشعر حسابه كحساب الفلك والنجوم زمانا ومكانا وأبين لك ذلك بغاية الاختصار مع الوضوح . اقرأ البيت المشهور الآتى

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

هذا البيت من بحر الطويل ولامعنى لبحر الطويل إلا هذا الوزن وهو فعولن مفاعيلن ٤ مرات ومعنى ذلك أنه (٤٨) حرفا اذا لم تدخل علل تحذف بعض الحروف . وهذه الثمانية والأربعون منها ماهو أوتاد ومنها ماهو أسباب ومعنى الوتد حرفان متحركان وحرف ساكن ومعنى السبب حرف متحرك وحرف ساكن فالأول مثل على والثانى مثل من وعن وهكذا فهذا البحر فيه (١٢) سببا وفيه (٨) أوتاد فالمجموع (٤٨) حرفا من ضرب (١٢ فى ٢) ومن ضرب (٨ فى ٣) فقولك فعولن فيه وتد وفيه سبب وقولك مفاعيلن فيه وتد واحد وسببان وبتكرارهما أربع مرات يكون عندك (١٢) سببا وثمانية أوتاد وربع البيت من الطويل فيه (٧) متحركات وخمس سواكن ونسبة ٧ الى ٥ كنسبة ١٤ الى ١٠ كنسبة ٢٨ الى ٢٠ وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين

الله أكبر . جلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة . اللهم انك أريتنا جمالك فى أجسامنا ونظامها وترتيب أعضائها وفيما يتحرك من أعلى الى أسفل وفى أبعاد كواكبك وفى حركاتها وفيما تنطق به من الأشعار مشاكلة لما أتقنت أنت من حركات الأفلاك وأبعادها . اللهم إن هذا هو الجمال الذى من حرم منه فقد حرم من مقصود هذه الحياة ومن جمال الحياة الأخرى . فياعجبا ننطق بما هو منظم كنظام الأحجار الساقطة والموازين المنصوبة والكواكب الجارية . كل ذلك بحساب ونظام بحيث تكون أبيات الشعر حاملة جمال النسبة وبهائها إذ يكون حاصل ضرب الطرفين كحاصل ضرب الوسطين مثل ماتقدّم فى أبعاد الكواكب عن الشمس فالنسبة المتقدّمة هنا فيها ضرب (٧ فى ١٠) يساوى ضرب (٥ فى ١٤) كما ضربنا سابقا أبعاد الكواكب . اللهم ان العلم هو السعادة التى بها رأينا ماتنطق به الأطيار من الأسجاع وماينطق به الانسان من الأشعار على وزان نظام أبعاد الكواكب ونظام حركاتها . هذا هو الجمال وهذه هى السعادة النفسية الباقية الأبدية التى بها يستعدّ الانسان لحال أرفع مما عليه أهل الأرض الآن الذين يدرسون هذه العلوم وأكثرهم لايفكرون فى أمثال هذا وسيكثر فى المسلمين بعد ظهور هذا التفسير رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة بل يتحلون بعلومهم عن سفاسف هذه الدنيا ويقرؤن حكم ربهم ويشاهدون آثاره فى خطرات الأفكار وحركات الأشجار ونغمات الأوتار ورنات المثانى والمثالث والأشعار

(٨) أم أذكر نظام الماء المركب من غازين خفيفين وهما الاكسوجين والاودروجين ونسبة أوّلهما الى ثانيهما كنسبة (٨ الى ١) فكل (١٦) جزأ من الاكسوجين بحسب الوزن يكون معهما جزآن اثنان من الاودروجين واياك أن يصعب عليك أمر هذين العنصرين فما هما إلا عنصران أشبه بالهواء الذى نعيش فيه فالماء يحلل اليهما تحليلا حقيقيا وقد حلل أمامى فى مدرسة دار العلوم وها هو الآن يحلل فى مدارس العالم قاطبة فترى هذا الماء الذى تشربه ماهو إلا نوعان من شئ لانراه فاذا اجتمع هذان النوعان معا حصل الماء فرايناه وشربناه وهو سائل وهما غازان

الله أكبر هذان العنصران لهما أيضا نسبة شريفة فنسبة (٩ الى ١) كنسبة (١٦ الى ٢) وضرب (٩

فى ٢) يساوى ضرب (١ فى ١٦) وهـذا عجب عجاب . أصبح الماء والحجر والكوكب والشعر وجسم الانسان جميعها بنسب هندسية ولولاها لاختـلّ النظام ولم يكن ماء ولاشمس ولا كوكب ولا انسان ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ . إن الله أذن للمسلمين اليوم أن يتبوّؤا مكانتهم بين أهل الأرض . ومن أبى قبول ما أكتبه اليوم من أمم الاسلام فانهم سيكونون فى الأسفلين فى هـذه الدنيا وفى الآخرة لأن الله أذن للأمم كلها أن ترتقى فاذا نامت أمّة ما فلاتلوم إلا نفسها وانى بهذا الـكتاب أنذر المسلمين . أنذرهم الطامّة الـكبرى فى هذه الحياة وفى الآخرة اذا جهلوا جمال ربهم الذى أبرزه لهم فى الأرض وفى السموات

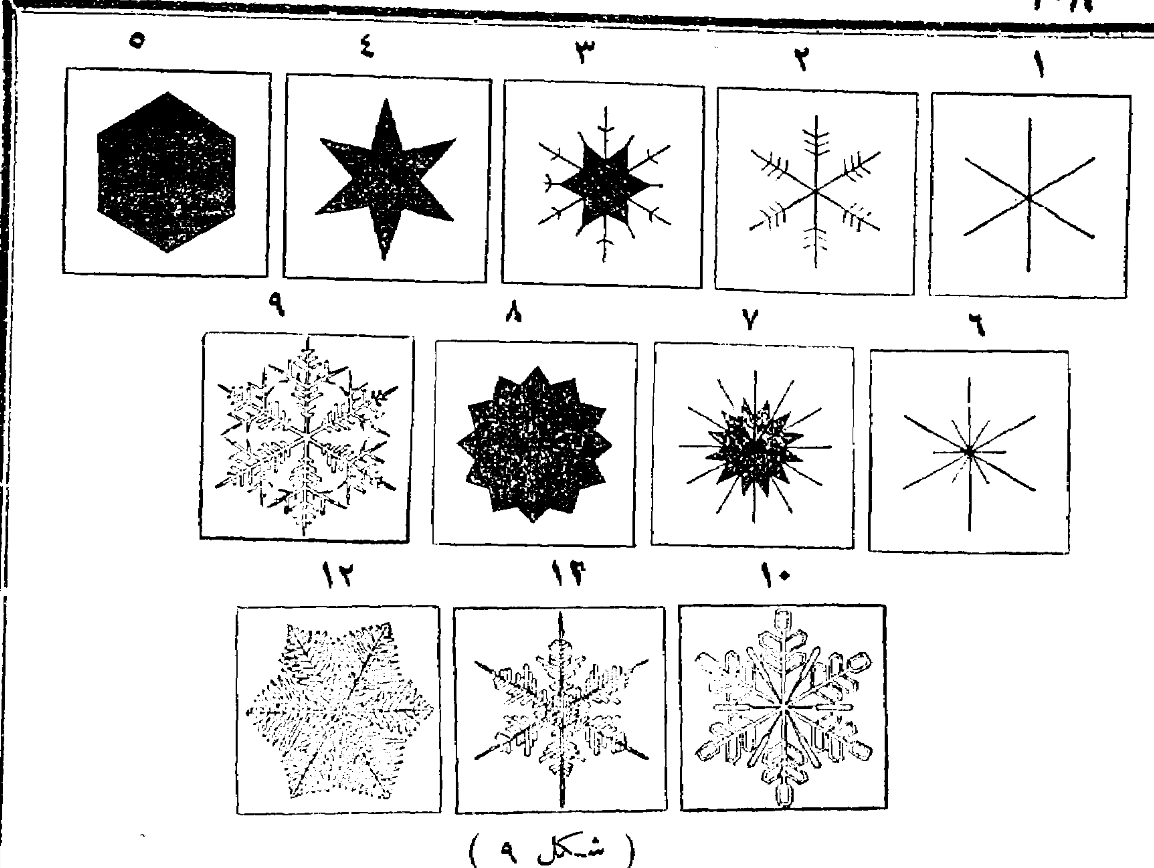
(٩) أم أذكر نظام النبات والعناصر الداخـلة فيه المذكورة الموضحة فى سورة البقرة عنـد قوله تعالى ـ وانظر الى حمارك الخ ـ وكيف كانت العناصر داخلة فى كل نبات بنسب محدّدة كما حدّدت حركات الـكواكب وأبعادها ونظام جسم الانسان من حيث المقادير المذكورة فى أوائل سورة (آل عمران) إذ ترى مثلا طول قدم الانسان كطول مابين أذنيه وكلاهمـا شبر وربع وبعد مابين ثديبه وما بين سرّته وعانته كل منهما شبر واحد وهكذا فانظره هناك

(١٠) أنا لا أطيل لك فى شرح ماتقدّم لأنك تـكتفى بمـا ذكرته لك لاسـيما اذا راجعت ما أشرت اليه فى هـذا التفسير انمـا الذى أردت أن أشرحه اليوم شرحا وافيا حتى تبتهج بنور الحـكمة والعـلم وتقف على جمال الله عزّوجل الذى أبرزه على أيدى علماء أوروبا وأهـل الشرق نائمون جاهلون غافلون مع أن القوم كان ابتـداء تعلمهم من آثار آبائنا الأوّلين . فانظر رعاك الله تنوّع المـاء فانه يكون بخارا فى الجوّ وثلجا ويكون سائلا على الأرض وجليدا أنا لا أريد اليوم أن أذكر تنوّعه فى باطن الأرض فيكون أنواعا مختلفة تنفع لأمراض شتى ولا أطيل فى جمال تـكوّنه فى الجوّ بخارا تارة ومطرا أخرى وثلجا آونة . ولا أسهب فى عجائب ألوانه فى البحار العظيمة ولافى أنواع حيوانه ونباته وانمـا أكتفى بشئ واحد وهو الآتى بيانه

﴿ أشكال الثلج المسدّسة ﴾

أمامى الآن كتاب انجليزى اسمه ﴿ كل العلوم ﴾ فى هذا الـكتاب ضروب من العـلم وقد وقع نظرى فيه على مقال ممتع فى نظام الثلج وأنا وان كنت رسمت أشكال الثلج فى أوائل سورة (آل عمران) فانى لم أكن إذ ذاك قد اطلعت على محاسن جمال تلك الأشكال ولابهجتها . اللهم إن النظر الظاهر لا يكتفى به إلا الغافلون والجاهلون . اللهم انك أودعت فينا غرائز لاتقف عنـد حدّ فنحن نشتهى الطعام والشراب والتزاوج والمـال والصيت وجمال الوجود وجمال الأشكال ولـكن توغلنا فى ذلك ضارّ بنا لأنه يعود بالوبال وانما ذلك كله كشبكة صائد وكلوح يقرؤه التلاميذ وانمـا الفطرة العظمى الباقية المودعة فينا التى هى المقصودة بالذات هى فطرة الحقائق العلمية . ان فطرنا كلها على نمط واحد وهو أن تقول هل من مزيد ولـكن المزيد فى الامور المادّية المحسوسة وحدها انما هى سبيل الحيوان فالجاهل يكتفى بجمع المـال أو الجمال أو الذكر أو الصيت ولـكن الحـكيم العالم بل المؤمن الحقيقى هو الذى يكتفى من الامور المحسوسة بأقلها ويبحث فى البواطن فهاك أشكال الثلج المسدّسة التى كتبت فى ذلك الـكتاب بقلم الاستاذ (روبرت چيمس) فقد رسم فى صفحة ١٧٨ من المجلد الثالث من الـكتاب المذكور (١٢) شكلا واصطفى هـذه الأشكال من (١٥١) شكلا رسمها وحفرها وطبعها الاستاذ (چلشر) فى سنة (١٨٥٥) ورفعت مع تقرير رسمى الى الجمعية البريطانية العلمية وقد لاحظ تلك الأشكال فى ثمانية أيام من شهر فبراير ومارث من تلك السنة

قلت لك ان هذه الأشكال أمامى الآن وهاهى ذه مرسومة أمامك



(شكل ٩)

فهاأناذا أريتك الأشكال الاثنى عشر المسدسات التى انتخبها ذلك الكاتب من (١٥١) شكلا ويقول ان الأشكال المسدسة الثلجية التى عرفها الناس الى الآن تبلغ نحو ألف شكل كلهن مسدسات ولكل واحد منها ستة أضلاع ابرية الشكل شعاعية والتنوع الذى لانهاية له لايخرج الشكل عن التسديس ولا عن الأضلاع الستة ويقول ان بين كل ضلعين شعاعيين من هذه الأضلاع (٦٠) درجة فعنى هذا أن مجموع الزوايا ٣٦٠ من ضرب (٦٠ فى ٦) وهذه الدرجات تقاس بها الدائرة التى ترسم فوق هذه الأضلاع وانما ترسم الأشكال على هذا النمط فى الجو حيث تكون درجة الحرارة ٣٢ بميزان (فارنهيت) وذلك أن ذرات الماء الطائرات المسميات بخارا اذا ضربها البرد على تلك الدرجة اجتمعت على شكل منظم كما رأيته وأبسط الأشكال الشكل الأول وهو الذى حوى ستة أضلاع ابرية الشكل شعاعية ويليه الثانى وهو الذى ترى تلك الأضلاع فيه قد حليت من جانبيها بأشعة ابرية كأنها أوراقها ويليه الثالث والرابع والخامس ففى الثالث ترى الأضلاع الشعاعية قد حليت بأجنحة او أغشية فى داخل زواياها وفى الرابع كانت تلك الأجنحة قد صارت أتم أما فى الخامس فقد صار الشكل كله منشورا سداسيا له ستة أضلاع وستة رؤس • وفى الشكل السادس حصل أمر جديد وهى ابر أخرى شعاعية قد تدخلت بين الأضلاع الأولى الطويلة • أما السابع فان هذه الأضلاع الشعاعية الحديثة قد ساوت الاضلاع الشعاعية الأولى وحليت جميعها بأجنحة أو أغشية الى أنصاف الاضلاع تقريبا • أما الثامن فان تلك الأغشية قد ملأت جميع الفراغ فى ذلك الشكل • أما الشكل التاسع فقد حاز الجمال والحسن كله والبهجة والرواء وباهر الطلعة فما أجله وما أعجبه ففيه ترى الأضلاع الشعاعية الأولى قد حليت بأغشية لطيفة منتظمة كثيرة كأنها روض باهر حسن بهيج اوراقه مشتبكة خمائله مهندمة أيما هندام

أما الشكل العاشر • والحادى عشر • والثانى عشر فهى كالعاشر حسنا وجمالا ونضرة فالأضلاع الشعاعية مزدانة بزينة الجواهر اللؤلؤية التى تشبه أوراق الأشجار وأبدعها وأبعدها مرمى هو الشكل الثانى عشر

هذا ملخص ماوصفت به هذه الأشكال مع تصرف يناسب جمال المقام • هذا بالاجمال فحوى مايقوله ذلك الكاتب الانجليزى مع زيادة وملح يبتهج بها المفكرون • وأنا أقول أيها الذكى اعلم أن عالمنا الذى نعيش

فيه قد قسم الله فيه العقول والأرزاق والأخلاق والملكات والفضائل وجعل لكل من الناس مقاما ولكل مقام مقال ومقام ذلك الكاتب الانجليزى فى علم الطبيعة المشاهدة وقد وصف هذه الاشكال بما يلائم علم الطبيعة فوصف مايشاهده الناس بأبصارهم ولم يتعرض لما فى علم الرياضيات إلا بكلمات قليلة لايضاح المقام • أما أنا فى هذا التفسير فانى أسير مع القرآن والقرآن يقول الله فيه — وكل شئ عنده بمقدار — فلم يخص المقدار بعلم من العلوم فعلىّ إذن أن أفسر الآية بما يفتح به علىّ من العلوم مع مراعاة ذوق الأذكياء من قرّاء هذا التفسير • إن علم التفسير يرجع الى النظام العام وهوالمسمى ﴿ العلم الأعلى ﴾ ويسمى أيضا ﴿ علم ماوراء الطبيعة ﴾ واياك أن تظن كما يظن كثير ممن لاعلم عندهم ان علم ماوراء الطبيعة فوق مدارك الناس • كلا • وانما هوالعلم الذى يشمل جميع العلوم الرياضية والطبيعية فهو إذن وراء الطبيعة ليس قاصرا عليها وأيضا هو يدرس بعد علم الطبيعة لأن الأمم عادة تدرس الرياضيات ثم الطبيعيات ثم تقرأ الالهيات وما الالهيات إلا العلوم التى هى أعمّ من هذين • فمعرفة الله ومعرفة الروح وما أشبه ذلك • كل ذلك لايختص بعلم واحد فاذن العلم الرياضى والطبيعى داخلان فى العلم الالهى وهوالذى نريد التكلم عنه الآن فنقول مستمدّين من الرياضى والطبيعى معا • أنظر رعاك الله الى هذه الأشكال من وجهين ﴿ الوجه الأوّل ﴾ أن نظام الشكل المسدّس فى الثلج فى الأقطار العلوية الباردة قد تقدّم أنه ملازم للتسديس وللأضلاع الستة وزواياها الستة المنظمة وهذه الأشكال تتنوّع الى مالانهاية له مع المحافظة على الاساس • رسم الله ذلك الشكل من قطرات البخار المائى الذى احتجنا اليه حينما صار ثلجا • أحوجنا الله الى الماء وكذلك الحيوان والنبات بحيث لايعيش حىّ إلا به ونرى أننا بجبلتنا نحرص عليه ويقول تعالى — أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون — يمنّ الله بالماء ويحوجنا اليه ويؤلمنا بالعطش اذا لم نشربه • لم هذا كله وكان يكفى أن نعيش على حال غيرهذه ولكنه ربطنا بالماء وملأه علما وحكمة وقال انظروا فى ملكوت السموات والأرض وقال فى الماء على أحد تفسيرين — ولقد صرّفناه بينهم ليذكروا — وعبر عن القرآن والعلم بالماء • فها نحن أولاء نتذكر فى الماء لما صار ثلجا فوجدنا أنه بتنوّعه الذى لايتناهى صار مضاهيا لما يتكوّن منه من النبات والحيوان فالنبات كله ينمو ويلد ويموت وهومتنوّع فوق مائتى ألف نوع والحيوان يحسّ ويتحرّك وتنوّعه يعدّ بآلاف الآلاف وهذا نوع الحشرات قد قالوا انها ستبلغ المليونين • إذن تنوّع الماء صار أشبه بتنوّع ماتركب منه دلالة على وحدة هذا العالم ووحدة صانعه ودلالة على اتحاد موضوع هذه الدنيا

ألا ترى أن الكواكب كلها من مادّة واحدة ولا اختلاف بينها إلا بالتنوّع وهذه المجرّة التى نعيش فيها قد أحصوا مافيها من الشموس الكبيرة فوجدوه فوق مائتين وأربعين مليونا من الشموس الكبيرة وهناك مالم يعلم للآن • وهناك مجرّات أخرى ولها شموس كهذه الشموس • ويقول العلماء ان تركيب الكواكب متقارب من عناصر بعضها معلوم وبعضها مجهول وكلها دائرات وكلها منظمات فاذن صار تنوّع الماء كتنوّع النبات والحيوان وكتنوع الشموس والكواكب والتوابع والأراضى والأقمار وهذا قوله تعالى — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — وهذا معنى وحدة العالم الدالة على وحدة الصانع الذى نوع الوحدة فجعلها سارية مع الكثرة فبينما نحن نقول حيوان واحد نراه متنوعا آلافا وآلافا وجميعها يطلق عليها اسم الحيوان فالوحدة إذن سارية فى الكثرة هكذا الأعداد المركبة كلها من الواحد الذى بتكراره جاءت الأعداد كلها ومع ذلك نقول مائة واحدة وألفا واحدا بل نقول فى العدد الذى لايتناهى إنه واحد إذن الوحدة سارت مع الكثرة لم تفارقها وهذا تمام الكلام على الوجه الأوّل ﴿ الوجه الثانى ﴾ ننظر نظرة رياضية فى هذه الأشكال المسدّسة فاننا نرى عجائب • ذلك انك تعلم أن هناك إبرا شعاعية ستة لاتفارق شكلا من الأشكال التى علمت للناس وهذه الابر الشعاعية أنصاف أقطار الشكل المسدّس • إن من يعرف مبادئ علم الهندسة يعلم أن كل ضلع من أضلاع الشكل المسدّس المنتظم كالذى هنا يساوى نصف القطر فانصاف الأقطار الستة هنا تساوى أضلاع

المسدّس وعليه اذا رسمت خطا فوق كل خطين متجاورين فانك تحصل على مثلث متساوى الأضلاع متساوى الزوايا • إذن هنا عندنا (٦) مثلثات متساويات و (١٢) ضلعا متساويات و (١٨) زاوية متساويات لأن كل مثلث فيه ثلاث زوايا وهى كلها متساويات والأضلاع متساويات وكل زاوية (٦٠) درجة والزوايا الثلاث (١٨٠) درجة ومعلوم أن زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين والقائمتان (١٨٠) كل منهما (٩٠) هذا فى أبسط الأشكال واذا كانت الزوايا التى حول المركز (٦) فبضربها فى (٦٠) يكون المجموع (٣٦٠)

ألاتعجب معى أيها الذكى من هذا الجمال • خلقنا الله وأحوجنا الى الماء وجعل لعقولنا فيه مجالا حينما يكتب به فى صفحات الهواء • خلقنا الله فى الأرض ولكنه خلق لنا عقولا أوسع من الارض وهى عقول تعجب وتفرح بالنظام • هذا النظام الباهر العجيب جعل العلماء الجمال فى التساوى فالمساواة والتنصيف والتربيع والأثمان والاثلاث كلها فيها الجمال وقالوا ان أحسن الاشكال الدائرة ولذلك ترى جميع هذه العوالم دوائر وانما كانت الدائرة أحسن الاشكال لأن المساواة فيها لانهاية لها فأنصاف أقطارها التى لاتتناهى متساويات وكذلك الاقطار وهكذا الدوائر التى ترسم على محيطها كلها متساويات وهذه أجمع الاشكال وأوسعها وهكذا الشكل المكعب فانظره تجدأن له (٦) وجوه متوازيات كل اثنين متقابلين متوازيان و (٨) زوايا مجسمات متساويات و (١٢) ضلعا متساويات كل اثنين منها متوازيان و (٢٤) زاوية مسطحة متساويات فاذن فيه (٥٠) من المماثلات وهى ٦ و ٨ و ١٢ و ٢٤ فهذه خمسون فاذن كل ما كان التساوى فى الشئ أكثر كان أجمل ولذلك نرى جمال الشجر والزرع كل ذلك لتساوى الاوراق والاغصان والازهار الخ

وهذا الشكل المسدّس الذى رسمه الله بالثلج من قطرات الماء نرى فيه (٣٦) من المتساويات المثلثات (٦) والزوايا (١٨) والاضلاع (١٢) وهذا كله فى الشكل البسيط فما بالك بما هو أكمل وأتمّ كالشكل (١٠) المتقدم ففيه فوق ماتقدم (٦) زوايا أخرى وبها يتضاعف عدد التساوى فيكون (٧٢) واذا أضفنا اليه الاوراق التى نبتت على الاضلاع الشعاعية الاصلية وهى فى كل واحد (٥) تصير كلها (٣٠) فيكون المجموع (١٠٢) فاذن هذا الشكل فاق المكعب وصار أكثر من ضعفه • أما الشكل الثانى عشر فقد بلغ نحو المائتين • هذا هو سبب الجمال الظاهر فى هذه الاشكال فالجمال فى هذه راجع الى كثرة التساوى ولذلك يقول علماء الارواح وعلماء الحكمة ان الارواح بعد الموت تفرح بأمثالها من كل روح شريفة كاملة فتزيد أخواتها افراحا وتزداد لذات أهل الجنة بازدياد الأرواح الواصلة اليهم لأن فى تلاصق الاشكال زيادة الجمال وزيادة الجمال هى المسرّة والفرح والبهجة والكمال

﴿ نظرة أخرى فى عدد (٦) ﴾

قد تقدّم فى أوّل (آل عمران) أن عدد (٦) يسمى عددا تاما و بيانه كما هناك أن العدد إما ناقص واما تام واما زائد فجميع الأعداد إما زائدة واما ناقصة ولاتام فيها إلا النادر وذلك النادر هو (٦) فى الآحاد و (٢٨) فى العشرات • أما الأعداد من مائة الى ألف فليس فيها إلا عدد واحد هو التام فالعدد الزائد هو الذى اذا جمعنا أجزاءه كانت زائدة عنه والناقص هو الذى تنقص أجزاؤه عنه والتام هو الذى تساويه • مثال ذلك عدد (٨) وعدد (٤) وعدد (١٢) فعدد (٨) أجزاؤه (٢ و ٤ و ١) فالجميع (٧) ومعنى هذا أن مضاريبه مضافا اليها واحد من (٧) مجموعها (٧) وعدد (١٢) أجزاؤه (٣ و ٤ و ٢ و ٦ و ١) فهى اذن (١٦) وعدد (٤) أجزاؤه (٢ و ٢ و ١) الجميع (٥) فاذن (٤ و ١٢) عددان زائدان (و ٨) عدد ناقص أما عدد (٦) فأجزاؤه (٢ و ٣ و ١) تساوى (٦) فهو تام ومثله عدد (٢٨) فانه مركب من (١٤ و ٢ و ٧ و ٤ و ١) لأنه مركب من (١٤ فى ٢) ومن (٧ فى ٤) ومن (١ فى ٢٨) ولا شريك لهذا العدد فى الاعداد من عشرة الى مائة • وقد بحث العلماء فى هذه الأعداد التامّة فوجدوها نادرة فربما تمرّ عشرات آلاف ولاتجد فيها إلا عددا واحدا كما هو موضح فى محله

ثم انى لما قرأت هذا العلم وهو المسمى خواص الأعداد قلت فى نفسى هل الاعداد مثل التام منها قل كما قل الكاملون من بنى آدم و بعد سنين اطلعت على كتاب علم خواص الأعداد لاستاذنا المرحوم على مبارك باشا فرأيته ذكر هذا فقال ان ندرة العدد التام يشبه ندرة الحكماء والأنبياء فى الناس . أقول وهذا حق لأن الناس جميعا مقلدون والنادر هم المفكرون الذين يسوقون الأمم الى مجدهم . وعليه يكون عدد (٦) من الاعداد التى لها شأن أعظم وهى نادرة الوجود كما ندر الحكماء وعليه اختاره الله حين صنع المسدسات الثلجية فجعلها مسدسة الشكل ونوع فى التسديس كأنه يقول للناس هاهوذا نظامى جعلته على أتقن وأندر ما يكون من الحكمة . إن الحكيم يجعل نظامه على أحسن الصور و يتجافى عن الصور الرديئة والصور المنحرفة لانهاية لها بزيادة أو بنقص . فأما التامة فهى التى لانقص فيها ولازيادة وهذا هو النظام الموضوع لهذا العالم أصالة كنظام مسدسات الأشكال الثلجية فانى رأيتها منتظمة غاية النظام فتسديسها النادر الوجود مناسب لنظامها التام . ولاجرم أن الله بنى عرشه ونظام ملكه على العلم والحكمة وتمام الامر فقال فى سورة هود ـ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين * وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء الخ ـ وقال فى سورة أخرى ـ ثم استوى على العرش يدبر الامر ـ فمرة يقول ان العرش على الماء . ومرة يقول ـ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ـ ولاجرم أن الماء على حقيقته فيه حياة الحيوان المذكور فى نفس الآيات وفيه عند ارادة مجازه الاشارة للعلم والاتقان فلك الله كله قائم بالحكمة المعبر عنها بالماء والحيوان خاصة المذكور فى الآية السابقة قائم بالماء على حقيقته فاذا كان عرش الله على الماء فذلك لتدبير الكائنات عامة ولتدبير الحيوان مع النبات خاصة فاذن صارت الآية الأولى والثانية فى معنى واحد . فاذا كان العرش فى الأولى على الماء فهو فى الثانية للتدبير ولاتدبير إلا بعلم والعلم لا يكون إلا بحقائق ثابتة . ومن أعجب الحقائق المسدس الذى ظهر سره فى الثلج الذى هو تنوع فى الماء الحقيقى فبين الماء باعتبار حقيقته و باعتبار مجازه مناسبة فالماء الحقيقى منظم الاشكال عند تجمده والعلم مبنى على حقائق ثابتة بديعة والعلم به يحيا العالم والماء به يحيا الحيوان والنبات

فسبحانك اللهم أبدعت الماء بتسديس أشكاله وأبدعت نظام الافلاك فجعلت أبعاد الكواكب عن الشمس كما تقدم راجعة الى عدد ٦ و١٢ و٢٤ و٤٨ و٩٦ فاذن هذه الابعاد مبنية على عدد (٦) وهو العدد التام

فهانحن أولاء ننظر فى هذا الوجود نرى عدد (٦) الذى هو نادر الوجود لأنه تام قد سرى فى أشكال الماء وفى أبعاد الكواكب عن الشمس وهكذا مما ذكره الله فى الآية السابقة فى عدد أيام خلق السموات والأرض فجعلهما فى ستة أيام ولعل هذا من حكم تخصيص عدد الأيام بعدد (٦) لأنه تام فكأنه يقول ان ملكى مبنى على أتم نظام والا فلماذا خصص عدد الأيام بعدد (٦) مع ان الأيام ليست كأيامنا فقد يكون اليوم نحو ألف سنة أو خمسين ألف سنة أو أكثر أو أقل فان الكواكب العليا لها أيام لانعرفها ودورات عظيمات فلاحد لليوم عند الله فلم خصه بهذا العدد إلا أن يكون لنحو ماذكرناه والحمد لله رب العالمين

﴿ شكر المؤلف لله ﴾

اللهم انى أحمدك فقد علمتنى على مقدار طاقتى . أذكر لك أيها الذكى نعمة الله على طالما جلست على شاطئ نهر أبى الأخضر الذى هو بقرب قريتنا (كفر عوض الله حجازى) وأنا أفكر فى أمر هذا الوجود وذلك منذ نحو (٤٥) سنة قبل تأليف هذا الكتاب وقد كانت سنى إذ ذاك حوالى (٢٠) سنة ولم يكن لى علم إلا بكتب النحو والفقه و بعض علم التوحيد الذى هو بطريق جدلى لا يفيد فتارة أصلى وأدعو الله بعد الصلاة أن يعلمنى نظام هذا الوجود الذى أراه فى نظرى لانظام له وتارة أبحث عسى أن أجد حيوانا فيه شبه نظام هندسى أستدل به على أن للعالم صانعا وانى أذكر الآن أنى مرة وجدت حشرة عليها خطوط هندسية

متقاطعة بيض وحمر فكان ذلك لى أعظم سرور مع أنى لا أعرف هندسة ولا حسابا إذ ذاك . فها أنا ذا أحمد الله عز وجل . مضت سنون وأنا أطلب من الله أن يعلمنى وكأن اليأس قد تغلب على ولكن الدعاء مستمر فأجاب الله الدعاء وحقق طلبى بعد اليأس والله يقول ـ خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ـ سبحانك اللهم وبحمدك اجبت دعائى فلأعانن شكرى ولأبشرك أيها الذكى فاعلم علما يقينيا أنك اذا رأيت شيأ مما أذكره فى هذا الكتاب قد عسر عليك فهمه ووجدت فى صدرك حرجا واشتقت أن تعرف أصل العلوم التى ذكرت منها ما اشتقت اليه فاياك أن يخامرك شك فى أن الله سيعلمك . واعلم أنك كلما اشتد شوقك للعلم كان ذلك دلالة على أنك ستنال مطلوبك . فانظر لما روى عن النبى ﷺ أنه قال ﴿ لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات والأرض ﴾ فها أنا ذا حين كنت على شاطئ النهر أفكر فى نظام هذا الوجود كيف كنت غافلا عن نظام عينى وبقية المحل الهندسى الذى شرحته فى أوائل هذه المقالة . وكيف كنت أغفل عن نظام النبات والحيوان وكلاهما حاضر لدى . وكيف كان الثلج يمر فوق رأسى على بعد ربما كان (١٥) ألف قدم أو أقل أو أكثر

ألم تر الى ماجاء فى الكتاب الانجليزى السابق الذكر أن الثلج يكون دائما عند القطبين فوق الأرض مسافة (١٢٠٠) ميل ويكون الثلج الدائم مرتفعا فى الجو أعلى فأعلى كلما اتجهنا جهة المدارين . ففى بلاد (اسويزرلند) فوق (٩٠٠٠) قدم وفى (البرنيس) كذلك وفى (أررات) ١٤٠٠٠ قدم و١٦ ألف قدم فوق بعض جبال (هماليا) قال وقد يتكون الثلج فى منطقة الاعتدالين على بعد (١١ و١٢) ألف قدم ولكن هذا ليس من الثلج الدائم والدائم هناك يكون أعلى من هذا البعد . فاذن أنا حينما كنت على شاطئ أبى الأخضر أبحث عن نظام وجمال فى الطبيعة قد كان يحيط بى الجمال وأنا غافل عنه فالنظام فى جسمى وفى النبات حولى وهكذا الحيوان وهكذا ماء نهر أبى الأخضر الذى يصير بخارا ويعلو فى الجو . ومعلوم أن بلادنا فى عرض (٣٠) درجة فالثلج يكون دائما أو غير دائم فى الطبقات العليا فى الجو التى تبلغ فوق عشرة آلاف قدم . إذن النظام كان يحيط بى ولكن الجهل هو الذى حال بينى وبين هذا الجمال

أيها المسلمون إياكم أن تناموا عن هذا الجمال واعلموا أن فى هذا الوجود من الجمال والبهاء ماهو مستور عنا جميعا ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ والحمد لله رب العالمين

﴿ ثلاث زهرات زاهرات باهرات ناضرات بهجات لزينت بها هذه المقالات المنشآت فى رياض العلوم ﴾

﴿ الزهرة الأولى ﴾

تبين من هذه المباحث السابقة فى الأشكال المسدسة الثلجية أن الشكل الأول منها ساذج لاحلية فيه ولازيادة على ما كان من المثلثات الستة وزواياها المتساويات الخ ويزيد عليه الثانى بتلك الزيادات القائمات على أنصاف الأقطار للشكل المسدس وهكذا لاتزال الأشكال تتزايد درجة فدرجة وجمالا فجمالا حتى انتهت الى أجملها شكلا وأبهاها حسنا وأبدعها نظاما مما قدحوى مايشبه الأوراق المتناسقة المترادفة المتساوية المبدعة بغاية الاحسان والجمال . فهذا الابداع الذى ظهر فى الأشكال الثلجية فى الأقطار الجوية الباردة فوق رؤسنا قد فتح لنا بابا من العلم نلج منه الى مكنونه ونوازن مابين هذا ومابين السلسلة الحيوانية والنباتية ونقول

لقد رأى الناس السلسلة الحيوانية لها أدنى ولها أعلى ولها وسط فهى مسلسلة أدناها أقرب الى عالم النبات وأعلاها أقرب الى الانسان . ونرى الأسود والنمور أرقى من عالم البهائم وعالم البهائم أرقى مما هو أحط منه حتى نصل الى أدنى الحيوان مما يدب على العود من الدود وما يكون منه فى بطون الحيوانات الكبيرة فنرى تلك السلسلة متناسقة متناسبة لها أدنى ولها أعلى . الله أكبر الله أكبر ظهر العلم وبهر وازدهرت به الأجيال المقبلة وأشرقت شمسه وغاب ليله . ياعجبا للأمم التى نعيش فيها * قال الشاعر

فقل

فقل لمن يدّعى علما ومعرفة * عرفت شيأ وغابت عنك أشياء

نظر الناس قديما وحديثا هذه السلسلة فقال قائل منهم إن هذه جاءت بطريق النشوء والارتقاء ومعنى هذا أن الحيوانات العليا كانت فى الأصل حيوانات أقل منها ثم تولاها التغير والتبدّل بالوسط والبيئة والانتخاب الطبيعى والحوادث الطبيعية فارتقت طائفة و بقيت أخرى مكانها فكان أعلاها القرد وعلا عنه الانسان بهذه الوسائط . هذه آراء علماء القرن التاسع عشر . أما علماء القرن العشرين فقد قالوا . كلا . ان هذه القضية كاذبة واستدلوا بحشرة أبى دقيق وقالوا انها تكون دودة ففيلجة أى (شرنقة) وهى عبارة عن كرة منسوجة من خيوط كتلك التى ترى فى دودة الحرير ثم تكون حشرة كاملة فهاهى ذه هذه الحشرة لم تحتج الى آلاف آلاف من السنين لتنتقل من حال الدودة الى حال الحشرة بل كان انتقالها فى زمان قليل يعدّ بالأيام . إذن ليس يلزم فى نظام الحيوان أن يكون أعلاه مشتقا ومرتقيا عن أدناه وقالوا أيضا ان الذى نراه فى غرائز الحيوان من الرأفة والرحمة ودقة الصنع يعجزنا أن نحير جوابا فكيف يتسنى لنا أن نقول ان الانتخاب الطبيعى هو الذى أوجب هذه المراتب الحيوانية وتجد هذا المقام مذكورا فى سورة (آل عمران) فى أوّلها عند مبحث المحكم والمتشابه فى الطبيعة فى بيان قوله تعالى ـ هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء ـ

إن النظر فى هذه الأشكال المسدّسة الثلجية التى كلامنا فيها يؤيد أقوال علماء القرن العشرين فى مسألة السلسلة الحيوانية الذين ذكرنا منهم (٢٠) عالما فى هذا المقام الذى ذكرناه لك فى سورة (آل عمران)

ان هؤلاء العلماء يقولون ان البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم وأن هذه الحيوانات أعدّت قبل للعوم وهذا كلام أحدهم العلامة (أدمون بريبه) فى مجلة ﴿العالم الحى﴾ سنة ١٩١٢

ولاجرم أن مسدّسات الأشكال الثلجية لم يكن ارتقاء أعلاها عن أدناها بطريق النشوء بل وجد أعلاها ووجد أدناها من غير أن يكون الأعلى كان أدنى ثم أخذ يرتقى عنه تدريجا بل هى سريعة التركيب سريعة الزوال . إذن هذه الأشكال تؤيد قول علماء القرن العشرين وتوضح برهانهم وتزيده حسنا . انتهى الكلام على الزهرة الأولى

﴿ الزهرة الثانية فى الكلام على حسن النظام وعمومه ﴾

اعلم أن جمال هذه المسدّسات يأخذ بالألباب و يبهج العقول . ولذلك ترى العلماء يجدّون للبحث عنه و يجدّون لماذا لما فيه من دقة الصنع وأنت خبير أن هذا الجمال الذى رأيته فى الأشكال نشاهد نحن مثله فى سفرنا وحضرنا وشبابنا وشيبنا . ألم تر الى ماهو أجل من هذه الأشكال فانه لم يزد عن أوراق الشجر فى الحسن والكمال . نرى أوراق الشجر صباحا ومساء وكل غصن من شجرة عبارة عن محل هندسى تساوت أبعاد نهايات الأوراق المتقابلة عنه حتى يمكننا وصفه بالمحل الهندسى تجوّزا فائن ظهر المحل الهندسى الذى شرحته لك فى جسم الانسان . لقد ظهر فى أوراق الشجرة المحلية لأغصانها النابتات على جوانبها المتناسبات الأبعاد عنها كتناسب العينين والأذنين فيما قدّمناه . إذن نحن مغمورون فى الجمال فالجاهل والعالم يحييان و يموتان وهما يشاهدان نظام الكواكب جميعها والشمس والقمر وهى تجرى بنظام و يشاهدان الجمال الهندسية فى أجسامهم وأجسام حيواناتهم وحشراتها وفى الأعشاب وأوراق الأشجار وأجهل الناس يرى ذلك النظام فى الأبنية التى يبنيها الناس ليعيشوا فيها . واذا كان الأمر كذلك فيقال لماذا إذن اهتمّ الناس بالأشكال المسدّسة فى الثلج ﴿الجواب﴾ اعلم أن الناس على مقدار ماغمروا ودفنوا فى الجمال قد حجبوا عنه فالناس يغدون و يروحون فى وسط البهجة والنور ولكنهم جميعا عنه محجوبون إلا قليلا منهم وانما حجبوا عنه لأنه مألوف فانهم يخلقون صغارا وهم يشاهدون ذلك الجمال ولاعقل عندهم ولاتمييز فاذا كبروا كبروا وهم يألفون هذه المناظر فسقط اعتبارها عندهم فلم يكترثوا لها وانما يفرحون بما غاب عنهم وندر كمسألة الأشكال

الثلجية فتلك الأشكال يرونها برهة ثم تغيب عنهم ثم من ذا الذى يراها انما يراها الذين فى الاقطار الباردة وقليل منهم من يفكر فيها و يصوّرها فأشكال الثلج أشبه بالكلمات التى يكتبها المعلم لتلميذه فى اللوح يقرؤها ثم يمحوها . هكذا فعل الله لنا . رآنا على الارض كالصبيان الذين لاعلم عندهم فرسم لنا الثلج باشكاله المنظمة وقال لنا هذا هوعملى نظام بديع وترتيب سريع وتناسق غريب ودرس لكم حديث ثم يمحوه وهكذا

هذا ماينطق به لسان حال الاشكال الهندسية الثلجية النادرة الوجود والا فنحن خلقنا فى عالم كله نظام وأجسام مهندمة مجندرة مسوّاة مهندسة حتى انك لترى المسلم فى صلاته لشدّة اتقان الاجسام الانسانية يمثل فى قيامه الخط المستقيم و يقرأ فى فاتحة الكتاب وهو على هذه الحال ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ فهذا الدعاء مناسب للاستقامة فى الوقوف . و يمثل فى ركوعه الزاوية القائمة . وفى سجوده تكون له مثلثات مثل مابين ساقيه فذلك مثلث متساوى الساقين . ومثل مابين ساقيه وقدميه والارض فهما مثلثان أيضا متساويا الساقين ساق هوالساق الانسانى وساق آخر خط وهمى على الارض والقدم تمثل الخط الثالث . هذا ماأردت ذكره فى الزهرة الثانية

﴿ الزهرة الثالثة . حكمة الجمال فى هذا الوجود ﴾

اعلم أن الجمال البارع فى هذا الوجود على ﴿ قسمين ﴾ جمال للعموم وجمال للخصوص . أماالجمال الذى للعموم فهوالجمال الذى أبدعه الله فى الوجوه الجميلة النادرة المثال والاصوات البهجة الشجية القليلة النظير

إنّ الله عزّوجل لم يذر أمّة من الامم إلا هيأ لها من الصور الجميلة والاصوات البديعة مابه يصبو حليمهم و يوقظ نائمهم وتحيا قواهم الحيوية الكامنة فيهم فيهيجها فى الغالب لتحاب الجنسين وانجاب الذرّية والسعى لما يؤدّى لذلك وما الصور الجميلة ولا الاصوات البديعة إلا نتائج الهندسة والحساب والنظام . فلعمرك لم يكن البارعون والبارعات فى جمال الوجوه إلا لتناسب الخدّين والأنف والعينين والفم فتى كمل التناسب بين هذه الأربعة كان الجمال بارعا ومتى نقص كان القبح على مقدار النقص ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ـ فاذا رأيت وجها فاق الوجوه فاعلم أن عينك قدنقلت صورة ذلك التناسب التام الى المخ فأدركته النفس وعدّته جميلا فعشقته لأنها من عالم الجمال وكيف أدركت هى الجمال إلا اذا كانت قد فهمت دروسه فى عالم غير عالمنا فأىّ هندسة وأىّ حساب قرأه كثير عزّة ومجنون ليلى وقيس لبنى وهم لايسمعون باسم الهندسة ولايعقلون علم الحساب . هكذا ترى الجهال والعلماء جميعا يسمعون الألحان والمغنى يضرب على العود فيطربون وأكثرهم لايعقلون لم يطربون . هم لايعلمون أن المغنى والضارب على العود قد أتيا بحركات وسكنات موزونات متناسبات متناسقات مثل مابيناه فى بيت من الشعر سابقا فى هذا المقام

ليس يعلم سامعو ضارب العود أن بين أوتاره فى الثقل والخفة نسبة معلومة مطردة كما لايعلمون أن بين الحركات والسكنات نسبة هندسية مثل التى ذكرتها لك فى بحر الطويل

لقد تقرر فى علم الموسيقى أن كل النغمات فى جميع العالم من عرب وعجم ترجع الى النسب كما قرّره علماء (اخوان الصفاء) فاذا جاء فى النوع من الغناء المسمى (بالماخورى) الذى يشبه فى حركاته وسكناته بحر البسيط

إن نسبة متحركاته الى سواكنه كنسبة (٧) الى (٥) و(١٤) الى (١٠) و(٢٨) الى (٢٠) وهذه أشبه بما تقدّم فى بحر الطويل وحاصل ضرب (٥ فى ١٤) يساوى حاصل ضرب (٧ فى ١٠) فانه يتبين لك كيف يكون السامع فى طرب من أمر محسوب منظم وهو يجهل ذلك الحساب كما يجهل الناظرون للجمال حساب الأعضاء فى الوجه والنسب بينها . فالناس جميعا يحبون الوجوه الجميلة والأصوات البديعة الشجية والنغمات الموزونة وهم يجهلون لماذا ابتهجوا بجمال الوجوه ولماذا أسكرهم جمال الصوت والحقيقة أنه لافضل لجسم ولالصوت لأن الأجسام والأصوات فى حد ذاتها لابهجة فيها وانما البهجة والجمال لدقة الحساب

والنظام

والنظام والنسب . رجع الأمر أوّله وآخره الى أن قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ هو سرّ جمال هذه الدنيا سواء أكان فى الثلج المسدّس . أم فى بيوت النحل المسدّسات . أم فى نظام السيارات الجاريات حول الشمس التى قدّرها العلماء كالعلامة (يود) فى أوائل القرن التاسع عشر بأنها تبعد (٣و٦ و١٢ و٢٤) وهكذا كما تقدّم فهى إذن راجعة الى نظام التسديس الذى اعتبره علماء قدماء المصريين فى حساب الفدان وفى حساب الأرطال وفى حساب المكيال فقالوا الرطل (١٤٤) درهما وهو (١٢) أوقية كل منها (١٢) درهما فكأنهم نظروا للتسديس فى أبعاد الكواكب التى عرفها علماء أوروبا اليوم وقالوا الأردب (١٢) كيلة و(٦) ويبات وقالوا الفدان (٢٤) قيراطا والقيراط (٢٤) سهما . فاذن نظم الناس مكاييلهم وموازينهم ومساحاتهم بنظام السموات فى أبعاد الكواكب مشاكلة لنظام ربهم

وهكذا عدّت الأيام التى خلقت فيها العوالم ستا مشاكلة لنظامها . كل ذلك يشمله قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ وقوله ـ إنا كل شئ خلقناه بقدر ـ وبهذا انتهى الكلام على الجمال العام و بيان أسبابه

﴿ الجمال الخاص ﴾

أما الجمال الخاص فهو الذى اختصت به طائفة الحكماء . وهو الذى أبدعه الله فى الطبيعة ونظام العوالم وهو الذى اشتمل عليه هذا التفسير الذى جعله الله رياضا من رياض الجنة يتربى فيها أناس لا يزالون فى الأصلاب وفى الأرحام ومنهم أحياء الآن يقرؤن فيطيرون شوقا الى جمال العلم وبهاء الحكمة وبهم يكون فى الشرق وفى أمم الاسلام رجال يقودون هذه الشعوب الاسلامية المتأخرة الى سبيل النجاح وهذا الجمال الخاص على نوعين نوع هو أخلاق فاضلة فى نفوس كريمة تكون نموذجا للقدوة والسير الحسن وهم الصلحاء . ونوع هو الحكمة وجمال العلم ونظام هذا الوجود الذى ظهر بعض سرّه فى هذا الكتاب . إن لسان الحكمة أبلغ من لغة الألسنة . وان تعجب مما ستسمعه من بلاغة اللسان فيما حكاه الأصمعى وغيره فأعجب منه منطق لسان الحكمة المسموع لأولى الألباب فى السموات والأرض المرموز له بقوله تعالى ـ وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ـ فإياك أن تقف على بلاغة اللسان فلا تفقه بلاغة لسان الحكمة فى الأكوان . ولأذكر لك ما حكاه الأصمعى كما وعدتك من بلاغة اللسان قال

كنت أطوف بالبيت إذ سمعت فتاة فى الرابعة عشرة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول ﴿ اللهم اغفر لى ذنبى كله . قتلت قتيلا لغير حله . كغزال فى دله . وهلال فى شكله . فى منتصف الليل ولم أصل له ﴾ قال الأصمعى رحمه الله ما أبلغ هذا الكلام . فقالت أو تعدّ هذا بلاغة بعد قول الله تعالى ـ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ

ألم تر أن فيه أمرين ونهيين وخبرين و بشارتين . الأمران أرضعيه وألقيه . والنهيان ولا تخافى ولا تحزنى . والخبران أوحينا وخفت . والبشارتان ـ إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ

وهكذا أذكر لك ما حكاه غيره قال سمع اعرابى رجلا يقرأ ـ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم ـ فقال ليس هذا كلام الله كيف يغفر وقد قطع اليد فتذكر القارئ وقال ـ والله عزيز حكيم ـ فقال هذا حق لأنه عزّ فحكم فقطع ولو غفر ورحم لم يقطع

هاتان القصتان نبذتان من بلاغة اللسان العربى فى القرآن وهذا جميل ولكن الوقوف عند جمال اللفظ نقص لأن جمال اللفظ كجمال الثياب والحلى والمقصد الأكبر جمال الأخلاق فاذا دلّ ظاهر الانسان وجمال ملابسه على ذوقه وحسن اختياره فليس الدليل بمساو للمدلول عليه فى القيمة وليست المقدّمة كالنتيجة . واذا أحبّ الناس جمال الوجوه فما ذلك إلا لأنها غالبا تدلّ على جمال البواطن والأخلاق . فالمقصود فى العالم الانسانى أخلاقه ومواهبه لا ملابسه وحلاه * قال الشاعر

ليس الجمال بأثواب تزيننا * إن الجمال جمال العلم والأدب

(وقال السموءل)

ليس الجمال بمئزر * فاعلم وان رديت بردا

ان الجمال محاسن * ومناقب أورثن مجدا

فاذا كان هـذا فى حال الانسان فهكذا حال القرآن فان جمال اللفظ بحسن البلاغة لم يكن إلا مقدّمة واللفظ لباس المعنى والمعنى هو المقصود فمن وقف على ظواهر البلاغة فهو من العامّة والجهلاء كمن يقف من الانسان على ظواهر ملابسه ولايدرك أخلاقه وعلومه • ومامثل الذين يضيعون حياتهـم فى ظواهر البلاغة إلا كمثل الحاج يضيع زمانه فى إعداد الزاد والراحلة مستكثرا من ذلك وقد فاته الركب فلم ينل وطره من مقصده الأعظم وهوالحج • وسيكثر أولئك الذين يدركون عجائب هـذه الدنيا بعد نشر هذا التفسير فى أمم الاسلام و يطيرون شوقا الى الحكمة ولا يكتفون بعلم البلاغة وحده الذى وقف عنده الأكثرون • وما جمال البلاغة إلا حلية الألفاظ كتناسب الخبرين والبشارتين الخ فيما تقدم وكمناسـبة العزّة والحكمة للقطع فيما تقدّم أيضا وأىّ شئ هذه وما شا كلها بالنسبة لنظام الحكمة والابداع فيما خطه الله فى هذا الوجود من الحساب والاتقان الذى تضمنته آيات القرآن من العجائب التى لاتحصى كقوله تعالى — وان من شئ إلا عندنا خزائنه ومانتزّله إلا بقـدر معلوم — وقوله هنا — وكلّ شئ عنـده بمقدار — وقوله — أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض الخ — فمن اكتفى من ملكوت السموات والارض بما ظهر من البلاغة فى الألفاظ كما فى الروايتين المتقدمتين فهو (اذا كان ذكيا قادرا على الفهم) من — الأخسرين أعمالا * الذين ضـلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا —

إن الجمال الخاص كما قدمنا يمثله الصالحون بأخلاقهم والحكماء بمباحثهم فى هذا الوجود والأوّلون أشبه بمن جلت وجوههم والآخرون أشبه بمن حسنت أصواتهم فى الجمال الظاهرى الذى قدمناه • وحكماء الأمم الاسلامية الذين سيظهرون ان شاء الله بعد نشر هذا التفسير وأمثاله هم الناطقون بلسان الحكمة الذى هو أبلغ وأبدع وهـم الناظرون فى ملكوت السموات والأرض وهـم الذين يظهرون للمسلمين سرّ قوله تعالى — وان من شئ إلا يسبح بحمده — إن تسبيح المخلوقات لربهم لايظهر إلا بدراسة جميع العلوم وفى هذا التفسير قبسة من نوره بها يعرف المسلمون بعض تسبيح المخلوقات • إن أهل الحكمة هم الذين يسمعون الناس ألحانا تبهرهم وتسحرهم أكثرمماتبهرهـم ألحان الموسيقار • واذا بهر الناس أصحاب الأصوات الجميلة فان أذكياءهم سيسحرهم بيان الحكماء وصوت المفكرين فيفيقون من غفلاتهم ويستيقظون من نومتهم وسترى أيها الذكى كيف يقوم فى العالم الاسلامى من الحكماء من يوقظون هذه الأمم الاسلامية الغافلة ويحيون قواها العقلية أكثرمما تحيى وجوه البارعين فى الجمال ونغمات الملحنين القوى الحيوية الانسانية • فكما تهيج القوى الحيوية فى الأمم بالصور الجميلة والأنغام الشجية هكذا ستهيج القوى العاقلة فى الامم الاسلامية لدراسة العلوم وكمال النفوس والوقوف على الحقائق واتقان الصناعات بسماع صوت الحكمة ولسان البيان العلمى ويفهم الناس قوله تعالى — وان من شئ إلا يسبح بحمده — فبهـذه العلوم التى أشرنا اليها فى هـذا التفسير يكون بعض فهم التسبيح بحمد الله فى الوجود ومتى فهم الناس بعض هذا التسبيح بالعلوم ارتقوا فى أعمالهم كلها دنيوية وأخروية • كيف لا والتسبيح بحمد الله يرجع لتنزيهه عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال وهى التى توجب الحمد • وكيف يحمد الناس ربهم إلا على نعم عرفوها ولامعرفة لنعـمة إلا بدراستها ومتى درسوها انتفعوا بها ومتى انتفعوا بها كان ذلك شكرا لأن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله وكيف يصرفه فيـه وهو يجهله • إنّ الله عزّوجل أذن للمسلمين بالارتقاء والارتقاء بالعلم و بالعلم

يعرفون هذه الدنيا وهذا التفسير من مقدمات هذه النهضة المباركة إن شاء الله تعالى

قلنا ان المفكرين يقلون فى الأمم كما يقل ذوو الأصوات الجيلة والأولون يحيون القوى العقلية كما يحيي الآخرون القوى الحبوية وقلنا انهم سيكثرون فى أمم الاسلام وقلنا ان هذه الأمم ستحيا بعد مامات فى زماننا وفيما قبله . وأريد الآن أن أختم هذا المقام بحكاية ذكرتها فى كتاب ﴿ جواهر العلوم ﴾ ذلك أنه قد أخبرنى شاب مصرى من أبناء بلادى كان حاكما فى بعض بلاد السودان قال سمعت طائرين يتناوبان الغناء على الأشجار بنغمات موزونات كما توزن نغمات العيدان وهما زوجان فرحان بتلك النغمات قال فأمرت الجند فاصطادوا أحد الزوجين ولم يتمكنوا من صيد الآخر قال وبات الزوج المصيد عندنا الى الصباح فلم نسمع صوته ولاصوت صاحبه الذى على الشجرة وماطلع الفجرحتى رأيناه خرّ صريعا فى قفصه حزنا وكمدا فبحثنا عن أليفه فوجدناه أيضا قضى نحبه فى شجرته . هذا ماذكرته هناك وأقول الآن هذا مثل ضربته للحكيم وللحكمة فهما زوجان لايفترقان فالحكيم يموت اذا لم تكن الحكمة والحكمة تموت اذا لم يكن حكيم كما مات أحد الزوجين الجيلى الصوت إذ فارقه أليفه وغاب عنه أنيسه . اذا غابت الحكمة عن الأمم أظلمت شمسها وجنّ ليلها وأفل سعدها كما غابت عن الأمم الاسلامية المتأخرة وستشرق شمس العلوم والمعارف من الآن وتسحر أصوات الحكماء والمفكرين قلوب النفوس الشريفة فيحيون الشرق بعدموته ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ والحمد لله ربّ العالمين

﴿ فائدة ﴾ جاء فى بعض المجلات ما يأتى

﴿ فوائد وفكاهات . عالمنا العجيب و بعض أخباره . أخبار علمية ﴾

عرض الأرض أوسع من طولها (٢٧) ميلا وهى مغناطيس أى جسم جاذب لأنها تجذب وتجذب . وتكتسب جاذبيتها من الشمس التى هى نفسها مغناطيس أيضا أى تجذب الأجرام للدوران حولها . أعمق جبّ حفر فى الأرض يبلغ عمقه (٦٥٧٠) قدما . عمر الأرض (١٥) مليون مليون سنة . وآخرون يقولون عمر الأرض مائة مليون . إن الهواء يمتد ارتفاعا الى علو خمسمائة ميل فقط . أعلى غيم يصل الى نحو عشرة أميال فوق رؤسنا . أعلى علوّ استطاع أن يصل اليه الانسان (٧) أميال فقط . (يقول المؤلف ولكن الطيارات ارتفعت أعلى من ذلك) . أبرد محل يسكن فيه الانسان شمالى سيبيريا الشرقى . أشدّ الأماكن حرا على الأرض صحراء أفريقيا حيث تصل درجة الحرارة الى (١٢٢) . قد مضى على الانسان وهو يسكن الأرض مدّة مائة ألف سنة وغيرهم يقول أقلّ . عدد سكان الدنيا مليار ونصف ويموت منهم كل سنة (٣٢) مليون تقريبا مائة ألف كل يوم وأكثر من أربعة آلاف كل ساعة . ولكن كل (٦٧) شخصا تموت فى كل دقيقة يولد بدلها سبعون طفلا . فالحساب يكون كل ماترف عينك مرة يفارق الدنيا واحد ويلاقيها ثان فسبحان الباقى . أطول حياة فى الدنيا حياة الفيل الذى يعمر قرنين . أقصر حياة حياة (ذبابة آذار) التى تولد وتنمو وتلد وتموت فى (٢٤) ساعة فقط أوأقل . معدّل حياة الانسان (٣٣) سنة وربع البشر يموتون قبل السنة السادسة ونصفهم قبل (١٦) ولايعيش (٦٥) سنة إلا انسان واحد فى المائة . انتهى

﴿ اللطيفة السابعة فى قوله تعالى ـ له معقبات من بين يديه ومن خلفه الخ ـ ﴾

اعلم أن الآية ليست خاصة بشئ واحد مما خلق الله فى هذا العالم بل الحافظات للانسان أنواع كثيرة . ولأضرب لك مثلا بالنبات . لقد ظهر فى العلم الحديث أن النبات لايمتصّ الأغذية من الأرض بلا مساعد فان هناك فى تربته أنواعا من الحيوانات الصغيرات المسماة (المكروبات) تجد فى تفتيت الأغذية والعناصر الأرضية وتحت كل نبات منها مالايحصى من هذه المخلوقات الحية فهذه تفتت الأغذية تفتيتا دقيقا لتصلح

لامتصاص الجذور لها واذن يمو النبات . واذا كان هذا شأن النبات فكيف تكون حال الانسان

إن الله جعل كل ماحولنا ﴿ قسمين ﴾ ضارا ونافعا ولاذلك لهما كما قال — ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين — فليس من نبات ولاحيوانات ولاحجر ولاشجر إلا وهو بالنسبة لنا على هذا المنوال . فترى الحيوانات الدنيئة فى أجسامنا ﴿ قسمين ﴾ قسما يسمى الكرات الحمراء وآخر يسمى الكرات البيضاء . فأما الكرات الحمراء فهى حيوانات تعد بالملايين بها نرى دمنا محمرا وهى فيه عائمة لاصلاحنا و بقاء حياتنا . فأما الكرات البيضاء فهى كثيرة العدد قد أعدّت لتلافى الخطر ودرء الهلاك فاذا أقبلت على الجسم مكروبات ضارّة فى حمى أونحوها أخذت هذه البيضاء تقاتلها وتهجم عليها فاذا ماتت هذه خلفت جندا وراءها وهكذا نسل بعد نسل وجيل بعد جيل . وكلما تناسلت الأجيال كان الأخير منها بما ورثه عن آبائه أقوى شكيمة وأرفع قيمة وأرقى عزيمة فى اخراج الحيوانات المهلكة الضارّة فلاتزال فى نضال وقتال أجيالا وأجيالا ولذلك ترى الأطباء يحقنون المريض بالجدرى وغيره وهذه الحقن تبعث فى الجسم الغارة الشعواء و يحتدم القتال فتقوى تلك الجيوش البيضاء المدرّبة على القتال فاذا هاجتها جيوش أخرى بعد ذلك كانت أقوى على غلبتها ومامثل التلقيح لأجسامنا ولأجسام حيواناتنا إلا كمثل تعليم الجندية . أوكمثل فتح مدارس الحربية واعداد الوقائع العملية فى المناورات الحربية ليشتدّ ساعد المقاتلين وتقوى قلوب المجاهدين . فهذا مثل ضربته لك من أمثال الجنود المجندة المتعاقبة على صيانة الانسان وحفظ حياته . وترى حواسنا كالسمع والبصر والشم والذوق قد ميزت الضارّ من النافع . فترى أهداب العين تمنع التراب وتدخل الضوء . وترى شعرات الأنف تمنع البرودة أن تصل الى الخياشيم فيكون الزكام . وقد نصّ الأطباء فى زماننا أنه لايجوز نتف هذا الشعر وهكذا نرى حاسة الذوق تعرف مايلائم من الأطعمة وتنفر مما لايلائم وهكذا حاسة الشم . أفليس هذا كله من نوع الحراسة والحفظ . واذا قال الله — ان كل نفس لما عليها حافظ — وقال هنا — له معقبات من بين يديه ومن خلفه — فهذا مثل من أمثال الحفظ والحراسة . وترى أن من الحيوانات مايذيقنا الموت كالحشرات المؤذية ببلاد السودان فان لها قوّة سمية تنوّم الانسان ولكن لاتكون إلا فى نادر منها فقد أخبرنى طبيب أن هذه القوّة لاتكون إلا فى واحدة من خمسمائة وعملها كعمل الفيران والناموس . فهذان النوعان ينقلان الأمراض المعدية من جهة الى جهة فتجد الناموس يمتصّ الدم من زيد ومتى جثم على عمرو اختلط الدّم بالدم فمرض الثانى بمرض الأوّل . هكذا هذه الحشرة تنقل مرض النوم من رجل لآخر وهذا المرض يبقى كامنا فى الانسان أياما وشهورا وأعواما ومتى ظهرت أعراضه نام أياما وأياما ثم يعتريه الانحلال

هذه جنود الاهلاك أشبه بالحيوانات المؤذية فى الجسم فاذا رأيت الكرات البيضاء فى الدم قد ساعدت الكرات الحمراء على قتال الحيوانات المحدثة لأنواع الحمى والجدرى وجميع الأمراض القاتلة وحدث هناك وطيس الحرب الذى ينتج منه الحرارة القوية فى الجسم من شدّة النضال فهكذا هنا قد سلط الله جنودا على هذه الجنود الحيوانية فعلم الناس كيف يفتكون بالناموس بأن يصلحوا البلاد و يردموا المستنقعات والبرك . وألهمهم فى أيام الوباء الناجم من حيوانات صغيرة أن يستعينوا ببعض الأدوية بشرائط خاصة كالنظافة واستعمال الزيت لاسيما المتخذ من الزيتون بشرائط خاصة فهذا قاتل لتلك المكروبات وهكذا مما لامجال له إلا علم الطب الواسع ولن تجد ماحولنا من سام أوضار إلا وله دواء يمنع فعله . فهذه الأدوية جيوش وجنود معقبات للجيوش الموقعة بنا ضررا . هذه نبذة من العالم المحسوس

﴿ الأحاديث النبوية ﴾

فاذا سمعت قوله ﷺ كما فى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ﴿ يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم

وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون ﴾ واذا سمعت أن لنا ملكين ملكا عن اليمين وهو صاحب الحسنات وملكا عن الشمال وهو كاتب السيآت . واذا سمعت فى أقوال علمائنا أن ملكا موكلا بعينى العبد يحفظهما من الأذى وملكا موكلا بفيه لايدعه يدخل فى فيه شئ من الهوام يؤذيه وأمثال ذلك فاعلم أن ذلك من هذا الباب . واذا كان النبى ﷺ ذكرلنا ملائكة النهار وملائكة الليل فقد فتح الباب لدرس العالم المحيط بنا ومن العار أن يعيش الانسان فى هذه الدنيا ولا يدرسها

إن العلوم الطبيعية كلها دراسة دينية . فاذا أسمعنا النبى ﷺ أن الملائكة يكتبون أعمالنا فكأنه يقول لنا ان لكم عوالم لاترونها ترتقب أحوالكم وهو قد ترك لنا العالم المشاهد لنبحث فيه فكأنه يقول لنا ادرسوا بعقولكم ولاتكونوا عالة على غيركم فأنبياؤكم لم يرسلوا لاخماد عقولكم ولكن أرسلوا ليوقظوكم فاذا قالوا لكم كل شئ فقد تركوكم بلهاء جهلاء ونحن علينا أن نلمح لكم ونرمز وعليكم أنتم الجد والاجتهاد وما أعمال ملائكة الليل والنهار إلا احصاء الأعمال حسنة وسيئة وهذا له نظير مشاهد فى العالم حولنا فان الأمم فى المدن العظيمة اليوم قد أصبحت ولاقطرة ماء يشربونها ولا كهرباء يوقدون بها و يضيئون بها منازلهم إلا ولها آلة تعدها كما تعد الدراهم والدنانير وهانحن أولاء نشاهده فى بيوتنا ونرى الجهاز المعد لحساب الكهرباء والماء وغيرهما يفعل مايفعله عقرب الساعة فى حساب الزمان . فاذا ورد أن الملائكة يحسبون أخلاقنا وأعمالنا ويحصونها فليس شيأ بدعا بل نحن نشاهد نظيره وهذا سر قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ ومن عجب أن تكون آية المعقبات بعد آية ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ ايضاحا لها وتفسيرا وتطبيقا

فهذه الآيات أنزلت لتسوق المسلمين الى دراسة مايحيط بنا من العجائب والجنود المجندة . وليس يعرف المسلمون سرها إلا اذا توغلوا فى جميع العلوم فعرفوا مضار الانسان ومنافعه والجماعات المتعاقبة على حفظه المهلكة لضدها . أما عالم الملائكة الذى ورد فى الحديث فان الكشف الحديث قد دخل فى هذا المضمار . ألاترى أن علماء الأرواح كاللورد (أوليفرلودج) يقولون ان الأرواح تحيط بنا من كل جانب يلهموننا الخير وقد قال هذا العلامة كما نقلناه عنه فى كتاب ﴿ الأرواح ﴾ إنى أصبحت موقنا أننا تحيط بنا عوالم عالية نحن بالنسبة لها أشبه بالنمل بالنسبة للانسان وأيقنت انها من فوقنا ومن تحتنا وهى تهتم بنا أشد الاهتمام

فياعجبا لدين الاسلام وأمة الاسلام . يقول الله ـ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ـ ويقول النبى ﷺ الذى أمر أن يفسر القرآن ان ملائكة يتعاقبون فيكم ثم يجئ علماء أوروبا فيقولون نحن قد كشفنا عوالم تهتم بنا . أفلم يكن الأحق بهذا كله الأمة الاسلامية . إن دين الاسلام هوالذى يطلب هذه العلوم . إن دين الاسلام مظلوم فى الأمم التى اعتنقته . إن من يقرأ هذا الكتاب ولايذيع هذه الآراء مطالب بين يدى الله تعالى . إن الله يحاسب كل من اطلع على مثل هذا فى هذا التفسير أوفى غيره من كتب العلماء ولايذيعه . إن الله حكم أن لايبقى فى هذه الأرض إلاالنافعون فاذا لم يصلح هؤلاء المسلمون للخلافة فى الأرض أزالهم من أرضه واستبدل بهم قوما آخرين . وهاهوذا يسلط عليهم الأمم كما سلط الناموس على البلاد التى لم يصلح أهلها ماحولها من البرك والمستنقعات وكما سلط الذباب على عينى من لم ينظفهما وكما سلط الحيات على قوم لم ينظفوا بيوتهم من القاذورات والأبنية الخربات فان لم يفقه المسلمون هذا الوجود طردهم الله منه وأسكن فيه قوما آخرين كما أهلك سكان أمريكا الأصليين وأحل محلهم أهل أوروبا فعمروها وهم لها مصلحون . فهاأناذا أقول ليعلم ذلك كل قارئ لهذا الكتاب ولينشر الفكرة والا فالله هوالذى يعاقب المقصر الذى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهوشديد العقاب للظالمين

﴿ اللطيفة الثامنة والتاسعة في البرق والسحاب والرعد وفي قوله تعالى ـ إنّ الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ ﴾

لايغيرها من العافية التي هم عليها حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحال الجميلة بكثرة المعاصي • ومعلوم أن العكس كذلك فان تغير الأمّة من الفساد الى الصلاح إلا بالتربية العامّة في الأمّة وليس لأمّة سعادة إلا بعموم فكرة الاصلاح فيها وأن يشملها نظام تام وآداب شاملة • فأما اذا ارتقى فيها قوم وتركوا الجموع فذلك المجموع يصبح مفكك العرى لعدم التئام الأخلاق ولذلك عوّلت الأمم اليوم على تعميم التعليم الابتدائي شاء الناس أم أبوا ومن لم يتعلم أكرهوه على ذلك لعلمهم أن المجموع مرتبط فاذا اختلّ بعضه فالباقي آيل للاختلال والزوال • فليقم المصلحون ومن آتاهم الله علما فلينبهوا الأمّة وليخطبوا بالاصلاح وليكن تعليم ليلي للعامّة وليقم كل بما قدر عليه لاصلاح المجموع فليس يغير الله حال المسلمين من الانحطاط الذي اعتراها إلا بتحويل العقول عن مجراها وتنويرها بالخطب والجرائد والمجلات وتفسير الآيات تفسيرا يطابق الاصلاح فينهض المجموع

فأما اذا بقي المسلمون على ماهم عليه فان جمعهم يتداعى ووحدتهم تتصدّع فالأمر كله من القلب فان تنوّر نشطت الأعضاء للعمل وان أظلم ماتت الأعضاء وكسلت وبعكس ذلك اذا كانت الأمّة راقية وقيض لها مفسدون ففتحوا لها باب الترف والنعيم واحتقار عادات الأمّة وأدابها وأخلاقها انحطت الأمّة وساء مصيرها ـ واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال ـ • ومن أعظم الآثار في النفس التفاؤل والتشاؤم وعلى ذكر التفاؤل والتشاؤم نذكر هنا المقال الآتي وهاهوذه

التفاؤل والتشاؤم

(للكاتب الأمريكاني الأشهر (امرسون) • عرّبه بعض أدباء المصريين)

إن الدنيا بحذافيرها تنساق الى المتفائل المستبشر إذ كان التفاؤل مبعث العزيمة الماضية والهمة الثاقبة التي كأنها تخلق للمرء عينين جديدتين يرى بهما من ضروب الحيل والتدابير مالم يكن رآه من قبل • إن المتشائم يسكن الجنة فيصيرها من جراء سخطه وضجره جحيما • ويسكن المتفائل النار فيصيرها بفضل انشراحه وعزمه وسعة تدبيره فردوسا • والمتشائم اذا لبس جلد الفيل وفروة الدب لم يجده ذلك نفعا ويظلّ في ثوبه الدفيء يرتعش ويرتعد • بينما الاسكيمو ساكن القطب الشمالي يظنّ لحسن تفاؤله وانشراحه فرحا طروبا مملوأ نشاطا ومرحا يصنع لنفسه من الثلج والزمهرير ثيابا دفيئة

إن الانسان بفطرته وطبيعته متفائل ميال الى الانشراح والنشاط وهذا التفاؤل هو الذي يجعله صالحا لسكنى هذه الأرض التي لاتهب الانسان أدنى شئ من ثمارها وفوائدها اذا لزم خطة السخط والتبرم وفتور الهمة والعزيمة وتسخر له كل شئ اذا استشعر الابتهاج والتفاؤل ومايورثانه من سعة التدبير والحيلة • ومن ثم ترى الرجل المتفائل النشط وكأنه جعبة مملوءة بالكفاآت والقوى وكأنه قضيب مغناطيس فوق كرة من الحديد يجذبها اليه ويتداولها كما شاء • ومن كان هذا شأنه أصبح وكأنه مخترع ومستكشف قد أبحر في سياحة ميمونة مباركة يسترشد فيها بخريطة ذهنه ويظل وكأن هذا العالم الأرضي في نظره كله منافذ وأبواب مفتحة ومسالك وفرص ومغانم وكأنه جوهر حساس في كل موضع منه وتر موسيقي يجاوب أقلّ لمسة منه بنغمة مطربة ويقابل كل جسة بفيض سيال من الروح والشعور • وهذا العالم الأرضي الحيّ الحساس حاضر الخير سريع السخاء للرجل المتفائل فسواء طرقته بمحراث آدم أو بسيف قيصر أو بقارب كولومبو أو بمرصد غاليلو أو بمنطاد زبلين فلابد أن يجيبك على كل واحدة من هذه التجارب بأبدع جواب وأروعه وانما بفضل التفاؤل ومايورثه من القوة والقدرة العجيبة استطاع الانسان أن يفجر بالخيرات والبركات صخرة هذه الأرض الصلدة ويسخر الطبيعة الهائلة في قضاء مآربه وأوطاره ويتغلب وينتصر على المادّة ويسيطر ويهيمن على العناصر ويؤلف من

شتاتها

شتاتها نظاما ومن فوضاها ناموسا ومن فسادها صلاحا . وعلى الضد من ذلك ترى التشاؤم مصدر الوهن والعجز والفتور والتبلد يفقأ الأعين ويشل الأيدى ويطفئ سراج البصائر . وأى خير فى التشاؤم ومنظاره الأسود الذى يكسو عروس الطبيعة ثوب الحداد ويحيل مهرجانها مأتما وبشيرها نعيا وصفوها كدرا وحلاوتها مرارة ويطلع فى وجنة الشمس الصقيلة بقعة سوداء ويجرى فلك السعود نحسا

هذا العالم الذى نعيش فيه ونتقلب بين أعطافه انما هو مصنع هائل مفعم بقوة الخصب والانتاج التى تؤتى كل شئ باذن القادر على كل شئ . وهل ترى لذخائر الطبيعة من نفاد . وهل حاولت مرة أن تزن بالقناطير مياه الجدول الصغير المنسكب فى مزرعتك هذا على أن الطبيعة لاتبدى لنا من ذخائرها الهائلة سوى القشور وانها من تحت ذلك بعيدة الأغوار تقدر أعماق كنوزها بالملايين من الفراسخ . ولقد يروق طائفة المتشائمين ويلذهم أن يسخروا من مذهب التفاؤل تظاهرا منهم بالفلسفة وادعاء باطلا للذكاء والفطنة على أن آمال المتفائلين البراقة وماتشيد خيالهم من قصور الهواء المزخرفة أحسن ألف مرة وأعود بالمنفعة على الناس مما لايزال المتشائمون يحفرونه من جحور الهم والنكد وسجون الغم والشقاء . وماذا يستفيد الناس من المتشائمين الذين لايبرحون ينصبون فوق رؤسهم فى كبد السماء كوكبا أسود يشوهون به لألاء الضياء وجمال السحب البهيجة الأصباغ والألوان . وأى الرجلين أنفع للمجتمع وأصلح من يحرك فيك نسيم الأمل ويشعر قلبك روح الثقة وبرد اليقين . أم من يسقيك كأس الجزع والأسى ويجرعك غصص الكرب والشجن ويذيقك كأس الخوف والقنوط

لقد جعل الله للطبيعة روحا وما روحها إلا الفرح والجذل . ولعلك اذا استطعت أن تنفذ الى سر الكون ولباب الوجود ألفيت قلبا خفاقا بالسرور يدفع لدى كل نبضة من نبضاته تيارا متدفقا من الحبور والطرب . ولن ترى فى أنحاء الكون موضعا تخاله قفرا مجدبا إلا كان فى الحقيقة مفعما بالخير والبركة . فأقفر الأمكنة فى نظرك يحتوى من الثروة مالا يكاد يحصى ولايعد وأجدب محل فى وهمك لاتنفد حاصلاته ولاتفنى ثمراته

وكل صوت من أصوات الطبيعة يبدأ بلحن وينتهى بنغمة . وكل صفحة من صفحاتها قد زخرف البارئ المصور حواشيها بأبدع الصبغ وأبهج الألوان

لاتعلق على جدران غرفتك الصور المحزنة ولاتشوه أحاديثك بسواد الشكوى وظلمة التشاؤم ولاتكثرن من الأنين والحنين والتلهف والتأفف وكن على أن تظل صداحة تطرب الملأ بموسيقى الأفراح أحرص منك على أن تظل نواحة تبكيه بمراثى الأتراح ولايصدرن عنك من المقال والفعال إلا ماجدد من أمل أوحفز الى عمل أواستنفر همة أواستنهض عزمة

لقد جاء فى حكمة القدماء أنه لن يستطيع مسرة الجلساء من كانت نفسه عارية من المسرة فان الحديث الحافل بغرر الأفكار ودرر المعانى اذا صدر عن لسان رجل متشائم متبرم كان جديرا أن يبهرك ويروعك ولكنه لن يسرك ولن يفرحك . ولاعجب فان الذى يدخل عليك السرور والطرب ليس هو براعة الحديث فى ذاته ولكن حلاوة أنس المحدث ورقة شمائله وهذه الرقة والحلاوة لن تكون للرجل المظلم الهواء الموحش الجناب . وماذلك إلا لأن الذهن شئ والروح شئ آخر وغير ممكن ولامنتظر أن يستطيع امرؤ ببراعة الذهن وحدها اجتذاب الأرواح واستصباء النفوس دون أن يكون له ذلك الظرف الذى ليس إلا من معينه يفيض الطرب والمسرة . وكيف يفرح الناس من أقفرت نفسه من الفرح . ومن ثم كان أعاظم كتاب الفكاهة الذين قدموا الى أبناء البشر أشهى ألوان السرور والضحك على مائدة الفنون والآداب كلهم من ذوى الطبائع الفرحة المبتهجة والأمزجة الرطبة الندية أمثال (شكسبير وموليير وسرفنتير الأسبانى) صاحب كتاب (دون كيشوت) وأديسون ودكنز ورابيليه وواضع كتاب «ألف ليلة وليلة» وكل هؤلاء على الضد من كتاب

الفكاهة المتشائمين أمثال (فولتير و بيرون وسويفت) صاحب كتاب (أسفارجاليفار) و بوب صاحب كتاب (السفهاء) وهايني . أولئك الذين قد مزجوا فكاهاتهم بعلقم الهجاء والسخرية وحنظل النقمة والنكال وسموم القذف والاقذاع فخرجت مؤلفاتهم أدنى الى الايجاع منها الى الاطراب . وأجلب للايلام منها للاعجاب وللايحاش منها للايناس . بل جاءت أذكى شباة من ابرة العقرب وناب الافعوان . ذلك الى الجم العديد من مساوى تلك المؤلفات التشاؤمية وسوء أثرها فى المجتمع مما يضؤل إزاءه كل ماحوت من مزايا وحسنات حتى ذهب فريق من رجالات الأدب وجهابذة النقد وأعيان الفلسفة الى اعتبار مؤلفيها ضمن عوامل الفساد والشر فقال لنا الفيلسوف (نيتشه) أغلقوا بيرون وافتحوا جوت

والسرّ فى مساوى هذه المؤلفات يرجع كما أسلفنا الى ماقد ركب فى غرائز مؤلفيها من مرارة الطبع وحرافة المزاج وحموضة السليقة ومايتبع ذلك من قسوة الفؤاد وغلظة الأكباد . إن من أقوى مبررات التفاؤل وأقطع البراهين على صوابه ووجوب الأخذ به هو أن الطبيعة التى أوجدت آفات الحياة وعللها أوجدت معها أدويتها ووسائل شفائها وماذلك إلا لأن روح الطبيعة انما هوالعدل وأساسها هوالنظام وماغايتها إلا الصلاح والرقى فاذا رأيت الطبيعة أحدثت آفة فاعلم أنها لم ترم بذلك الى التلف والبوار ولا الى الفساد والفوضى . والحقيقة أن هذه الآفات والعلل ليست فى الواقع إلا أسبابا متنكرة ترمى فى النهاية الى الاصلاح . وماهى إلا عقبات ضرورية لابدّ أن يقتحمها المجتمع ليصل على جسرها المخوف الى ماقد هيئ له من درجات الفلاح والرقى . فاذا شئت مثالا على ذلك فانظر الى أوراق الشجر وأجزاء النبات . ألاتراها تسقط فتذبل فتعفن ثم تتحلل وتبلى ويخيل اليك انها قد فسدت وتلفت وهلكت وهى فى الحقيقة لم تمت ولم تفسد إذ لاموت ولافساد فى الطبيعة وكل ماتراه بلى وموتا انما هو تطوّر وانتقال من حال الى أخرى أرقى وأكمل . فهذه الموادّ النباتية التى تخالها قد بليت وماتت لن تلبث أن تستعيد حياتها وقوّتها وتجدّد بهجتها ونضرتها بل قد تستحيل على التطوّر والتحوّل الى صنف أسمى وأسنى . تلك سنة التطوّر والارتقاء التى تجرى عليها الطبيعة فى جميع أركانها من الذرة والهباءة الى النظام الشمسى والدورة الفلكية وذلك ناموس النموّ والصلاح الذى هو أسّ الوجود وروح الطبيعة ــ سنة الله التى قد خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ــ

ومن أعظم الآثار فى النفس أيضا المخاوف والأوهام

مخاوفنا وأوهامنا . أسبابها وعلاجها

لانريد بالمخاوف والأوهام تلك التى تستثيرها المشروبات الروحية أوالحميات التى يتخيل فيها المدمن أوالمريض وجود عمالقة من الشياطين فى طريقه أوفى غرفته يطاردونه ويضايقونه حتى لقد يقذف بنفسه من نافذة هربا منهم أويتوهم أنه يرى حيوانات تطير فى الهواء أوحشرات تنسل بين ملابسه لأن كل هذه ترجع الى حالات مرضية وقتية يفقد فيها الشخص ذاكرته وقدرته على التفكير المنطقى . وانما نعنى تلك المخاوف والأوهام التى تساورالانسان فى أحوال عادية فتؤثر فى سلوكه فى المجتمع من حيث علاقاته مع الناس وطريقة تأديته لعمله كما تؤثر فى صحته من حيث سوء تأدية عمليات التمثيل والتغذية واستفحال الأمراض التى يكون مصابا بها . وقد قدّرأحد علماء النفس أن تسعة من بين كل عشرة أشخاص يصابون بهذه المخاوف والأوهام التى تشتدّ وقت الليل حيث يضعف نشاط الانسان عن مقاومتها بعد مجهوده اليومى . ومن أهمّ المخاوف الشائعة بين الناس عامّة والسيدات بوجه خاص الخوف من الأمراض ولاسيما (السل) إذ تجد السيدة تخاف من القذارة والمكروبات خوفا يقرب من الجنون فتبالغ فى النظافة وتدقق فى اختيار المأكولات والمشروبات الموافقة حتى لقد حكى عن سيدة (وأمثالها كثيرات) انها كانت تحتم النظر الى ماتأكله أوتشربه بمنظار مكبر قبل أن تمدّ يدها اليه حتى تطمئن الى نظافته وخلوه من جراثيم الأمراض وتأبى إلا أن تغسل الأغطية

والملابس

والملابس وتطهرها عدّة مرات يوميا كلما لامستها يد زائر غريب خوفا على نفسها وأولادها من القذارة التى تسبب الأمراض . وقد أظهر البحث العلمي فى كثير من الأحوال المشابهة أن السبب فى حدوثها هو ذلك الاهتمام الشديد الذى يظهره كثير من الوالدين بحياة أطفالهم من حيث الملبس والمأكل والمشرب والشغف الكبير الذى يبدونه بسلامة جسمهم وحفظهم من شرّ الأمراض القتالة مما يجعل تلك الخواطر الضارّة تنحدر الى غيابات اللاشعور من نفس الطفل ثم تزداد قوّة بما يسمعه فى حياته من الروايات التى تحكيها السيدات فى اجتماعاتهن عما قاسينه أوقاساه غيرهن أثناء مرضهن من آلام كثيرا مايبالغ فى شدّتها فيشبّ الطفل وقد استولى عليه هذا الخوف من الأمراض وملك ناصية نفسه الباطنة ولايلبث أن يتجلى فى وقت من أوقات حياته فى سلوكه وأعماله بالطريقة السابقة . ولقد يتوهم بعض الناس أنه مريض حقا وعلى الخصوص اذا فارق منزله أو بلدته ليعيش فى أخرى فاذا به مغموم النفس هزيل الجسم فاقد الشهية يتألم من صداع مستديم ويتعب من أقل مجهود ويثور لأىّ مضايقة . وماذلك أيضا إلا نتيجة لما تعوّد أن يلاقيه من والديه أثناء طفولته من حنان زائد وحماية مستمرّة واهتمام بصحته وعناية بالمحافظة عليه وتدقيق فى اختيار مايوافقه حتى ينشأ جبانا مدللا يخشى الابتعاد عن منزل أسرته ويتوجس خيفة من جراثيم الأمراض التى تهدّد حياته التى عرف أنها غالية عزيزة ويعتقد أن هذا الشئ يتعب معدته اذا أكله وذلك يؤذى أمعاءه اذا ابتلعه أو يجلب له المرض اذا اقترب منه فاذا حدث عفوا أواضطرارا أن تناول أولامس مايعتقد خطأ ضرره منذ الطفولة استهوى نفسه الى المرض فمرض وجنى على نفسه بذلك شرّ جناية

والى جانب ذلك يوجد الخوف من اللوم والنقد الذى يستولى على كثير من الناس فيجعل الشخص يشعر بأنه أقلّ من غيره ثروة أوكفاية أوجمالا وان كان الواقع عكس ذلك فهو يخشى الظهور أوالتكلم أمام شخصية بارزة أوجمع حافل واذا اضطر لذلك امتقع لونه وجفّ لعابه واضطربت حركاته وعجز عن اخراج المقاطع اخراجا صحيحا خوفا منه من نقد الغير وشعورا بعدم كفايته . وقد لاحظ علماء النفس كذلك أن عددا كبيرا من الناس اذا حادثهم الانسان أوتحدّثوا اليه أتوا بحركة صغيرة لافائدة منها ولامعنى لها تكون على الوجه دائما كأن يمرّ بيده على شعره الى الخلف أويحك ذقنه أويمسح جوانب فمه بمنديله من حين الى آخر أويقبض على وجنتيه باستمرار وعللوا ذلك بأن الخوف من اللوم والنقد يتسلط على هؤلاء الناس فى الباطن فيدفعهم الى محاولة اخفاء وجوههم فى الظاهر . وبما أن التقاليد الاجتماعية لاتسمح بذلك فان الطاقة العصبية تنصرف الى الاتيان بهذه الحركات الصغيرة كما أنه ظهر بعد البحث أن هذا الخوف ينشأ من تلك الملاحظات التى يسمعها الأطفال من والديهم ومن يجالسونهم عن نقد مظهر أوسلوك أقربائهم أوجيرانهم مما يغرس فى نفوسهم أنهم لابد سينتقدون بدورهم فى كل أعمالهم وأقوالهم اذا بلغوا تلك السنّ ويزيد خوفهم من النقد رسوخا اذا سمعوا من اخوتهم أووالديهم لوما وتقريعا مستمرا لهم أنفسهم على ثقل فى الحركة أوخلط فى الكلام فهم لذلك اذا شبوا ووصلوا الى سنّ النقد تجلى خوفهم الباطن فى حركاتهم وأعمالهم التى كثيرا ماتكون مضحكة . وقد يرتبط الخوف بأنواعه أحيانا بحادثة خاصة كما فى أمثال حالة تلك البنت التى لم تكن قد بلغت من العمر إلا ست سنوات فقط والتى كانت جالسة أمام منزلها فى الأرياف وحيدة فى هدوء وسكينة واذا بعربة تمرّ مسرعة محدثة ضوضاء عظيمة ازعجت لها البنت وهبت تجرى الى داخل المنزل فما كان من والديها واخوتها إلا أن انتقدوها نقدا مرا وعنفوها على سلوكها أمام الناس ذلك السلوك المعيب الذى لامبرر له واستمروا يعيرونها بتسرعها وطيشها حتى انها نشأت خجولة تخشى الظهور أمام الناس وتخاف أن تبارح المنزل وتظن اذا سارت أوتكلمت أنها هدف اللوم والنقد وان لم يكن هناك مايستحق ذلك

ولايقلّ الخوف من الأرواح الشريرة والأشباح الغريبة أهمية عن المخاوف السابقة إذ يعكر صفو حياة

الانسان و يؤذى صحته أذى كبيرا فهو كلما وجد فى الظلام تخيل أشباحا مزعجة ماثلة أمامه تهدده وتشاكسه فيضطرب قلبه و يقف شعر رأسه و يعجز عن الحركة وتكثر هذه المخاوف حيث ينتشر الاعتقاد فى الخرافة والسحر والعرافة التى تقوم بها قوى خفية إذ يشب الطفل وقد وعى عقله الباطن الشئ الكثير من أخبار الجن والردة والشياطين يتجلى وقت اضطرابه أووقت نومه فى الأحلام برؤيا الأشباح الغريبة • ومن الغريب أن هذا النوع من الخوف لايمكن انتزاعه غالبا من نفس الشخص وان زال عنه الاعتقاد فى الخرافة والسحر كما أثبت ذلك التحليل النفسانى الدقيق لآلاف من الأشخاص

و يبدى بعض الناس خوفا من البحار فهم لايتجاسرون على السفر بحرا أونهرا مهما قيل لهم عن وسائل الراحة والطمأنينة والأمان الموجودة فى السفن • وقد أظهر التحليل النفسانى أيضا أن تلك الحالة تنشأ إما عن الأهمية الكبيرة التى تعلقها الأم حول استحمام الطفل والمضايقة والخوف اللذان يرتبطان به وقت الطفولة واما الى تعرض الشخص نفسه للغرق أورؤيته شخصا يغرق فى وقت من أوقات حياته وانفعاله واضطرابه للحادث مما يحدث أثرا عميقا فى نفسه الباطنة يزيده قوة مايسمعه عن مخاطر البحار فيتجلى كل ذلك بعدئذ فى خوفه من الاقتراب من الأنهار أوالبحار أوالسفر بطريقها طول حياته

وهكذا نجد المخاوف بأنواعها اما ترجع الى أحاديث وملاحظات بريئة غير مقصودة يسمعها الشخص ممن حوله وقت الطفولة أوالى تجارب قاسية ماضية تتجلى كلها فى حياة الانسان المستقبلة ولذا وجب أن لايسمع الأطفال من الأحاديث مايثير خوفا من حيوان أوشيطان أومظهر طبيعى أوشخص غريب أومرض قتال • وأن لا توجه اليهم ألفاظ النقد المر المتكرر وأن لا يؤخذوا فى التربية باللين الشديد وأن لايواجهوا من المخاطر مايثير عواطفهم لأن كل ذلك خطر على حياة الطفل الذى هوأبو الرجل

وقد أحصى العلامة (ستانلى) هول أربعة آلاف من أصحاب المخاوف فوجد أن ١٤٤٦ شخصا يخافون من الحيوانات والحشرات و ٧٩٩ من الظلام والأشباح الشريرة و ٦٢٦ من المظاهر الطبيعية كالرعد والبرق والزلازل والبراكين و٥٨٩ يخافون من اللصوص والغرباء و ٥٤٠ يخافون من الموت والمرض وقد تختلف هذه النسبة باختلاف الوسط

وقد أوجدت الحرب الكبرى ميدانا واسعا لعلماء النفس والأطباء لدراسة مخاوف الجنود وطرق علاجها وكانت أهم وسائل العلاج إثارة خوف مضاد للخوف الموجود يزول ما زال الخوف الأول فالخوف من الموت ومن التقدم الى ميدان القتال عولج بنجاح فى كثير من الأحيان باثارة الخوف من العار والفضيحة وكذلك نجحت اثارة عواطف قوية مضادة مثل عاطفة الوطنية والدفاع عن الوطن المهان التى حولت انتباه الجنود عن الخوف من الحرب وشوقتهم الى الجهاد والمغالبة ثم النصر • أما فى الأحوال التى يرتبط فيها الخوف بحادثة خاصة أوتجربة ماضية مجهولة فان العلاج الوحيد له هو أن يدرك الشخص سبب خوفه بكثرة التأمل الباطنى و بالالتفات الى تفسير أحلامه تفسيرا علميا صحيحا حتى يصل الى تذكر الحادثة التى كانت أصل خوفه وقت الطفولة ثم يستهوى نفسه الى احتقار مخاوفه وتركها استهواء ذاتيا مستمرا • انتهى الكلام على آية ــ إن الله لايغير الخ ــ ولنبدأ بالكلام على الرعد والبرق ونحوهما فنقول

﴿ الكلام على الرعد والبرق ونحوهما ﴾

اعلم أن أعظم الاشياء أثرا فى النفوس حوادث الجو من مطر ورعد و برق فكم فيها من نعمة وكم فيها من اهلاك وذلك بالكهرباء المحدثة للصواعق كما سترى شرحه وأن كل ورقة من أوراق العشب الدقيقة تفرغ كهربائية أكثر مما تفرغه الابرة وكذلك البراعيم فانها أحسن من مانعة الصواعق التى صنعها الانسان

واذن يكون كثير من الأوراق والبراعيم والأشجار بمثابة مانعة الصواعق فالنبات والورق والشجر كما

يغذينا

يغذينا و ينفعنا كثيرا يمنع فوق ذلك عنا الصواعق . فاذا كان الانسان صنع مانعة الصواعق فان الله سبقه بها وملأ بها عالمنا فى أشجاره وأوراقه وزرعه وهذه بعض المعتبات الحافظات للانسان ولذلك أردف ما تقدّم بهذه الآيات التى وردت فى البرق والسحاب والرعد والصواعق . السحاب تقدّم الكلام عليه فى سورة البقرة فأما الرعد والبرق فلايمكن معرفتهما إلا بعد فهم نوعى الكهربائية

اعلم أن الكهربائية ﴿ نوعان ﴾ زجاجية (ايجابية) وراتنجية (سلبية) ومعنى هذا انك اذا دلكت أنبوبة من الزجاج بالحرير فظهرت فيها الكهرباء من الدلك ثم قرّبت تلك الأنبوبة من لبّ (السيسبان) فانها تجذبه حتى تكهربه ثم تدفعه ولاتجذبه . ثم اذا أتيت بشمع الختم وهوصمغ راتنجى ودلكته بصوف فتكهرب وقرّبته من لبّ (السيسبان) المكهرب من الزجاج فانه يجذبه حالا حتى يكهربه ثم يدفعه ولايجذبه بعد ذلك فلوأعدت أنبوبة الزجاج على اللبّ جذبته اليها حتى تكهربه ثانيا فتدفعه فاذا أعدت قضيب الختم عليه جذبه حالا وهكذا مايجذبه هذا يدفعه ذاك وبالعكس فهما حينئذ ﴿ قسمان ﴾ كهربائية سالبة وهى الراتنجية وأخرى موجبة وهى الزجاجية وقد عرفت الحقيقة والتسمية اصطلاحية لمجرّد التمييز . والأجسام المتشابهة كهربائيتها تتدافع والتى تخالفت كهربائيتها تتجاذب فلوكهربت كرتين من لبّ (السيسبان) بكهربائية الزجاج وأخريين بكهربائية شمع الختم لتدافعت الأوليان معا والأخريان معا لأنهما متشابهتان فى الكهرباء ولكنك اذا أقربت كل واحدة من الأوليين مع واحدة من الأخريين تجاذبتا . هذا ايضاح القاعدتين . ثم ان الأجسام إما موصلة للكهرباء واما غير موصلة للكهرباء

غير الموصلة للكهرباء و يسمونها عازلة أوفاصلة أو موصلة غير جيدة	الموصلة للكهرباء
الهواء	المعادن
البخارات الجافة	الحوامض
الشمع . والورق الجاف	الفحم
الكبريت . والحرير والزجاج	النباتات
الماس	الحيوانات
الحجارة الكريمة واللك	الماء
	الثلج

﴿ كهربائية الجلد والهواء والغيوم ﴾

اذا ثبت أن حك الأنبوبة من الزجاج يهيج الكهربائية فيها وشمع الختم كذلك بالدلك . فلا يكون كذلك الهواء مكهربا دائما إلا نادرا جدّا . أفليست الرياح تتحاك و يعارض بعضها بعضا وهى أيضا تصادم وجه الأرض وماعليها والغيوم والسحب تحتك ببعضها و بالهواء وهكذا ترى الحرارة كما تقدّم تحول الماء الى بخار والبخار الى ماء وهنالك أعمال كيمائية ذات تحليل وتركيب فتحوّل كهربائية الأرض السالبة الى كهربائية الهواء وتكون كهربائية الجلد ايجابية وقد تتغير فتصير سالبة فى أوقات الاضطراب فمن هذا نفهم حدوث البرق والرعد . فالبرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتى الكهربائية حتى يصير ميل الكهربائية لواحدة للاقتراب من كهربائية الأخرى أشدّ من قوّة الهواء على فصلهما فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوىّ شديد فالنورهوالبرق والصوت هوالرعد فالرعد يحدث من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق أمامها وأما دويه فيحدث من انعكاسه من الغيوم البعيدة والجبال والتلال والأودية ونحوها

واذا عرفت ذلك فاسمع الحديث وان لم يكن فى الصحيحين ولكنه فى الترمذى لما سئل رسول الله ﷺ عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله قال السائلون فما هذا الصوت الذى يسمع منه قال زجره السحاب حتى تنتهى حيث أمرت قالوا صدقت • وفى حديث آخر هو صوت من نور تزجر به الملائكة السحاب • فهذان الحديثان اذا صحا كانا من علامات النبوّة لأن المخاريق فى الأصل أثواب تلف و يضرب بها الصبيان بعضهم بعضا • والمراد هنا آلة يزجر بها السحاب فهذه المخاريق التى من نار لاشئ سوى الكهرباء • وقد بينا أن كل واحدة من السحابتين تهجم على الأخرى ولامعنى للهجوم إلا بالاسراع وهذا الاسراع بالكهربائية فالكهربائية هى التى زجر بها السحاب زجرا فقوله ﷺ من نار أى من كهرباء والملك ذكر ليرجع العالم الجسمى الى مبادئه الأولى فان هذه العوالم كلها تتصرف فيها عوالم تحفظ كيانها

﴿ اللطيفة العاشرة فى الصاعقة ﴾

قد تمتلئ السحب بكهربائية والأرض بكهربائية أخرى والهواء فاصل بينهما فتى قاربت السحب وجه الأرض تنقض الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل • وقد اخترع (فرنكلن) لمنع الصواعق قضيبا من معدن كالحديد والنحاس دقيق الرأس متصلا مصنوعا رأسه من معدن لايصدأ ولايتحات كالذهب والفضة والبلاتين و يمتد طرفه الى حوض ماء أوتربة رطبة لاتجف ويكون طرفه الأعلى عاليا عن الدار ويجب أن يكون على كل بناء فى تلك المنازل المعرّضة للصواعق قضيب للصاعقة وأن توصل المداخن التى فيها إما بأرض رطبة وإما بقضيب الصاعقة وأن تصل ميازيب الماء المعدنية وسطوح التوتيا ونحوها بأرض رطبة كذلك أو بقضيب الصاعقة لشدّة تعرّضها للصواعق • وهذا القضيب يراد به موازنة الكهربائية فى السحاب والأرض مع السلامة من الخطر • والأسلم لمن لم يكن فى بيته قضيب كذلك أن يكون فى وسط الغرفة • واذا كان فى الفلاة وجب أن لايلتصق بالأشجار العالية ولايبتعد عنها كثيرا لأنها تقيه كما يقيه قضيب الصاعقة فى حال بعده المتوسط ثم ان كل ورقة من أوراق العشب الدقيقة الرأس تفرغ من كهربائية الماء أكثر من ثلاثة أضعاف ماتفرغه أدق الابر وكل برعوم دقيق الرأس يفرغ من الكهربائية أكثر من أحسن القضبان التى جعلها الناس للصواعق وكل نقطة من المطر وكل قطعة من الثلج تنزل الى الأرض محملة كهربائية تسلبها من الجلد والسحاب • وقد يرى لهب نارى على رؤس السوارى وأسنة الرماح وآذان الخيل وماذلك إلا كهربائية أفلتت من الأرض افلاتا اهـ

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ــ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ــ ﴾

ذكر الله فى هذه السورة البرق والرعد والصواعق • الرعد صوت والبرق نور والصواعق نار فلنشرح هذا المقام شرحا يسرّ المفكرين • اعلم أيها الذكى أن العالم الذى نعيش فيه مملوء جمالا و بهاء وحكمة وصنعة مدهشة باهرة تترقرق سناء وبهجة للناظرين • ماهى الحرارة وماهو الضوء • ماهما إلا أمر واحد • ضع قطعة من البلاتين فى النار فانك تحس أوّلا بحرارتها ولالون لها ثم تشاهد لون الحمرة فالبرتقالية فالصفرة فالخضرة وهكذا الى لون البنفسجية • هذا مايحصل فى البلاتين اذا وضع فى النار وهكذا الحديد وغيره • عجب عجاب • حرارة تكون أوّلا فضوء يتدرج من الأدنى الى الأعلى فالأحمر أدنى والبنفسجى أعلى • هذا هو قوس قزح بعينه • وهذا هو قوله تعالى ــ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ــ التى سيأتى تفسيرها فى سورة الملك • والبرهان العملى الطبيعى هناك على أن عناصر الأرض وعناصر الشمس وغيرها واحدة بسبب الخطوط السوداء التى كشفها (فرنهوفر) تلك الخطوط التى تظهر فى طيف الشمس وتظهر فى طيف المعادن الملتهبة فكل معدن تشابه خطه بما يرى فى الطيف الشمسى فذلك المعدن فى الشمس وهكذا بقية

الاجرام

الأجرام العلوية . هذا هو الذى ستراه ان شاء الله فى سورة تبارك الملك مع العملية المبرهنة عليه وترى أثر ذلك أيضا فى سورة الاسراء عند ذكر المعراج وأنه ﷺ باسرائه وعروجه الى الملأ الأعلى ونظره فى عوالم عند سدرة المنتهى لايقدر أحد من خلق الله أن يصفها . قد سنّ للمسلمين الذين سيكونون بعدنا سنة حسنة وهى أن يدرسوا هذا الوجود مفكرين كما كان يدرس العوالم فى اسرائه ومعراجه مفكرا باحثا منقبا وكيف يقطع نبىّ أمّة عوالم السماء معراجا وتابعوه ساهون لاهون لايدرسون ماعرفته الأمم حولهم من تلك العوالم العالية فضلا عن أنهم يفوقون سائر الأمم فى ذلك . نبىّ يقطع السموات سفرا فى عروجه والأمم التابعة له لاصقون بالأرض لاينظرون مافوقهم ولاماحولهم . هذا عجب عجاب . فههنا هذه المسألة وهى الحرارة . أنظر وتعجب من حديدة محماة كيف كانت حرارة أوّلا فنورا ثانيا متدرجا من الحمرة الى البنفسجية

جلّ الله . هذا قوس قزح أقلّ ألوانه الحمرة وأعلاها البنفسجية أى ان اهتزاز الأثير المالئ لهذا الوجود ان تحرّك نيفا و (٧٠٠) ألف ألف ألف ألف مرّة فى الثانية يكون هو اللون البنفسجى واهتزاز ذلك الأثير فى الثانية نيفا و (٤٠٠) ألف ألف ألف ألف مرة يكون لون الحمرة ومابينهما النيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى . هاهوذا اللون قد تشابه فى الحديدة المحماة وغيرها وفى قوس قزح . خلق الله قوس قزح فى السماء وبسط فيه الألوان السبعة وقال للناس هذا كتابى فاقرؤه كتاب كتبته بيدى وشرحته وبسطته هاأناذا أيها المسلمون أبنت لكم الألوان السبعة فى هذا القوس وجعلت ماتزاولونه من أعمال الحرارة جاريا على هذا النمط لتفهموا ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ فالعالم كله على وتيرة واحدة . أعلاه كأدناه وصغيره ككبيره . ألا ترون أن الذرّة الواحدة مركبة من جزئيات تدور حول بعضها دوران السيارات حول الشمس

﴿ الصوت والحرارة والنور ﴾

هذه الثلاثة ترجع الى الحركات فحركات الهواء اذا اشتدّت صارت عواصف وحركات الأثير اذا اشتدّت كانت لون البنفسجى واذا قلت كانت لون الحمرة واذا اشتدّت الحرارة كانت محرقة أوانخفضت كانت هادئة

إذن ماعندنا من صوت ومن نار ومن لون كل ذلك حركات . إذن عالمنا الذى نعيش فيه للحركة فيه أكبر أثر فعال

﴿ مم تكون الحرارة ﴾

تصوّر أيها الذكى رجلا يطرق حديدة وآخر يوقد النار فى الحطب وهما معا واقفان فى حرارة القيظ وهما يتلظيان بحرارة الشمس فههنا حرارة الشمس وحرارة (ميخانيكيه) عند الفرنجة أو (حيليه) عند قدمائنا نسبة الى فن الحيل وذلك بالاحتكاك أوالطرق أوالضغط وحرارة (كيماوية)

(١) أما حرارة الشمس فهى المسماة (طبيعية) إن الشمس وسائر النجوم ترسل لنا حرارة على الأرض ومعنى ذلك أن أجزاءها بشدّة حركاتها تؤثر فى عالم الأثير فيتحرّك فتصل حركاته الى الأرض فنحسّ نحن بحرارة وماعلا من تلك الحركات نحسّ بهالونا واجتماع الألوان السبعة هولونا نور يا الشمس وألوان النجوم . والشمس ترسل لنا جزأ يسيرا جدّا يصل الى واحد من ألفى ألف ألف من حرارتها وجميع الكواكب يصل لنا من حرارتها أربعة أخماس مايصل من حرارة الشمس

(٢) وأما الحرارة الميخانيكية فهى الحاصلة كما تقدم بأحد الامور الثلاثة وهى فى مثالنا حاصلة بالطرق الحاصل على الحديدة وذلك الطرق نشأ منه حركات والحركات صارت حرارة والحرارة بالاحتكاك معروفة فى القدح بالزناد عند عرب البادية ومثل ذلك الضغط

(٣) وأما الحرارة الكيمائية فهى الحاصلة من اتحاد جسم بآخر بينهما ألفة . مثال ذلك ما تقدم من

اشتعال النار فى الحطب . وماهو الاشتعال . ان هو إلا (أوكسوجين) الهواء قد لامس (الهيدروجين) و (الكربون) اللذين فى الوقود لما بينه وبينهما من الألفة فتراه يهجم عليهما ويهجمان عليه ويصطدم الفريقان وتهتز دقائقهما ويهتز الأثير الذى حولهما فيتموّج أمواجا كثيرة تكون حرارة وتكون نورا . وماحرارة أجسام الحيوان إلا من هذا القبيل يستنشق النسمات وفيها الأكسوجين وهذا الأكسوجين يجد أمامه حبيبيه وهما (الهيدروجين والكربون) فيهجم ويهجمان ونعيش نحن بهذه المعركة أى نعيش بالحرارة الناجمة من التقاء الأحباب سواء أكان التقاء أولئك فى أجسامنا أم خارجها . فلنرجع الى مافى الآية نجد ذكر الصاعقة والبرق والرعد فالأوّلان حركات فى الأثير والثالث حركات فى الهواء . الصاعقة نار مهلكة ارتفعت حرارتها بوفرة الاهتزاز والبرق نور والحرارة والنور يرجعان لسبب واحد هى الحركات فى الأثير

ثم إن هذه الظواهر ينقلب بعضها الى بعض . فكل من الحركة والحرارة والضوء والكهرباء ينقلب بعضها الى بعض . ولو أن أرضنا صدمها كوكب فوقفت بغتة عن حركتها لتولد منها حرارة تحوّلها هى وما حولها بخارا . ذلك لأن سرعة دورانها فى فلكها حول الشمس لايقل فى الدقيقة عن ألف ميل بل هى فى الساعة تجرى فوق (٦٨) ألف ميل فتى وقفت فجأة تحوّلت كل هذه الحركة الى حرارة فجعلتها بخارا

﴿ الحب نظام هذا العالم ﴾

يظهر لى أن الحب هو الناموس العام فى هذا الوجود

(١) هجم الاكسوجين على الاودروجين والكربون فى الحطب فاتقدنارا فكان منها كل مانصنع فى منازلنا وسائر أعمالنا

(٢) هجم الاكسوجين أيضا على الاودروجين وحده بنسبة (٨) من الأوّل وزنا الى واحد فى الثانى فتكوّن الماء . الماء هو (أكسوجين وأودروجين) تعاشقا وتحابا فاتحدا فكان منهما الماء

(٣) هجم الاكسوجين من الهواء على أخويه فى كل حيوان وكل نبات بالشهيق فكان كل حيوان وكل نبات

(٤) هكذا نرى كل حيوان وكل نبات تحاب ذكرانه واناثه كما نشاهد فى تحاب الاكسوجين لأخويه فكما نجم من اتحاد الاكسوجين بأخويه النار والماء وكل حيوان ونبات . هكذا نجم من اتحاد الذكران بالاناث كل نبات وحيوان من حيث التولد . ولعمرى أى فارقة بين اشتعال النار بذلك الاتحاد وبين ظهور الذرّية وصغار النبات بتقارب وتجانس الذكران والاناث

الله أكبر إن هذا الوجود كله حب وكله جمال لاحياة فى أرضنا إلا بالحب أو بما أشبه الحب . لولا تعاشق الاكسوجين والاودروجين ماكان هذا الماء الذى هو حياة كل حى * وفى الحديث ﴿ إن كل أم يتبعها ولدها ﴾ . أمّا هذه العوالم التى نعيش فيها والعوالم التى نعيش فيها لاوجود لها إلا بما يوجب الاتحاد . حياة الماء وحياة النار بسبب التفاعل الموجب الاتحاد . هاهوذا الماء عاش فى أرضنا وجرى فى سحابنا وفى أنهارنا وهو يدور كدورة الأفلاك . كل ذلك بما فيه من سرّ الاتحاد بين جزأيه المتحابين (حبا مجازيا)

هكذا . هكذا تكون حياة الأمم فى الأرض . لاترقى الأمم إلا برجال يظهرون فيها يعشقون العلوم والفضائل . لولا الحب الذى يملأ أفئدة الحكماء ماتعلموا ولاصنفوا لأممهم حرفا واحدا . لولا الحب الجم الذى فى أفئدة الأنبياء لله وللعلم ولأممهم ماعلموا ولا أفادوا ولا كانت لهم أمم . ليست ترقى الشعوب إلا بحرارة المحبة السارية فى أفئدة شبانها للعلم وللرقى الملتهبة فى قلوب قادتها . تجانس الاكسوجين والاودروجين فاتحدا فكان ماء وهذا الماء حياة كل حى . هذه نفسها صفة العقول الانسانية المحبة للعلم . أوّل الفلسفة حب العلم . وأوسطها تحصيله . ونهايتها حب الله . إن الحب الانسانى شائع بين جميع الناس وحب العلم يختص

بالعلماء

بالعلماء وحبّ الله أعلى فهو أخصّ الجميع وكل حبّ متقدمة لما بعده وأقل درجة منه • أنظر كيف كان الحبّ سائرا فى سبيل واحد لايحيد عنه جرى مع جزأى الماء ومع عناصر النار ومع أنواع الحيوان وارتقى فكان مع الفلاسفة ومع الأنبياء

يظهر أن هذه الأنفس الانسانية خلقت لأمور رفيعة جدّا وشريفة • إنى أرى أن صانع هذا العالم جعله على نمط واحد وهو الحبّ العام وأولى بالحب هذه النفوس الانسانية هى أولى به وأولى • وربما تكون هذه الأنفس يوما ما فى عوالم أرقى وأرقى فيكون بينها اتحاد كاتحاد الاكسوجين والاودروجين • هذان اتحدا فكوّنا ماء فكان به حياة كل حىّ • فلعل أرواح هذا الانسان أى الأبرار منها يوما ما ستكون على هذا الاتحاد السارى فى الماء وفى النار وسيكون لها هناك لذات وأعمال لانعقلها الان ويكون رأى الواحد رأى الجميع ولذلك الاشارة بقوله تعالى ـ ونزعنا مافى صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين * لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين ـ * وفى الحديث ﴿ أنت مع من أحببت ﴾ وفى الآية ـ أولئك مع الذين أنعم الله عليهم الخ ـ فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم هم المتحابون فى الله • إذن الحبّ نبراس هذا العالم • به ركبت المركبات وبه كانت النار وكان الماء وبه كان الحيوان والنبات وبه كان العلم والعلماء وبه كان الوحى على الأنبياء والحبّ حرارة أيضا والعلم حركات الذهن • الحب نظام العالم • بالحب كانت هذه الجاذبية العامّة وبالحب كان التلاصق فى أجزاء الحديد والذهب وكل جامد • بالحب قامت السموات والأرض • نظام هذا العالم هى المحبة • لذلك نسمع المسلم فى صلاته يقول ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ ولايقول اهدنى • ويقول اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت وتولنى فيمن توليت وتسمعه يقرأ ـ إياك نعبد ـ ولايقول إياك أعبد وتسمعه يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ويصلى على الأنبياء والمرسلين ولا يقول السلام علىّ

الله أكبر لاحياة للناس إلا باجتماعهم ولاخير فى اجتماعهم اذا لم يكن حب يشملهم • لهذا شرعت الجمعة وشرعت الجماعة وشرع العيد وشرعت الصدقات ليتحابّ الأغنياء والفقراء ويقول تعالى ـ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ

الدين يطلب هذا والعقل كذلك إذ لايعيش الناس إلا بمساعدة بعضهم بعضا وهذا معنى قول الحكماء ﴿ الانسان مدنى بالطبع ﴾ . رجع أمر الانسان الى حال الماء الناشئ من الاتحاد وهكذا النار وهكذا سائر المركبات • وهذا معنى قوله تعالى ـ إن ربى على صراط مستقيم ـ انتهى

﴿ بهجة الحكمة فى هذه الآيات وقوله تعالى ـ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ـ
ولم سميت السورة بالرعد ﴾

اعلم أن السحاب كانسان تبسم ثم تكلم • تبسم بالبرق وتكلم بالرعد • وانما المشكل فى هذا المقام التسبيح والتحميد وهنا لاتسبيح ولاتحميد إذ لا يكونان إلا من العقلاء • والجواب عن ذلك أن تنظر أيها الذكى مامضى فى سورة هود فى الاستطراد بذكر قوله تعالى ـ وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ـ عند تفسير قوله تعالى ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ ـ فقد استبان هناك أن لكل حيوان لونا خاصا وهذا اللون هو الوقاية الحافظة له • فاذا رأيت حشرة على لون زرق الطيور فذلك لم يكن لاذلالها ولا لاهانتها وانما ذلك لحمايتها من نفس تلك الطيور إذ تراها فتعافها لأنها ظهرت لها بهيئة زرقها وهى جاثمة على الشجرة فما دامت تلك الحشرة جاثمة على الشجرة فكأنما هى من طير الحرم حرم الله صيدها تحريما طبيعيا لادينيا فههنا تنزيه الله عن العبث فى وضع هذا اللون وعن قصد التحقير • وبنفس هذا الوضع عاش هذا المخلوق وحياته نعمة تستوجب الحمد فههنا تنزيه ملتبس بحمد • هذا هو التسبيح والتحميد وهذا مثال من أمثلة كثيرة تقدّم ذكرها هناك فارجع اليها • واعلم أن تسبيح كل شئ بحسبه فاذا كان هذا

تسبيح الطيور وقد شرح فى سورة هود بأبهج طريق وأبدع منهج فما تسبيح الرعد . أقول إن التسبيح والتحميد هنا إيضاح لقوله تعالى ـ هوالذى يريكم البرق خوفا وطمعا ـ وذلك أن هـذا العالم الذى نعيش فيه عالم طبيعى والعالم الطبيعى امتزج خيره بشره وضرّه بنفعه . فاذا كان المطر نافعا فهو ضار . واذا كان خيرا فهو شرّ وليس هذا قاصرا على المطر فالمال والبنون وجميع أحوال هذه الحياة فيها الأمران قد امتزجا ولكن الخير أكثر من الشرّ والنفع أكثر من الضرّ . فاذا رأينا المطر يخيف الناس بالصواعق و يؤذى أهل المدن ونحو ذلك فله منافع معروفة تربو على شروره وهكذا النار والهواء وكل عالم المادّة هذا حكمه . فاذا كان الرعد مخيفا لقوم فهو مطمع لآخرين ولكن الطمع أوسع نطاقا من الخوف

فاذا أخاف الله عزّ وجل بالرعد المنذر بالمطر فهذا ضرّ قليل يغتفر فى جانب النفع الكثير والحكيم لايترك النفع الكثير لقليل الضرّ وهذا هو قوله تعالى ـ فلله الحجة البالغة فلوشاء لهدا كم أجعين ـ

أنت يأالله محمود على المطر وان كان فيه ضرر . ههنا امتزج التسبيح بالتحميد . تنزّه الله عن ارادة السوء والضرّ بالمطر الذى أنزله نعمة عامّة فهو ضرّ جاء تابعا لامقصودا لذاته ولكن لامحيص عنـه وافلات المخلوقات من هذا الضرّ معناه اهلاكهم . إذن الله تنزّه عن فعل الضرّ وذلك التنزيه ملتبس بنعمة توجب الحمد . هذا مافتح الله به فى معنى تسبيح الرعد وتحميده كأنه قيل . لم أخافنا الله بالمطر وهو المطموع فيه لأنه نعمة ولم لم يكن عالمنا كله رجاء لاخوف معه فقال هنا ـ ويسبح الرعد بحمده ـ اشارة الى أن لله الحجة البالغة وأن الله منزّه عن خلق السموات والأرض ومابينهما باطلا لأن ذلك ظنّ الذين يكفرون بالنعم لجهلهم أصولها وعلومها ولم يدرسوا أصول الحكمة فان ماهو شرّ أوماغلب شرّه لاظهور له فى الوجود وماهو خير محض أوماغلب خيره هما الموجودان وهذا العالم الطبيعى من هذا الأخير فاما أن يخلق على هذه الحال واما أن يبقى فى حيز العدم . إذن الله بهـذا البرهان العقلى المذكور فى اشارات ابن سينا وشرحه اجمالا هناك أفادنا معنى التسبيح الممتزج بالتحميد والحمد لله الذى علمنا وشرح صدورنا وأرانا بعض حكمه وله الحمد فى الآخرة والأولى وهو الولىّ الحميد

﴿ تسبيح الرعد وتحميده ﴾

سبح الرعد وسبح لله مافى السموات والأرض ـ يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ـ ـ ألم تر أنّ الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه ـ . ـ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وان من شئ إلا يسبح بحمده ـ

هذه الجمل وهذا النموذج لم ترد فى كلام العرب . نعم سمعنا هذه الجملة فى قول الشاعر

* سبحان من علقمة الفاجر * هذا هو التسبيح الذى نطق به العرب وهو تسبيح فى باب الشتم والذم لاجمال فيه ولا كمال . المسلمون يسبحون ويحمدون فالأوّل فى الركوع والسجود وعقب الصلوات والثانى فى الفاتحة وعقب كل صلاة وهذا التسبيح إما بلفظ بلاحضور معنى وهذا لافائدة منه واما مع حضور المعنى وهذا نافع للتعبد ولنفس الانسان وحده واما مع العمل بالمعنى وهذا الأخير هو شأن العارفين والعلماء العاملين وقادة الأمم الاسلامية المفكرين

يقول المسلم . هاأناذا أسمع أن نبينا ﷺ بشره ابراهيم بأن غراس الجنة سبحان الله والحمد لله الخ وذلك فى نهاية عروجه فى السماء . الصلاة تسبيح وتحميد و بشارة الخليل للأمّة تسبيح وتحميد . ماهذا كله ومائمرته . ثمرة هذا كله لاظهور لها إلا بالعلم

﴿ بم يكون العلم ﴾

يكون بفهم نظام هذا العالم من السحاب والسماء والأرض . هذه كلها مسبحات . انك عند البحث

ترى شرّها لم يكن مقصودا لذاته كما تقدّم هنا وفى سور كثيرة من أهمها (آل عمران) عند قوله تعالى ـ بيدك الخير ـ . السحاب يبسم بالبرق وينذر بالرعد وانذاره بالرعد سمى تسبيحا . وانما خص الرعد باسم التسبيح لأنه صوت والتسبيح يكون بلفظ واللفظ صوت . بماذا أنذر الرعد . أنذر بقرب هطول المطر لنستعدّ له . المطر خير وشرّ وشرّه قد اغتفر بالبرهان المقدّم . إذن الله منزّه عن خلق الشرّ مقصودا لذاته ولو أنه منعه لم يكن هذا الوجود . إن مسألة الشرّ والخير هى أوّل العلم وهى آخره . هناك دين الفرس بنى على إلهين إله الخير وإله الشرّ وإله الخير غلب إله الشرّ الذى خلق الظلمة وجميع الشرور . هذه المسألة عقدة العقد . هى لغز الحياة . كيف يكون الله أرحم الراحمين ويخلق الآلام والنقص . بهذه المسألة ضلّ قوم فنبذوا كل دين وعاشوا ملحدين . والمانوية اعتقدوا إلهين غلب إله الخير إله الشرّ كما تقدّم . والدين الاسلامى جاء بأمر جديد فقال إن الله منزّه عن كل مالايليق وما الشرّ إلا أمر لازم للخير ولو حذفناه لحذف ذلك الخير . الناس يعيشون على هذه الأرض فى ألم اذا كانوا مفكرين ماداموا لم يعقلوا لم وجد هذا الشرّ ولم نبتلى به والمؤمن يسبح ويعتقد التنزيه بمجرّد الايمان ولكن اليقين لا يكون إلا بالعلم كما فى هذا التفسير الذى جمعت لك فيه لبّ الفلسفة القديمة والحديثة . تسبيح الرعد وتسبيح كل مخلوق لايعقله إلا أولو الألباب بالحكمة والعلم . للرعد تسبيح علمى للعقلاء بل هو مخ التسبيح . واذا سبح الانسان ربه وهو ذكى ثم هو ترك هذه المخلوقات التى حوله فلم يعقلها ولم يدر لم خلق شرّها مع خيرها فمثل هذا لاينزّه ربه بقلبه ألبتة بل يقول هذا العالم مملوء شرا لاحكمة فيه يقولها بقلبه وان لم ينطق لسانه

﴿ ماذا يقول الرعد ﴾

يقول . المطر أقبل بخيره وشرّه فاحترسوا من شرّه . هذه المعانى يفهمها الناس فاما أنهم يفهمون أن هذا الشرّ من لوازم الخير ولو استأصلنا الأوّل حرمنا من الثانى . فهذا المعنى لايدركه إلا حكماء الناس فى هذه الأرض . ولاجرم أن هذا المعنى تسبيح ملتبس بحمد فالخير محمود عليه والشرّ قد نزّه الله عنه

وهذا هو ماجاء فى ديننا أن نؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله مع أنه رحمن رحيم ومن تحقق هذا أى الجمع بين خلق الشرّ مع وصف الرحمة فهو من الموقنين . إذن كل العالم مسبح بحمد الله ولا كمال لتسبيح الناس إلا بتفهم تسبيح الرعد والسموات والأرض وان كان فهم الحقيقة على ماهى عليه مستحيلا علينا فى الأرض فقوله تعالى ـ لاتفقهون تسبيحهم ـ أى على حقيقته فأما فهمه كما قلناه فهذا هو المناسب لعقولنا ولانقدر على أكثر منه . المسلمون يسبحون باللفظ ومعناه القريب ولكن لا كمال لهم إلا بدراسة هذا النظام وفهم الخير والشرّ والاقتناع بأن الشرّ تابع لا أصل . فهذا هو تسبيح الرعد وتسبيح مافى السموات والأرض وتسبيح الطير وقد تقدّم فى سورة هود تسبيح الطيور المختلفة فراجعها فهناك عجب والحمد لله ربّ العالمين . انتهى

ستة عشر مليون عاصفة

﴿ الرعود والبروق فى العالم ﴾

اقتطفت من بعض المجلات العلمية الصادرة فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٦ مايأتى باختصار وحذفت مالايلزم

لو أتيح للمرء أن يراقب الفضاء ويحصى عواصف البروق والرعود التى تقع فيه لرأى أنها لاتقلّ عن ستة عشر مليون عاصفة فى العام أو نحو (٤٤) ألفا فى اليوم والاحصاآت الدقيقة التى أجراها العلماء فى جميع أقطار العالم تدل على أن الرقم الذى ذكرناه ليس فيه مبالغة على الاطلاق . وقد ذكر الاستاذ (تلمان) مدير الأرصاد الجوّية فى حكومة الولايات المتحدة أن العلماء لم يوفقوا الى احصاء عدد تلك العواصف فقط بل

الى رصد مداها وشدتها أيضا وقد أعدّوا لها رسوما بيانية تدل على الأزمنة والأمكنة التى تكثر فيها تلك العواصف أوتقل • ولوعلم الانسان بكمية القوّة الكهربائية التى تذهب ضياعا فى الجوّ كلما حدثت عاصفة منها لأدهشه اسراف الطبيعة وتبذيرها إذ يؤخذ من الأرصاد التى جمعها العلماء أن تلك الكهربائية تكفى لانارة نحوستة ملايين منزل أى انه كلما أومضت البروق فى الجوّ وأعقبتها رعود ذهب من القوّة الكهربائية ما يكفى لانارة نحو عشر مدن كمدينة لندن • كل ذلك يذهب فى الظاهر ضياعا ويدل على اسراف الطبيعة الى حدّ مفرط • ولايخفى أن البروق والرعود تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع جدّا وكثيرا ماينشأ عنها أضرار بليغة كما حدث أخيرا فى الترسانة البحرية بمدينة (نيوجرزى) بأمريكا فان صاعقة انقضت من الجوّ والتهمت تلك الترسانة وأهلكت أنفسا عديدة • وحدث قبل تلك الصاعقة ببضعة أيام أن صاعقة أخرى انقضت على بعض آبار الزيت فى (كاليفورنيا) فالتهمتها وكانت الخسارة نحو عشرة ملايين دولار

ومما يجدر بالذكر أن الصواعق لاتكتفى بأمثال الأضرار التى ذكرناها بل كثيرا ماتنقض على الأحراش والغابات فتحرقها ولاتبقى منها إلا الأثر • نعم ان الأمر يدعو الى أشدّ الأسف ولكنها أى الطبيعة تهدم اليوم مابنته بالأمس وتخرب فى لحظة ما أقامته فى الالوف من السنين • وفى الواقع أن فى الولايات المتحدة الأمريكية أراضى كثيرة كانت بالأمس مكسوّة بالغابات والأحراش وهى اليوم بلقع قفر لأن الصواعق أتلفت كل مافيها من شجر أونبات • ثم ان الرعود والبروق كثيرا ماتصحبها أعاصير تحدث من الاضرار مالايقل عن اضرار البروق والرعود نفسها ولاسيما فى البحر وكثيرا ماتنتاب الطيارات فى الفضاء فتصعقها كما حدث للطيارة (شنندوه) الأمريكية منذ عهد قريب • وقد تعترض أمواج الكهربائية اللاسلكية أيضا فتعطلها أوتوقفها عن العمل وقد يظلم الجوّ بسببها فتضطر الآلات التى تولد النور الكهربائى الى مضاعفة جهدها وفى ذلك زيادة فى الانفاق كما لايخفى • وقد قدّر العلماء الأضرار التى تنجم عن عواصف الرعود والبروق فاذا هى لاتقل عن مائتى مليون دولار أوأربعين مليون جنيه فى العام • على أن لتلك العواصف بازاء اضرارها منافع كبيرة فهى السبب فى هطل الأمطار الغزيرة التى تروى الأراضى القاحلة وتساعد على انماء المزروعات وهى السبب أيضا فى (نترجة) الهواء أى اشباعه بالنتروجين بحيث يصبح سمادا للتربة • وقد قدّر أحد العلماء الفرنسيين ثمن السماد النتروجينى الذى ينشأ عن عواصف البروق والرعود فى بلاد الهند الصينية وحدها فاذا هو نحو أربعة ملايين جنيه فى العام • فاذا كان انتفاع الهند الصينية بسماد يبلغ أربعة ملايين من الجنيهات فما بالك بالهند نفسها ومابالك بالصين ومابالك بالعالم كله • فاذن ينتفع الناس بمئات الملايين بسبب الرعد والبرق فالضرر من قوله تعالى ـ خوفا ـ والنفع يرجع لقوله ـ وطمعا ـ والضرر والنفع بالرعد والبرق جار على القاعدة العامّة فى هذا العالم • إن النفع أكثر من الضرر فى الماء والهواء والأرض والحيوان والانسان قال تعالى ـ وماكنا عن الخلق غافلين ـ وهذه قاعدة عامّة فى الحرب والسلم والموت والحياة وهكذا اهـ

﴿ اللطيفة الحادية عشرة فى قوله تعالى ـ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال ـ ﴾

يناسب هذه الآية قوله تعالى ـ وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ـ الى قوله تعالى ـ وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله ـ وأيضا ـ والله جعل لكم مما خلق ظلالا * وجعل لكم من الجبال أكنانا ـ الى قوله ـ وأكثرهم الكافرون ـ وقوله ـ ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولوشاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا ـ وقوله ـ اولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ـ وقوله ـ ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون ـ

ترى من هذه الآيات أن القرآن كرر ذكر الظلال وسجودها ولقد شرحت هـذا المقام شرحا وافيا فى كتاب ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ ولونقلته هنا لطال بنا المقام فلأختصر ذلك اختصارا ولأكتف به فى آيات الظلال الآتيـة . إن الشمس كما علمت حسابها منتظم وجميع ظلال الأشجار تبع لها فهى بحساب منتظم أيضا فلن ترى من شجرة صغيرة ولا كبيرة ولا شاخص إلا وله حساب منتظم تمام الانتظام تابع لحساب الشمس

ولقد عرف هذا الفلاحون وأهل البدو فجعلوا أعمالهم على حسب الظلال . ولقداستعمل علماء الفلك نفس هذا الظل فى معرفة مقدار الزاوية التى بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدل المسمى ميل الدائرة الكسوفية وذلك أنهم نصبوا شاخصا فى الأرض فى محل مستو مكشوف ونظروا ظله فى يوم المنقلب الصيفى وقد تقدم فى هذا التفسير وفى يوم المنقلب الشتوى وقد تقدم أيضا وقاسوا فى هذين اليومين أعظم ارتفاع زاوى للشمس

وتوضيحه أن الشاخص يعتبرونه ضلع مثلث وقياسه ممكن وظله على الأرض ضلع آخر والخط الواصل من نهاية الظل ورأس الشاخص الذى هو وتر المثلث المقابل للزاوية القائمة ضلعه الثالث . فالزاوية المنحصرة بين وتر المثلث والضلع الذى رسمه الظل هى الدالة على البعد الزاوى للشمس وهـذه الزاوية كلما قصر الظل كبرت وكلما طال صغرت كما هو مبرهن عليـه فى الهندسة . فاذا راقبت ظل الشاخص فنهاية قصره يكون هناك أعظم ارتفاع للشمس . واذن علم من المثلث ضلعاه والزاوية المنحصرة بينهـما فيمكن رسم ومقاس تلك الزاوية الدالة على ارتفاع الشمس بكل سهولة على الورق بالرق المشهور فى الهندسة أو بغيره وتصنع هكذا فى يومى المنقلبين الشتوى والصيفى وتقسم الفرق بين هـذين الارتفاعين فيكون ذلك النصف هو الزاوية الواقعة بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدل . ويمكنك أيضا أن ترسم خطا بين هاتين النقطتين اللتين وصل اليهما الظل فى يومى الانقلابين فذلك الخط هو نصف نهار ذلك المحل وحينئذ متى جاء ظل الشاخص عليه أى يوم من أيام السنة كان وقت الظهر مدى العمر كله . أفلا تعجب كيف أمكن الانسان بشاخص بسيط أن يعرف أوقاته وأن يحكم على الشمس فى السماء و يعين درجاتها . نعم نعم هذا من آيات الله

﴿ حكاية مصرية فى الظلال ﴾

كان رجل يسمى (أراتوستنس) فلكيا عظيما ولد فى القيروان سنة (٢٧٦) قبل المسيح وقد تعلم فى الاسكندرية وفى أثينا ودعى للاسكندرية سنة (٢٣٤) قبل الميلاد وعاش فيها الى أن مات سنة (١٩٤) قبل الميلاد . هذا العلامة لما علم أن الشمس عمودية فوق الأرض عند مدينة (اسوان) فى آخر القطر المصرى جنوبا وذلك فى وقت الانقلاب الصيفى وراقب عمودا هناك فى ذلك الوقت فاذا هو لاظل له طبعا فنصب عمودا بالاسكندرية فوجد له ظلا شماليا فى تلك الدقيقة الانقلابية فرسم خطا من أعلى هـذا العمود الى طرف ظله فحدثت الزاوية التى تكون بينه و بين الظل سبع درجات وخمس درجـة وقد تقدم بقية هذا الموضوع فى أول سورة يونس فراجعه وهذا العمل اشبه بما فعله المأمون بعده بأربعة قرون فى هذا العمل وهو معرفة الدرجات كما فى جغرافية أبى الفداء المسماة ﴿ تقويم البلدان ﴾ قال ان بطليموس صاحب المجسطى وغيره وجدوا حصة الدرجة الواحدة من الدائرة العظيمة المتوهمة على الأرض (٦٦) ميلا وثلثى ميل ثم حققوها فى عهد المأمون وحضروا فى برية سنجار ببلاد مابين النهرين وافترقوا فرقتين بعد أن حرروا ارتفاع القطب ففرقة أخذت تتجه جهة القطب الشمالى وأخرى جهة القطب الجنوبى فانحط هؤلاء درجة وهؤلاء زاد عندهم درجة فكان (٥٦) ميلا مع احداهما بغير كسر ومع الثانية (٥٦) ميلا وثلثى ميل فأخذ بالاولى (٥٦) ميلا وقد عمل ذلك العمل مرة أخرى ببلاد الشام بين تدمر والفرات . فانظر كيف قام الظل فى ذلك مقام ارتفاع الشمس وقامت زاويتـه مقام معرفة ارتفاعها القطب . فاذا سمعت قول الله تعالى ــ وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ــ فتأمل تر أنه تعالى جعل الشمس

وظلالها لهما حساب معين لايتغير ولذلك قال بعدها ـ ذلك من آيات الله ـ ولاترى من حائط أوعماد أوخشبة منصوبة أوشجرة أوجسر أوجبل أوصخرة أوحجر فى سهل ولا انسان أوحيوان إلا ولكل من ظلالها حساب كحساب الشمس ـ ولله يسجد الخ ـ ومعلوم أن السجود هو الانقياد فلما سجد مافى السموات والأرض سجدت ظلالها ولولا ذلك لم يمكن الاستدلال بالظلال ولا بالمزاول على سير الشمس ومعرفة انتقالها

هذا ملخص من كتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ مع زيادات عليه . ثم جاء فيه بعدذلك موضوع عنوانه ﴿ غفلة العقلاء عن النظر فى ظلال الأشجار ﴾ وجاء فى ذلك ماملخصه أن الانسان يجلس تحت الأشجار فى البساتين النضرة والجمال الباهر والظل وارف والغصن مزهر ولايفكر فى أمر الظلال ولايقرأ قوله تعالى ـ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ـ الى قوله ـ وأكثرهم الكافرون ـ وجاء فيه أيضا . ان من حكم الظل أن الناس اذا سئموا من الشمس لجؤا الى الظل فنجوا من الحرارة وهذه هى الأقسام الثلاثة نور وظلمة وظل . وكما جعل الله الليل لباسا بظلمته والنهار مبصرا بنوره جعل الظل ملجأ من الحر وقوله تعالى ـ ألم تر الى ربك كيف مد الظل ـ أى ألاتنظر الى صنع ربك كيف مد الظل و بسطه مع أنه قادر على سكونه ووقوف حركته بأن تقف الشمس التى هى الدليل عليه والمحركة له والمادة له يمينا و يسارا . فنحن جعلناها دليلا عليه تدل عبادنا بحركاتها المنظمة المعروفة للناس على سطح الأرض ليرتبوا أعمالهم فى نهارهم وأوقات فراغهم وراحتهم من شغلهم على أوقات ذلك الظل فلاترى رجلا ولا امرأة ولاصغيرا ولا كبيرا إلا وهم ينتظرون الاستظلال فى محل كن لاسيما القفار و بلاد الفلاحين وعند الأعراب . فكل هؤلاء لايمكنهم الراحة والجد فى العمل إلا بنظرهم فى أمر الظل لراحتهم هم وأنعامهم ولولا سير الشمس بحساب ما أمكنهم أن يستدلوا على مواقع الظل قبل مجيئها ـ إن ربكم لرؤف رحيم ـ

وجاء فى الكتاب بعد هذا تحت عنوان ﴿ غريبة وعجيبة ﴾ ان هذه الآية ـ إن ربكم لرؤف رحيم ـ قد جاءت كتابتها عفوا ولم يكن فى ذكرى ان بعدها قوله تعالى ـ أولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ـ . يقول الله أغفل أولئك الجاهلون ولم يروا ماخلقنا من الأجرام ذات الظلال تميل ظلالها عن الأيمان تارة وعن الشمائل تارة أخرى وتلك الأجرام خاضعة لنا جارية على النواميس التى سنناها وهم صاغرون الخ . ثم قلت هناك بعد كلام . ولقد أطنبت فى مسألة الظلال لأنى كنت أرى فى نفسى شائقا لا أدرى ماهو وأتأمل فى هذه الظلال وأقول فى نفسى لعل لهذه حسابا . و ياليت شعرى كيف يكون ذلك الحساب وعلى ماذا يدل ومانظامه وكنت أجد فى القلب حرارة وشوقا ولا أدرى كيف السبيل اليه ولا أى علم يدل عليه فى ابتداء مجاورتى بالجامع الأزهر

ثم ذكرت بعد ذلك أن الظلال أضبط فى معرفة الوقت من ساعات الجيب وأن كل شجر وحجر ونبت وشخص وجبل و بالجملة كل ماله ظل يدل ظله على جميع الأوقات أفضل من ساعات الجيب ولكن معرفة ذلك عسرة . وهنا ذكرت المزاول فى الكتاب و بينت المزولة المعتدلة وكيفية عملها كما تلقيتها عن أشياخى مع برهانها الهندسى و بينت هناك أن المزولة فى خط الاستواء تكون قائمة على الأفق وكلما مال العرض جنو با أوشمالا مالت المزولة جهة خط الاستواء بقدر متمم عرض البلد ففى عرض (٢٠) تميل جهة خط الاستواء (٧٠) وفى ٢٣ كاسوان تميل (٦٧) وهكذا وهنا ذكرت مايقوله العلماء فى الظلال فمن قائل انها أعراض ولكن ورد عليه أن العرض لاينتقل ومن قائل انها أجسام ولكن ورد عليه أن الأجسام لاتزول بزوال أسبابها فلايزول البناء بزوال البناء ولكن هنا زال الضوء لما زال المضيء وهو الشمس . ثم قلت الأقرب للصواب أنها أعراض وماهى إلا تموجات فى الأثير والأمواج متى زال المحرك لها زالت . ثم بعد كلام ذكرت تحت عنوان ﴿ دلالة الظلال على الله ﴾ انه كما يستدل على الظل بالشمس هكذا استدل كبار العلماء على العالم بالله

وكما أن الشمس لوفرض زوالها لزال الظل هكذا لوفرض زوال الله لزال العالم بالكلية كما يزول الضوء والظل بزوال الكواكب ولايبقى إلا الظلمة وهي هنا العدم المطلق ومن هنا تزول شبهة العامة

يقولون إن الانسان يبنى البيت ويموت ولم يعلموا أن الدار لم يكن للبانى فيها إلا جمع ما تفرق بخلاف هذا العالم فهو كالظلال تتبع الشمس وكالكلمات لاتوجد إلا عند تكلمه ومتى سكت لم يكن كلام . فلذلك ذكر الله الظل فى عدة مواضع كما عبر بالكلام فى قوله تعالى ـ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى الخ ـ بخلاف الخط الذى هو جمع ماتفرق من الحروف بمادة على الورق فهذا أشبه بصنائعنا تبقى بعد موتنا فالعالم مع الله كالكلام مع المتكلم والظل مع المضىء لا كالكتابة مع الكاتب وقد كرر الكلمات كما كرر الظلال فقال ـ انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ـ وقال ـ وكلمته ألقاها الى مريم ـ ثم جاء بعدها ولقد رمز الى ذلك بقوله ـ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ـ الى قوله ـ حليما غفورا ـ وبقوله ـ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه إن الله بالناس لرؤف رحيم ـ وهذا بخلاف بنائنا فهو باق بعد بانيه وليس كالكلمات ولا كالظلال . ثم ذكرت بعد ذلك تحت عنوان ﴿ أعجوبة الظلال وملح الهندسة ﴾

فر عصفور من فوق نخلة ووصل الى الأرض بحيث يرسم فى طيرانه خطا مستقيما أوله على الشجرة وآخره نهاية ظلها على الأرض ونريد أن نعرف طول هذا الخط فجاء الجواب نقيس طول النخلة وطول الظل الذى يمتد من أصلها الى نهاية الظل ونربع كلا من الضلعين ونجمع المربعين ونجذرهما فالجذر هو المطلوب فاذا كانت النخلة أربعة أمتار وطول الظل ثلاثة فربع الأول (١٦) والثانى (٩) ومجموعهما (٢٥) والجذر (٥) وذلك من قاعدة أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ولها شكل فى الهندسة يسمى (العروس) الذى كشفه اليونان . ثم قلت ان هذه القاعدة لاتذر نخلة ولاشجرة ولازرعا ولاأصغر من ذلك حتى النملة ظلها يكون على هذه القاعدة وأن ذلك من الميزان الذى قامت به السموات والأرض ومابينهما . هذا اذا كان العمود اوالحائط قائما عموديا فان كان مائلا فلينزل من رأسه عمود على الأرض فالمسافة المحصورة من أصل المرتفع وذلك العمود هى مسقط النخلة على الضلع وحينئذ نقول ان المربع المنشأ على الضلع المقابل لزاوية حادة من هذا المثلث يكافئ مجموع المربعين المنشئين على الضلعين الآخرين منه ناقصا ضعف المستطيل الذى قاعدته أحد الضلعين المذكورين وارتفاعه مسقط الثانى عليه . فاذا كان ذلك العمود أوالشجرة أوالحائط مائلا الى خلف كانت الزاوية منفرجة فنضع ماتقدم قبله ونقول ان مربع الضلع المقابل لزاوية منفرجة فى أى مثلث منفرج الزاوية يكافئ مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين منه زائدا ضعف المستطيل الذى قاعدته أحد الضلعين وارتفاعه مسقط الثانى عليه وتمثيله غير خاف

ثم قلت فتأمل هذا الارتباط العجيب وكيف أمكننا أن نقيس كل ظل بهذه القوانين الثلاثة فهكذا يكون الميزان والعدل والنظام المحكم فى السموات والأرض وسواء طال الظل أم قصر أول النهار أوآخره فالنسبة محفوظة ثابتة لاتتغير وبهذا يفهم ـ وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم الخ ـ وختمت هذا الموضوع الذى اختصرته هنا اختصارا كثيرا قائلا واعلم انى وأنا أكتب هذا الموضوع وجدت نفسى فرحة به طالبة اطالته تحب أن لاينقضى ولوأطعتها لم يقف اليراع وسيوقفنى خوف سآمة القارئ

ثم قلت وبالاجمال فان مسألة الظلال وتبعيتها للشمس تشير بطرف خفى الى أن العالم كله تابع لحركة واحدة منتظمة فانتظم كل ماتبعها كما انتظم سير الظلال تبعا لنظام الشمس فالمادة العمومية متحركة منتظمة ظاهرا وباطنا والشمس جزء صغير منها وبحركتها انتظمت الظلال فهذا الجزء دل على الكل للتشابه بين العالم كله ـ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ـ . ـ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ـ

﴿ اللطيفة الثانية عشرة في قوله تعالى – أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الخ – ﴾

شبه القرآن بالماء الذى ينزل من السماء لتسيل به الأودية على قدر الحاجة و بمقتضى المصلحة فينفع الناس والحيوان والنبات و يمكث فى الأرض فمنه ما يكون فوق رؤس الجبال على هيئة ثلج ومنه مايخزن فى باطن الجبال ومنه مايسلك فى عروق الأرض فيكون منه الجارى فى باطن الأرض ومثل الماء فى أنه مشبه به القلز الذى ينتفع به فى صوغ الحلى واتخاذ الأمتعة المختلفة و يدوم ذلك الى حين وشبهت القلوب بالأودية فكما أن الماء لايسيل فى جميع الأودية هكذا العلم لاينزل على كل القلوب • وكما أن الأودية لاتأخذ من الماء إلا بقدر هكذا القلوب لاتقبل من العلم إلا ما يناسبها وتأبى أن تقبل مالايناسبها • وشبه الباطل بالزبد فى قلة النفع وسرعة الزوال • هذا هو المثل وانما ذكرته هنا بعد ماتقدم لأسمعك الحديث

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ إن مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلا فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به فتعلم وعلم • ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ﴾

(١) الكلأ الحشيش (٢) اجادب أرض لاتنبت الكلأ (٣) وقوله رعوا رواية مسلم ورواية البخارى وزرعوا (٤) القيعان جمع قاع وهو المستوى من الأرض وفقه كعلم وظرف أى فهم الأحكام وغيرها

ومعنى هذا أن الناس لما كانوا مخلوقين من الأرض أشبهوها (١) فمنها الأرض الطيبة تقبل المطر وتأتى بالنبات • هكذا منهم من ينتفع بالعلم و ينفع غيره (٢) ومنها أرض لاتنبت زرعا ولكنها تحفظ الماء لأرض غيرها • هكذا منهم من يقرأ العلم ولكن لافهم له ولادراية فينقلون العلم الى من يعرف قيمته فياخذه عنهم ويعلم غيره (٣) ومنها أرض سبخة لاماء تمسكه ولامرعى تنبته • هكذا من الناس من لاقلوب لهم حافظة ولا أفهام لهم ثاقبة فهم لاينتفعون بالعلم ولاينفعون غيرهم • هذا ما أردت ذكره فى هذه الآية من وجهة الأحاديث الشريفة

﴿ نظرة فى الآية من جهة العلم الحديث ﴾

اعلم أن فى العالم الانسانى اليوم فكرة نبتت فى انكلترا كما يقولون وانتشرت فى أنحاء المعمورة شرقا وغربا وهى ﴿ النشوء والارتقاء ﴾ وتلك الفكرة ترمى الى أن كل شئ فى هذه الحياة آخذ فى الارتقاء موجه الى النماء وهذه الحياة مغالبة ومشادّة ومناضلة فلايفوز إلا الأقوى والضعيف له النكال وعليه الوبال فلابد للأقوى من الغلبة فى الحياة • وقدعمت هذه الفكرة الأحوال الحيوانية والانسانية والسياسية و بنوا على ذلك قتل الأمم الضعيفة بحجة أنها لاتصلح للوجود وساعدهم على ذلك البخار والكهرباء والفحم والحديد والاختراعات والطيارات وانه كلما كان الانسان أقوى استعدادا وأوفر عدّة كان أبقى حياة وأسعد حالا وهذا الناموس هو الذى بنوا عليه سيادتهم وسعادتهم فلايبقى فى الوجود إلا الأصلح

﴿ حكاية صينية ﴾

منذ سنين قرأت فى بعض الجرائد محادثة بين سفير (صينى) ومكاتب لاحدى الجرائد الفرنسية • ابتدأ الكاتب يصف المكان والزمان والمتاع والنظارات التى على عينى ذلك السفير وابتسامه وأخلاقه وحسن بزته ثم سأله ماشاء أن يسأل فقال له السفير • لم نراكم يا أهل أوروبا خائفين من رقى الصين ولماذا منعتم بيع الأسلحة الى الصين • فقال له لأنا نخاف أن يعظم أمركم فتأتون أنتم وجيرانكم فتسطون علينا • فقال له هوّن عليك إنا ليس فى تعاليمنا اهتضام حقوق الأمم • ثم ان كونفشيوس و بوذا ومحمد هؤلاء لايحاربون

أوروبا كما تحاربون الشرق بل نكون سلاما على الناس . على أنكم مهما كان الأمر فهل تقفون حركة الفلك . فهب أننا نرتقى وهب اننا سنقاتلكم ونملككم فهل تقدرون أن تمنعوا شيأ من ذلك . كلا . ألستم تفخرون بأنكم كشفتم ناموس الارتقاء فاذا كان الارتقاء يعم العالم فكيف تصدّوننا عنه وهل فى قدرتكم أن تمنعوا الشمس عن المسير . إن النواميس العامة لا يقدر أحد أن يصدّها فاما أسلحتكم فاننا نقدر أن نأخذ رجالكم بالمال و يصنعون الأسلحة لنا فى بلادنا فافعلوا ما تشاؤن فلا تضرّون الصين . انتهت الحكاية

إن هذه الآية ملخصها أنه لا يبقى إلا الأنفع فهى عينها نظرية الترقى و بقاء الأصلح فالماء والفلزات أشبه بالأمم الراقية العاقلة الكاملة والزبد أشبه بالأمم الجاهلة التى تظهر غلبتها فى أوّل الأمر ثم يعتريها الاضمحلال والانحلال . إن أكثر الأمم الراقية الآن كالأسبان والطليان وأهل فرنسا والانجليز قوم قتلتهم الشهوات واعتراهم داء الطمع وانحلت الأعصاب فهم أقرب الى الانحلال والبرهان على ذلك ان ألفا من عرب طرابلس وألفا من عرب مراكش يغلبون عشرة آلاف من الطليان وعشرة آلاف من أهل اسبانيا . إن أمم أوروبا اليوم قد ضعفت أجسامها وخارت قواها . فأما أمم الشرق فان قوّتهم أمتن وعقولهم صالحة للارتقاء وقد جاء دورهم فمتى قرأ العرب والترك والأفغان والصينيون علوم أوروبا واستعملوا مدافعهم حلوا محلهم وقاموا مقامهم فى رقى النوع الانسانى فاهل أوروبا اليوم أشبه بالزبد لأنهم ظاهرون وأهل الشرق أشبه بالماء ولذلك غلب الترك أوروبا مجتمعة منذ سنة وكذلك الأفغان طردوا الانجليز . وقد آن أوان أن يأخذ الشرق دوره وذلك من جملة الارتقاء و بقاء الأصلح وهذا هو الذى سيكون كما ظهرت اليابان والأفغان وقوم عبد الكريم بالمغرب والسنوسيون فى طرابلس والترك فى الأناضول والفرس فى بلادهم . فهذه ست أمم ظهرت فى هذه الأيام . وسترى فى المستقبل القريب رقى الشرق الزاهر ان شاء الله تعالى

﴿ تنبيه ﴾ إن الأمّتين العربيتين المذكورتين عند طبع هذا غلبتا على أمرهما لاتحاد الاوروبيين عليهم جاء فى كتابى ﴿ مذكرات أدب اللغة العربية ﴾ فى صفحة (٩٣) مانصه

﴿ باب التشبيهات فى كلام العرب والقرآن ﴾

نذكر فى هذا الباب جملا حوت التشبيهات فى كلام العرب ثم نتبعها بأخرى من آى القرآن لنعرف أنواع الكلام وليستدل المطالع على مقدار ماوصلت اليه البلاغة عند الجاهلية فى أشعارهم وكيف تخطاها القرآن وتجاوز تلك الدرجة الى ماهو أعلى منها وأسمى * قال لبيد بن ربيعة العامرى فى معلقته

وَجَلاَ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا

أَوْ رَجْعُ وَاشِمَةٍ أُسِفَّ نُؤُرُهَا ... كِفَفاً تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا

يقول لما تهاطلت الأمطار على الديار وحصلت منها السيول كشفت آثار الديار لغسل ما كان مترا كما عليها من التراب فكأن تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدها بالكاتب وكأن تلك أقلام تجدد الكتابة وتظهر ماخفى منها والرجع الاعادة والواشمة التى تصنع الوشم وأسف ذرّ والنؤر الكحل الذى ترشه الواشمة على الجرح والكفف دارات تكون فى الوشم وتعرض ظهر ووشام جمع وشم غرز الابرة فى اللحم حتى يظهر الدم ثم ذرّ الكحل عليه ﴿ المعنى ﴾ وكأن تلك السيول واشمة عمدت الى وشم قد ضعف أثره على اليد فرجعته وأعادته بذر النؤر على داراته حتى كأنه جديد لا يضمحل وقوله جلا أى كشف والسيول جمع سيل الماء الكثير والطلول جمع طلل آثار الديار والزبر جمع زبور الكتاب وتجد تجدد والمتون جمع متن وهو بمعنى الظهر فى غير هذا المقام وهنا معناه الكتابة و يقول الله عزّ وجل ـ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ـ الى قوله ـ كذلك يضرب الله الأمثال ـ . يقول ان الله أنزل المطر فسالت به الأودية وأخذ كل واد قسطه وربا على الماء الزبد . هكذا ترى الناس يوقدون النار و يصهرون المعادن فيعلو على جواهرها

الأجسام الغريبة كما يعلو الزبد على الماء . وهكذا كان الحق والباطل فى الدنيا فان الحق فى أوّل أمره يغلبه الباطل و يغشيه بغشاء من الأضاليل ثم ينكشف الغطاء و يحصحص الحق و يتجلى للناس كما أن زبد الماء الرابى عليه وزبد المعادن النفيسة يذهب و يزول بعد أن غلب وغشى على الماء والمعدن فاما ماينفع الناس من الماء والمعدن كالذهب والفضة فانهما يبقيان . فبهذا ينبت الكلأ والعشب والمزارع والحدائق والجنات . وهذا تصاغ منه الحلى و يجعله النساء زينة لهن وجمالا و يجعله الناس آلات و يعملون به أعمال الحياة . هذا هو الناموس الطبيعى العام الذى افتخر به الاوروبيون وقالوا قد كشفناه ودرسناه وأبرزناه للعالم وهو ناموس بقاء الأصلح للوجود والأنفع للانسانية والأفضل للحياة نطقت به هذه الآية وجعلت أعمال المجاهدين والفضلاء والحكماء والمخلصين تشابه ما نراه كل يوم فيما أمامنا من الزبد والماء والحلى وأن الحق يعلو وان غشيته الأباطيل والباطل يذهب جفاء وان غلب بالتضليل . هذا هو الناموس المبين فهل ترى له مع قول لبيد موازنة . أفرأيت الفرق بين التشبيهين وكلاهما فى الماء . أليس من العجب أن يقتصر لبيد على الطلول والبيداء و يتعالى القرآن فيقيس به السياسة والحكمة والحق والباطل فيقول ــ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ــ

عجب عجاب . هذه هى التى فخر بها الاوروبيون وقالوا نحن لها مخترعون . ألا فلينظر العاقلون وليعلم الذين لايعلمون . انتهى القسم الأوّل من السورة

(الْقِسْمُ الثَّانِى)

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ أَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ * كَذَٰلِكَ

أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ * وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ * وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (للذين استجابوا) للمؤمنين الذين استجابوا (لربهم الحسنى) المنفعة العظمى فى الحسن بأن تكون خالصة من الشوائب الضارة ومن الانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة مبتدأ خبره (لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب) بأن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له

منه شئ واعلم أن فى قوله تعالى ـ لاقتدوا به ـ سرا مصونا يختلج فى القلوب والشفاه لاتلقيه محسوسا فى النفوس والناس عنه فى تيه . ذلك أننا فى هذه الحياة لاحظ لنا إلا نفوسنا وحدها وكل ماعدا النفوس مضمحل ألاترى أن أحدنا لوأصابه مرض أوضعف شديد أوهرم لأصبح لايحس بما كان يحس به فى زمن الشباب وقلت آماله وضاعت أحلامه ومتى ضعفت قوة الطعام فيه لم تكن له فائدة من المال الذى عنده فكل شئ دون النفس زبد يذهب جفاء وقوله (ومأواهم جهنم) أى مرجعهم (و بئس المهاد) المكان الممهد والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وقوله تعالى (أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) الهمزة لانكار أن يشك عاقل مّا بعد ضرب هذا المثل أن يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وهم عمى البصائر مع أن البعد فيما بينهما كبعد مابين الماء الصافى والابريز الخالص والزبد والخبث (إنما يتذكر أولوا الألباب) ذوو العقول الذين نبذوا الوهم والالف واستبصروا بالرأى ثم وصفهم فقال (الذين يوفون بعهد الله) الذى عقدوه على أنفسهم بشهادتهم بربوبيته وشهدت فطرهم فى هذه الحياة بصحته وأنزل الكتاب بإيجابه (ولا ينقضون الميثاق) ما أوثقوه على أنفسهم من الايمان بالله ومن المواثيق بينهم و بين الناس من ذكر العام بعد الخاص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الأرحام والقرابات الخاصة وكذلك القرابة الدينية وهى تعم جميع المؤمنين فهم اخوة فيحسن اليهم متى قدر ويذب عنهم ويشفق عليهم ويفشى السلام ويعود المرضى ويراعى حق أصحابه وخدمه وجيرانه ورفقائه فى السفر . واعلم أن الانسان لاتخلو حاله إما أن تكون له قدرة علمية فهذا يجب عليه نشره بين أمته وهذا أعلى الدرجات واما أن تكون له قدرة عملية وعجز عن العلمية فهذا ينبغى له أن يصرف أيامه فى مواساة الفقراء وعيادة المرضى وفعل المبرات والخيرات واما أن تكون قدرته عاطلة فلاعلم عنده ولاقوة لديه وهذا ينبغى له أن يصرف أيامه فى العبادة ويلازم المحراب واما أن تكون نفسه خلت من العلم ومن العمل النافع ومن العبادة فهذا خير له أن يدع الناس ويجتنبهم لأنه لم يبق لديه إلا الغيبة والنميمة . فالثلاثة الاول أشبه بالملائكة على اختلاف درجاتهم فالعالم العام النفع أفضل من المواسى لضعفاء الأمة وهذا الثانى أشرف من العابد الملازم للمحراب والتارك للخير والشر العاكف على النوم وهو الرابع أشبه بالحجر فى البيداء لايملك للناس نفعا ولاضرا . فأما الخامس وهو من يضيع وقته فى أذى الناس فهو كالحيات والعقارب والذباب والناموس وأمثالها يؤذى الناس على مقدار ما أوتى من قوة وما نال من همة على درجات متفاوتة تفاوت الدرجات فى المشبهين بالملائكة وقوله (ويخشون ربهم) أى وعيده عموما (ويخافون سوء الحساب) بحيث يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) عن المعاصى وعلى ما أصابهم من مرض أوأذى من الناس أوفقر وعلى الطاعات ومشاقها (ابتغاء وجه ربهم) لا ليقال ما أكمل صبره أولئلا يشمت به الأعداء أولئلا يعاب من الأصدقاء وانما يكون صبره خالصا لوجه الله لعلمه بأن ذلك رافع لشأنه مهذب لنفسه رافع لدرجاته مقدر عليه لحكمة (وأقاموا الصلاة) داوموا على اقامتها (وأنفقوا مما رزقناهم) بعض مارزقناهم واجبا أومندوبا (سرا) فيما بينهم و بين الله وهذا أولى لمن لم يعرف بالمال (وعلانية) وهذا أولى لمن عرف بالمال (ويدرؤن بالحسنة السيئة) فيدفعون بالحسن من الكلام مايرد عليهم من سيئ غيرهم أوهم المعطون من حرمهم العافون عمن ظلمهم الواصلون من قطعهم التائبون من ذنبهم المغيرون للمنكر اذا رأوه ويتبعون السيئة الحسنة فتمحوها فهذه ﴿ ثمان خصال ﴾ الوفاء والصلة والخشية ومحاسبة النفس والصبر واقامة الصلاة والانفاق وأن يدرؤا السيئة بالحسنة فهى عدد أبواب الجنة الثمانية ولذلك أعقبها بها فقال (أولئك لهم عقبى الدار) عاقبة الدنيا العاقبة التى تنبغى لهم وأبدل من عقبى الدار (جنات عدن) أى بساتين اقامة * يقال عدن بالمكان اذا أقام به (يدخلونها) أى الدار التى تقدم ذكرها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) عطف على الواو فى يدخلون فالأزواج والذرية يقرنون بهم عند

دخولهم

دخولهم الجنة اذ استحقوها بصلاحهم وتكون المزية إذ ذاك جمعهم معهم تكريما فيقرن بعضهم ببعض لما بينهم من الصلة والتقييد بالصلاح للدلالة على أن النسب لايفيد فى الآخرة (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب منازلهم فى الجنة أومن أبواب الفتوح والتحف و بشارات الرضا قائلين (سلام عليكم) بشارة بدوام السلامة هذا (بما صبرتم) أى هذا الثواب بسبب صبركم بأقسامه المتقدمة ويصح أن يقال تسلم عليكم وتكرمكم بصبركم والأول أولى لأن الخبر فصل بين المتعلق والمتعلق به (فنعم عقبى الدار) الجنات • ولما أتم الكلام على صفات السعداء أعقبه بصفات الأشقياء فقال تعالى (والذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه) بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول (و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أى من الرحم وحفظ الجوار والمساعدة العامة كما تقدم (و يفسدون فى الأرض) بالظلم والمعاصى والتهييج وتفريق الكلمة (أولئك) أى من هذه صفته (لهم اللعنة ولهم سوء الدار) عذاب جهنم وسوء العاقبة فى مقابلة عقبى الدار • ولما كان كل فتنة وتهييج ونقض عهد انما يكون لقصد الشهوات والحياة الدنيا أخذ يذمها فقال سبحانه (الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر) يوسعه و يضيقه فقوم فقراء وآخرون أغنياء وما الفقر والغنى إلا كالليل والنهار يمران على البر و الفاجر والصالح والطالح فليس الغنى مرمى الأنظار ولا الفقر غاية الأخطار بل هما حالان يعتوران الناس بأقدار غالبة وأحوال عارضة كما يغشى النهار الليل والليل النهار فكيف يفرحون ببسط الرزق فى الحياة و يعدونه أكبر متاع وما الحياة كلها إلا سحابة صيف عن قليل تقشع فما بالك بنفس الغنى ونفس اللذة وما هما إلا حالان عارضان فى الحياة فالحياة وشؤون الحياة لاوزن لهما ولا ثمن وهذا قوله تعالى (وفرحوا بالحياة الدنيا) أى بما بسط لهم من الرزق فيها (وما الحياة الدنيا فى) جنب (الآخرة إلا متاع) متعة لاتدوم كعجالة الراكب وزاد الراعى فهؤلاء بطروا وأشروا بما نالوا من الدنيا واعتزوا بقليل المنافع سريع الزوال • ولما أبان ولوعهم بالسراب وانخداعهم بالحباب وجهلهم بماحضر وغاب أخذ يبين ماترتب على ذلك الغرور من اقتراح الآيات الناجم من بطرهم وأشرهم فقال (و يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (و يهدى اليه من أناب) أقبل الى الحق ورجع عن العناد فمن أضله الله فلاهادى له وان نزلت الآيات التى اقترحها فالقلوب تختلف اختلاف الأودية كما تقدم • ثم أبان المهتدين فقال سبحانه هم (الذين آمنوا وتطمئن) تسكن (قلوبهم لذكر الله) ففى الوحدة يسكنون بأنسه • وعند الحاجة بالاعتماد عليه • وعند القلق من خشيته يسكنون برحمته • وعند الشك فى وجوده يسكنون بدلائل وحدانيته فى آيات الكتاب وعجائب الكائنات ولا اطمأنينة إلا باليقين والشك موجب القلق والاضطراب (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فى جميع مابيناه ولما كان اطمئنان القلوب لايتسنى إلا بعلم الحقائق وتهذيب الأخلاق أردفه و بين المطمئنين وثوابهم فقال (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) أى فرح لهم وهى جملة خبر الذين وطوبى فعلى من الطيب قلبت الياء واوا بعد الضمة وهى مصدر كزلفى و بشرى • وتقول العرب ﴿ طوبى لك ﴾ أى أصبت خيرا • ومعنى هذا أن أهل الجنة منعمون بكل مايشتهون فكل مايسر النفس داخل فى هذه القضية • فاذا سمعت حديث البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال ﴿ إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام مايقطعها ﴾ وسمعت أن البخارى زاد ﴿ واقرؤا إن شئتم ـ وظل ممدود ـ ﴾ واذا سمعت الأحاديث التى ليست فى الصحاح أن ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وأن الحلى والحلل تكون من أغصانها وأن فى كل دار وغرفة فى الجنة منها غصنا وأن الله لم يخلق لونا ولازهرة إلا وفيها منه الاالسواد وانه لم يخلق فاكهة ولاثمرة إلا وفيها منها وأنه ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وأن كل ورقة منها تظل أمة

فاذا سمعت هذا كله فى الصحاح وفى غير الصحاح فاعلم أنه بعض ما أعد لأهل الجنة من الفرح الذى

تضمنته الجملة والجملة أعم من هذا كله صح أولم يصح وأما الحقيقة فهى أن أهل الجنة لهم مايشتهون وهذا في الامكان بل ان العوالم التي كشفها علم الفلك بلغت عظمتها حدّا لايتخيله الفكر فاذا كان هذا في العالم الذي نحن فيه فكيف تكون الجنة بل ان كل روح من الأرواح لها قدرة تامّة على اختراع ماتشاء من ملابس ومآكل من كل ماتشتهيه وهذا ثبت في علم الأرواح اليوم في الأمم الغربية فاذا كانت كل روح لها قدرة على نوع ما من الملابس والنفائس فذلك أكبر نعمة تفوق ماهومشاهد في الخارج

إن الحديث أبان للناس مايقدرون على فهمه وفتح لهم باب عظمة العالم ليستعدّوا لما سيرونه بعد الموت ومابعد الموت فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر وعليه يكون ما سمعناه في الحديث تقريب لعقولنا المحبوسة في هذه العوالم الحسية واذا كانت الجنة فيها مالايخطر ببالنا فهذا بما يخطر بالبال فما فيها فوقه بما لاحدّ له اه وقوله (وحسن مآب) أى ولهم حسن منقلب • ولما كانت الآية أبانت أن ذكر الله به تطمئن القلوب وذكر من ذلك أن لهم مايشتهون في الجنة أتبعه بأن هذه العقيدة قديمة العهد ليزداد الاطمئنان فليس النبي ﷺ بدعا بل سبقه أنبياء أرسلوا لأممهم فهذا التتابع يدل على صدق الدعوة لأن الأمم تضافرت عليه وما كان باجماع الأمم فهو حق والحق به الاطمئنان فوعدهم بالسعادة أوّلا وحقق أصول دينهم ثانيا وأىّ اطمئنان بعد هذا وهذا قوله تعالى (كذلك) مثل ذلك يعني ارسال الرسل قبلك (أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها) تقدّمتها (أمم) أرسل اليها رسل فهل يكون بدعا اذا أرسلناك اليهم (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه اليك (وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة العظيم النعمة قد أحاطت بكل شئ رحمته ووسعت كل شئ نعمته فلم يشكروا احسانه ولم يذكروا انعامه ولم يعرفوا منته في الهداية بارسالك اليهم وانزال القرآن لتقرأه عليهم • وهذا القول عام لايخص حالا بعينها فكفرهم شامل وجهلهم عظيم • فاذا سمعت أن هذه الآية نزلت في صلح الحديبية وأن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله ﷺ لعلىّ بن أبي طالب أكتب بسم الله الرحمن فقالوا لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة (يعنون مسيلمة الكذاب) اكتب كما نكتب باسمك اللهم وعليه تكون الآية مكية • واذا سمعت أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه يا الله يارحمن فرجع أبوجهل الى المشركين وقال ان محمدا يدعو إلهين يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ولانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية • واذا سمعت أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ - اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن - • اذا سمعت هذه الروايات كلها وأن الآية نزلت فيها فاعلم أن ذلك لايغير من المقصود شيأ فكل هؤلاء كفروا بالرحمن فسهيل بن عمرو وأبوجهل وكفار قريش صدقت عليهم الآية • فأما اختلاف الروايات وكل من الرواة يقول نزلت للسبب الذي ذكره فانه من تصرفهم أومن استعمال النزول في معنى أنها تنطبق عليها • وأنت عليم أن شراح البخاري نصوا على أن الحديث ظني فما بالك بما ليس بصحيح واليقين انما هوالآية والحديث المتواتر والآية هنا تشمل ماذكروه وغيره ثم أمره الله أن يصدع بالأمر فقال الله (قل هو ربي) أى الرحمن خالقي ومتولى أمرى (لاإله إلا هو) لامعبود بحق سواه (عليه توكلت) في نصرتي عليكم (واليه متاب) مرجعي ومرجعكم ثم ان قوله تعالى - ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه - قد أجاب عنه بقوله - قل إنّ الله يضلّ من يشاء ويهدى الخ - فكانت الاجابة بقطع الاطماع عن ايمانهم مهما أنزل لهم مما اقترحوه • ثم ذكر الهداية وصفات المهديين واحتاج المقام الى ايضاح تلك الآيات وزيادة البرهنة على عدم نفع اجابتهم فأفاد أنه لوثبت أن كتابا - سيرت به الجبال - أى زعزعت من مقارّها - أوقطعت به الأرض - وصدعت وتزايلت قطعا - أوكلم به الموتى - فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن ولم يؤمنوا فاذن هذا إما وصف لعظمة

القرآن

القرآن واما وصف لشدة عنادهم فلاينفعهم مايقترحون وهذا قوله تعالى (ولو أنّ قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أوكلم به الموتى) ولقد كان نفر من قريش منهم أبوجهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية قد جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبى ﷺ فأتاهم فقال له عبد الله إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفسح فانها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه أوسخر لنا الريح لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع فى يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أوأحى لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أم باطل فان عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فنزلت هذه الآية قال تعالى (بل لله الأمر جميعا) أى بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه ولكنه لم يرد ذلك لأنه لاينتج المقصود من ايمانكم • ثم أتبع هذا (١) بالتيئيس من ايمانهم تأكيدا لما تقدم (٢) و بالتهديد لهم بالقارعة التى تحل بهم (٣) و بتسلية النبى ﷺ على استهزائهم به • فالأول قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى أفلم ييأس الذين آمنوا بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من ايمان هؤلاء الكفار وهذا اذا بقى اليأس على معناه * وقيل ييأس بمعنى يعلم وهذا المعنى فى لغة النخع والمعنى واحد أومتقارب على الوجهين والثانى قوله تعالى (ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من الكفر وسوء الأعمال (قارعة) داهية تقرعهم بأنواع البلايا كالجدب والسلب والقتل والأسر (أوتحل قريبا من دارهم) فيفزعون و يتطاير اليهم شررها • ويجوز أن يقال أوتنزل أنت يامحمد مع أصحابك قريبا من دارهم وهى مدينتهم مكة (حتى يأتى وعدالله) فتح مكة (إنّ الله لايخلف الميعاد) الذى وعدك به من النصر والتأييد والبعث بعد الموت وكل موعود به من موت وغيره والثالث قوله تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا) لما أوعد الكافرين أخذ يسلى النبى ﷺ ويزيد فى وعيدهم وأفاد أن الرسل من قبله استهزأ بهم قومهم فأملى الله للذين كفروا أى أمهلهم والاملاء أن يترك ملاوة من الزمان فى دعة وأمن (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى عقابى لهم هكذا هؤلاء الكفار أملى لهم ثم آخذهم وقد تم ذلك فانهم غلبوا ومن أبى قتل وأسلمت جزيرة العرب كلها الى الآن • ولما فرغ من الكلام على النبىّ ﷺ وتسليته ووعيد أعدائه شرع يذكر سعة علم الله الذى يعلم النبى ﷺ وأعداءه ويجازى كلا بعمله يرفع الصادق ويخفض الكاذب فقال (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها و بأعمالها خيرا كانت أوشرا ومجازيها على الخير والشر كما علم محمدا والمشركين وأعطى كلا مايستحقه أى أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه (وجعلوا لله شركاء) أى وجعلوا له شركاء وهو اظهار فى مقام الاضمار والهمزة للانكار (قل سموهم) أى صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة و يستأهلون الشركة (أم تنبؤنه) أى بل أتنبؤنه (بما لايعلم فى الأرض) بشركاء يستحقون العبادة لايعلمهم أو بصفات لهم يستحقون العبادة لأجلها لايعلمها مع أنه عالم بكل شئ (أم) تسموهم شركاء (بظاهر من القول) من غير حقيقة واعتبار معنى كما يسمى الناس الزنجى كافورا ثم أضرب عن ذلك فقال (بل زين للذين كفروا مكرهم) تمويههم فتخيلوا أباطيل ثم ظنوها حقا أوكيدهم للاسلام (وصدّوا عن السبيل) أى وصرفوا بالبناء للمجهول فيهما ان قرئ بضم الصاد أوصرفوا الناس عن السبيل أى الايمان ان قرئ بفتح الصاد (ومن يضلل الله) بخذلانه (فما له من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) بالقتل والأسر ومصائب الحياة وهمومها (ولعذاب الآخرة أشق) لشدته ودوامه (وما لهم من الله) من عذابه (من واق) حافظ

﴿ وصف الجنة ﴾

ولما ذكر أن المؤمنين لهم فرح بقوله ـ طوبى لهم ـ فصله ببعض التفصيل هنا فقال (مثل الجنة التى

وعد المتقون) صفتها التى هى مثل فى الغرابة وهذا مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك صفة الجنة التى وعدها المتقون حال كونها (تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم) لاينقطع ثمرها (وظلها) أى وظلها كذلك بخلاف ظل الشمس المتقدم فى قوله ــ وظلالهم بالغدو والآصال ــ (تلك) أى الجنة (عقبى الذين اتقوا) أى مآلهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) لاغير فأطمع الأولين وأيأس الآخرين وهذا القول فى مشركى العرب . ولما كان أهل الكتاب قد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه و بعض النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران وكفر باقيهم ذكر الفريقين فقال (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الأحزاب) وهم الذين كفروا منهم (من ينكر بعضه) لأنه لايوافق ماحرفوه من كتابهم أوشرائعهم (قل) يامحمد (إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم إنى أمرت فيما أنزل الىّ بأن أعبد الله وأوحده وهذا أهمّ المطالب فى الدين فأما ماعدا ذلك من الأحكام الجزئية المخالفة لشرائعكم فذلك ليس بدعا فالكتب السماوية تتفق أصولها وتختلف فروعها لاختلاف الأزمنة والأمكنة والعقول (اليه أدعو) وحده لا أدعو سواه (واليه) لا الى غيره (مآب) مرجعى وأنا وأنتم على اتفاق تام فكيف تنكرون المتفق عليه (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا اليك يامحمد هذا الكتاب حكمة عربية ليسهل لهم فهمه وحفظه وقوله ــ حكما ــ حال ثم ان أهل مكة دعوه الى أمور يشاركهم فيها كتقر يردينهم فقال تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم) بنسخ ذلك (مالك من الله من ولىّ ولا واق) أى لاينصرك ناصر ولايقيك واق . ولقد كانوا يعيبونه بالزواج والأولاد و يقترحون عليه الآيات و ينكرون النسخ فنزل (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرّية) نساء وأولادا كما انك كذلك (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) فليس يقدر أحد منهم أن يأتى من الآيات بما يقترحه قومه وكيف يأتى لهم بما يقترحون وقد جاء لهم من الآيات مافيه عبرة لمعتبر وغناء لمفكر ولكنهم أبوا إلا التمادى وازدادوا اقتراحا كما تقدّم فى مقال عبد الله بن أبى أمية والآيات المقترحات لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة فى أزمان علمها الله فلكل زمن حكم على العباد بمقتضى صلاحهم ولاصلاح فيما اقترحوه وهل من صلاح المراهق أن يرضع اللبن من ظئره فاذا لم يحسن فى الحكمة أن ترضع الظئر شابا قويا وأن يجعل للمراهق مهد يكون فيه . هكذا لاحكمة فى انزال الآيات التى اقترحوها وهذا ايضاح قوله (لكل أجل كتاب) أى لكل أمد حكم لايحسن سواه فيه فلا آية من المقترحات بنازلة قبل وقتها ولاعذاب مما خوّفوا به بحاصل فى غير وقته ولانبوّة حاصلة فى غير الزمان المقدّر لها فموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كل حكم الله بوجوده فى زمانه الخاص به لايتقدّم ولايتأخر وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وأحوالهم كلها كتبت فى آجال ومدد معلومة لاتقديم ولاتأخير . ألا انما مثل هذه الدنيا من كواكبها وشموسها وأرضها وزرعها كمثل مدرسة رتبت فصولها ونظمت حجرها وأقيم كل مدرّس فى درسه وجعل له علم مخصوص والتلاميذ لكل من هؤلاء سامعون وناظر المدرسة قد رتب لها مناهج وقوانين وأوقات لامتحان التلاميذونهايات لأعمالهم فترى المدرّسين كل يوم يعملون و ينصرفون الى أماكنهم ويرجعون والمنهج المرسوم لايتغير ولايتبدّل . فهكذا هذه الدنيا قد جعل الله لها فى علمه القديم نظاما كأنها مدرسة وهذا النظام على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه وعلى ذلك العلم جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة وظهرت نجوم وفنيت أخرى ونبت زرع وحصد آخر وقام نبى ومات آخر وامتدّ دين وتقلص آخر وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا صاركأنه صحيفة يكتب فيها و يمحى على مقتضى المحو والاثبات عند الملائكة وذلك تبع لمارسم فى المنهج الأصلى تتعاقب الأمم والأجيال والزروع والدول والأحكام والنظم و يتعاقب قدماء المصريين واليونان والرومان والعرب والتتار

واوربا

وأوروبا وأهل الشرق عليها كل ذلك محو واثبات على مقتضى المنهج المرسوم . وهكذا تنسخ آية من القرآن ويؤتى بغيرها كما نسخ زرع بزرع وليل بنهار وقوم بقوم ودين نبي بآخر كل في وقته . وهكذا يتصدق زيد على رحمه فيطول عمره ويجتهد الرجل الهندي من الطائفة المسماة (راجايوقا) فيحصر نفسه الذي يتنفسه على هيئة مخصوصة كما في بلاد البنغال وغير البنغال هناك في الهند ويبتعد عن الناس فيسكن حركات قلبه دقائق كل يوم بالتدريج فيكون عمره أطول من أعمارنا عشرات السنين ويبطيء شيبه كما قرأته في كتاب (راجايوقا) بالانجليزية مترجما عن اللغة الهندية وقد كان ألقى خطبا في نيويورك سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٥٦ بعد الميلاد فهذا كله يحصل على مقتضى مارسم في العلم القديم . وهذا التفسير جمع لك سائر الأقوال

(١) فاذا سمعت علماءنا رحمهم الله يقولون ﴿ يمحو الله مايشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت مايشاء فلا ينسخه ولايبدله ﴾ أوقرأت حديث البخاري ومسلم عنه ﷺ

(٢) ﴿ ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقي أوسعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لااله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ﴾

(٣) وكذا اذا سمعت بعض العلماء يخص المحو بما ليس فيه ثواب ولاعقاب من قول الانسان أكلت وشربت والاثبات بما فيه ثواب وعقاب

(٤) وكذا اذا سمعت آخر كالحسن يقول ﴿ يمحو الله من جاء أجله ويثبت من بقي أجله ﴾

(٥) أوقول عكرمة ﴿ يمحو الذنوب بالتوبة ويثبت الحسنات بدلها ﴾

(٦) أوقول السدي ﴿ يمحو الله القمر ويثبت الشمس ﴾

(٧) أوقول الربيع ﴿ يقبض الله الأرواح عند النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته ﴾

(٨) أوقول بعضهم ﴿ يمحو الله حكم السنة الماضية ويثبت حكما آخر للسنة بعدها ﴾

(٩) أوقول بعضهم ﴿ يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة ﴾

(١٠) أوقول آخر ﴿ يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء ﴾

فاذا سمعت هذه الأقوال كلها فاعلم أنها لاتناقض فيها بل هي جارية على القاعدة التي ذكرناها داخلة فيها . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وأما ان الانسان يعمل بعمل أهل الجنة ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار وعكسه فذلك أيضا مما سبق به الكتاب وذلك مشاهد معروف كل يوم . ان الانسان يكون معتادا عوائد جميلة ثم يعمل عملا سيئا على غير عادته فتغلب العادة الجميلة عليه فيعمل العمل الصالح وتغلب حسناته على سيآته فيدخل الجنة وهناك رجل غلبت عليه العادات السيئة فلازمته فتكلف الأعمال الصالحة فعمل بها ولكن السيآت غلبت عليه فزحزحته عن الجنة لأن الصلاح ليس من طبعه وذلك كرجل يصلي ويصوم وهو دائب في رفع القضايا الكاذبة على أهله وجيرانه فهذا سبق عليه الكتاب وغلبت عليه سجيته . هذا تحرير المقام في قوله تعالى ـ يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ـ واذا عرفت الحقيقة فسواء أكان أم الكتاب هو علم الله والتغيير في اللوح المحفوظ الذي قال فيه ابن عباس من باب ضرب المثل لنا ﴿ إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ أوأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي لاتغيير فيه ولاتبديل والتغيير عند الملائكة في صحفهم التي يكتبونها فيمحون ويثبتون

فسواء أكان هذا أوذاك فالخلاف لفظى والحقيقة لم تتغير فهناك أمر واقع وأمور مبدّلة وتغيير الأسماء لايضيع الحقائق اه ثم قال تعالى (واما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب (أونتوفينك) من قبل أن نريك ذلك (فانما عليك البلاغ) أى ليس عليك إلا تبليغ الرسالة اليهم من الله فلاتهتم بما سيناله‍م ولكن اهتم بما أوحيناه عليك وهو البلاغ (وعلينا الحساب) أى أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم

ثم اعلم أن الله عزّوجل وضع هذا العالم على نظام التغير والتبدّل كما مرّ فى آية ـ يمحو الله مايشاء ويثبت ـ وقد أوضحت فى سورة البقرة مسألة نسخ الآيات القرآنية فلم أعدها فى آية المحو والاثبات هنا فاما هذه الآية فقد نزلت لحال خاصة وهى التغير فى أطراف الأرض بالخراب والعمارة و بغلبة قوم وخذلان آخرين و بانهيار شاطئ البحر بفعل الماء ثم يزيد فى جهة أخرى و بتبطيط الكرة الأرضية عند القطبين و بانقلاب البحر برا بطول المدى وتطاول السنين أو بموت العلماء فيقبض العلم فهذا نقص فى أطراف الأرض وهذا عن الجوهرى وثعلب أو الأطراف الأشراف * قال الفرزدق

واسأل بنا وبكم اذا وردت منى * أطراف كل قبيلة من يتبع

وكذلك بفتح دار الحرب بأيدى المسلمين فكان لهم النصر والغلبة وهذا نقص من أطراف تلك الأرض والمقصود من هذا أن التبدّل حاصل فى أطراف الأرض فمن خراب وعمارة وذلّ وعزّ ونقص وكمال فهل أمن كفار مكة أن نبدلهم بعد عزّهم ذلا و بعد غناهم فقرا و بعد حياتهم موتا . واذا كان فتح البلاد بيد المسلمين قد أحاط ببلادهم وقد نقصنا الأرض من أطرافها فهل أمنوا أن يمتدّ الى بلدتهم والعاقل من يتدبر و يتفكر و يعتبر فمالهم لايستبصرون (والله يحكم لامعقب لحكمه) المعقب الذى يكرّ على الشئ فيبطله * وقيل لصاحب الحقّ معقب لأنه يقفوغريمه بالاقتضاء وههنا حكم الله للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وماحكم به تعالى لايمكن نقضه كما حكم على أطراف الأرض بالنقص بمقتضى النظام الذى وضعه والقانون الذى سنه (وهو سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد العذاب بالقتل فى الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) أى كفار الأمم الخالية والأجيال البائدة بأنبيائهم . والمكر ارادة المكروه فى خفية وماهذا المكر بشئ اذا قيس بمكر الله (فلله المكر جميعا) وكيف يؤبه بمكرهم وهو (يعلم ماتكسب كل نفس) فيعدّ جزاءها (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) من الحزبين أى العاقبة المحمودة . واذا علم الله عمل كل نفس وأعدّ لها جزاءها بحيث يقع العذاب على المذنب وهو فى غفلة على خلاف ظنه وهولايدرى فهذا هو المكر كله (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) لما أنكر الكفار كون محمد رسولا قال الله له (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) بالمعجزات و بلاغة القرآن (ومن عنده علم الكتاب) أمثال عبد الله بن سلام لعلمه بالتوراة والمسلم الذى عرف اعجاز القرآن فهؤلاء يشهدون برسالتى . انتهى التفسير اللفظى لسورة الرعد والحمد لله رب العالمين . وهنا ﴿ جوهرتان ﴾

﴿ الجوهرة الأولى فى الكلام على البرق والرعد والسحاب والصاعقة فوق ماتقدم فى الآيات ﴾

اعلم أن هذه الأربعة ذكرت فى أوّل سورة البقرة فى قوله تعالى ـ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا الخ ـ إذ جعل القرآن كالمطر ووعيده كالرعد وحججه كالبرق والهلاك الذى يصيب المجرمين كالصاعقة فارجع اليه هناك ولكن هذا ملخصه وهذا لسان البيان المعبر عن حال الوجود لأن اللسان ﴿ لسانان ﴾ لسان البيان ولسان الوجود . فأما لسان البيان ومنه لسان الوحى فهو المعبر عن المعانى التى كمنت فى النفوس الانسانية لقصور الطبيعة البشرية عن اظهارما كمن فيها فكان هذا اللسان لجميع اللغات السامية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية الخ وجميع اللغات الطورانية كالتركية فى الأناضول والقازانية فى بلاد القازان الخ وجميع اللغات الآريه كاللغات الهندية والأوروبية . هذه كلها وأمثالها البالغة أربعة آلاف لغة لاعمل لها إلا نقل مافى أفئدة

الناس

الناس بعضهم لبعض من المعانى المقصودة لهم لينتفعوا بها ولوأن هذه الأنفس البشرية كانت قادرة على تفهيم بعضها بدون احتياج الى هذا الترجمان وهو اللسان لم نستعمله • إذن احتياجنا للتعبير ناشئ من هذا الجسد الذى حجب بصائرنا عن الاطلاع على مايجول بالضمائر من المعانى • لهذا خلق الله اللسان فأخذ الناس يتكلمون ولكن أكثر هذا النوع الانسانى قاصر لايدرك الحقائق • ومعنى هذا أن قصور الناس ليس خاصا بالتعبير عما يجول بخواطرهم • كلا بل نفس هذه الأنفس ليست كاملة العلم والعقل • فاذا عبروا باللسان عما فى ضمائرهم لم يجدوا فيها ما يكفى لاسعادهم لذلك خلق الله فيهم أنبياء وحكماء فالأنبياء يخاطبونهم بلسان الوحى والحكماء يخاطبونهم بلسان البرهان والحكمة • فأما لسان الوحى فنه القرآن الذى هو الكتاب الحكيم وقد جاء فيه ـ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الخ ـ يأمرنا الله بالتسبيح وبالصلاة فنصلى ونقول سبحان الله ونحمد الله الى آخره • هذا هو لسان الوحى و بيانه والوحى هو الذى جعل هذه الأربعة مشبها بها أحوال القرآن من حجج وعلم وانذار الخ

أما لسان الوجود فقد ذكره الوحى هنا فأبان أن نفس الرعد يسبح بحمدالله والناس لايفقهون تسبيحه الناس يسبحون والرعد يسبح ـ وان من شئ إلا يسبح بحمده ـ • الله أكبر • أنزل الله سورة سماها الرعد بعد أن ذكره فى سورة البقرة بهيئة ضرب المثل وذكر معه اخوته الثلاثة هناك وهنا • جعل هذه الأربعة هناك ضرب مثل وجعلها هنا مقصودة بل جعل أحدها وهو الرعد مسبحا وسيأتى فى سورة الاسراء تسبيح كل شئ • هذا فتح باب لأن ندرس نفس هذا الوجود • إن فى الرعد وان فى الوجود حكمة وعلما وفى هذا العالم جمال العلم المعبر عنه بالبرق وانذار من يتغاضى عن هذا العلم والمعبر عنه هو الرعد وفيه نعم يعبر عنها السحاب • وفيه هلاك يعبر عنه بالصاعقة • إذن هذا الوجود نفسه ناطق • هوهكذا من يوم أن خلقه الله • برق جميل ورعد منذر وسحاب ممطر وصواعق مهلكة

فى هذه الأربعة حياة وموت وانذار وحجة أوخوف ورجاء • الرعد والصاعقة خوف اهلاك والبرق والمطر رجاء وحياة • إن هذه الحياة كلها ترجع فى مجموعها الى لذة وألم وغنى وفقر وعلم وجهل وكبر وصغر ورجاء وخوف وعزّ وذل وبالجملة محبوب ومكروه • وهذه كلها يعبر عنها البرق للأوّل والرعد للثانى • هذه هى أحوال الحياة • ومعلوم أن الحياة ضدها الموت فالحياة كالسحاب ومطره والموت كالصاعقة • فهذه الموجودات الأربع لسان هذا الوجود نطقت بما تضمنه

﴿ انذار الرعد للمسلمين ﴾

يظهر البرق فى أكناف السماء كل حين والمسلمون ينظرون كما ينظره أهل الأرض • البرق جميل وبهيج • البرق يذكر بجمال هذه الدنيا وبهجتها وحسنها ونظامها وبهائها • يحدّث البرق المسلمين حديثا عن ربهم أنه كامل وجميل ونور السموات والأرض وما أمره إلا كلمح البصر أوالبرق الذى يظهر فى جزء من ألف ألف من الثانية ولذلك ترى الأشجار فى البرق ساكنة فى حال الاعصار لأن البرق فى جزء صغير جدا فأعرض متأخروهم عن هذا الجمال مع ان البرق بهيج وجميل يكاد يأخذ بالألباب و يأخذ بالأبصار فلما أعرضوا أسمعهم الرعد كما أسمع غيرهم والرعد صوت الانذار الكامن فى هذا الوجود • ولقد ظهر ذلك الكامن فى مقذوفات المدافع القاصفة كالرعد المرمى بها من الطيارات التى اخترعها الناس فى عصرنا فأهلكت الحرث والنسل • الرعد قد أشبهته الآلات الحربية الحديثة التى ظهرت فى الحرب العامّة من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ هذه هى الرعود التى كانت كامنة فى الطبيعة والرعد يعبر عنها بزمجرته فكأن الرعد يقول للمسلمين إن لم تدركوا علوم هذه الدنيا الجميلة البديعة التى تظهر لكم وقتا بعد وقت فى آيات الوحى البارقة لكم البهجة التى أفادتكم أن كل شئ يسبح وأن الرعد يسبح بحمد ربه فاستعدّوا لغضب الله الدال عليه بزمجرة الرعد

أيها المسلمون إما حياة بالعلم الجليل الذى ينم عنه البرق الذى هو نور الكهرباء السارية فى هذا الوجود واما موت بالجهل الذى يعبر عنه الرعد والصاعقة . وهذا التفسير آخر انذار للمسلمين والمسؤل عن أمم الاسلام هم الأذكياء لاسيما من يعقلون هذا التفسير وأمثاله فى بلاد الاسلام . هذا من سرّ تسمية السورة بالرعد

إن الله تعالى قد اتجهت عنايته لنا فقال انه يرينا البرق فعلينا أن نراه ونفكر فيه هو ومامعه

(١) الانسان له قوى ﴿ ثلاث ﴾ فالعاقلة كالبرق والغضبية كالرعد والحيوانية كالسحاب

(٢) البرق مظهر من مظاهر الكهرباء والكهرباء قد تدخلت فى عموم الماء والهواء والأرض وكذا الحرارة وهناك ماهو أقلّ لطافة من الكهرباء وهوالهواء فتدخله أقلّ وشموله أضعف فهو يتدخل فى الماء بدليل أن السمك يتنفس منه بما خالط منه الماء . ثم الماء تدخله أقلّ فهو يتدخل فى الطين . فالقاعدة أن كل لطيف يكون أعمّ وأشمل لما تحته ويحيط به فالكهرباء والضوء يحيطان بما تحتهم والهواء يحيط بالماء والماء يحيط بالأرض والله فوق الكهرباء وفوق ماتحتها فهو بكل شئ محيط

(٣) الدول لايتمّ نظامها إلا بجيوش جرارة يمثل لها بالرعد وعلوم وعلماء وأمراء ونوّاب يمثل لها بالبرق ألاترى أن المجالس النيابية ومجالس الملوك ورجال العلم أشبه بالبرق اللامع وان كانت الحرب قائمة على ساقها

(٤) البرق فى علم الأخلاق كاللين والرعد كالشدّة فهو ذو بطش شديد وماقبله باسم الثغر جميل الطلعة

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ــ لكل أجل كتاب ــ ﴾

اعلم أن جميع الأشياء محدّدة آجالها وأحوالها ولكنها فى ظواهرها مشكلة غير منتظمة لأحوال وعوارض تطرأ عليها ومن ذلك أعمار الحيوان . إن أعمارها غير واضحة من حيث نهاياتها لعوارض التى تعرض لها كما فى أحوال الانسان ولكن نذكر طرفا منها على مقتضى ماذكره (اللورد أفبرى) فى كتابه ﴿ مسرات الحياة ﴾ وان كان هو نفسه يقول ان ذلك لم يخرج عن حدّ التقريب

الحيوان	عدد السنين	الحيوان	عدد السنين
الارنب	١٠	الخيل	٣٠
الغنم	من ١٠ الى ١٢	الفيل	١٠٠
الكلاب	من ١٠ الى ١٢	الببغاء	١٠٠
الخنازير	٢٠	الغراب	أكثر من مائة

ويقول (همبولدث) ان ببغاء كان يتكلم ولايفهم كلامه لأنه كان بلسان قبيلة هندية منقرضة عن بكرة أبيها . ويقول ان نوعا من السمك يقال له (البنيّ) سريع النموّ يعيش (١٥٠) عاما وأن سمكة من نوع الكراكى طولها (١٩) قدما وزنتها (٣٥٠) رطلا انكليزيا وجدت فى (سوابيا) عام ١٤٩٧ حاملة خاتما منقوشا عليه هذه العبارة ﴿ أنا أوّل سمكة ألقاها بيده فى هذه البحيرة حاكم العالم (فردريك الثانى) فى الخامس من اكتوبر سنة ١٢٣٠ إذن تكون هذه السمكة عمرها ٢٦٧ سنة والزحافات طويلة الأعمار

وقال (غونتر) ان بعض السلاحف عاش ١٥٠ عاما و بعض السلاحف قدروها باعتبار عمرها فكان ذلك (٥٠٠) عاما . وقال (أرسطاطاليس) ان ملكة النحل تعيش (٧) سنين . ويقول (اللورد أفبرى) والعلم لايؤيد هذا أن ملكة النحل قد عاشت عند اللورد أفبرى (١٥) سنة

﴿ لطيفة ﴾

فى سنة ١٩٢٦ نشر محل (رودلف موس) فى برلين الأجزاء الأولى من مؤلف غريب فى بابه اسمه ﴿ فى عالم الأرقام ﴾ وقد ذكر فيه أن عدد الذين تجاوزوا السبعين من العمر فى ألمانيا سنة ١٩١٠ ميلادية

(٩٧٣) ألفا من الرجال ومليون (و٤٠) ألف امرأة • والذين يعمرون أكثر من سواهم هكذا على الترتيب الآتى

رجال الدين • رجال البساتين • الزراع • الصيادون • النجارون • الغزالون • الخياطون الأطباء • الجزارون • الشحاذون

ثم قال إن مقابل كل مائة وفاة من رجال الدين مع مراعاة النسبة والعدد بطبيعة الحال يموت (١١٤) من الزراع و١٤٣ من صيادى السمك و١٤٨ من الخبازين و١٨٩ من الخياطين و٢٠٢ من الأطباء و٢١١ من الجزارين و٣٣٨ من الشحاذين • ومما يناسب هذا المقام ماذكره هو أيضاأن عدد النساء يزيد فى أوروبا على عدد الرجال كنسبة ٥ الى ٤ وفى آسيا بنسبة أقل فكل ١٠٠٠ رجل يقابلهم ٩٧٣ وفى أفريقية ٩٦٨ امرأة فقط فى مقابلةألف رجل وفى استراليا أقل جدا اهـ

﴿ فائدة طبية للصحة ﴾

يقول العالم اليابانى (فوكيسافا) وصايا للناس كى يعمروا طويلا

(١) امتنع عن شرب الشاى والقهوة والمسكر ولاتدخن

(٢) اشرب كل يوم ثمانية أقداح من الماء المقطر الصافى

(٣) خذ فى الاسبوع مرتين حماما بالماء الفاتر

(٤) اغسل أسنانك وفمك أربع مرات فى اليوم (أقول عندنا فى الاسلام ربما كان أكثر)

(٥) لاتغضب

(٦) لاتتأثر

(٧) لاتأكل مأكولات مالحة

(٨) نم مبكرا واستيقظ مبكرا

هذا مانقل عنه • أما أنا فأقول لك من أهم ماجربته فى حياتى للصحة مضغ الطعام جيدا مع المحافظة على ذلك وأن تسير فى الهواء النقى كل يوم زمنا طويلا مع الرياضة وأن تغتسل كل يوم وأن لاتأكل ليلا البتة فان لم تقدر فليكن الطعام خفيفا جدا هنالك تكون الصحة التامة • انتهى تفسير سورة الرعد

تفسير سورة ابراهيم عليه السلام

﴿ هذه السورة مكية سوى آيتين وهما قوله تعالى ـ ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ـ الى آخر الآيتين وهى ٥٢ آية وأقسامها ثلاثة ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ فى قصص الأنبياء الذين أرسلوا لأممهم تبيانا لقوله فى السورة قبلها ـ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك الخ ـ وفى محاورات بينهم و بين أممهم الى قوله ـ ومن ورائه عذاب غليظ ـ

﴿ القسم الثانى ﴾ فى عاقبة المكذبين من قوله ـ مثل الذين كفروا بربهم ـ الى قوله ـ إنّ الانسان لظلوم كفار ـ

﴿ القسم الثالث ﴾ فى دعاء ابراهيم من قوله ـ واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنا ـ الى آخر السورة

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

الر * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ

رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر) تقدم فى آل عمران وستراه فى جواهر ابراهيم. هذا (كتاب) والمراد به السورة (أنزلناه اليك لتخرج الناس) بدعائك إياهم (من الظلمات الى النور) أى من الضلالة الى الهدى (باذن ربهم) بتيسيره والاذن فى الأصل تسهيل الحجاب فاستعير لما يمنحون من التوفيق ثم أبدل من الى النور قوله سبحانه (الى صراط العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) الذى يحمد على انعامه (الله) بالجر عطف بيان للعزيز وبالرفع مبتدأ خبره مابعده (الذى له مافى السموات ومافى الأرض) وهذه الجملة الجميلة قد كررت فى القرآن فى كل سورة وكل قصة للدلالة على أن مقصود هذا الدين أن يخرج فى العالم قوم نجباء حكماء ربانيون فضلاء . نعم سيكون ذلك وسيكون من هذه الأمة بعد ما استبان فى كتب المسلمين المعاصرين لنا أمثال مانبينه فى هذا التفسير من عجائب السموات والأرض وبدائعهما وكيف كان القرآن يحث على كل عجيبة وغريبة . واذ جاء فى سورة يوسف ـ وكأين من آية فى السموات والأرض الخ ـ ثم جاء فى سورة الرعد بما يوضح بعض مطالبها جاء هنا ذكر السموات والأرض كرة أخرى تذكيرا لما بيناه فى سورة الرعد واستبصارا لما ذكرناه وتشويقا لما خلقه فى الأرض والسموات . فياعجبا لأمتنا الاسلامية يكرر على أسماعهم صباحا ومساء فى كل مناسبة وفى كل حالة ـ الذى خلق السموات والأرض ـ وكثير منهم يظنون أن مجرد الايمان يكفى ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر الخبز وسماعه عند الجوع كافيا فى الشبع فوالله لم يكرر هذه الجملة رب السموات والأرض بلاسبب بل جعلها تذكيرا وترغيبا وتشويقا الى صنعة الحكيم الخبير ـ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ـ وتعجب كيف أتى بعدها بقوله (وويل للكافرين) الذين غفلوا عن السموات والأرض وبدائعهما وهم مخلوقون بينهما وكيف يسلمون من العذاب وهم أتوا الى الأرض وراحوا منها صفر اليدين فتركوا عقولهم وشغلوا بالامور المحسوسة التى فطروا عليها لقصد حياتهم وحياتهم انما جىء بها لكمالهم ففغلوا عن الكمال ومالوا الى الوقوف عند حد المألوف فحبسوا فى سجن الشهوات الى الممات فويل لهم (من عذاب شديد) معدّ لهم فى الآخرة بل ما أشد عذابهم فى الدنيا حينما يسمعون أن قوما أعطوا علما وهم منه براء قد حبسوا عنه وتحسروا عليه وهم غافلون * والويل ضد الوأل وهو النجاة أى هلاك لهم مبتدأ وخبر . ولما كان

هؤلاء المحبوسون فى سجن الأنفس عن جمال السموات والأرض قد حصروا عقولهم فى هذه الحياة أخذوا يصدّون غيرهم عن معرفة الحقائق السماوية والأرضية وعن الايمان ليكونوا مثلهم لأن النفس تحب أن يكثر أمثالها لذلك وصف الله الكافرين بقوله (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها) يطلبون لسبيل الله (عوجا) زيغا واعوجاجا والأصل يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير (أولئك فى ضلال بعيد) فهؤلاء ضلوا عن الحق وذهبوا عنه بمراحل وليس الضلال هو الذى يبعد وانما البعد لنفس الضال فوصف الضلال بالبعد مبالغة لما بينهما من الملابسة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) بلغة قومه الذين نشأ بينهم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفقهوه بسهولة وسرعة فاذا كان الرسول مرسلا لقومه خاصة فلامراء فى ذلك فأما اذا كان دينه عاما كنبينا ﷺ فهناك مجال الترجمة والنقل وذلك داع الى الاجتهاد والكد وذلك فيه ترقية لنوع الانسان فارتقاء العقول على حسب الاطلاع واعمال الفكر واستقامة الأعمال أى وهذا الكتاب أنزل بلغة العرب وهو يتلى عليهم فأىّ عذر لهم ان لم يفقهوه وما الذى صدّهم أن يدرسوا ماذرأ الله فى الأرض والسموات حتى يعرفوا صدق آياته انهم ﴿فريقان﴾ فريق هداه الله وفريق حقت عليه الضلالة وان كان القرآن بلسانهم جميعا فلذلك قال تعالى (فيضلّ الله من يشاء) فيخذله عن الايمان (ويهدى من يشاء) بالتوفيق (وهو العزيز) فلا يغلب مشيئه غالب (الحكيم) الذى لايضل ولايهدى إلا على مقتضى الحكمة والنظام • ولما كان سيدنا محمد ﷺ قد أرسل لاخراج الناس من الظلمات الى النور ذكر الله قصة موسى مختصرة وفيها نص ماجاء فى أوّل السورة ليأنس الناس بقصص الأنبياء وأن الله لم يترك أمّة من الأمم إلا وأرسل لها هداة يهدونها وهذا موسى قال الله فيه (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) كاليد والعصا (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) أن تفسيرية بمعنى أى لأن فى أرسل معنى القول (وذكرهم بأيام الله) بوقائعه فى الأمم السابقة * يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم فما من أمّة إلا ولها وقائع تشمل النعمة والنقمة فالنعمة للمؤمنين منهم والنقمة للكافرين ومنها وقائع بنى اسرائيل أنفسهم فانهم ابتلوا بالاستعباد نقمة وبالنجاة من فرعون وقومه نعمة فيرجع الأمر الى الترغيب والترهيب (إنّ فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى ان فى وقائع الأمم الماضية وحوادثها وما أنعم الله به عليهم من السراء بعد ما أصابهم به من الضراء لآيات لكل من يصبرون على البلاء ويشكرون على النعماء فهؤلاء متى عرفوا ما أصاب من قبلهم من الكوارث وكيف صبر قوم فنالوا أعلى الدرجات ولم يصبر آخرون فنزلوا فى أدنى الدركات اعتبروا وقاسوا ماحلّ بأنفسهم على ماحلّ بمن قبلهم وجاهدوا فى الحياة والعلم جهادهم واذن ينالون مثل مانالوا • فأما ماسوى الصابرين الشاكرين على النعم الذين يصرفون كل ما أنعم الله به عليهم فيما خلقوا لأجله فانهم لاينتفعون بذلك • إن الانسان فى الحياة بين صبر وشكر أبدا فهو إما فى مكروه واما فى محبوب فان صبر على الأوّل وانتهز فرصة النعمة بالثانى وصرفها فيما خلقت له فذلك هو الذى اعتبر بالقرون الخالية والأمم الماضية ولاسعادة بغير الصبر والشكر ومن الشكر صرف الحواس فيما خلقت له وعدم ضياعها سدى ومنه انتهاز فرص الحياة فلايمرّ وقت على الانسان بلا عمل

إن الوقت ذهب ومتى ضاع من حياتنا لحظة بلاعمل أسديناه ولاعلم حررناه ولابناء أقمناه ولامجد بنيناه فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بالأجيال البائدة والأمم الغابرة • إن الحياة لنا فرصة عظيمة فلنشكرنّ الله والشكر صرف كل ما أعطيناه فيما خلق له فليخف كل امرئ من ضياع حياته بلاعمل يليق به وليخف من ندم أبدى وحزن سرمدى على وقت يضيع وعذاب مريع

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله فقال الله (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون) أى اذكروا نعمة الله وقت انجائه إياكم الخ فاذ متعلق بنعمة

وقوله سبحانه (يسومونكم سوء العذاب) يعذبونكم بأشد العذاب كما تقدم في سورة يونس مما نقلناه عن اللغة (الهيروغليفية) والآثار المنقولة عنهم يقينا من الضرب والاذلال (ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) هذه أحوال من آل فرعون (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أي ابتلاء وهذا يوم من أيام الله معكم ففيه نقمة التعذيب وغيره وفيه نعمة الانجاء ولذلك أعقبه بما هو كالنتيجة له فقال (واذ تأذن ربكم) أي آذن كتوعد وأوعد وهو من كلام موسى أي واذكروا يابني اسرائيل حين أعلم ربكم فقال (لئن شكرتم) يابني اسرائيل ماخولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من نعمي كالسمع والبصر والسماء والأرض ومافيهما بالعلم بما فيهما والعمل الصالح كالصلاة والطاعات (لأزيدنكم) فانه ثبت عقلا وعلما أن العضو الذي يناط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة على قوة وكلما عطلناه عن العمل ضمر وانحل وضعف . هكذا جميع النعم ان استعملت فيما خلقت له بقيت وان أهملت ذهبت وهذا قوله تعالى هنا ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ (ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد) بحرمانكم من النعم وسلبكم من المواهب وثمراتها في الدنيا والآخرة فتعذبون في الدنيا بزوال النعم وفي الآخرة بجهنم وبئس القرار على أن الله لم يطلب الشكر من العباد لمصلحة ولا للتسخير واذلال بل أمر بذلك رحمة منه فمن لم يقبل طبعه ما أهدى من النعم فالله غني عنه مستحق للحمد في ذاته تنطق بحمده الذرات في جميع المخلوقات وهذا قوله تعالى (وقال موسى إن تكفروا) الى قوله (غنيّ حميد) ولما ذكرهم موسى بنعمة الانجاء من آل فرعون وحذرهم من عاقبة كفر النعم أخذ يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السابقة والأجيال البائدة بطريق عجيب وأسلوب بديع ونظام طلي ومقال جلي فذكر القول اجماليا وأوضح المحاورة ايضاحا حسنا بهيا إذ أرسل موسى عليه السلام القول كالمحاورة بين الأمم والأنبياء على النهج العام في هذا المقام فذكر أن قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أمم جلت عن الاحصاء • غاب عن الناس علمها وعند الله احصاؤها (جاءتهم رسلهم بالبينات) كما جاء نبينا ﷺ بها وتليت على الناس ليعتبروا (فردّوا أيديهم في أفواههم) أي عضوها غيظا مما جاءت به الرسل كما حصل من العرب للنبي ﷺ وغاظهم الحقد والحسد والغضب فنطقوا بما تكن قلوبهم (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) بزعمكم وزادوا ذلك تأكيدا فقالوا (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) موقع في الريبة وهي قلق النفس فردّ الرسل عليهم وقالوا (أفي الله شكّ) همزة الانكار دخلت على الجار والمجرور لأن المقام مقام المشكوك فيه أي انما ندعوكم الى الله وهل هو محتمل الشك ووصفه بما هو برهان وهو عين البرهان المذكور في أوّل السورة فهناك يقول ـ الى صراط العزيز الحميد * الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض ـ وهنا في محاورات الأنبياء جاء بنفس الوصف فقال واصفا الله (فاطر السموات والأرض) فالعبارة متحدة عند الأنبياء في كلام موسى وعند صاحب شرعنا ﷺ وكل نبي منهم جعل مطمح نظره توجه النفوس الى علوم السموات والأرض فأوّلا يؤمنون ثم بعد ذلك يزدادون بقبول النعمة التي في السموات والأرض والا نزل بهم العذاب ثم قال (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) لأنهم ملوثون بالجهالة والمعاصي فعبر الله بمن هنا وفي كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين لأنه يخاطبهم في أمر الايمان وحده فأما المؤمنون فان مغفرة ذنوبهم موجهة الى المعاصي فلذلك قيل لهم ـ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ـ الى قوله ـ يغفر لكم ذنوبكم ـ وهكذا كثير من الآيات في القسمين وعطف عليه قوله (ويؤخركم الى أجل مسمى) آخر أعماركم فردّ الأمم على الأنبياء (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) لافضل لكم علينا فلم اختصصتم بالنبوّة دوننا وذلك كما حصل للنبي ﷺ فانهم قالوا ـ لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ يريدون أن النبوّة يجب أن تكون تبع الثروة والغنى فكيف عكس الأمر هنا • ثم اقترحت الأمم على الأنبياء ما اقترحه العرب على نبينا ﷺ كما تقدم في سورة الرعد وهذه السورة جاءت لاتمام هذا المقام وغيره كما جاءت سورة الرعد وأتمت مقام العجائب السماوية

والأرضية على مقتضى الحال وهذا قوله (تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا) ولاحجة لكم عليه وليس يجوز فى العقل أن نترك أمراً بدون أن نتحقق خطأه (فأتونا بسلطان مبين) على صحة ماتدعون من النبوّة فأما ذكر السموات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفل بها وانما القاهر القادر هو الذى يخرق النواميس و يغير النظام و يأتى بخوارق العادات . فأما العجائب الأرضية والسماوية فلسنا نعقلها وأن سائر البشر ليخضعون لمن يأتى اليهم بما هو خارج عن طور معتادهم فيعظمونه و يبجلونه وهذه المشاهدات المحسوسات لانرى فيها شيأ خارقا للعادة فلا ايمان ولاتسليم إلا بما فوق طاقتنا كقلب العصا حية ونقل الجبال مثلا وما أشبه ذلك فأما السموات والأرض فذلك أمر لايعطى دليلا ولايغنى فتيلا ولاقطميرا وأن طباع جهلة الناس تحملهم على الخضوع للذين يفعلون كل ما خالف العادات ولو بطريق التمويه فردّت عليهم رسلهم مسلمين أنهم بشر مثلهم ولكنّ الله منّ عليهم . فأما الآيات المقترحات التى تقترحونها فلا تكون إلا باذن الله وعلى المؤمن أن يتوكل على الله و يفوّض اليه أمره ونحن أوّل المؤمنين فى أممنا وكيف لانتوكل على الله وقد هدانا الى سبل المعرفة ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكر الله عليها بالعمل بها وليصبر على مايصيبه فى سبيلها كما تدل عليه وقائع الله وأيامه فى الأمم . واذا كنا نحن هداة الأمم فلنصبر على ايذائكم ولنشكرن على الهداية فندعوكم لله وهو شكر لنعمة الهداية كما نصبر على أذاكم وهذا عين ماجاء فى أوّل السورة ـ وذكرهم بأيام الله إنّ فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ـ فههنا تجلى الصبر وتجلى الشكر على لسان الأنبياء أنفسهم فشكروا الله لهدايته الناس وصبروا على أذاهم وهذا هو الكمال الذى جاء فى القرآن لنا معاشر المسلمين فلم تنزل هذه السورة إلا لنا . فمن عنده مال أوعلم أونعمة فلينفع بها الناس كالنهر يسقى الزرع والشمس تضىء وليصبر على أذى الناس فى جهادهم كما نرى الناس يغفلون عن ذكر أكثر النعم التى حولهم فهكذا الأنبياء أرسلوا لأممهم ولم يبالوا بايذائهم لأن الهداة خلقوا ليعملوا ولم يطلب منهم أكثر من ذلك فهم هداة بطباعهم ولذاتهم فى قلوبهم ومنهم تنقل الى الناس وهذا قوله تعالى (قالت لهم رسلهم إن) ما (نحن إلا بشر مثلكم ولكنّ الله) الى قوله (ومالنا) أى وأىّ عذر لنا فى (أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى طرق المعارف والعلوم التى نعرفه بها (ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) جواب لقسم محذوف أى والله لنصبرنّ (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليثبت المتوكلون على ما اتصفوا به من التوكل فلما أجاب الرسل بذلك هدّدتهم الأمم بالقوّة بعد الجدال وأنذروهم بالاخراج من أرضهم وهو بعينه ماحصل لنبينا ﷺ بعد نزول هذه السور إذ أخرج من مكة فأوحى الله اليهم بهلاك الظالمين وأن الأنبياء وتابعيهم يرثونهم فيسكنون الأرض من بعدهم واستنصر الأنبياء ربهم فنصرهم وأفلح المؤمنون وخاب كل عات متكبر وهذا أيضا عين ماحصل لنبينا محمد ﷺ فانه أخرج الى المدينة ونصر فى غزوة بدر وخاب كل عات متكبر من قومه . ثم وصف عذاب هؤلاء بعد الموت بعد ما وصف هلاكهم فى الدنيا فأفاد أنهم يدخلون جهنم و يسقون فيهامايسيل من الجلد واللحم من القيح و يتحساه ذلك المتكبر مرة بعد مرة لحرارته ونتنه ولايقدر على ابتلاعه وتحيط به أسباب الموت من كل مكان وماهو بميت وله عذاب غليظ غير ذلك وهذا قوله تعالى (وقال الذين كفروا) الى قوله ـ غليظ ـ ثم قال (فأوحى اليهم ربهم) أى قائلا (لنهلكنّ الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) تفسيره ظاهر (ذلك) أى الموحى به (لمن خاف مقامى) موقفى وهو موقف الحساب (وخاف وعيد) أى عذابى (واستفتحوا) استنصروا الله على أعدائهم معطوف على ـ فأوحى اليهم ـ (وخاب كل جبار عنيد) أى وخسر كل عات متكبر (من ورائه جهنم و يسقى من ماء صديد) عطف بيان لماء وهومايسيل من جلود أهل النار وهوالقيح فهو شراب أهل النار (يتجرعه) يتكلف جرعه وهو صفة الماء أى يشرب به جرعة بعد جرعة (ولايكاد يسيغه) أى ولايقارب أن يسيغه بل يغص به فيطول عذابه * يقال ساغ الشراب جاز على الحلق بسهولة واذا لم يقارب أن يسيغه

فكيف يسيغه (و يأتيه الموت الخ) أى أسبابه (وماهو بميت) فيستريح (ومن ورائه) أى من بين يديه (عذاب غليظ) أى يستقبل فى كل وقت عذابا أشدّ مما هو عليه اهـ التفسير اللفظى

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ وذكرهم بأيام الله إنّ فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ـ ﴾

اعلم أن كلام الله عزّوجل سيد الكلام واذا كنا نجد الأمم اليوم اذا سمعت قول وزير أوملك فى خطبة موجزة لاتبلغ بضعة أسطر تهتزّ الأسلاك البرقية (التلغرافات) والمسرات (التلفونات) وتصدر الجرائد والمجلات فى العالم كله بشرح ذلك وتفهيمه بحيث يكتب على الجملة الواحدة مالايحصر باللغات المختلفة فى الشرق والغرب فربما بلغ ذلك حمل بعير لوجمعه الناس أوأكثر فما بالك بقول الله الذى هو ملك الملوك

﴿ حكاية ﴾

اطلع أحد الفضلاء على ما جاء فى هذا التفسير فى قوله تعالى ـ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ـ فرأى أنه ربما يصل الى (١٥) صفحة فقال هذا كثير . فقلت أتدرى كلام من هذا . هذا كلام الملك (فادرك) . قال صدقت فهاأناذا الآن أبين منزلة هذه الجملة من السورة التى نحن بصددالكلام عليها وانها هى المقصودة منها ثم أقفى بقبيان وجيز لما كان من حوادث الدهر وأفعال الله عزّوجل بالأمم الاسلامية المتأخرة ونحوها ثم أذكرأن العلماء بعدنا عليهم أن ينهجوا هذا النهج أى أنهم يؤلفون كتبا ورسائل يفهمون المسلمين بها أيام الله وأن هذا هومن أخص مافى دين الاسلام والعناية به أفضل من العناية بعلم الفقه مع فضله ونفعه العميم

﴿ منزلة هذه الجملة من السورة كلها ﴾

لله درّ العلم وما أجل الحكمة وأبدع البيان والبلاغة . ابتدأ الله السورة (١) بأنه أنزل هذا القرآن ليخرج الناس من الظلمات الى النور (٢) وثنى بأن كل رسول يعلم بلسان قومه (٣) وأبان أن موسى قبلك يامحمد جاء ليخرج قومه من الظلمات الى النور (٤) وكأنه هنا قيل . بماذا أخرج موسى قومه من الظلمات الى النورحتى يخرج محمد أمّته من الظلمات الى النور بالطريق الذى سلكها موسى فقال ـ وذكرهم بأيام الله ـ وهذا بيت القصيد فى السورة لحوادث الله ووقائعه فى الأمم ونعمه و بلاؤه بتذكرها يخرج الناس من الظلمات الى النور ﴿ خطة موسى فى التذكير بأيام الله ﴾ (٥) ذكرهم بنجاتهم من فرعون

(٦) و بأن الشكر يجلب المزيد والكفر يورث العذاب (٧) وذكرلهم وقائع الأمم السالفة

(٨) وهلاك الكفار منهم وحسن العاقبة لأنبيائهم بعد صبرهم على التبليغ والايذاء

(٩) كل امرئ مسؤل عن نفسه فالضعفاء مسؤلون وان زين لهم الشيطان أعمالهم وغرّهم الرؤساء

(١٠) وقصارى الأمر وجماداه أن الحكمة اذا بدئ بها فى أمّة عمت فهى كشجرة أصلها فى العقول وفرعها فى الأمم جيلا بعد جيل وهذا الاجمال تفصيله فى ذكر خلق السموات والأرض وانزال المطر واخراج الثمرات وجرى السفن وجرى الأنهار والشمس والقمر ومافوق ذلك من نعم لاتحصى . هذا هو أهمّ أيام الله وما تقدّم مقدّمات له فهوأعظم التذكير بتلك الآيات . وختم السورة بدعاء ابراهيم ألا يكون أبناؤه مقلدين جامدين وعبر عن هذا بعبادة الأصنام وختم السورة بما ابتدأها وهو انه بهذا يذكر أولو الألباب

يقول سبحانه أوّلا ذكرهم بأيام الله ويختم القول بأن هذا القول فى هذه السورة كفاية للناس أى ان الموعظة بحوادث الأمم كاف لارتقاء الشعوب اذا تذكروه وعقلوه فبدأ بالذكرى وختم بها . إذن المقصود من السورة كلها هذا البلاغ وهو التذكير بأيام الله

﴿ كيف نذكر الناس اليوم بأيام الله ﴾

اعلم أن هذه السورة وحدها كافية لارشاد الأمم الاسلامية على شريطة أن تكون لنا عقول وأفهام حتى

نعلم الأمم الاسلامية . ألا وان هذه جملة واحدة كافية لسعادة الأمم الاسلامية فوالله لولم يكن هناك قرآن غيرها لكفت وهذا هوقوله ـ بلاغ ـ فهذه الجملة وتوابعها كفاية لاسعادتنا اذا كنا عاقلين فبشرحها وتذكير الناس بما حولنا وماسبق لنا ننقذ أممنا من الهلاك . فأماقراءة القرآن واعرابه والصلاة به وكثرة الثرثرة بأن القرآن بليغ أوفصيح فالاقتصار عليه صفة العاجزين فوالله مانزل القرآن إلا لما هوأرقى من البلاغة والفصاحة التى صارت مشهورة لاكتها الألسن وأنستها الطباع فلنهجم على المقصود من القرآن ونقول . أنظر كيف قال أن كل رسول مرسل بلسان قومه. لماذا ذكر هذه هنا وأتبعه بقوله ـ ليبين لهم ـ وأى مناسبة لها بهذا المقام فاعلم انه أوردها هنا ليفهمنا أنه ليس المدار على مجرد القول بل المدار على البيان والتفهيم . فاذا كان الرسل جاؤا بلسان قومهم فهذا معناه أن المدار على مايؤثر فى العقول ومن ذلك حوادث الأمم وأيام الله فاذا ذكر موسى بنى اسرائيل بما وقع لهم وللأمم قبلهم فليذكر علماء الاسلام وحكماؤه ووعاظه الأمم الاسلامية بالوقائع التى هى أقرب أثرا وأشد وقعا . فاذا قال موسى لقومه أنتم خاصتم من ذل فرعون ونجوتم فاذكروا هذه النعمة فان لم تشكروها عذبتكم فليس معناه أن عالم الاسلام يقول هذا القول حين يفسر للمسلمين . كلا ثم كلا . عالم الاسلام الذى يقوم بنشر الدين يصطفى من الحوادث ما يؤثر فى عقول الأمة حاذيا فى ذلك حذو موسى عليه السلام إذ اصطفى مايناسب قومه وذلك انما أخذناه من قوله تعالى ـ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ـ فالمدار على البيان الذى يعقله القوم فالقرآن نزل لننسج على منواله ونذكر الناس بما يناسب عقولهم . هذه هى عجائب القرآن التى يعجز عنها الفصحاء والبلغاء والحكماء . كلام عام مملوء حكما وغرائب

﴿ هذا تذكيرى للمسلمين ﴾

هاأناذا أبدأ بتذكيرى للمسلمين (١) ذل الأمم العربية قبل ظهور الاسلام (٢) عزهم باتباع الاسلام واجتماع كلمتهم (٣) فتحهم بلاد الله شرقا وغربا (٤) انتشار اللغة العربية التى صارت أداة التفهم بين أمم فى الشرق والغرب (٥) ترجمة العلوم ونبوغهم فيها (٦) انحطاط العلم فى بلاد الاسلام بعد ارتفاع شأنه

(٧) اضطهاد العلماء بنظام هذا الوجود الذى هو أهم أيام الله فى السورة كنظام الفلك والطبيعة وأخصهم ابن رشد (٨) انتقال العلم بعد أن هجره المسلمون على يد تلاميذ ابن رشد الى أوروبا

(٩) تفوق الاوروبيين على المسلمين فيها اليوم (١٠) اضمحلال الدولة العباسية فى الشرق والأموية فى الأندلس ثم هلاك المسلمين وطردهم من أوروبا وهلاك الأمم الجاهلة كأهل أمريكا الأصليين وأهل استراليا الأولين . كل ذلك لأنهم لم يستيقظوا من الغفلات . هذه هى الذكريات التى سأذكرها للأمم الاسلامية اجمالا ليعلموا مستقبلهم ويقيسوا المستقبل على الماضى اقتداء بموسى عليه السلام الذى قال الله لنبيه ﷺ فيه وفى أمثاله ـ فبهداهم اقتده ـ والنبى ﷺ الآن عند ربه وقد جاء فى القرآن فى سورة الأنفال وغيرها تذكير المسلمين بأيام الله فى أحوالهم الخاصة كما فعل موسى عليه السلام . فموسى أخرج قومه من الظلمات الى النور بالكلام على فرعون ونجاتهم منه وهكذا ومحمد ﷺ ذكر الله على لسانه فى سورة الأنفال مايناسب المسلمين . أنظر ماهناك فقد ظهر (١٤) حادثة فى وقعة بدر بينها الله كلها تذكيرا للمسلمين فذكر البشارة بالملائكة وكيف غشيهم النعاس وقت الشدة وكيف نزل الماء لهم فتطهروا وكيف ثبتت الأقدام وهكذا مما تجده واضحا هناك فى التفسير . فاعجب للقرآن كيف ذكر الله المسلمين بوقائعهم على لسان الرسول ﷺ وذكر بنى اسرائيل بوقائعهم وهذا من غرائب القرآن . أنا الآن أعتقد أنك ايها الذكى مقتنع . إنى اذا ذكرت المسلمين اليوم فانما أذكرهم بما هوأحسن من الحوادث وأقرب لهم وذلك فى كل زمان بحسبه . هذا هو دين الله

فلاشرح

فلأشرح هذه الفصول على ترتيبها فأقول

﴿ الفصل الأوّل من أيام الأمم الاسلامية ﴾

لما وصلت الى هذا المقام اطلع عليه صديق مخلص عالم فقال

(س) إن هنا خطوة واسعة لم أجدها فى هذا التفسير من قبل . إن ما أزمعت على تسطيره اليوم من الغرابة بمكان لأنك هنا ستجمع ملخص ماوصل الى العرب من العلم وأهمّ ماجاء فى الكشف الحديث اجمالا وما انتاب المسلمين من حوادث الدهر والقهر والجهل وسيكون هـذا المقام حافلا بامور شتى . فخذنى على هذا تقتضيه هذه الجملة ـ وذكرهم بأيام الله ـ

(ج) فقلت أرأيت لوسمع المسلم قارئا يقرأ ـ إنّ الصـلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ـ وأخـذ يكرّرها ألفى مرة كل صباح وكل مساء فهل يكون مصليا بهذا . قال كلا بل قارئا فقط . قلت وهكذا فى الزكاة والحج . قال نعم . قلت هكذا هنا فاذا سمعت هذه الآية فليس معناه انك تقرؤها أوتفهم معناها أوتعربها أوتعرف بلاغتها فحسب فـكل هذه صناعات لتعليم الصبيان كيف يفهمون ونحن الآن فى مقام العلم والحـكمة ومقاصد القرآن فاذا كانت الصلاة والزكاة غير الأمر بهما فهكذا التذكير للمسلمين غير الأمر به . واذا كان المسلمون ألفوا للصلاة وللزكاة كتبا فأولى ثم أولى تذكير المسلمين بالوقائع التى حلت بساحتهم أوكانت قريبة منهم حتى يحترسوا مما وقع فيه أسلافهم كما سأفصله قريبا وما دام المسلم لاهيا عما حـدث له فى نفسه فانه لايعتبر ولايتذكر فى أخلاقه ورقيه . هكذا الدولة اذا جهلت ما أحاط بها من النافع والضار والحوادث التى جرت عليها وعلى أسلافها فانها واقعة فى الهلاك عاصية ربها معرضة للعذاب فى الدنيا والآخرة وهناك يقال لها ـ يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها الخ ـ

(س) فقال كيف تقول ان التأليف فى هذا أولى من التأليف للصلاة (ج) قلت ستعرف هذا من الحوادث التى مرّت بالمسلمين وانهم بالأندلس بعد ما استقروا هناك وعاهدهم المسيحيون على تأدية العبادة وحرّيتهم فيها غدروا بهم وألزموهم ترك الغسل من الجنابة وترك الصلاة فاذا أفاد المسلم من علم الصلاة وهو لاواق له ولا حافظ يحفظ سلامته وأمنه فى دياره . وهكذا سترى قريبا كيف كان جهل المسلمين أيام (قطب أرسلان) وهجوم التتار والمغول على المسلمين فقد كانوا جهلاء بقوّة جيرانهـم فانقضوا عليهم على غرّة وهـم ساهون وهكذا بلادنا المصرية لما انقضّ عليها الفرنسيون فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى كانوا يجهلون قوّة عدوّهم ويغترون بأنفسهم بل كانوا يجهلون ما أمر به الدين الاسـلامى من الحجر الصحى أيام الطاعون الذى ورد به الحديث والفرنسيون يأمرونهم به وهم لايعلمون أنه فى الحديث الشريف وفى أعمـال عمر بن الخطاب وعدّوه عملا وحشيا . كل هـذا ستراه قريبا . فاذا ذكرنا المسلمين بمثل هذا فانهـم يعرفون أن الدين الى الآن لم يدرس ولم يعرف إلا قشوره ويؤلفون فى كل علم وفنّ لجهل قوّة الدول وجهل الامور الصحية التى ورد بها الحديث مثلا كالحجر الصحى . كل ذلك يذل الأمم فاذا تذكرناه احترس أبناؤنا من الوقوع فيه بعد الآن لاسيما أن هذه تعدّ فى الاسلام من فروض الـكفاية وفرض الـكفاية قال جمع من العلماء ان ثوابه أفضل من فرض العين لعموم نفعه للناس قاطبة ولأن فرض العين ربما لايتمّ إلا بكثير من فروض الـكفايات فهو أشبه بالحارس لفرض العين وكيف تعيش فى بيتك ان لم تـكن آمنا لذلك يكون القول بفضله على فرض العين وجيها

(س) قال إذن ذكرنى قبـل أن تذكر المسلمين لأنى أوّل من اطلع عليه فليكن محاورة بينى وبينك حتى تألفه النفوس وتأنس به العقول

(ج) فسل ماتريد

(س) فاذكر الفصل الأوّل من الفصول التى تريدها وهو الكلام على ذلّ الأمم العربية قبل ظهور الاسلام

(ج) إن هذا المقام سهل المنال معلوم لقراء هذا التفسير إذ هم غالبا يعرفون أن العرب كانوا متفرقين شراذم مختلفين طرقا ومشارب كانت آلهتهم كما قال سديو الفرنسى بهائم ونباتات وغزلانا وخيلا وجمالا ونخلا وأعشابا وأجساما معدنية لانظام لها وصخورا وأحجارا وأصناما كهيكل اللات والعزى ونجوما كالدبران والشعرى اليمانية وسهيل ومنهم يهود تعلموا من اليهود الذين حلوا بلادهم بعد أن طردهم اليونانيون والسريانيون وذلك فى بعض بلاد الحجاز واليمن ومنهم براهمة فى بلاد عمان ونصارى فى غسان وفى العراق والبحرين ودومة الجندل وهكذا . ولاجرم أن تفرق العقائد والأخلاق يتبعه اضطراب السياسة ولذلك كانت بلادهم معرضة للأمم المحيطة بهم فكانت اليمن تغزوها الحبشة ولم تخلص منها إلا قبيل البعثة وغسان فى الشام تتبع راية الروم والمناذرة فى الحيرة وما والاها يتحكم فيهم الأكاسرة بالفرس كما قال الله تعالى ـ إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوأ فلامردّ له ومالهم من دونه من وال ـ

(س) كفى هذا فى الفصل الأوّل الذى هو كالمقدّمة لما يجب الكلام فيه

(ج) فلنشرع فى الفصل الثانى وهو اجتماع كلمتهم مع الفصل الثالث والرابع وهو فتحهم البلاد وانتشار لغتهم العربية . لقد فتح المسلمون البلاد ونشروا الدين ثم تقدّمت الفتوحات وجاسوا خلال الشام والفرس الى نهر السند والى بحر قزوين وجميع شمال أفريقية ومعظم جزيرة اسبانيا وهدّدوا فرنسا بالغارة عليها ولكن ردّهم ملكها (كرلوس مرتيل) حين هجمت جيوش عبد الرحمن الأموى عليها وذلك فى اقليم (لواره) وعظم ملكهم ونظام بلادهم حتى إنك لترى فى كتاب (سديو) الفرنسى أنهم برعوا فى الجغرافية التخطيطية وانهم لما امتدت مملكتهم من المحيط الاطلانطيقى الى تخوم مملكة الصين أنشؤا بالتدريج أربع طرق عظيمة تجارية توصل من مدينة (قادس) و (طنجة) الى أقصى آسيا (١) احداها تخترق اسبانيا وأوروبا و بلاد (سلاوونه) الى بحر جرجان ومدينة بلخ و بلاد (تجزجز) كذا والثانية تخترق بلاد المغرب ووادى مصر ودمشق والكوفة و بغداد والبصرة والأهواز وكرمان والسند هند . والثالثة والرابعة تعبران البحر الأبيض المتوسط وتتجه احداهما من الشام والخليج الفارسى والأخرى من الاسكندرية والبحر الأحمر للتوصل الى بحر الهند وساعدهم على ذلك علماؤهم بالأزياج كمثل (البتانى) بالرقة سنة ٩٠٠ ميلادية (وابن يونس) بالقاهرة سنة ١٠٠٠ وهكذا ابن حوقل والأصطخرى والمسعودى حوالى نصف القرن العاشر الميلادى . وهكذا الكومى سنة ١٠٦٧ ميلادية فكثرت بهذه الطرق السياحات ونقل السياحون ماعند العرب من الآراء والمدنية واستفاضت الأخبار الجليلة فتنوّرت أذهان الملاحين وعرّفتهم الأخطار التى يخشى عليهم الوقوع فيها اذا سافروا فى ولايات غير معروفة معرفة تامة

فقال صاحبى كفى هذا فى الفصل الثانى والثالث والرابع فقد حصلت صورة واضحة تبين الاجتماع والمدنية بعد الافتراق والهمجية فى الأمم العربية خصوصا والاسلامية عموما وفتح البلاد وانتشار اللغة

﴿ الفصل الخامس فى أمرين ترجمتهم للعلوم ونبوغهم فيها ﴾

(ج) أما الترجمة فانها كانت فى عهد العباسيين على ﴿ ثلاثة أدوار ﴾ الدور الأوّل من خلافة أبى جعفر المنصور الى وفاة هارون الرشيد من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ ومن المترجمين فيه يحى بن البطريق وجورجيس بن جرئيل الطبيب وعبد الله بن المقفع ويوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش و باسيل المطران فترى المجسطى ترجمه الأوّل والثالث ترجم الكتب المنطقية لأرسطاطاليس وهكذا . والدور الثانى من ولاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠ والمترجمون فيها أمثال يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطاس بن لوقا البعلبكى وعبد المسيح ابن ناعمه وحنين بن اسحق واسحق بن حنين وثابت بن قرّة الصابى وهكذا فى هذه المدّة ترجم أغلب كتب بقراط وجالينوس وأرسطاطاليس و بعض كتب أفلاطون . والدور الثالث من سنة ثلثمائة الى منتصف القرن

الرابع والمترجمون أمثال متى بن يونس وسنان بن ثابت بن قرة ويحيي بن عدى وأبي على بن زرعة وهلال بن هلال الحمى وأكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطاطاليس وبالمفسرين كالاسكندر الافروديسي ويحيي النحوي . هذه هي أدوار الترجمة ملخصة من كتاب الاستاذ (سنتلانه) الطلياني . أما نبوغهم فيها فاسمع ما قاله (سديو) الفرنسي المتقدم ذكره . قال في صفحة (٢٠٨) من الكتاب المترجم بالعربية ترجمه أستاذنا على مبارك باشا قال ماملخصه ﴿ اقتدى بالمنصور من بعده في نشر العلوم وتوسعة دائرتها زمن اهمالها بجميع بلاد أوروبا بجلبهم من الأقاليم التي فتحوها علماء لترجمة أعظم كتب اليونان وانشائهم مكاتب عامة ومدارس يتعلم بها الخاص والعام مثل كتب أرسطاطاليس وسقراط وجالينوس ودسقور يدس واقليدس وأرشميدس و بطليموس وأبولونيوس مع تعليم متن القرآن وتدريس تفاسيره وبانشاء جمعيات العلماء واغداق النعم من المهدى والرشيد على علماء النصارى الذين ترجموا الكتب اليونانية والفارسية الى السريانية والعربية واشتهر إذ ذاك (ماشاء الله الفلكي) المؤلف في الاسطرلاب ودائرته النحاسية وأحمد بن محمد النهاوندي وهما أقدم علماء الأرصاد من العرب وحجازى بن يوسف أول من ترجم كتاب اقليدس الى العربية وكفى بالساعة الدقاقة المتحركة بالماء التي بعثها هارون الرشيد الى (شرلمانيه) ملك فرنسا شاهدا على رفعة درجة الفنون لدى العرب إذ ذاك الخ . وجاء في المبحث الثاني والعشرين من هذا الكتاب ماملخصه قال

أدرجنا في الأبحاث السالفة مؤلفي العرب والفرس لانتساب سائرهم الى مدرسة واحدة ولأن الاصطلاحات العلمية التي جرت عليها المشارقة كان سائرها ألفاظا عربية لتغير صورة اللغة الفارسية الى العربية منذ زمان طويل بممارسة القرآن والحركة العقلية الفاشية في القرن الثامن بعد الميلاد منذ تولى بنو العباس منصب الخلافة وظهر التمدين العربي المتسع به نطاق لسان العرب الذى أدخله مترجمو الكتب اليونانية في الاصطلاحات فسهل انطباقها على المعلومات التصورية التي عزا الفرنج اختراع أكثر ما كشف منها الى علماء منهم كانوا في القرن الخامس عشر والسادس عشر مع أن اختراع أكثرها ما كان إلا للعرب الذين اجتهدوا في تقدم العلوم

قال . ونلخص لك اجتهادهم فنقول . وههنا ذكر المؤلف الفرنسي المذكور مسائل تصعب على بعض قراء هذا التفسير لأنها اصطلاحية في العلوم ﴿ الأول ﴾ مثل الكلام على حل المعادلات التكعيبية واستبدال الأوتار بالجيوب وتطبيق الجبر على الهندسة وادخال الخطوط المماسة في حساب المثلثات وهكذا وقال إنا شاهدنا هذه جميعها في مؤلفات العرب المكتوبة بخط اليد التي ظفرنا بها ﴿ والثاني ﴾ أن العلماء الفلكيين ببغداد ضبطوا بغاية الدقة حركة أوج الشمس وتدخل فلك هذا الكوكب في داخل أفلاك أخر ومقدار السنة ﴿ الثالث ﴾ أن تقدم الجغرافيا الرياضية وتصحيح أزياج بطليموس كانا على أيدى العرب ﴿ الرابع ﴾ أن القرن السادس ومابعده الى السادس عشر كانت خالية من الفلكيين الأورو بيين وانما كانت الأرصاد العربية هي القائمة في الشرق ﴿ الخامس ﴾ هوماتعجب منه فلكيو الشرق وهو (مرصد) رصدخانة سمرقند التي أنشأ بعدها بقرن الخواجا (تيكو براحة) رصدخانة (أورنيبوغ) سنة ١٥٧٦ ميلادية ﴿ السادس ﴾ أن الفرنج زعموا أن آلة الاسطرلاب من مخترعات (تيكو براحة) مع ان تلك الآلة والربع ذا الثقب موجودان من قبله في رصدخانة المراغة التي أسسها العرب العارفون للساعة ذات البندول ﴿ السابع ﴾ أن العرب شهروا النقص التدريجي لميل وسط فلك البروج قبل متأخرى الفرنج بزمان طويل ﴿ الثامن ﴾ أن العرب قدروا مبادرة الاعتدال بمقداره الحق من ابتداء القرن الحادى عشر ﴿ التاسع ﴾ انهم رصدوا اختلاف عروض القمر قبل (تيكو براحة) بأكثر من ستمائة سنة الخ

قال صاحبي . إن هذه (وان أفادتنا أن علماء أوروبا شهدوا بأن كثيرا من الكشف الذى نسبه رجالهم لأنفسهم هو للعرب ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ للأمم الاسلامية) لايفيد القارئ فائدة كبرى كما ذكرت أنت

لأنها اصطلاحات فلكية ليس يعرفها أكثر الناس فاذكر بعض ما نبغ فيه العرب على شريطة أن يفهمه الجهور وقبل الانتقال الى الفصل السادس وهو انحطاط التعليم فى بلاد الاسلام لتكون المقالة لذيذة مشوّقة لنا وللناس فقلت قال (سديو) المذكور ماملخصه ﴿ انهم أتوا بالعجب العجاب (١) فى الهندسة (٢) والحساب (٣) والجبر (٤) وعلم الضوء (٥) والنظر (٦) والميكانيكا (٧) وترجمة هندسة اقليدس (٨) وغيره مثل تيودوس وأبولونيوس وايسيقليس ومينيليوس (٩) وشرحوا مؤلفات أرشميدس فى الكرة والاسطوانة واشتغلوا قرونا بدقائق الهندسة (١٠) وطبقوا الجبر على الهندسة وترجموا كتب (هيرون الصغير) فى الآلة الحربية وقطيزيبوس وميرون الاسكندرى فى الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وألف حسن بن هيثم فى استقامة النظر وانعكاسه فى المرايا التى توقد النار (١١) وألف الخازن فى علم الضوء والنظر كتابا فى انكسار الضوء الخ (١٢) قال وليس للعرب مجرّد نقل كتب اليونان حرفيا كما زعم بعض الفرنج فانا لاننكر علماء بغداد على حفظهم كتب علماء الاسكندرية فقط بل مع ما اخترعوه فى هذه الفنون نحو ما اخترعه البتانى الملقب ببطليموس العرب من استبدال أوتار الأقواس التى استعملها اليونانيون فى حساب المثلث بأنصاف الأوتار للأقواس المضاعفة وهى جيوب الأقواس المصوّرة الى آخر ماذكره مما لاطائل فى ذكره . وهنا ذكر المؤلف أشياء اخترعها العرب وفاقوا بها اليونان فى علم الهندسة والفلك سبق أكثرها . وقال فى موضع آخر صفحة (٢٤٠) مانصه ﴿ زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية وماذاك إلا لجهلهم بأشغال العرب فان جميع الدروس بمدارس أوروبا فى القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية ﴾ الى أن قال ﴿ ولا تظنّ أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو بل كانوا يعرفون تأليف أفلاطون وعدّة كتب منسوبة الى فيثاغورس الخ . أقول فاعجب لعالم فرنسى يقول هذا وفى ديارنا بمصر من المتعلمين نصف تعليم من ينكرون على آبائهم كل علم وكل فضل ــ واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مردّ له ــ (١٣) يقول المؤلف المذكور ان (ايراتسطينس) اليونانى أوّل عالم فى عصره بالكرة الأرضية واختصّ بهذا العلم ومعلوماته الجغرافية كمعلومات معاصريه يسيره ثم تقدّمت العرب فى هذا الفنّ كالفنون السالفة وجدّدوا كتاب المجسطى لبطليموس الذى تنحى اللاتينيون عن طريقته وكتاب بطليموس مملوء بالخطأ وقد اعتمده علماء أوروبا أوّلا وجعلوه نموذجا لرسم الخرائط وساروا شوطا بعيدا وكان أكثر هؤلاء العلماء يجهلون اصلاح العرب له فساروا على غير هدى والاصلاح العربى المذكور كان بأمر المأمون سنة ٨٢٠ ميلادية إذ عمل أرصادا جديدة ببغداد وصحح أرصاد المجسطى بالزيج الجديد المحرّر فى خلافته وبهذا رسمت العروض والأطوال بهيئة غير التى كانت فى كتاب المجسطى (١٤) وأكمل تصحيح المأمون الملك محمود الغزنوى إذ أمر البيرونى الفلكى بذلك سنة ١٢٠٥ م وقبل ذلك عمر الخيام والادريسى . وذكر المؤلف بعد ذلك تقدّم العرب فى مزايا ما بأرضهم من النبات النافع فى الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور . قال والعرب هم الذين اخترعوا (الأجزاخانات) الصيدليات الكيمائية وهم الموروث عنهم مايسمى الآن قواعد تحضير الأدوية الذى انتشر بعد ذلك من مدرسة (سالرنه) فى الممالك التى فى جنوب أوروبا قال واشتغلوا بعلم (الجيلوجيا) علم طبقات الأرض ثم قال و بلغت الزراعة أقصى أوجها وكمالها وأحدثوا فى أسبانيا السواقى ذات التواديس . هذا ما أردت ذكره فى هذا الفصل الخامس ﴿ لفصل السادس ﴾ انحطاط التعليم فى بلاد الاسلام ﴿ والسابع ﴾ فى اضطهاد العلماء بنظام هذا الوجود . هذان الفصلان تقدّما فى سورة الأنعام عند قوله تعالى ــ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ــ وقد أبنت هناك كيف كان المسلمون بعد القرن الخامس يعادون العلوم وسرى هذا الداء الى الجيل السابق وابتداء النشاط الآن . ولكن لابدّ من ذكر حادثة عجيبة لتكون توطئة للفصل الثامن وهو انتقال العلوم لأوروبا هاربة من المسلمين الذين كرهوها وهاهى ذه

﴿ اضطهاد ابن رشد فى الأندلس ﴾

اعلم أن الخليفة الحكم ببلاد الأندلس أخذ كتب الفرس والشأم وغيرها وصار له فى الاسكندرية ودمشق و بغداد والقاهرة أناس يبتاعون له الكتب العلمية القديمة والجديدة بأغلى الأثمان وكان فى قصره النساخون والمجلدون والأدباء الصادرون والواردون وفى مكتبته (٤٠٠) ألف كتاب ولها ٤٤ مجلدا فهارس فقط وليس فيها إلا عنوان الكتاب وهو نفسه يحادث العلماء ويحاورهم فى الفنون المختلفة . ولما تولى هشام ابنه قام حاجبه بالأمر واضطهد الفلسفة والفلاسفة وأخذ الكتب الفلسفية والمنطقية والفلكية وأمر باحراقها فى ساحات قرطبة وطرح باقيها فى آبارها فصارت الفلسفة تقرأ سرا . وانما قصد بذلك استمالة الفقهاء اليه ليوهمهم أنه ناصرالدين . وهكذا يقال أن سبب سقوط دولة المرابطين بعد ذلك وقيام دولة الموحدين انما هو اضطهاد العلوم والحكمة والفلسفة . كل ذلك قبل ظهور العلامة ابن رشد فبلاد الأندلس كانت تسير حسب رغبات من يتولون الأمر ان أحبوا العلم ظهر والا اختفى . هكذا لما تولى الخليفة عبدالمؤمن من دولة الموحدين نصر الحكمة والفلسفة كما فعل الحكم فى الزمان الماضى فاجتمع فى بلاطه ابن زهر وابن بجا وابن طفيل ثم ابن رشد فى عام ٥٤٨ هجرية سنة ١١٥٣ ميلادية وقد عبر البحر الى بلاد المغرب (مراكش)

ولما توفى عبد المؤمن خلفه يوسف وقرب ابن طفيل اليه فقدم اليه ابن رشد فارتفع ابن رشد عند الأمير يوسف وتولى قضاء أشبيليه سنة ٥٦٥ الى سنة ٥٦٧ هجرية . ولما تولى يعقوب المنصور بعد ذلك رفع ابن رشد وفى آخر الأمر وشوا به اليه ونسبوا له أمورا دينية وأخرى سياسية فقالوا إنه يجحد القرآن و يعرض بالخلافة وانه قال ملك البربر فجمع المنصور فقهاء قرطبة وقرؤا كتب ابن رشد ثم قر الرأى عند الأمير أن ينفى ابن رشد فسكن (ايسانه) وهى قرية قريبة من قرطبة سكانها يهود وكتب منشورا للأمة بانشاء كاتبه عبد الملك بن عياش لمنع الفلسفة وهذا بعض مانصه ﴿ قد كان فى سالف الدهر قوم خاضوا فى بحور الأوهام وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم فى الافهام حيث لاداعى يدعو الى الحى القيوم ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم فخلدوا فى العالم صحفا مالها من خلاق مسودة المعانى والأوراق يؤمنون أن العقل ميزانها والحق برهانها ﴾ الى أن قال ﴿ فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الايمان حذركم من السموم السارية على الأبدان ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التى بها يعذب أربابه واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ﴾ الى أن قال ﴿ والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ويكتب فى صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم إنه منعم كبير اه ﴾ والذى نكب فى هذا مع ابن رشد محمد بن ابراهيم قاضى بجايه والقاضى أبوعبدالله بن ابراهيم الاصولى وأبوالربيع الكفيف وأبوالعباس الشاعر وقد نفاهم المنصور الى بلد غير (ايسانه) منفى ابن رشد . وكتب المنصور يأمر الناس باحراق الكتب سوى الطب والحساب والمواقيت مع انه كان يدرس تلك الكتب فى السر ويخفى أمره . وقد عفى عن ابن رشد ولم يعش بعد العفو إلا سنة واحدة وتوفى سنة ٥٩٥ هجرية وعمره ٧٥ سنة وكانت وفاته بمراكش ثم حمل الى قرطبة فدفن بها فى روضة بمقبرة ابن عباس و بعد ذلك قل اهتمام الطلبة بالعلم وأكبر تلامذته محمد بن حوط الله وأبوالحسن سهل ابن مالك وأبوالربيع بن سالم وأبو بكر بن جهور وأبوالقاسم بن الطيلسانه وغيرهم

﴿ الفصل الثامن فى انتقال العلم الى أوروبا بعد أن هجره المسلمون ﴾

ثم هجر اليهود الأندلس الى (بروفنسيا) والأقاليم المتاخمة لجبال (البيرنيه) فرارا من الاضطهاد وخالطوا الفرنجة وكتبوا بالعبرية وتركوا العربية وذهبوا الى (لونل) فى فرنسا وهم (أسرة طيبون) أصلها من الأندلس وترجم اثنان منهم وهما (موسى بن طيبون وصموئيل بن طيبون) بعض تلاخيص ابن رشد فى فلسفة أرسطو فهذان أول من ترجم مؤلفات ابن رشد لأوروبا وكان الأمبراطور (فردريك الثانى امبراطور ألمانيا) من

محي نشر الفلسفة ومحالفي الاسلام والمسلمين على الا كليروس المسيحى فعهـد الى بعض اليهود بترجمة فلسفة العرب الى العبرية واللاتينية فألف يهوذ بن سليمان كوهين الطليانى سنة ١٢٤٧ م كتابا سماه ﴿ طلب الحكمة ﴾ واعتمد فيه على ابن رشد فهو أوّل كتب لابن رشد صـدرت بالعبرية وأيضا ترجم له يهودى من (بروفنسيا) كان مقيما فى نابلس وهو يعقوب بن أبى مريم بن أبى شمشون المتوفى حوالى سـنة ١٢٣٢ عدّة كتب من تأليف ابن رشد . ويقال ان الفيلسوف ابن رشد فرّ من (الياسه) الى فاس وأن أهلها أمسكوه ونصبوه أمام باب الجامع للبصق عليه عند الدخول والخروج وقيل غير ذلك وأن ابن رشد قال أعظم ما طرأ علىّ فى النكبة أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجدا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فاعترضـنا بعض سفلة العامّة فأخرجونا منه . ثم إن المحنة لم تدم فان المنصور عفا عنـه وعن سائر الجماعة معه وعاد المنفيون الى بلدهم ولما نفذ فى ابن رشد وتلامذته سهم الحساد أخذ الشعراء المعادون للفلسفة والفلاسـفة يتهجون فقال الحاج أبو الحسين بن جبير

الآن قد أيقن ابن رشـد * أن تواليفـه توالف
يا ظالما نفسـه تامل * هل تجد اليوم من توالف

(وقال غيره)

لم تلزم الرشد يا ابن رشد * لما علا فى الزمان جدّك
وكنت فى الدين ذا رياء * ماهكذا كان فيـه جدّك

(ومنها) الحمـد لله على نصره * لفرقـة الحقّ وأشـياعه
كان ابن رشد فى مدى غيه * قد وضع الدين بأوضاعه
فالحمـد لله على أخـذه * وأخذ من كان من أتباعه

(ومنها) خليفـة الله أنت حقا * فارق من السعد خير مرقى
حميتم الدين من عداه * وكل من رام فيه فتقا
أطلعـك الله سرّ قوم * شقوا العما بالنفاق شـقا
تفلسفوا وادّعوا علوما * صاحبها فى المعاد يشـقى
واحتقروا الشرع وازدروه * سـفاهة منهـم وحمقا
أوسـعتهم لعنـة وخزيا * وقلت بعدا لهم وسحقا
فابق لدين الاله كهفا * فانه ما بقيت يبـقى

ثم ان كالونيم بن كالونيم بن مير الذى ولد سنة (١٢٨٧) قد ترجم كتب ابن رشد الى العبرية . وترجم كتاب ﴿ تهافت التهافت ﴾ سنة ١٣٢٨ وفى القرن الرابع عشر بلغت فلسفة ابن رشـد عند اليهود أعلى منزلة ثم كان (لاون) الافريقى اليهودى الذى شرح فلسفة بن رشد كلها وصنع فيها ما صنعه ابن رشد بفلسفة (أرسطو) من الشرح والتلخيص

وهاك ما قاله (سديو) فى هذا المقام لنتمّ الكلام فى مسألة نقل العلوم العربية الى أوروبا . قال

ولا يخفى أن الكشف السالف يفيد علم الفلك المشرقى مزية الاصالة والأولية التى لا يستطيع الامساك عن الاقرار بها أحد من الفرنج الذين كان كشفهم لمعلومات الكتب العربية شاهدا على تقدّم العلوم الرياضية عند العرب الذين استفاد منهم اللاتينيون المعلومات فان (١) (جوبرت) الذى كان بابا رومه الملقب (بسلوستر) الثانى أدخل من سنة ٩٧٠ الى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنج العلوم الرياضية التى كسبها من عرب أسبانيا (٢) واهيلارد الانكليزى ساح من سنة ١١٠٠ الى سنة ١١٢٠ ميلادية فى كل من اسبانيا ووادى مصر

وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد ان ترجها العرب من اليونانية وترجم أفلاطون المنسوب (لطيفوليا) وهى مدينة قرب روميه من العربية الرياضيات الكردية المنسوبة الى (تيودوز) كما ان الخواجا (رودلف) أحد أهالى (بروجس) البلجيقية ترجم مسائل بطليموس المتعلقة بالكرة الأرضية والسماوية المصوّرة مبسوطة على خريطة وهكذا (ليونرد) أحد أهل (بيزه) ألف سنة ١٢٠٠ ميلادية رسالة فى الجبر الذى تعلمه من بلاد العرب وقيانوس من أهل نواره فى أسبانيا ترجم فى القرن الثالث عشر كتاب اقليدس ترجمة جديدة وشرحه و (و يتليون البولندى) ترجم كتاب الخازن فى علم الضوء والنظر (وجيراد) الكريمونى ترجم المجسطى وشرح كتاب جابر وغير ذلك فاشتهر فى أوروبا علم الفلك الصحيح وشهر (الفنسس) القسطلانى سنة ١٢٥٠ ميلادية الأزياج الفلكية المنسوبة اليه . والملك (روجير) الأوّل ملك (السيسيليين) كان مساعدا لعلماء (بسيسيليا) لاسيما الادريسى ثم أتى العاهل (فردريك الثانى) بعد (روجير) بمائة سنة فلم يأل جهدا فى المساعدة والحثّ على كسب العلوم والمعارف الأدبية المشرقية . وكان أولاد ابن رشد مستخدمين فى ديوانه ويعلمونه التاريخ الطبيعى فى النبات والحيوان . انتهى

وأيضا قال (سديو) ان القوانين وهى خمسة كتب لابن سينا قد ترجمت وطبعت مرارا وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازى تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريبا وكانت وفاته سنة ١٠٣٧ م

وكتب الفخر الرازى فى الطب طبعت بمدينة البنادقة سنة ١٥١٠ ميلادية وكتب على بن عباس الفارسى وهى عشرون كتابا فى الطب وهى التى أهداها الى عضد الدولة البويهى قد ترجمت الى اللاتينية سنة ١١٢٧ م وطبعها ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ فى مدينة (ليون) بفرنسا

فلما سمع ذلك صاحبى قال . هذا الذى ذكرته أطلعنا على علم جمّ غزير فلقد كنت مشوقا الى أن أعرف كيف انتقل العلم لأوروبا من المسلمين وكنت أظنّ أن هذه أقوال مبالغ فيها ولكنى الآن أمام علم جم فانى رأيت من هذه الأقوال

(١) إن اليهود بعد موته نقلوا علمه الى لغتين العبرية واللاتينية
(٢) وأن فردريك أمبراطور ألمانيا هو الآمر بذلك
(٣) وأن يهوذا بن سليمان كوهين ألف كتاب ﴿ طلب الحكمة ﴾ معتمدا على ابن رشد
(٤) وأن بابا روما نفسه أدخل علوم الرياضة العربية بنفسه فى بلاده
(٥) وهكذا العالم الانجليزى ترجم الهندسة العربية
(٦) والعالم البلجيكى والطليانى والاسبانى وهكذا فهذا كاف فى هذا المقام فاذكر لى الفصل التاسع وهو تفوّق أوروبا فى تلك العلوم . فقلت

﴿ الفصل التاسع فى تفوّق أوروبا فى العلوم جميعها بعد آبائنا العرب ﴾

قد يظنّ ظانّ أن ماقلته سابقا نقلا عن العالم الفرنسى (سديو) من أن ما ادّعاه الفرنجة من الكشف قد سبقهم به العرب يوجب أن نعطهم حقهم . كلا فنحن الآن فى تفسير القرآن والقرآن حق ومن لم يجعل الحق ديدنه صرعه الحقّ فاعلم أن الفجر الكاذب يظهر قبل الفجر الصادق * قال الشاعر

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه * وأوّل الغيث قطر ثم ينسكب

ادّعى الفرنجة فى أوّل أمرهم أنهم كاشفون لما سبقهم به العرب ثم جاء بعدهم علماء كشفوا عجائب مما خبأه الله فى أرضه والمتأخرون من المسلمين ساهون لاهون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ . هذه أيها المسلمون آثار آبائكم وأنتم خلفهم فماذا عملتم . نقلت أوروبا علومكم وأنتم نائمون . أفلا تعقلون . أفلا تتفكرون . ألم يقل الله ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا ـ

أما آباؤنا فساروا ونظروا والفرنجة ساروا ونظروا عمل آبائكم فهل أنتم لاتشعرون . انظروا أيها المسلمون أنتم اليوم عالة على أوروبا انها قد فتح لها كنز العلم وأنتم نائمون . هاأناذا أقص عليكم نبأ أهم العلوم التى حدثت فى القرون المتأخرة من نحو القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر لتتجلى لكم صورة من العلم قديما وحديثا وانكم ظلمتم أنفسكم بالجهل وآباءكم بانتسابكم اليهم وهم فى قبورهم عليكم محزونون

﴿ علماء القرن السادس عشر ﴾

منهم (١) (تيخو براهى) المولود فى بلدة (ندسترب) جنوبى اسوج فى سبتمبر سنة ١٥٤٦ المتوفى سنة ١٦٠١ أثبت أن نور الشمس سبعة ألوان وأن موادّ الأجرام السماوية تشبه أكثرها موادّ الأرض وقد دعاه (فردريك الثانى) ملك الدانمارك فأنشأ مرصدا فلكيا من أعظم المراصد فبقى عشرين سنة وزاره الملك (جمس الأوّل) ملك الانجليز فى هذا المرصد وأهدى اليه كثيرا من الهدايا ووفد بعد ذلك على امبراطور ألمانيا فى مدينة (براغ) فأكرمه ولكن لم تطل مدّته بعد ذلك فمات

(٢) ﴿ وليم غلبرت ﴾

عالم انجليزى أنشأ علم الكهربائية الحديث ولد سنة ١٥٤٠ وتوفى سنة ١٦٠٣ فهوالذى عرف أن الكهرباء تكون فى الزجاج والكبريت والشمع الأحمر والراتينج والماس . وهذه مبادئ علم الكهرباء التى أكملها العلماء بعده وقال ان المغناطيسية والكهربائية من نوع واحد

﴿ علماء القرن السادس عشر والسابع عشر ﴾

(١) غليلى . هوفيلسوف ايطالى ولد بمدينة (بيزا) سنة ١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢ نسبوا له كشف رقاص الساعة وأنه لحظ ذلك فى كنيسة (بيزه) إذ رأى القنديل مدلى من القبة وله خطرات متساوية وقد قال (سديو) . كلا . ثم كلا هذا اختراع الحسن بن يونس المصرى قبل ذلك بقرون . فهذه مما سميناه الفجر الكاذب . وقد اضطهد لأنه قال بدوران الأرض ويقول العلماء . كلا انها معروفة قبل الفرنجة عند العرب كما ستراه فى كتاب ﴿ المواقف ﴾ ففيه دوران الأرض وذلك قبل الاوروبيين بمدّة وقد ذكرت هذا فى كتابى ﴿ فى الفلسفة العربية ﴾ وتقدّم فى يونس وقد أكره غليلو على الحضور الى روميه وهو شيخ ضعيف سنه ٦٩ سنة وأمر بالركوع أمام جمهور حافل من المفتشين وغيرهم وعاهدهم على الانجيل أنه يلعن ويكره دوران الأرض

﴿ كاشف دورة الدم ﴾

(٢) هرفى . ولد سنة ١٥٧٨ فى ولاية (لنت) ببلاد الانجليز وعين طبيبا للملك (جيمس الأوّل) ولخلفه وتوفى سنة ١٦٥٧

﴿ علماء القرن السابع عشر والثامن عشر ﴾

(١) اسحق نيوتن . ولد سنة ١٦٤٢ وتوفى سنة ١٧٢٧ من أكبر علماء الفلك زعموا أنه كشف الجاذبية إذ رأى تفاحة سقطت على الأرض ولكن هذا الكشف قد سبقه به العرب بنحو ستة قرون كما أثبتناه فى كتاب الفلسفة ولكن ليس معنى هذا أنه لافضل له . كلا فانه جعل هذه الجاذبية تمتدّ الى القمر وبها يدور حول الأرض

(٢) ديدرو . مؤلف دائرة المعارف الفرنسية وهو من عائلة سكنت ولاية شمبانيا بفرنسا ولد سنة ١٧١٣ ومات سنة ١٧٨٤ وقد ترك كل شئ فى حياته إلا المطالعة ولما طرده أبوه دخل بيت رجل يعلم أولاده ثم كره ذلك وقال للرجل أنظر الىّ فقد اصفر وجهى اصفرار الليمون أنا أحاول أن أجعل أولادك رجالا وهم يحاولون أن يجعلونى ولدا لست أشكو قلة الراتب ولاسوء المعاملة لأن راتبى أكثر مما أستحق ومعاملتكم لى على غاية الوداد ولا أريد أن أعيش أحسن مما أنا عائش هنا ولكنى أريد أن لا أموت اهـ

علماء

﴿ علماء القرن الثامن عشر ﴾

(١) بنيامين فرنكلن المتوفى سنة ١٧٩٠ وعمره ٨٤ سنة من أمريكا وهو الذى اخترع مانعة الصواعق

(٢) لافوازيه أبو الكيمياء الحديثة . ولد سنة ١٧٤٣ وحكم عليه بالقتل سنة ١٧٩٤ فى الثورة الفرنسية وهو الذى كشف خواص الاكسوجين وحقيقة الاشعال للنار ونسبة السوائل والغازات والجوامد بعضها الى بعض وبحث فى الحرارة وتمدّد الأجسام وتقلصها باختلاف درجات الحرارة والضغط

(٣) ماريا أغنس الايطالية فاقت أهل عصرها فى العلوم الرياضية ولدت سنة ١٧١٨ وكان يحضر مجلسها فوق ثلاثين رجلا من عظماء أوروبا من أمم مختلفة وتوفيت سنة ١٧٩٩

﴿ علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر ﴾

(١) كولون الكهربائى ولد سنة ١٧٣٦ وتوفى سنة ١٨٠٦ هو أوّل من استعمل الرياضيات فى المباحث الكهربائية فشهرته كلها ترجع الى ما كشفه فى الكهرباء والمغناطيس فهو الذى قاس قوّتها ونواميسها

(٢) أدورد جنر عالم انجليزى ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى سنة ١٨٢٣ هو الذى كشف تطعيم الجدرى . ذلك أن فتاة حلابة للبقر سمعت أناسا يذكرون الجدرى فقالت انها آمنة على نفسها لأنها عديت مرة بجدرى البقر وسمع ذلك (جنر) فخطر له أن جدرى البقر قد يكون واقيا من الجدرى الذى يصيب البشر وأسلم عاقبة من التطعيم بالجدرى نفسه فاذا طعم الانسان بمادّة الجدرى من البقر ظهرت فيه بثور قليلة تقيه الجدرى فى المستقبل واذا أخذ المصل من تلك البثرة وطعم به أناس كثيرون وقاهم أيضا الجدرى

(٣) فلطا الكهربائى الايطالى . ولد سنة ١٧٤٥ وتوفى سنة ١٨٢٧ وهو الذى كشف البطارية الكهربائية والرصيف الكهربائى أو الفلطائى كما هو موضح فى هذا التفسير فى غير هذا المكان شرحا ورسما

(٤) (لامرك) صاحب مذهب التحوّل هو فرنسى ولد سنة ١٧٤٢ وتوفى سنة ١٨٢٩ وهو أوّل من أطلق على الحيوانات الدنيا اسم (عديمة الفقرات) وكانت قبل ذلك تسمى ذات الدم الأبيض ودرس الحيوانات القديمة فى الأرض وله كتاب ﴿ فلسفة طبائع الحيوان ﴾

(٥) السرهمفرى دافى ولد سنة ١٧٧٨ وتوفى سنة ١٨٢٩ وهو الذى كشف الصوديوم والبوتاسيوم والسترنتيوم والباريوم والكلسيوم والمغنيوم . ولما كشف الصوديوم جعل يرقص من الفرح وكشف النور الكهربائى والاتون الكهربائى كذلك

﴿ مصباح يشرق على العلوم التى كشفها المسلمون والأوروبيون ومنها الكيمياء ﴾

فقال صاحبى . صوديوم بوتاسيوم . هذه ألفاظ لاتفيد قارئ التفسير فأىّ فائدة لقارئ سورة ابراهيم من أن يسمعك تقول فى رجل أفرنجى انه كشف الصوديوم والبوتاسيوم . أسمع المسلمين أقوالا تفهمهم مقاصد ماذكرته والا سئم القراء من طول هذا الذى تذكره . فقلت هذا من علم الكيمياء . قال ومافائدة الكيمياء أليست هى التى تجعل الفضة والنحاس ذهبا . فقلت الكيمياء علم به تحلل الموادّ فتعرف أصولها فننتفع بها فى جميع أعمالنا والصوديوم وغير الصوديوم هى الأجزاء التى لها خواص ممتازة فى منافعها . قال هذا كله لايفيد . قلت فاسمع . قال سمعا . قلت حياك الله وبياك انظر أنت فى كل أوقاتك رجل كيمائى وأنت تنكر ذلك . قل لى رعاك الله ألسنا نحصد القمح . قال بلى . قلت وندرسه ونذروه ونطحنه ونمضغه ويهضم فى أجوافنا ويفرّق على أعضائنا كل بقدره . قال مامعنى هذا . قلت نحن ندرس القمح فى الجرن بالنورج فيذره مفتتا ثم نذروه فى الريح فنفصل الحبّ عن التبن أما التبن فللبهائم وأما الحبّ فهو لنا ولكننا لانأكله حتى نلطفه بالطحن ثم العجن ثم الخبز ثم نمضغه هو وغيره أضراسنا وأنيابنا وأسناننا ثم يدخل فى المعدة فيهضم ثم تجتذبه العروق فيصير دما يفرّق على الأعضاء كل عضو يأخذ مايناسبه . إن هذا

هوالتحليل ولولا هـذا التحليل ماقدرت أعضاؤنا أن تتناول أغذيتها من دمنا لأنه لا يكون دم إلا بالتحليل المذكور . فههنا (١) آلات من الخشب والحديد وهى النورج تجره الأنعام (٢) وبهذا يمكننا أن نذروه فى الهواء لفصل التمييز بين الحب والتبن بهـذين العملين . درسه مقدمة وذروه فى الهواء نتيجة والنتيجة تميز القمح من التبن ليمتاز غذاء البهائم من غذاء الانسان وكل يتصرف فيما هو له . فهذا أشبه بتحليل الكيمياء ثم حب القمح يحتاج أيضا الى عملين الطحن بالأحجار الذى يشبه الدرس بالنورج والمضغ الذى يشبه ذرو القمح فالمضغ يفتت الطعام وهكذا أعمال المعدة فى هضمه ليأخذ كل عضو من الدم مايناسبه كما ان ذرو مادرس بالنورج يعطى البهائم تبنها والانسان حبه . فههنا مقدمتان ونتيجتان ولكل نتيجة عمل فالنتيجة الأولى فصلت طعام الحيوان من طعام الانسان بالحكمة . والنتيجة الثانية وهى الهضم بالمضغ وغيره أعطت لكل عضو من أعضاء الانسان مايستحقه من العناصر التى سميناها (صوديوم و بوتاسيوم) وهكذا فاذا قلنا هذا تبن وهذا قمح بعد الذرو فى الهواء للحيوان والانسان فهكذا هنا نقول هذا بوتاسيوم وهذا صوديوم وهكذا فى الطعام فكل من الأعضاء يأخذ حصته منه بعد الهضم كما أخذ كل من الحيوان والانسان حقه بعد الدرس والذرو فى الهواء . فقال حسن قد فهمت إذن ماعدد العناصر . قلت عدد العناصر سيأتى فى سورة العنكبوت فوق ٨٠ وستذكر بأسمائها فى جدول هناك . قال ولكن الكلام لم يتم . قلت نعم لم يتم لأن الذى سمعته أنت انما هومثل ضربته مما نراه فى أنفسنا وما الأمم إلا كالأفراد . الأفراد تحلل القمح بدرسه وذروه وطحنه ومضغه والأمم تحلل جميع المواد التى نراها فجميع المواد أشبه بالقمح فى المثال المذكور والتبن والحب أشبه بالعناصر والآلات التى اخترعها العلماء فى معاملهم أشبه بالخشب والحديد فى النورج والخشب وحده فى المذرى وحجارة الطاحون والأنياب والأسنان والأضراس لتفتيت الطعام و بالعناصر التى يستخرجونها يرقون الصناعات والطب وجميع أعمال الحياة فاذا أخذ كل عضو بعد المضغ فى أجسامنا مايناسبه . هكذا يجعلون عناصر خاصة تناسب الزرع كالقمح والقطن وغيرهما يسمونه (السماد الكيماوى) وما السماد الكيماوى إلا عناصر استخرجوها كما استخرجت أعضاء أجسامنا عناصر مناسبة لها كما فصلنا التبن عن الحب فأخذ الحيوان والانسان كل حظه . فقال هـذا حسن أنا الآن أدركت معنى الكيمياء وفهمتها فهـما تعقليا زدنى زدنى . قلت أما الآن فانى مبتهج بأنك أدركت ما أردته . وبهـذا ارتقوا فى الحرب والتجارة وكل أعمال الحياة . وانى أذكرك بما تقـدم فى آل عمران . فقال لا أتذكر فانى لم أقرأ المجلد الثانى من هذا التفسير ما الذى هناك . فقلت لا أريد التكرار . قال ولكن ذكرى والذكرى هنا تفيد قلت علم الله قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سينامون كما عامت فأنزل القرآن وجعل فى أوائل بعض السور (الم . الر) وهذا يشير الى مانقوله الآن . علم الله أن أكثرالناس لايعقلون ما أمامهم فجميع بنى آدم يشاهدون الدرس والذرو والطحن والمضغ ولكن لايفقهون وانما أكثرهم أشبه بالآلات الميكانيكية مسخرون فى طعامهم . مسخرون فى ذرياتهم . مسخرون كما تسخر الأنعام . هكذا أكثرالناس فى أرضنا يشاهدون هـذا التحليل الذى يشبه التحليل الكيمائى بل هو نفسه كيمائى ولايفكرون فى العالم الذى يعيشون فيـه فيدرسوه كلا وهو معنى قوله ــ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ــ وقوله ــ وجعلنا من بين أيديهـم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون ــ لذلك أنزل هـذه الحروف فى أوائل السور كأنه يقول أيها المسلمون جهلتم الكيمياء التى تحلل الأشياء وتحققها فأنا أذكركم بالقراءة والكتابة إن الطفل لاتتسنى له الكتابة ولا القراءة إلا اذا حلل الكلمات الى حروفها كما تحلل المركبات الى عناصرها . فكما ان القراءة والكتابة لايتمان إلا بتحليل الكلمات الى حروفها . هكذا هـذه المادة وقواها لاتنتفعون بها إلا بتحليلها وادراك حقائقها قال تعالى ــ وكل شئ عنده بمقدار ــ وقال ــ إنا كل شئ خلقناه بقدر ــ وقال ــ وأنبتنا

فيها

فيها من كل شئ موزون -
أعمال الناس لاتتم إلا بالتحليل والقراءة لاتتم إلا بالتحليل فلماذا لاتحققون هذه العوالم بالعلوم ومنها الكيمياء وان شئت فارجع لما تقدم فى سورة آل عمران . قال أما الآن فقد فهمت حقا

﴿ بقية العلوم كالكيمياء ماهى إلا تفصيل وتحقيق ﴾

ثم قلت ومثل الكيمياء جميع العلوم فاذا سمعت العالم (كوفيه) الآتى ذكره قد قسم المرتبة الدنيا من الحيوانات الى ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ ولم تقسم قبله فهذا يسمى تقسيما والتقسيم لبيان المقسم كما ان التحليل لبيان المحلل وهكذا بقية العلوم كلها لاتخرج عن التقسيم والتحليل وما أشبه ذلك وماهو إلا تحقيق الحقائق كمسألة القمح المتقدم وكمسألة الحروف الهجائية فى أوّل السور . فقال صاحبى حسن لقد أضاء هذا الموضوع وأشرق وصار ماذكرته من كشف العلوم المختلفة واضحا بهذا المقال فلنرجع إذن لبقية الكلام على علماء أوروبا فقلت

(٦) (جورج ليويلد كوفيه) عالم فرنسى توفى سنة ١٨٣٢ ألف كتابا اسمه ﴿ العظام المتحجرة ﴾ وآخر اسمه ﴿ المملكة الحيوانية ﴾ وهوالذى قسم مرتبة الديدان التى تشتمل على كل ما يعرف بذوات الدم الأبيض (وهى تقارب نصف المملكة الحيوانية) الى ثلاثة أقسام وهى الحيوانات الصدفية والحشرات التى لاقلب لها والقسم الثالث هو الشبيه بالنبات

(٧) (جان شامبليون) فرنسوى الذى كشف لنا كنوز الآثار المصرية توفى سنة ١٨٣٢ م . ان علوم مصر بقيت مخزونة قديما وكان علماؤها يقولون لليونانيين ﴿ أيها اليونان أنتم أطفال ﴾ وكان بمصر دار كتب فى عهد ملوك اهرام الجيزه . وقال مانيتون المؤرخ فى القرن الثالث (ق.م) ان عدد المؤلفات المنسوبة الى هرمس ٥٢٥ ٣٥ ولما تمرّد المصريون على الأمبراطور (ويكلسيانوس) فى القرن الثالث (ب.م) أحرق جميع المؤلفات المصرية القديمة التى فى علم الكيمياء لئلا يقاوموه بهذا العلم ولكن بقى فى المعابد والأحجار والمبانى علوم كثيرة لم يعرفها أحد حتى تعلم اللغة القبطية شامبليون واللغة الهيروغليفية وساعده على ذلك حجر رشيد ومسلة (فيلا) المكتوب عليها أسماء الملوك باللغتين الهيروغليفية واليونانية التى يعرفها فتوصل بها الى معرفة اللغة الهيروغليفية وساعدته اللغة القبطية وكافأه لويس الثامن عشر ملك فرنسا بعلبة من الذهب منقوش عليها ما يأتى ﴿ هدية من الملك لويس الثامن عشر الى شامبليون لكشفه الأحرف الهجائية الهيروغليفية ﴾

فياسبحان الله ويا سعدانه . كل هذا حاصل والمسلمون ساهون لاهون - وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون - . هذه أيها المسلمون أعمال آبائكم الاول . وهذه أوروبا ارتقت فأما أنتم فنمتم لأن ملوككم قتلوا رجال الاصلاح وأهانوهم واكتفيتم بالشعر والخلاعة . هذا لويس الملك الفرنسى يكافئ عالما فرنسيا على ماذا . على أنه كشف رموز المصريين والله فى القرآن يقول - فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وانّ كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون -

عيرنا الله بالغفلة عن علوم الأمم المصرية التى خبأها فى أجداث وقبور الفراعنة . اللهم أنت الحكم العدل أنت القابض على كل شئ . ينام أهل الشرق جميعا فتسلط عليهم الفرنج فيفتحون بلادهم كبلادنا المصرية ثم ينقبون على آثار قد عيرنا الله بجهلها ورمانا بالغفلة والجمود . اللهم إنك عدل سلطت العلماء على الجهلاء . أليس هذا هو ديننا فكيف نمنا عنه . نمنا عما أشار اليه من آثار الأمم ومنها آثار مصر والله يقول - أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوآذان يسمعون بها فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور -

أقول و بعد هذا التفسير وأمثاله وانتشاره سيقوم أكثر المسلمين قومة واحدة لدراسة هذه العلوم كلها وتكون الدراسة بوجدان عقلى ودينى معا وهناك يكون طور للمسلمين لم يعلموه من قبل لأن الاسلام دين

جديد بكر لم يدرس للآن حق" دراسته ولم تبين مقاصده تبيانا تاما و بعد هـذا التفسير وأمثاله سيظهر رجال أقوى شكيمة وأعظم قدرا وأغزرعلما من علماء أمم الأرض ومن يعش يره اه

(٨) (جورج ستفنصن) ولدسنة ١٧٨١ ومات سنة ١٨٤٨ هوعالم انكليزى وهوالذى انشأ السكك الحديدية فى العالم . وقد أنشأ معملا للمركبات البخارية وأخذ فى اصلاحها وكان المهندسون يفكرون فى عمل مركبة نارية تسير على قضبان الحديد بدل مركبات الخيل ولكن ظنوا أنها تنزلق عن القضبان ولكنه قال ان ثقل الآلة تثبتها ولوكانت عجلاتها ملساء فله الفضـل على جميع نوع الانسان وقد صار سنة ١٨٣٧ م رأس المهندسين لأكثر السكك الحديدية

أيها المسلمون . أليس من العار عليكم أن يكون (ستفنصن) قد نفع العالم كله وأنتم نائمون وتركبون القطار وأنتم عالة على أوروبا والله انكم لقوم ساهون لاهون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ والله عار وجهل واثم أن يكون هذا السرّ ورد به القرآن وأنتم تجهلون

أليس القرآن هوالذى جاء فيه كما سيأتى فى سورة النحل ـ ويخلق مالاتعلمون ـ بعد أن ذكر الخيل والبغال الخ يخاطب الناس أيام النبوّة فيقول ذلك لأنه لم يات أوانه ولكن ماعذرنا نحن

قبح الله الجهالة أمّ الخبائث ولكن ان شاء الله قد جاء وقتكم فاقرؤا علوم القوم وزيدوا للانسانية علما حتى تعطوا الأمم كما أعطتكم والا فانى أنذركم صاعقة العذاب الهون بنومكم أجمعين . أيها الناس ـ أليس منكم رجل رشيد ـ

(٩) (فراداى) عالم انجليزى ولد سنة ١٧٩١ وتوفى سنة ١٨٦٧ وهو عالم عظيم قد كشف البنزين باستقطاره من الفحم الحجرى سنة ١٨٢٥ وكشف قوانين التيارات الكهربائية الحديثة

أيها المسلمون هل يجوز أن يكون آباؤنا هم الذين علموا أوروبا كما فهمتم من هذا المقال ونمسى عالة على علمائهم . اليوم هذا البنزين أنتم تستعملونه فى مركباتكم وفى الآلات الدائرة النافعة . أفلا يخجل المسلمون أن يعيشوا ولاعمل لهم إلا أنهـم جاهلون . يقول الله ـ ويخلق مالاتعلمون ـ بعد الكلام على الانتفاع بالحيوان أكلا وملبسا وسفرا ويكون البنزين ممـا يساعد على السير كالبهائم والمسلمون لاعمل لهم

اللهم ضاعت عقول فى الشرق عاشوا وماتوا وهم لايعقلون صم بكم عمى فهم لايرجعون ولـكن سيعوض أبناؤنا مافقدناه ويرجعون من المجد والشرف ما أضعناه

(١٠) (اريان لفريبه الفلكى) الفرنسى ولد سنة ١٨١١ وتوفى سنة ١٨٧٧ هـذا العالم هو الذى كشف السيار (نبتون) الذى بعد السيار (أورانوس) الذى ذكر فى مواضع من هذا التفسير . هنالك تسابقت جمعيات أوروبا الى تسجيل اسمه بين أعضائها وأرسل له ملك الدانمارك رتبة عظيمة تشرفه وصنع جداول لتسيير السفن فى البحار

أيها المسلمون . أوليس مما يؤلمنى جـدّ الألم أن الله يذكر لنا فى القرآن أنه سخر لنا الفلك فى البحر لنبتغى من فضله ويقول ـ وعلامات وبالنجم هـم يهتدون ـ فأين الهداية التى استخرجناها وهل نكون جميعا عالة على أوروبا برا وبحرا . أليس هذا كتاب ربنا . إن المسلمين ساهون لاهون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهـم عنها معرضون ـ . يفرح الاوروبيون جميعا بعالم نبغ فيهـم والشرقيون متقاطعون لايدرى أهـل مصر ماذا فى الأقطار الأخرى فلاتعارف ولاتوادّ ولاتناصر بل الجهالة مستحكمة ولـكن هذا أوان النصر ـ إنّ مع العسر يسرا ـ وهذا التفسير من مبشرات النهضـة والاصلاح والمسلمون قريبا جدًا سيستيقظون فى جلّ الأقطار

﴿ علماء القرن التاسع عشر ﴾

(١) (تشارلس دارون) ولد سنة ١٨٠٨ ومات سنة ١٨٨٢ مذهبه مكمل لمذهب (لامارك الفرنسى) وملخص المذهبين معلوم يرجع الى أن عالم الأحياء من النبات والحيوان سلسلة واحدة متصلة أعلاها بأدناها وهل هى مشتقات بعضها من بعض أم هى مخلوقة خلقا أوّليا . وهذا النزاع تجد الفصل فيه فى سورة آل عمران فى أوائلها فارجع اليه إن شئت

(٢) (بوسنغولت الكيماوى الفرنسوى) ولد سنة ١٨٠٢ وتوفى سنة ١٨٨٧ كشف العناصر التى تتألف منها النباتات المختلفة وكيفية دخولها فى تركيبها . فقال صاحبى هذا مثل مافهمنا فيما تقدم عند الكلام على الكيمياء . قلت نعم كمثل مسألة الطحن والخبز والمضغ الخ . فقال الأمر واضح

(٣) (مارية متشل الفلكية) الأمريكية ولدت سنة ١٨١٨ وتوفيت سنة ١٨٩٨ برعت فى الفلك وكشفت نجما جديدا من ذوات الأذناب وكانت تقضى الليالى على سطح بيتها ترصد الأفلاك وترقب السماء وانتخبت عضوا فى أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية

(٤) (شليمن الأثرى الألمانى) توفى سنة ١٨٩٠ عشق فى صغره كشف خرائب (ترواده) التى وردت فى أشعار (هوميروس) فوجد أسلحة وأمتعة وحلى فضية وذهبية وعرف قبر (أغا ممنون) فى جهات مسينى التابعة لبلاد اليونان وذكر أنه رأى عجائب ذهبية وأوانى وحلى كثيرة جدّا لامحل لذكرها

(٥) الاستاذ (تندل) عالم انجليزى ولد سنة ١٨٢٠ وتوفى سنة ١٨٩٣ قد كشف خواص عجيبة فى النور والحرارة والجير والاختمار والمغناطيس والحيوانات الذرّية (المكروبات)

(٦) الدكتور (هنرى رولنصن الانجليزى) ولد سنة ١٨١٠ وتوفى سنة ١٨٩٥ هذا العالم أشبه بالعالم (شامبليون الفرنسى) كشف مخبآت فى الشرق والمسلمون نائمون كأنهم لم يقرؤا القرآن فهم ساهون لاهون – وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون – وهذا التفسير ان شاء الله وأمثاله سيكون مثيرا للعزائم مرقيا للشعوب الشرقية منميا للعلوم . أنا بذلك موقن أشدّ الايقان ولا أدرى ماسببه ولكن هكذا هو الوجدان ولايعلم الغيب إلا الله . كان يعرف اللغة الفارسية والبابلية والمادية فقرأ بهذه اللغات على صخر عظيم فى باغستان على بعد (٢٢) ميلا من (قرمان شاه) الى الشرق منها . وهذا الصخر ارتفاعه (٧٠٠) قدم فوجد أنها من أيام (داريوس هستاسيس) سنة ٥١٦ قبل المسيح ووجد فى الكتابة اسم (داريوس) ونسبه وغزواته وممالكه وصورته وقوسه وتاج ملكه الخ ونعل فى الآثار الآشورية مثل ذلك فقفر المناصب الرفيعة واشتغل بالعلم وحلّ رموز الكتابات الآشورية والبابلية المكتوبة بالقلم السفينى وعلماء انكلترا وألمانيا مجمعون على أنه أوّل من حلّ الرموز السفينية

(٧) الاستاذ (دانا) الأمريكى توفى سنة ١٨٩٥ كان من المحققين فى علم طبقات الأرض (الجيلوجيا) و (المترولوجيا) أى علم المعادن . له كتابان فى علم المعادن وكتاب فى (الجيلوجيا) وعرف مذهب داروين وقال ان الانسان لم يرتق إلا بقوّة فوق القوى الطبيعية لأن الكون متوقف على ارادة خالقه

(٨) (لويس باستور) هو فرنسى توفى سنة ١٨٩٥ وهو كيماوى وله الفضل فى البحث عن التولد الذاتى والاختمار والجراثيم المرضية

(٩) (السرجون لوز) المتوفى سنة ١٩٠٠ وهو انجليزى عالم مغرم بعلم الكيمياء وقد خدم بها الزراعة ونحن فى الشرق لاهون . وقد امتحن الأسمدة المختلفة بالمزروعات فرأى أن العظام تفيد اللفت اذا كان فى أرض ضعيفة بخلاف ما اذا كان مزروعا فى أرض قوية فانها لاتفيد فعالج العظام بزيت الزاج (حامض الكبريتيك) فزادت فائدتها للأرض . ثم عالج الأتربة الفصفورية بزيت الزاج فصارت سمادا نافعا جدّا

هذه صورة مما يتضمنه قوله تعالى ـ وذكرهم بأيام الله ـ وقوله فى آخر السورة ـ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ـ

هاأنا ذا أيها المسلمون ذكرتكم بأيام الله فى العرب قبل البعثة وكيف كانوا متفرقين أذلاء ثم كيف جمعهم الاسلام . ثم كيف فتحوا البلاد . ثم كيف ارتقوا فى العلوم والصناعات وترجموا الكتب . ثم كيف اضطهدوا العلم والعلماء . ثم كيف فر العلم منهم على يد تلاميذ ابن رشد وغيرهم الى أوروبا مثل بابا رومة وعلماء الأمم من الانجليز والبلجيكيين الخ . ثم كيف ادّعى قوم منهم ن ما نقلوه عن آبائكم كشف لهم ثم كيف ارتقى القوم فى فروع الحياة كلها مما لم يحلم به آباؤنا كقطرات السكك الحديدية والآلات البخارية وكنحو البنزين والسماد وقتل الحيوانات الذرّية وما أشبه ذلك . أما أنتم أيها المسلمون فانكم قوم ساهون لاهون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ

قال صاحبي . كفى هذا فى الفصل التاسع الذى جاء فى ذكر ارتقاء أوروبا وأمريكا فى العلوم . قلت

﴿ الفصل العاشر فى نتائج جهل المسلمين وغفلتهم ﴾

اعلم أن نتائج هذا الجهل الفاضح فى الأمم الاسلامية المتأخرة ظاهرة للعيان فهانحن أولاء فى مصر قد أصبحت الأمم كلها آخذة فى الرقى وقد ألغيت الامتيازات الأجنبية من بلادهم إلا عندنا . قال صاحبي نريد أن تذكر مامضى فى التاريخ . فقلت لأقتصر على ﴿ ثلاث حوادث ﴾ وهى سقوط الدولة العباسية وسقوط الأندلس واحتلال الفرنسيين أوّلا والانجليز ثانيا لبلادنا المصرية

(١) ﴿ سقوط الدولة العباسية ﴾

إن الدولة العباسية انما سقطت لجهل المسلمين وقلة تبصرهم . وأذكر لك حديثا فى ذلك سيأتى فى آخر سورة الكهف عند الكلام على يأجوج ومأجوج وأسباب هجوم المغول والتتار على البلاد الاسلامية وأن قطب أرسلان قتل باغراء التجار من أرسلهم جنكيزخان من التجار العظام بخطاب من عنده للتعامل معهم وكان معهم أموال كثيرة . فلما قتلهم وأخذ مالهم أرسل له جنكيزخان رسلا آخرين فقطع آذانهم فلم يسع جنكيزخان إلا أن أرسل جيشه كالجراد المنتشر . ولما بدت طلائعه وظهروا للمسلمين أنصبوا جيوش الاسلام هناك سقط فى أيدى عظماء الدولة وعرفوا أنهم لاعلم عندهم بالقوم وانهم حقروهم لجهلهم بهم وكان ما كان من خراب تلك الممالك الشاسعة وجاست تلك الجيوش خلال الديار وكانوا كثيرا مايهلكون الرجال والنساء والأطفال والبهائم والآلات التى تستعمل فى البلاد انتقاما كما ستراه هناك فى سورة الكهف

أتدرى لم هذا كله . لأمرين الظلم والجهل لأنهم لوعرفوا جغرافية البلاد التى تجاورهم لكانوا قدّروا القوم حقّ قدرهم . إن علم الجغرافيا فرض كفاية فلو كان فى البلاد طائفة تعرف الكرة الأرضية معرفة جيدة سياسية وزراعية الخ لكان هؤلاء العلماء قدّموا للأمير تقريرا عن قوّة تلك البلاد وأفهموه الحقيقة ولكنهم كانوا قد تركوا العلوم كما قدّمناه وعدّوها من سقط المتاع واقتصروا غالبا على علم الفقه فنزلت بهم الطامّة وهم لايشعرون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ

﴿ الحادثة الثانية سقوط الأندلس ﴾

علمت مما تقدّم أن المسلمين فى الأندلس أسقطوا كرامة ابن رشد وأن الملك أصدر منشورا بذم العلوم الحكمية وقد أخذت ريح العلوم فى الشرق والغرب تركد وكان المسلمون بحال واحدة فهم فى الشرق والغرب سواسية . وكما نزلت صاعقة العذاب الهون بالمسلمين فى الشرق أخذتهم الرجفة فى الأندلس . وسترى من أسباب ذلك فى سورة الشعراء عند قوله تعالى ـ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ـ انهم عكفوا على الشعر وتفننوا فيه وأهل اسبانيا عكفوا على الفكر والعلم والحكمة

ولما تخاذل ملوك الأندلس فى أواخر أيامهم واختلفوا وصار كل منهم يلجأ الى من جاورهم من ملوك الأسبان حلت بهم الأوصاب ﴿ من ذلك ﴾ أن الملك فرديند أتى بثمانين ألفا أمام أسوار غرناطة وطلب من أبى عبد الله تسليمها فقام الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وجدّوا فى التحصين الى أن يئسوا فخرجوا لحرب النصارى مجازفين فهزمهم عسكر فرديند فرجعوا وطلب هذا الملك من أبى عبد الله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت اليها مدد فلم يأت لهم إلا من القسطنطينية إذ جاءت سفن ضربت السواحل ولكن أباعبد الله لم يصبر حتى يجيء الموعد إذ خاف من قيام أهل البلد عليه ولم يسلم المسلمون إلا على شروط مثل حفظ الحرية والأموال والاعلان بشعائرالدين والخراج ولكن قدنقض ذلك كله فرديناند وانتهى ملك العرب الممتدّ من سنة ٧١٠ الى سنة ١٤٩٢ ميلادية أى ثمانية قرون

ولما ولى شرلكان كرلوس الخامس سنة ١٥٢٤ ألزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر ومازالوا فى أخذ وردّ حتى أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمرا من الملك فيليبس الثانى بمنع اغتسال المسلمين من الحدثين والرقص المغربى واستعمال اللسان العربى وخروج النساء مبرقعات فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودّة مع مغاربة أفريقية فتبعهم النصارى فالتجؤا الى الجبال مع قائدهم محمد بن أمية من نسل الخلفاء الأموية واستمرّت الحرب سنين حتى ظهر شقاق بين المسلمين وذبح محمد بن أمية وخلفه عبد الله فأخذ منه النصارى سنة ١٥٧٠ معظم عساكره و بعضهم ذهب الى أفريقية وشتت النصارى شمل المسلمين فى الأقطار تحت المراقبة

ولما اشتدّ الكرب على المسلمين دفعوا سنة ١٥٩٢ الى الملك فيليبس الثانى ثمانمائة ألف دينار ليخفف عنهم فقبضت الحكومة يدها عنهم ولكن الرعية مازالت وفى يدها اليمنى السيف وفى اليسرى الصليب لطاردة المسلمين . ثم أمر الملك فيليبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمى (والنسه) و (مرسيه) فنقلتهم السفن الى سواحل أفريقية و بعضهم اجتاز جبال (برنيه) فقبل نزولهم فى فرنسا ملكهم (هنرى الرابع) وجاد على بعضهم بالمسكن والمزرعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر فى البحر الى (مينا غينه) و (مينا انجدوق)

و يقول (سديو) إن المسلمين الذين بقوا فى اسبانيا بعد فتح غرناطة أى من سنة ١٤٩٢ الى سنة ١٦٠٩ ثم طردوا بعد ذلك كانوا ثلاثة ملايين وهم كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة . ثم قال مانصه

﴿ فدرست معالم عز اسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة (ننتس) سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب (القاثوليقية) ذوى الصنائع العظيمة (تأمله) ﴾

هذه هى النتائج التى وصل اليها اخواننا المسلمون من أبناء العرب ذلك لأن الله لايغيرمابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال

﴿ الحادثة الثالثة دخول الفرنسيين مصر ﴾

طاحت الممالك الاسلامية فى الشرق وضاعت فى الغرب ومصر فى الطريق بين البلدين ولكن الأمم الاسلامية فى تلك القرون ذهب منها المصلحون . ذلك أنه كلما نبغ نابغ أصبح بين فكى لأسد يعضه الحاكم المستبد ويجرحه العوام الجهلاء . فالحكام يخافون على ملكهم من طلاب الاصلاح والعامّة جهال لايدرون شيأ فيقول لهم الفقهاء ان هذا مارق من الدين فيضيع بينهم . إنّ الله خلق فى كل أمّة وكل جيل نابغين وهؤلاء فى الاسلام كانوا لايجسرون على رفع أصواتهم من صولة الحكام وجهل الفقهاء القائمين بأمر الدين ولكن هذا هوالزمان الذى نرفع فيه صوتنا ولا رادّ لأمر الله ولابدّ من رقى أمّة الاسلام فى هذا الزمان . لهذا كله لم يعتبر المسلمون وكيف يعتبرون وقد مات المصلحون إذ كفرهم الجاهلون فانظرماذا حصل واعتبروفهم المسلمين ذلك . إن ماحصل من دخول التتار والمغول بلاد الاسلام فى القرن السابع الهجرى هونفسه الذى حصل عند دخول الفرنسيين مصر فى القرن الثالث عشر الهجرى . ذلك أنه كما أن المسلمين كانوا يجهلون

الممالك المتاخمة لهم مساحة وسياسة وعددا وعددا . هكذا كان القوم فى مصر واليك البيان

جاءت مراكب انجليزية يوم الثامن من محرم سنة ١٢١٣ الى ثغر الاسكندرية وأرسلوا رسولا الى السيد محمد عبد الكريم الذى هو القائم بالأمر فقالوا إنا علمنا أن الفرنسيين يريدون مهاجمة بلادكم فجئنا لنمنعهم ولعلهم قادمون بعد قليل ونحن نريد أن نبقى فى البحر بعيدا ونأخذ الزاد بالنقود منكم فردّهم محمد عبد الكريم بخشن القول فتركوهم وسافروا والأمراء لم يهتموا بشئ من ذلك اعتمادا على قوّتهم وانه اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيلهم

وفى يوم (٢٠) منه جاءت المراكب الفرنسية وطلعت الى الاسكندرية فانهزم المصريون حالا وأحرقت مراكب مراد بك ورئيس الطبجية خليل الكردى فولى مراد بك هاربا . أما فى الجامع الأزهر فكان المشائخ يقرؤن البخارى وجميع مشائخ الطرق يذكرون اسم ﴿ لطيف ﴾ أونحوه ثم دارت الحرب ثلاثة أرباع ساعة بجوار القاهرة فغرق كثير من الخيالة فى النيل وهكذا سلمت البلاد لهم

وقد جرت حادثة وهو أن الطاعون فشا فى البلاد المصرية فأمروا بأن الناس لا يدخلون بيتا فيه مصاب ولا يخرجون منه وأرادوا عمل الحجر الصحى . ولا جرم أن هذا نفسه هو الوارد عن عمر رضى الله عنه وقد سمع الحديث الشريف فى ذلك أى ان الطاعون اذا كان ببلد لا ندخله واذا كنا فيه لا نخرج منه

فلما أمر الفرنسيون بالحجر الصحى اعتبر المصريون أن هذا عقاب وقد أرسل لهم قائد الجيش خطابا يتضمن الحجر الصحى (ذكره الجبرتى فى تاريخه) . ولما شرع الفرنسيون ينظمون الأعمال الصحية بحيث يحرقون ثياب المطعون وفرشه ثم لا يقرب من الميت أحد قال العلامة الجبرتى فاستبشع الناس ذلك وأخذوا فى الهرب والخروج من مصر الى الأرياف

هذا ما أردت نقله لتعلم أيها الذكى الى أى حدّ بلغ جهل المسلمين ونومهم العميق فلا العدوّ يعرفون قوّته ولا العمل بالحديث فى أمر الصحة قاموا ومسألة الحجر الصحى حق بلا جدال والمسلمون إذ ذاك ساهون لاهون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ . هذا ما كان فى حادثة الفرنسيين

﴿ أما دخول الانجليز مصر ﴾

فانه معلوم مشهور ولكن أذكر حادثة واحدة أخبرنا بها أستاذنا الشيخ حسن الطويل رحمة الله عليه قال كان الشيخ أبو خطوه جالسا فى مجلس عرابى باشا الوطنى الشهير وقت الحرب مع الانجليز . فقال الشيخ أبو خطوه يجب اقفال القنال . فقال عرابى باشا إن السياسة ليست فى المحفظة . فقال الشيخ أبو خطوه أنا آخذ المحفظة وأقوم . ثم ان الانجليز لم يدخلوا إلا من القنال . والسبب فى ذلك أن رجال فرنسا ضمنوا لعرابى عدم دخول الانجليز بمراكبهم من القنال فوثق عرابى بذلك ولم يثق الشيخ أبو خطوه . ولقد قرأت فى كلام (ابلانت) الانجليزى فى هذه الحادثة أن المصريين لو أنهم أقفلوا القنال لم يدخل الانجليز مصر الى الأبد وانما دخلوها بحيلة فوهبوا السفن لخديو مصر و بعد أن دخلوا استردّوها منه حتى يقولوا ما دخل بلادكم إلا سفن الخديوى لا سفن الانجليز . هذه عواقب الجهل بالأمم و بالعلوم ـ ولله عاقبة الامور ـ

أيها المسلمون . ها أنا ذا ذكرتكم بأيام الله فينا وفى أسلافنا فلتذكروا أممكم بعدنا بكتب ورسائل ولتقتفوا سنن القرآن إذ ذكر بما وقع فى غزوة أحد وغيرها عاملين بقول الله تعالى ـ وذكرهم بأيام الله إنّ فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ـ اه

﴿ تتمة وشرح لما تقدّم . تذكير المسلمين بالقرآن ﴾

قلنا فيما تقدّم أن سورة ابراهيم مبدوأة بالتذكير بأيام الله ومختومة بقوله تعالى ـ وليذكر أولو الألباب ـ والألباب جمع لبّ واللبّ غير القشر فالعقول ﴿ قسمان ﴾ عقول هى القشور وعقول هى الألباب وهذه الثانية

تبحث

تبحث فى حقائق الأشياء . فليرجع من بعدنا من المسلمين الى أسباب زوال الممالك الاسلامية . السبب ﴿ أمران ﴾ الجهل وترك الشورى . أنظر الى مايقوله المؤرخ الفرنجى المذكور . يقول إن الأساطيل الاسلامية وصلت الى مصاب نهر السند وأخذ عبد الله بن عامر بلاد كرمان وسجستان الى أن قال و بعث الى ملك الصين اثنى عشر سفيرا وهدده بالاغارة فغمرهم بعطايا الذهب الوافرة لشرهم وانتشرت اللغة العربية ودين الاسلام بالتدريج حتى زالت ديانة البوذية وقد ظهرت الجيوش الاسلامية على شواطئ نهر الكنج

هذه حالهم فى الشرق . فأما حالهم فى الغرب فانهم توغلوا فى فرنسا وأخذوا اقليم (برغونيا) و بلغوا مدينة (طلوشه) تحت تلك البلاد سنة ١٠٣ فهزموا فارتدوا الى شواطئ نهر الرون والسين وأخذوا مدينة (بونه) ودفع الجزية أهل (سنس) و (البيجو) الخ

انا لست الآن فى مقام الاستحسان أوالاستقباح انما أنا الآن أذكر ماحصل لآبائنا شرقا وغربا ثم ماذا حصل بعد ذلك . هاأنت ذا رأيت كيف أصبحت حالهم بعد ثمانية قرون . هاهم أولاء فى البادية كما كان آباؤهم قبل النبوة ومن تحضر منهم فانه تحت حكم دولة من دول أوروبا . ثم انظر هاتين الحالين حال العزة أولا والذلة ثانيا ووازن بينهما و بين حال العالم أولا وثانيا . أنظر كيف يقول فى صفحة (١١٠) من الكتاب المذكور . ان المأمون لما تولى استدعى من القسطنطينية عالما يسمى (ليون) فأبى (توفيل) ملك القسطنطينية فكان بينهما سنة ٨٢٥ ميلادية حرب نصر فيها (توفيل) وتوفيل هذا هو الذى طمع بعد ذلك فى ارجاع ما أخذه العرب منه فحارب المعتصم سنة ٨٣٦ وخرب مدينة (سوزو بترا) مسقط رأس المعتصم وذبح جميع رجالها فسبب ذلك أن أخذ المعتصم عمورية سنة ٨٤٠ ميلادية وفعل مافعله (توفيل) فانظر ووازن بين المأمون و بين يعقوب المنصور فالأول حارب الروم لأجل عالم منهم والثانى طرد وأهان العالم وهو ابن رشد فارتقى الملك فى أيام الأول وانحط بعد زمن الثانى . إذن

﴿ ما السبيل لرقى المسلمين ﴾

السبيل أن تعدل الأمة عن النظام الحالى فان كل مصيبة حلت بالأمة نتجت من جهل الملوك والأمراء وعدم اعتنائهم بالشورى فمتى مات الأمير وخلف الملك لولد غير رشيد ضاعت الدولة فهى أبدا تبع الأمير جهلا وعلما فلاسبيل لرقى الشرق إلا أن يكون النظام فى الملك بقانون مسنون وأن يكون هناك مجلس له الكلمة النافذة فى أمر الوراثة ونظام الملك وأن يقيد الملوك كما قيد ملك الانجليز بحيث يكون الأمر لأهل الحل والعقد

هذه هى السبيل لنظام الأمم الاسلامية فى مستقبل الزمان . هلموا يا أبناء العرب واسمعوا قولى . انظروا الى أخلاق آبائكم الأقدمين وأخلاقكم اليوم . آباؤكم كانت لهم السلطة على أمم فى الشرق والغرب كما بينا فلما زالت دولهم الملكية بقيت دولهم العلمية . فانظروا ماذا يقول العلامة الفرنسى المذكور فى ﴿ المبحث العاشر وغيره ﴾ إن مدنية العرب لم تذهب بذهاب دولهم فذكر فى هذا المقام أن الأتراك والمغول لما أغاروا من شمال آسيا على غربها وشرقها حفظوا مدنية العرب وعلومهم (١) فقد أحضر السلطان محمود الغزنوى الى ديوانه العلامة البيرونى من سنة ٩٩٧ الى سنة ١٠٣٠ . (٢) وجمع جلال الدين ملكشاه السلجوقى أفاضل العلماء من سنة ١٠٧٢ الى سنة ١٠٩٢ . (٣) وأحضر (هولاكوخان) المغولى الى ديوانه حين تغلب على بغداد سنة ١٢٥٢ ميلادية نصير الدين الطوسى الذى قلده ادارة المرصد الجديد بالمراغة (٤) ونقل جمال الدين الفلكى مع الخان (كو بلاى) علوم العرب الى مملكة الصين (٥) وحث محمد الناصر بن قلاوون أحد السلاطين المماليك بمصر رعاياه على اكتساب المعارف من سنة ١٣١٠ الى سنة ١٣٤١ ميلادية (٦) وأسس (أولغ بيك) التتارى فى القرن الخامس عشر مرصدا بدمشق وأبقى فى أزياجه من الآثار الفلكية مايشهد بعلو همته وحسن قريحته (٧) وقد كان بعد هلاكو بقرنين عائلة تيمور

لنك إذ كان ولده (شاه روخ) وحفيده (أولغ بك) المتقدّم ذكره وارثين لما فى المدرسة البغدادية العربية من العلوم والفنون (٨) ثم كان زمن الأوّلين من السلاطين العثمانية علماء برعوا وألفوا كتبا باللغة العربية والفارسية فكان لديهم آخر أشعة شموس العلوم التى ختم بها ذلك العصر المديد (٩) وإن تعجب فعجب ما نسمع عن (هلاكو) المتقدّم الذى أغدق على العلامة نصيرالدين الطوسى المال لجمع الكتب الفلكية من خراسان والشام والموصل و بغداد و بنى المرصد المتقدّم وجعل فى قبته ثقبا تدخل منه أشعة الشمس و بهذه الأشعة تعرف الدرجات والدقائق فى سيرها اليومى وارتفاعها كل فصل وجعل فى هذا المرصد دوائر رصد كبار أوأرباع دوائر وكرات سماوية وأرضية وسائر أصناف الاسطرلاب (١٠) هذا ما كان من امر آبائكم العرب خاصة والمسلمين عامّة الذين أصبح علماؤهم علماء عربية بغض النظر عن الأصل

كان لهم الملك أوّلا فلما ذهبت دولهم صار العلماء قائمين بالعلوم عند المتغلبين . فماذا تمّ بعد ذلك (١١) قال المؤرخ المذكور ﴿ تأخر العرب الآن من التدخل فى انقلاب الممالك الشرقية وسكنوا المدن المتباعدة عن بعضها فى بحيث جزيرتهم ولزم عرب الشام ونجد عوائد الاجلاف كأنهم نسوا مآثر آبائهم ﴾ . ثم قال ﴿ وأخذ أهل حضرموت وعمان والبحرين يتمتعون بثمرات المعاملات التجارية مع أهل الهند و يغوصون على المرجان بقرب سواحل الخليج الفارسى ووفد السياحون وتجار العرب الى شرق أفريقية وجزائر بحر الهند وسواحل مالابار والممالك الممتدّة الى ملقا بل ذهبوا الى الصين . قال ولم يزالوا الى الآن ينشرون فيها عقائدهم وعوائدهم وتصوّراتهم ﴾ (١٢) من آثار الجهل فى أمم الاسلام زمن الانحطاط أنك ترى أن البربر فى شمال أفريقية كانوا هم والعرب اخوانا أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد . ولما طرد النصارى فى اسبانيا العرب سنة ١٦٠٩ من بلادهم الى بلاد البربر بشمال أفريقية لم يأذنوا لهم أن يتوطنوا فى البلاد حتى أخذوا ما معهم ثم عاملوهم معاملة الأعداء ولم يزالوا كذلك تحت حكم الأتراك وهم قريب من ثلث أهل البلاد حتى سكن قليل منهم مراكش تحت حكم الأشراف واختار أكثرهم العيشة البدوية والاستقلال بحكم أنفسهم فسكنوا الصحارى ولله الأمر من قبل ومن بعد . هذه صفحة تامّة من تاريخ آبائكم حفظوا الملك ونشروا العلم الى زمن قريب ثم دالت دولة العلم بعد دولة الملك وسكنوا الأكواخ بعد القصور . فهل من أبناء الاسلام والعرب من فتيان صدق يرجعون مجدا مضى وتاريخا قضى و يعيدون التاريخ . ها أناذا بينت لكم فى هذا التفسير خلاصة العلوم وخلاصة الدين وخلاصة تاريخ الآباء وخلاصة ما أحاط بكم من رفعة وضعة . أفلا يكون هذا تفسيرا لقوله تعالى ــ وذكرهم بأيام الله ــ . أفليس منكم يا أبناء العرب و يا أبناء الاسلام رجال ينطبق عليهم قوله تعالى فى آخر السورة ــ وليذكر أولوا الألباب ــ فهذه هى ذكرى أيام الله ومن اطلع على هذا التفسير وفهمه فهو حقا من أولى الألباب . إن من أعجب العجب أن تشتمل هذه السورة على قصص ابراهيم الخليل وعلى ذكر أبنائه العرب وعلى الرسول العربى ﷺ وعلى ما دعا به ربه من قوله ــ ربنا إنى أسكنت من ذرّيتى الخ ــ ومن قوله ــ واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام ــ

﴿ النهى عن عبادة الأصنام ﴾

دعا الخليل عليه السلام أن يجنب الله أبناءه عبادة الأصنام . إنّ عبادة الأصنام تحصر الفكر فى المعبود والله عزّ وجل خلق الكواكب والنبات وكل ما على الأرض فالاقتصار على مخلوق واحد والتقرّب به الى الله دلالة على قصور العقول فعبادة الأصنام مذمومة لأن الله له هذا العالم كله فليقرأ المسلمون العلوم كلها كل بقدره منهم والاقتصار على القشور من العلوم وترك بقيتها تشبه من بعض الوجوه عبادة الأصنام من حيث حصر الفكر . إننا معاشر المسلمين الآن مؤمنون بالله ولكنا حصرنا عقولنا فى علوم ضئيلة فلذلك تفرّقنا شذر مذر وحكمتنا الأمم التى كنا نحكمها وطاحت منا العلوم وذهبت الى أوروبا وأمريكا واليابان والله يقلب الليل

والنهار

والنهار وسيرجع مجد العرب والمسلمين اوفى وأعظم وأشرف من مجد السابقين ولله عاقبة الامور اه

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ ومالنا ألا نتوكل على الله الخ ـ ﴾

اعلم أن التوكل له ﴿ فائدتان ﴾ كما قاله علماؤنا ﴿ الاولى ﴾ أنه يورث راحة القلب فى الحال ﴿ الثانية ﴾ أن الله يتولى تدبير الأمر المتوكل فيه بشرط أن يفعل العبد كل ما يقدر عليه فيه علما وعملا . ويعين على التوكل مارأيته فى كلام علماء عصرنا تحت هذا العنوان

﴿ القلق واضطراب البال وأثرهما فى الصحة والعمل ﴾

كان الدكتور (لايمن بينشر) يقول ﴿ لايموت المرء من الجدّ فى العمل ولكنه يموت من الهمّ والقلق كما أن الآلة لاتؤذيها الحركة ولكن يبليها الاحتكاك ويلحق بها ضررا عظيما ﴾ ومما لاريب فيه أن النائبات والشدائد الجسيمة لاتقوى على تعكير صفاء الحياة بقدر الأكدار والمخاوف والوساوس الطفيفة التى تلم بالمرء من يوم الى يوم فتنغص عيشه وتهدم دعائم توازنه العقلى . وقد كتب الدكتور (جورج جاكوبى) وهو من جهابذة المتضلعين من علم الأعصاب عن فعل القلق فقال ﴿ إنّ ضحايا الهمّ فى القرن الأخير أربت على آلاف القتلى فى ساحات الوغى . وان أدهش ما توصل اليه علم الأعصاب فى الآونة الأخيرة اثباته أن القلق قتال مود بالحياة . ومباحث الأطباء لم تقف عند هذا الحدّ فحسب بل انها اخترقت الحجب التى كانت تكتنف هذا العارض وأماطت اللثام عن غوامضه ودقائقه فأظهرت أن كثيرا من الوفيات المنسوبة الى أسباب شتى ناشئة فى الحقيقة عن القلق واضطراب الأفكار . فالقلق يفعل فعله الذريع فى خلايا الدماغ الحيوية مشبها نقط الماء المتساقطة على بقعة واحدة لاتتعدّاها فانها مع صغرها وضعفها اذا وقعت على الصخر الأصم لاتلبث أن تشقه وتفريه . فلاعجب اذا كان التفكير المؤلم المستمرّ المنحصر فى موضوع واحد متلفا لخلايا الدماغ مقوّضا لبنيانه اللين الهشّ البشّ . وفعل القلق ميكانيكيا هوكذلك أشبه بفعل مطرقة صغيرة لاتزال دائما أبدا تهوى على الدماغ ضربا حتى تمزق أغشيته ويختلّ نظامه . فتتيم العاشق وهمّ المضطرب وحزن الحزين مالم يبذل هؤلاء الجهد العظيم فى مكافحتها تصبح كالمطرقة المشار اليها فلاتعتمّ أن تدكّ أركان الدماغ وتذهب بالرشد وتفضى الى اختلاط العقل واختلاله . وقد أظهر البحث أن القلق والغم والفكر الراسخ الملازم تنتاب المصاب بها حتى لايجد لنفسه منها الى الخلاص سبيلا ثم انها لابدّ بتتابع وقوعها ومعاودتها من أن تهدم جزأ ولو يسيرا من خليات الدماغ إذ ليس شئ أشقّ من مقاومة الأفكار المزعجة التى لاتنفك تخالجه وتساوره . ولما كانت أجزاء الدماغ متصلة بعضها ببعض بواسطة الالياف اتصالا محكما كان من المحتم أن يتطرّق الفساد من الجزء المصاب الى سائر جوانب الدماغ . والقلق بحدّ ذاته شبيه بالوسواس وليس من حالة عقلية أخرى أوخم عاقبة وأفدح ضررا بالانسان من حيث نموّ نفسه وسعادته ونشاطه من القلق وشريكه الانكسار . وطباب هذه العلة هو توطيد العزيمة على طرح الفكر المقلق جانبا وتناسيه وترويح البال وتسليته . وعلى المرء متى شعر بتعب فكرى أن يبادر الى ابدال عمله بعمل آخر يطالق به نفسه من عقال الضجر والسآمة لأن التسلى هو أعدى أعداء القلق وأنجع دواء يعالج به . ولامراء أنا اذا استسلمنا للهموم والأكدار قذفنا بأنفسنا قرنا كاملا الى الوراء وتراجعنا الى عصر الآلة البخارية فى أوّل عهدها حينما لم يكن مستعملها ينتفع منها بسوى عشر ماينفقه عليها من الوقود فكانت القوّة المستفادة توازى عشرة فى المائة والقوّة الذاهبة سدى تسعين فى المائة . وكثيرون هم الأولى يشبهون تلك الآلات المنبوذة إذ يهدرون قسما وافرا من نشاطهم بالاضطراب والانزعاج والتذمر والتشكى . بينا نرى أناسا آخرين يستثمرون جلّ قواهم إن لم يكن كلها فيما يعود عليهم بالخير العميم والنفع الجزيل . فطوبى لمن تعلم أن يحيا الحياة الهنيئة المثلى فاستفاد من كل ما أوتيه من نشاط وقوّة ولم يبدّد شيأ من مواهبه فى مالايجديه نفعا

قال شيخ وقد أدركته الوفاة لأولاده ﴿ اعلموا يا بنىّ أنه قد خامرتنى فى أثناء حياتى مخاوف جمة لم يتحقق إلا النزر اليسير منها ﴾ . وحدّث تاجر وجيه عن أبيه قال ﴿ كان أبى مدّة عشرين سنة يوجس خيفة من حدوث شرّ لم يقع أبدا ﴾ فكثيرا ما نتوقع حوادث الحياة ونبتسم لها ابتسارا بدلا من ارجائها لأوانها واجتزائنا بشؤن اليوم الذى نحن فيه . فهامّ اليوم قلما يتأتى عنها عظيم ضنى ولكن ليست كذلك المبالاة بامور المستقبل التى تضنك العقل وتوهن الجسد فانما هى مشاغل الغد والاسبوع القادم والعام المقبل التى تشيب الرؤس وتجعد الوجوه وتحنى الأجسام وتنهك القوى

وجديرا بالانسان العاقل أن يقيم حوالى حاضره سورا منيعا حائلا بينه و بين ماضيه وآتيه فيعيش فى حظيرته خليا مطمئن النفس ناعم البال . وقد كان (تاكرى) الكاتب الانكليزى يقول ﴿ إن كل امرئ يخلق لنفسه البيئة التى يشتهيها لأن الدنيا شبيهة بمرآة تعكس له شكله وصورته فاذا أقبل عليها مقطبا قطبت واذا بشّ لها وابتسم بشت وابتسمت ﴾

ويحكى أن (دوايت مودى) الواعظ الأميركى تقدّم يوما الى تلامذته بأن يتباروا فى استنباط المعانى فمن جاء منهم بأحسن فكر أجازه بخمسمائة ريال فكان المجلى فى هذا المضمار من قال ﴿ يتذمر الناس من أن البارئ جلّ وعلا أنبت مع الورد شوكا أفما كان أحرى بهم أن يحمدوه إذ أنبت مع الشوك وردا ﴾ . ولاشك فى أن مما يساعد الفتى على الفوز فى معترك الحياة قبوله للعالم بما فيه من الأشواك والأسواء فقد قال (فونتنيل) ﴿ إن الاسراف فى الأمل والرجاء هو حجر عثرة فى سبيل السعادة والهناء ﴾ وقال السرجون لبوك ﴿ لو أن الموكول اليهم أمر تربية الناشئة علموهم المسرة بهامهم بقدر اهتمامهم بمسرتهم لآل ذلك الى ترقى العالم وسعادته ﴾ وكان (أوليفر وندل هولمز) وقد بلغه الكبر لاينفك أبدا يذكر جميل مربيته التى علمته صغيرا الاغضاء على مساوئ الحياة فكانت اذا جرحت أصبعه تصرف نظره عن ألمه بدمية تهديها اليه أوحكاية تقصها عليه وكان يعزو اليها اغتباطه الدائم المستمرّ . الاغتباط الذى يسهل اكتسابه على الغلام و يعسر على البالغ أشده وأما فى الشيخوخة فهيهات لاينالة أحد أبدا

وقال أحد المشاهير ﴿ لما كنت أرضّ أصبعى فى أيام طفولتى كان القائمون بأمرى يعزّوننى ويطمئنون بالى بتوجيه نظرى الى ابن الجيران الذى بترت ذراعاه بأجمعها . وحينما كان القذى يتسرّب الى عينى كانوا يذكروننى بابن عمى الذى فقد عينه ولارجاء له باستردادها فكنت أرى نفسى إزاء هذا وذلك سعيدا محفوظا

فينبغى إذن أن يعوّد الأطفال الانبساط والارتياح الى كل مايعرض لهم فى الحياة ناظرين الى الأشياء من وجهها المشرق المنير لا المظلم القاتم حتى اذا شبوا على هذه الخلة شابوا عليها ورافقتهم من المهد الى اللحد . انتهى تفسير القسم الأوّل من سورة ابراهيم عليه السلام

(الْقِسْمُ الثَّانِى)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَايَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ مِنْ شَىْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللّٰهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ *

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ * قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ * اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *

هذا القسم قد أبان الله فيه أحوال الأمم وكيف تبيد بالجهالة وتحيا بالعلم وجعل ذلك في أربعة أنماط

﴿ النمط الأوّل ﴾ أنه شبه أعمال أولئك الذين كفروا وقد نظروا السموات والأرض اللذين ذكرهما الأنبياء جميعا وجاء بها النبيّ ﷺ لقومه كما في أوّل السورة ثم أعرضوا ولم يعقلوا إلا اقتراح خوارق العادات فشبه أعمالهم بتراب عصفت به الرياح فذهبت به في كل ناحية فلاينالون ثوابا وذلك هو الضلال البعيد عن طريق الحقّ والصواب

﴿ ايضاح لقوله تعالى في أوّل السورة ـ الذين يستحبون الحياة الدنيا ـ الى قوله ـ أولئك في ضلال بعيد ـ ﴾

﴿ النمط الثاني ﴾ انه خاطب كل واحد من الناس فقال • ألست ترى أيها الانسان أنا خلقنا السموات والأرض بالحكمة وعلى وجه يليق أن يخلقا عليه وكيف ترون هذا وأنتم عنه غافلون • لعمري لئن لم تقم الأمم بما عليها من حسن النظام وجمال الاتقان وتعميم العلم وتقويم بالأمر وتحافظ على كيانها وتتخلق بأخلاق في سمواتي وأرضي وأعمالي فيهما لأنتزعن الملك منها انتزاعا ولأجعلن أمرهم ضياعا ولأصيبنهم بداء عياء

ولأجعلنّ جمعهم كالهباء • وكيف أبقى فى ملكى من لايفقهون • أو يعمر أرضى من لايعقلون • وهل خلقت السموات والأرض باطلا ذلك ظنّ الجاهلين فويل ثم ويل للجاهلين من تفريق جموعهم وتشتيت شملهم وذهاب ملكهم ذلك يوم شؤمهم ثم يرجعون الىّ جميعا فيجادل المرؤسون الرؤساء ويحاور الرؤساء المرؤسين ويلقى الأوّلون التبعة على الآخرين ويخضع ويخنع للأمر الآخرون ويسلمون بالمقادير ويقولون ـ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ـ ثم يقف الشيطان بين الحزبين خطيبا وأىّ خطيب فيقول أيها الحزبان ويابنى الانسان ماقضى كان وليس فى الامكان أبدع مما كان ـ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ـ لقد وعدتكم فأخلفتكم والله وعدكم فلم يخلفكم وقد اتبعتمونى إذ دعوتكم بلابرهان مع انكم اقترحتم على أنبيائكم أن يأتوكم بما ليس فى الامكان فاللوم واقع عليكم فهو منكم واليكم فلا أنا مغيثكم ولا أنتم مغيثىّ لقد كفرت بكم • وملخص هذه المحاورات أن خراب الأمم وضياع الدول وذهاب عزها ومجدها من الرؤساء واستبدادهم بالرعايا وظلمهم فى القضايا فيقلدهم المرؤسون وهذا التقليد هو المخرّب للأمم المضيع للهمم لأن المقلدين يتكلون على المقلدين بالفتح والأساس اذا كان واهيا انهار بما فوقه فرجع الأمر الى أن الله لايغفر للأمم خطأها فى التقليد ويوجب عليها النظر والعلم الرشيد والرأى السديد والتجديد فى الرأى والابداع فى العمل وهذا قوله تعالى ـ ألم تر أنّ الله خلق السموات ـ الى قوله ـ تحيتهم فيها سلام ـ

﴿ تفسير بعض الألفاظ ﴾

قال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم) أى فيما يتلى عليكم صفتهم التى هى مثل فى الغرابة ثم استأنف لبيان هذا المثل فقال (أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح) حملته الريح وأسرعت الذهاب به (فى يوم عاصف) وصف اليوم بما يوصف به الريح فان العصف اشتداد الريح كقولك نهاره صائم وليله قائم • فاذن صلة الرحم واغاثة الملهوف وما أشبهها لاثواب فيها مع كفرهم كالتراب المذكور (لايقدرون) يوم القيامة (مما كسبوا) أى من أعمالهم (على شئ) أى المقصود أنهم لايجدون ثواب أعمالهم (ألم تر أنّ الله خلق السموات والأرض بالحق) أى لم يخلقهما باطلا ولاعبثا بل خلقهما لقصد صحيح وأمر عظيم (إن يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت بخلق جديد) يعنى سواكم أعلم بالسموات والأرض الذين خلقناهما بالحقّ فيكونون مؤمنين وموقنين (وماذلك على الله بعزيز) أى بممتنع وكيف يعزّ على الله وقد أهلك الأمم الغافلة فى الاسلام نفسه فأزال ملك الدولة العباسية بالتتار لما كانوا غافلين حتى جهلوا علم الجغرافيا فلم يعرفوا قوّة التتار كما سيأتى فى سورة الكهف وأزال ملك أهل الأندلس لما انكبوا على الغزل والتخنث وولوا الوظائف أهل الخيال والشعر ولم يولوها أرباب العقل والفكر وتركوا عاداتهم وأخلاقهم واتبعوا الفرنجة وأهلك أهل أمريكا الأصليين وأهل استراليا القدماء فكل أمّة نامت أعينها عن استكناه هذا العالم فان الله يزيلها على أى دين كانت وأى نحلة فان الله خلق السموات والأرض بالحقّ ولايبقى إلا الأصلح فى الوجود (وبرزوا لله جميعا) أى يبرزون من قبورهم يوم القيامة واذن يتجادلون مجادلة اللصوص اذا أحضروا بين يدى القضاء فان كلا منهم يقول نفسى نفسى لأن ـ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ـ وقوله (فقال الضعفاء) جمع ضعيف أى ضعاف الرأى (للذين استكبروا) لرؤسائهم الذين استغووهم (إنا كنا لكم تبعا) فى تكذيب الرسل (فهل أنتم مغنون عنا) دافعون عنا (من عذاب الله من شئ) أى فهل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حلّ بنا فمن الأولى للبيان والثانية للتبعيض (قالوا لوهدانا الله لهدينا كم) أى لوأرشدنا الله لأرشدنا كم (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر (مالنا من محيص) منجى ومهرب من العذاب والحيص العدول لأجل الفرار وهومصدر كالمغيب أومكان كالمبيت • ثم قال (وقال الشيطان لما قضى الأمر) أحكم وفرغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (إنّ الله وعدكم وعد الحق) وعدا أنجزه وهو

الوعد بالبعث (ووعدتكم) وعد الباطل (فأخلفتكم) قلت لكم لا بعث ولاحساب وان صح فالأصنام شفعاء (وما كان لى عليكم من سلطان) تسلط فألجئكم به الى الكفر والمعاصى (إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى إلا دعائى إياكم بتسويلى وتزيينى فأسرعتم باجابتى بلابرهان (فلاتلومونى ولوموا أنفسكم) فلالوم على فى وسوستى وانما اللوم عليكم اذ أطعتمونى (ما أنا بمصرخكم) بمغيثكم من العذاب (وما أنتم بمصرخىّ) بمغيثىّ (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى كفرت اليوم باشراككم إياى من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا أى تبرأت منه واستنكرته . ثم قال الله تعالى (إنّ الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم) باذن الله تعالى والذين يدخلونهم هم الملائكة (تحيتهم فيها سلام) أى تحييهم الملائكة فيها بالسلام ﴿ النمط الثالث ﴾ اعلم أن النمطين السابقين يخالفان النمطين اللاحقين . ذلك أن الأوّلين جاآ لتبيان مايعتور الأمم الجاهلة من تفرّق الحال وضياع الأمر وذهاب مجدهم ودثورعزّهم ومحق جمعهم لما كانوا جاهلين . ألم تر كيف صوّر أعمالهم أن الرياح تذروها وكيف نسوا حظهم من السموات والأرض فحكم عليهم بالذهاب من الوجود ثم يؤتى بدلهم بمن هم أشرف نفوسا وأقوى قلوبا وأعقل للعلم وأولى بالفهم . وكيف كانوا متوا كلين يسوقهم الرؤساء كما تساق الأنعام ويذوقون سوء النكال فالرؤساء والشهوات التى يستخدمها الشيطان فى اغوائهم لهم ولها السلطان عليهم . ذلك ملخص النمطين فاسمع مايتلى عليك من النمطين اللاحقين واعجب للأمرين الجهل والعلم واذكر ذلك لمن يليك ﴿ النمط الثالث ﴾ فأما النمط الثالث فهو واسطة العقد وبيت القصيد ولأقدّم لك مقدّمة لأجله فأقول

اجلس ساكنا فريدا لا أصوات بجانبك وفرغ قلبك مما يلهيه وانظر الى العالم العلوى والى العالم السفلى وتصوّر أنك عقلتهما ودم على ذلك طويلا وكرره فى نفسك مرارا على شريطة أن تلم بالعلوم المعروفة الماما من الرياضيات والطبيعيات حينئذ يتجلى لك اشراق فى النفس وبهجة فى القلب وضياء فى العقل وأنوار بهجات كاشفات ويصوّر لك خيالك العجيب صورة علمك بهيئة أنوار مختلفة الألوان بحيث تبتهج النفس بها وتقرّ العين . تلك الأنوار تشرق من الأرض وتنبعث من سطحها وأصلها من قلبك وتخترق طباق الجوّ وتعلو الى العلا حتى تصل أطباق السموات فتحلق هناك وتحاول الاحاطة بالنجوم ولاتخاف من الرجوم ولا الوجوم . فهل حضر فى خيالك هذا المثال . نعم حضر لأنى ألقيته فى خيالك وكأنك كنت هنالك . فاذا تصوّرت هذا كله الآن وما أسهل صور الخيال فانه يمثل جمال العلم الحاضر فى النفوس الكاشف للعوالم التى درستها والمعلومات التى قرأتها من المعادن والنبات والحيوان والانسان والجوّ والسحاب والسموات

هذا هو الخيال الذى يحاكى هذه الدراسة العامّة . اذا عرفت هذا فانظر تمثيل القرآن لهذا العرفان

لقد أراد الله أن يرينا بهجة العلم بهيئة تدل على الثبات والدوام فعمد الى أنواع النبات فقسمها قسمين قسم لاثبات له ولادوام بل هو كخضراء الدمن التى تنبت أوّل النهار فى الندوات حتى اذا علت الشمس فى السماء نشفت وذوت وذرتها الرياح وبقيت أرضها جرداء حتى اذا ما أرخى الليل سدوله وظهر الصباح نبت مرة أخرى ثم ييبس ضحى وهكذا دواليك . هذا قسم من أنواع النبات . القسم الثانى هى النباتات القوية المتينة كالنخل والأشجار الباسقات التى تعيش عشرات السنين ولها فروع فى الجوّ وجذور نازلات فى الطين وأوراق وأزهار وأثمار ولها فاكهة ينالها الناس كل حين . فانظر كيف جعل هذا القسم الأوّل مثلا للمعارف الضئيلة والآراء الزائلة السقيمة بحيث لاتنفع جارا ولاتورى نارا ولاتدفع عارا وجعل القسم الثانى منها مثلا للمعارف الشريفة والآراء المنيفة وثبات الامور ونظام الجهور

وبالتأمّل فى المثلين نرى عجبا عجابا . ذلك أن الناس على اختلاف نحلهم وألوانهم ومدنهم مختلفون فى آرائهم كاختلاف النبات فلعمر الله أين خضراء الدمن التى ذكرتها لك وأنت تشاهدها غير مكترث بها كل يوم

تخرج فى الأرض الندية لاصقة بالأرض وهى نباتات حقيقية تزهر وتثمر ونحن لانشعر بها وتتم نظامها فى بعض يوم ويكون لها بذور وتلك البذور تنبت فى اليوم الثانى . فأين هذه وأين النخل والسرو والأثل وكم من نبات بين هذين . إن النباتات لم يحصرها العلماء إلا على مقدار طاقتهم قد أوصلها بعضهم الى ثمانين ألف نوع و بعضهم زاد كثيرا وهم جميعا يقولون إن فى العلم ماغاب عنا فهذه الأنواع كلها مختلفات غير متفقات . هكذا عقول الناس فنها عقول لاصقات بالأرض كخضراء الدمن . ومعنى الدمن الأرض التى تكون حول البيوت وفيها مايرميه الناس مما يزدرى ومنها عقول مرتقيات قليلا قليلا حتى تتصل الى أعلاها كالأنبياء

هذا هو المثل الذى ضربه الله لعقول بنى آدم وعلومهم . قرن عقول الناس وعلومهم بأنواع النبات بل إنه أراد فوق ذلك سبحانه أن يقول للناس ادرسوا هذه الأنواع وعلى مقدار الدراسة لها ولغيرها يكون ارتقاء العقول . ولكن ليس هذا مضرب المثل بل هو يؤخذ من طريق التعقل . انما المقام مقام اختلاف العقول فى العلم . واذا كان النمطان الأولان دلا على الذهاب والتشتيت وعدم الثبات فههنا ضرب المثل لأنواع العلم فنه ماهو من القسمين السابقين لاثبات له ومنه ثابت له قرار وعبر عن الثابت بالكلمة الطيبة وعن غير الثابت بالكلمة الخبيثة . وهاك تفسير ألفاظه قال تعالى (ألم تركيف ضرب الله مثلا) أى ألم تر أيها الانسان بعين قلبك فتعلم علم اليقين باعلامى إياك كيف بين الله شبها والمثل قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور وقوله (كلمة طيبة) بدل من مثلا و (كشجرة طيبة) صفتها أى بين الله شبها كلمة طيبة موصوفة بأنها كشجرة طيبة (أصلها ثابت) فى الأرض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) وأعلاها (فى السماء) فتمتد فروعها فى الجو (تؤتى أكلها) تعطى ثمرها (كل حين) كل وقت والحين يطلق على القليل والكثير (باذن ربها) بارادة خالقها وتكوينه (و يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) لأن فى ضرب الأمثال زيادة الافهام (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) أى كمثل شجرة خبيثة (اجتثت) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (من فوق الأرض) لأن عروقها قريبة منه كخضراء الدمن أو لاعروق لها فى الأرض كنبات الكشوثى الذى يعيش على غيره كما يعيش البرغوث على جسم الانسان (مالها من قرار) استقرار . ولقد علمت الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة فما بيناه فالمقلدون فى العلم وأرباب الشهوات وأصحاب النفوس الضعيفة كلهم أصحاب الكلمة الخبيثة لأنها لاثبات لها كنبات الكشوثى وخضراء الدمن وأصحاب النفوس العالية والحكماء وكبار المفكرين فى السموات والأرض هم أصحاب الكلمة الطيبة فعلمهم ومعرفتهم تعطى أممهم نعما ورزقا ونظاما فى هذه الحياة الدنيا والعلم مستقر فى نفوسهم و باستقراره فيها امتدت فروعه الى العوالم العلوية والسفلية وأثمرت إثمارا كل حين على أبناء أمتهم وعليهم وعلى غيرهم وصار نورا يهتدى به المهتدون ويمثل لذلك بالنخلة التى أصلها مستقر وفروعها عالية وثمرها دائم لأن الناس يأكلون منها صيفا وشتاء الجمار والطلع والبلح وهوضار بالصحة . والخلال والبسر والمنصف والرطب ثم التمر اليابس الى العام المقبل . ثم قال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم (فى الحياة الدنيا) فيكونون راسخين فى عقائدهم صابرين على ما أصابهم كزكريا ويحيى عليهما السلام (وفى الآخرة) فلايتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ولا يدهشهم أهوال يوم القيامة (ويضل الله الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بأن لم يفكروا وصاروا كالشق الثانى الذين هم أصحاب الكلمة الخبيثة أوقلدوا فهم لايهتدون ولايثبتون (ويفعل الله مايشاء) من تثبيت بعض واضلال آخرين . هذا هو المثل وهذا تفسير ألفاظه ولقد عرفت مرماه وفهمت مغزاه فليس يراد من أمة الاسلام أن ينطقوا بالشهادتين فحسب والا فالنطق بهما متيسر للببغاء فهذا الطائر متى علمناه النطق بهما نطق ولا أن يتصور المسلم المعنى فحسب . كلا . إن الأمر عظيم فليفكر المسلمون بعقولهم ولينظروا كم بين نخلة

مثمرة وحشائش ذاهبة مالهامن قرار . والنظر لما كان الأمر عظيما ضرب الله له المثل ولايضرب المثل إلا لعظيم فالاعتقاد بنبوّة النبيّ ﷺ و بوحدانية الله سهل عند العجائز والجهلاء ولكن الأمر ليس مجرّد الاعتقاد بل إنّ الله أنزل هذا القرآن لأمم ستعرف هذا الوجود وتدرس هذه الدنيا ﴿ تنبيه ﴾ أذكرك بما تقدم فى سورة التوبة لما وقف أبو بكر رضى الله عنه محتجا على الأنصار قائلا لهم ﴿ أيها الأنصار قال الله تعالى ـ أولئك هم الصادقون ـ ألم تكن فينا نحن المهاجرين فقالوا بلى فقال ألم تقرؤا ـ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ـ فهانحن أولاء الصادقون فلتكونوا معنا ﴾ فانظر كيف استدلّ على أن الخلافة فى المهاجرين بهذا . أفلا يحقّ لنا أن نقول للمسلمين الذين ضربتهم أوروبا ومزقت شملهم وضحكت على أذقان عظمائهم . أيها المسلمون لم كرر الله ذكر السموات والأرض ولم ضرب المثل بشجرة تمتدّ من الأرض الى السماء ولم ذكر السموات والأرض فى كل مناسبة ففى أوّل السورة على لسان نبينا وفيها على لسان موسى وعلى ألسنة جميع الأنبياء من أممهم وهاهو يعيدها فى ضرب الأمثال وهاهوذا يكررها كل حين . إن ذلك لما قدّمته وكررته فى هذا التفسير

﴿ نتائج فى هذا المثل ﴾

(١) فاذا سمعت بعض العلماء يفسر الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد أودعوة الاسلام أوالقرآن والكلمة الخبيثة بالاشراك بالله أوالدعاء للكفر أوتكذيب الحقّ فقد دخل كل ذلك وأمثاله فيما قررناه

(٢) واذا سمعت أن الشجرة الطيبة هى النخلة أوشجرة فى الجنة أوشجرة نتخيلها امتدّت من الأرض الى السماء فعلا . وأن الخبيثة شجرة الحنظل أوالكشوثى أوالثوم أوالكافر فكل ذلك داخل فيما قرّرناه وعرفت المقصود

(٣) واذا سمعت حديث البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا عند رسول الله ﷺ فقال أخبرونى عن شجرة شبه الرجل المسلم لايتحاتّ ورقها تؤتى أكلها كل حين ثم وقع فى نفس ابن عمر أنها النخلة ولما عرف أن أبا بكر وعمر لايتكلمان كره أن يتكلم هو فقال رسول الله ﷺ هى النخلة ثم انصرفوا فقال ابن عمر لأبيه ما قام بنفسه فقال مامنعك أن تتكلم فقال لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم فقال عمر لأن تكون قلتها أحبّ الىّ من كذا وكذا

(٤) واذا سمعت رواية الترمذى مرفوعا وموقوفا أن الكلمة الطيبة هى النخلة وأن الكلمة الخبيثة هى الحنظلة . اذا سمعت ذلك كله فقد سهل الأمر عليك وعرفت الحقيقة وكل ذلك تبيان لها . فياليت شعرى كيف يكون هذا شأن القرآن وشأن الحديث . يجلس الرسول ﷺ ويحدّث أصحابه فى علم النبات ويمتحنهم فى الشجرة التى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها وأمّة الاسلام نائمة . أفلا يقرؤن علوم النبات كما أشار لذلك الحديث وكما مثل به القرآن

(٥) واذا سمعت حديث البخارى ومسلم أن العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وانه يسمع قرع نعالهم اذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل (يعنى محمدا ﷺ) فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له أنظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى ﷺ فيراهما جميعا . وأما المنافق أوالكافر فيقول لا أدرى كنت أقول مايقوله الناس فيقال له لادريت الحديث ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين لفظ البخارى . وهنالك روايات أخرى تزيد على هذا لمسلم وأبى داود والترمذى فاذا سمعتها فاعلم أن ذلك العذاب على الجهل المطلق لأنه اذا لم يصدّق أصل الدين فكيف يدرس عوالم الارض والسماء التى أمر بها الدين وتأمل فى الحديث كيف عبر بأن الضربة بين أذنيه كأنه يقول له هلاسمعت سماع تفهم وهلاعقلت أما

السماع فبالأذنين وأما الفهم فبالعقل الذى هو بين الأذنين . واعلم أن هذه الضربة التى تصيب الجاهل فى قبره يحس بعضها فى حياته فان الأمم الجاهلة المتفرقة الكلمة يصيبها العذاب فى الدنيا باغتصاب بلادهم وذهاب مجدهم وضياع شرفهم

ولكم يجد الجاهل فى نفسه وكذا الشرير فى ضميره من أنواع التوبيخ والتقريع والحزن على مافاته من العلم ومن صنع المعروف . وهذه الهواجس عامة فى الناس جميعا فما من امرىء إلا ويشعر بنقص علمى حين ينظر ماحوله من الكائنات وزجر نفسى حين يعلم أنه مقصر فى اغاثة من حوله واعانتهم فيما يطلبون

هذا مبدأ العذاب ويزداد هذا العذاب بتفرق الكلمة بين الأمة ثم اذلالها وقهرها فاذا ماتوا وجدوا العذاب الأكبر على التقصير بتبكيت الضمير وعذاب السعير والمقامع من حديد ولله عاقبة الامور

جاء فى كتاب ﴿ مذكرات أدبيات اللغة العربية ﴾ فى صفحة ١٠٤ تحت عنوان

﴿ الموازنة السادسة . التشبيه بالشجر والنبات وغيرهما ﴾

وقال عنترة العبسى يشبه رائحة عبلة برائحة روضة أنف

أَوْ رَوْضَةً أُنُفًا تَضَمَّنَ نَبْتَهَا ... غَيْثٌ قَلِيلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمُعْلَمِ

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ

سَحًّا وَتَسْكَابًا فَكُلَّ عَشِيَّةٍ ... يَجْرِى عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ

وَخَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ ... غَرِدٍ كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ

هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ ... قَدْحَ الْمُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الْأَجْذَمِ

هذا نموذج من ذكر الشجر والنبات والبساتين فى كلام العرب تأمله وانظر كيف ذكره طرفة لمكان محبوبته وبنت طريف لرثاء أخيها وامرؤالقيس طورا يذكر الصلابة الحجرية وأخرى يذكر الدم فى صدر فرسه وآونة غزارة شعر محبوبته وعنترة ماوصف الحديقة والورق والسحاب والذباب والأجذم المكب على الزناد إلا لتشم أنفاس محبوبته عابقة الريح طيبة النشر

اذا حققت هذا فتأمل حال ذكر الشجر فى القرآن وتعجب من تنويع المعانى واجادة التشبيه والارتقاء به الى مستوى تسمع فيه صرير أقلام الحكمة وذلك فيما يأتى

يقول الله عزوجل مستدلا على الايمان حاضا على النظر فى العالم المشاهد وبهجته ونظامه ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ـ اذا نزل ماء فأنبت النبات فأصبحت الأرض مخضرة . ولاجرم أن ذلك دلالة على لطفه وتدبيره وعلمه وأنه خبير بجميع الشؤن . وتعجب كيف مثل كلمات الحكمة والايمان الثابت بالعمل بالشجر وكلمات الكفر والجهل بما لايثبت منه كالحنظل إذ قال ـ ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ـ الى قوله ـ مالها من قرار ـ . شبه كلمة الحكمة والايمان بشجرة ثبتت عروقها فى الأرض وعلت أغصانها الى السماء ذات ثمر فى كل حين . ولاجرم أن الهداية اذا حلت قلبا فاضت منه على غيره وملأت قلوبا كثيرة فكأنها شجرة أثمرت كل حين لأن ثمراتها دائمة لامقطوعة ولاممنوعة وكل قلب يتلقى عمايشاكله ويتقد مما يلائمه أسرع من ايقاد النار فى الحطب والكهرباء فى المعادن والضوء فى الأثير . وشبه الكلمة الخبيثة كلمة الكفر وماشاكلها بشجرة خبيثة كالحنظلة لا أصل لها من الجذوع ثابت بل عروقها لاتتجاوز سطح الأرض فلاهى ترتفع فى الجو ولاهى تمتد بجذورها فى باطن الأرض . هكذا

لاثبات للباطل ولادوام فهوزائل ذاهب وما أقوى الحقّ وأثبته وأكثر نفعه فالحقّ قويّ الأركان ثابت الدعائم مرتفع الى أعلى مثمر كل حين كالنخل والباطل لاثبات له وليس له استطالة وعلوّ وثمره مرّ كريه كالحنظل فى أحواله الثلاث اهـ

ثم إنّ ماتقدّم فى هذا المقال من ذكر طرفة بن العبد وامرئ القيس فهو ماسأذكره هنا فقد جاء فى صفحة ١٠٣ من الكتاب هذا البيت * قال طرفة

وفى الحيّ أحوى ينفض المردشادن * مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

وقدّمنا معنى البيت أن فى الحيّ حبيبا أسمر الشفة يشبه غزالا طويل الرقبة يتناول أغصان الأراك وينفضها . وأما الثانى فهو ماجاء بعد ذلك وهذا نصه

وقالت اعرابية أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

وفى هذا مجاز عقلى أوكناية * وقال طرفة

تبسم عن ألمى كأن منوّرا * تخلل حرّ الرمل دعص له ند

وقدقدّمنا أن الاقحوان شبه به الثغر فى الصفاء والبهجة والحسن والنور . وأما الثالث فهوماجاء بعد ذلك وهذا نصه . ويقول امرؤ القيس

كأن على المتنين منه اذا انتحى * مداك عروس أوصلاية حنظل

والمراد بالصلاية الحجر الذى يشقّ به الحنظل والحنظل معروف * ثم قال

كأنّ دماء الهاديات بنحره * عصارة حناء بشيب مرجّل

يقول كأن دماء الهاديات وهى أوائل الصيد من الوحوش على نحر هذا الفرس عصارة حناء خضب به مرجل أى مسرح يشبه دم الصيد الذى اقتنصه وهو راكب على نحر فرسه بعصارة الحناء فى شعر الأشيب * وقال يشبه شعر محبوبته وهو أسود فاحم بقنو النخلة المتعشكل أى الذى خرج عن رأس نخلة فظهر خارجا عن أغصانها وأخفافها إذ قال

وفرع يزين المتن أسود فاحم * أثيث كقنو النخلة المتعشكل

﴿ النمط الرابع ﴾ وفيه تبيان أعلى مقام فى العلم والعرفان والأخلاق الجميلة أى تبيان الكلمة الطيبة وأصحابها والكلمة الخبيثة وأربابها ايضاحا لما قبله وتبيانا لما تقدّمه فذكر سبحانه أن ذوى الكلمة الخبيثة هم الذين ـ بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ـ وأن ذوى الكلمة الطيبة هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويتصدّقون سرا وعلانية وينظرون فى خلق السموات والأرض وانزال الماء من السماء وكيف أخرجت به الثمرات وكيف سخرت الفلك لتجرى فى البحر بالتجارة . وكيف كانت الأنهار تخرج من البحار بالبخار الذى ينعقد مطرا فينزل على اليابسة وكما سخر الفلك فى البحر سخر الشمس والقمر وهما مستمران دائران لايفتران . وكيف سخر الليل والنهار . وكيف آتانا من كل ما سألناه . وكيف كانت النعم المعطاة لنا لايحصيها أحد ولاينقطع لها مدد فهؤلاء المصلون المنفقون هم أصحاب الكلمة الطيبة أى يكونون علماء بما فى الأرض والسماء دارسين النبات والبحار والأنهار . وكيف سخرت السفن وعالمين بما سخر الله من شمس وقمر وكواكب . هذه هى الكلمة الطيبة وهؤلاء هم أربابها . وهاك تفسير الكلمات قال تعالى (ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا) كأهل مكة لهم حرم آمن ورزق واسع وشرف بمحمد ﷺ فكفروا وقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر وذلوا لأنهم بدّلوا شكر النعمة كفرا بها (وأحلوا قومهم) الذين شايعوهم فى الكفر (دار البوار) الهلاك بحملهم على الكفر (جهنم) عطف بيان على دار البوار (يصلونها) حال منها (وبئس القرار) أى وبئس المقرّ جهنم (وجعلوا لله أندادا

ليضلوا عن سبيله) الذى هو التوحيد (قل تمتعوا) بشهواتكم ومنها عبادة الأوثان والأمر للتهديد (فانّ مصيركم الى النار) أى مرجعكم اليها * قال ذوالنون التمتع أن يقضى العبد ماشاء من شهواته (قل لعبادى الذين آمنوا) أقيموا الصلاة وأنفقوا (يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) فقول القول محذوف كما فهمت (سرا وعلانية) انفاق سرا وعلانية ويستحب الأوّل فى التطوّع والثانى فى الواجب (من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه) فيبتاع المقصر مايتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولاخلال) ولامخالة فيشفع لك خليلك * قال مقاتل انما هو يوم لابيع فيه ولاشراء ولامخالة ولاقرابة انما هى الأعمال إما أن يثاب أو يعاقب عليها * قال الشاعر

لانسب اليوم ولاخلة * اتسع الخرق على الراقع

فليست القرابة بمغنية فتيلا هناك فان الأخلاء بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين فان التقوى هى الرابطة بين الناس هناك لا النسب فيقوم الخلق والعلم مقام النسب * وفى الحديث القدسى ﴿اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى﴾ ولقد نشاهد هذا فى الدنيا • ألاترى أن من قرأ تاريخ أمّة وتغلغل فى معرفتها وهو خلو من علوم أمّته وآدابها يكره أن يعيش بين قومه ثم يعيش مع أولئك • ولقد لقيت من ذوى الفضل والعلم والأخلاق الكريمة والجاه فى أمّتنا المصرية من نشأ فى فرنسا من صغره ثم جاء مصر وهو متحمس لدينها ومجدها ولما لم يجد للقول متسعا هنا بمصر غادرها ذاهبا الى فرنسا عائشا بين أهلها وهو لايزال يجاهد فى عمله وان لم يكن مفيدا • وهكذا ترى الذين تعلموا فى بلاد الانجليز بمصر اليوم يحبّ بعضهم بعضا ونجد أهل فرنسا قد علموا أهل الشام لغتهم على طول السنين وعلومهم حتى اذا جاءت الحرب الكبرى قابلوهم بالترحاب فلما دخلوا بلادهم قلبوا لهم ظهر المجن وبدا لأهل الشام من فرنسا مالم يكونوا يحتسبون فكان التعليم أشبه بالحبّ (بفتح الحاء) يضعه القانص لاقتناص الطير • والقصد من هذا المقام أن العلم والأخلاق أمتن رابطة • وهاهى ذه أمّة الترك لما رأت أهل بلادها على أحوال شتى وكل يتعلم على نمط غير الآخر حرمت هذا ووحدت التعليم فان لم يكن توحيد اختلفت الأمّة ودخل العدوّ • وهكذا بلادنا المصرية كانت أيام دخول الانجليز فيها ذات مشارب متخالفة فالعامّة متدينون والمتعلمون يحقرون الدين فانفكت العرى وساءت العاقبة فدخل الانجليز البلاد

واذا رأينا العلم هذا شأنه فى الحياة الدنيا فما بالك بالآخرة يوم تنحل القوى كلها وتتجرد النفس من كل ماخرج عن دائرة العلم والأخلاق فلابيع ولاشراء ولانسب ولا أخلاء وتتجلى النفس بطبيعتها يشير لذلك الحديث الشريف ﴿أنت مع من أحببت﴾ فالحبّ والمجانسة العقلية هى الحاكم فى ذلك اليوم • ثم قال تعالى (الله) مبتدأ (الذى خلق السموات والأرض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى أخرج به رزقا هو الثمرات فمن الثمرات بيان للرزق (وسخر لكم الفلك) أى السفن (لتجرى فى البحر بأمره) باذنه وارادته لتنقل تلك الثمرات من بلد الى بلد (وسخر) ذلل (لكم الأنهار) تجرونها حيث شئتم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى حال كونهما دائبين أى يدأبان فى سيرهما وانارتهما ودرئهما الظلمات واصلاحهما مايصلحان من الأرض والأبدان والنبات والحيوان وبالشمس تعرف الفصول وبالقمر تعرف الشهور (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان بزيادة ونقصان (وآتاكم من كل ما سألتموه) أى وآتاكم شيأ من كل الذى سألتموه أى من كل الذى هو حقيق أن تسألوه سواء أسألتموه أم لم تسألوه لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى معدّة لهم ولم يسأل الله أحد فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطيارات والمغناطيس والكهرباء بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج ولم يزل هناك فى العالم عجائب ستظهر لمن بعدنا (وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها) لاتطيقوا عدّ أنواعها فضلا عن أفرادها فالأفراد لانهاية لها (إنّ الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها ويظلم نفسه بحرمانها واهمالها (كفار) شديد

الكفران

الكفران لنعمة ربه . ومن ذاك أنه يجمع ويمنع اذا أعطى النعمة والواجب أنه يحسن ويتصدق . انتهى التفسير اللفظى لهذا الخط

﴿ جوهرة فى ذكر نعمة بهية وهو الحرير الصناعى ﴾

اعلم أن الانجليز والأمريكان قد اخترعوا حريرا صناعيا لا يكون من الدود ويسمونه فى أمريكا (الريون) وقد كثرت صناعته فى فرنسا وانجلترا وأمريكا . وماهوهذا الحرير . هومأخوذ من خشب التوت وحطب القطن وشعر القطن بحيث يجعل ذلك كله عجينة وتلك العجينة تصير خيوطا . إنّ هذا من عجائب هذه الدنيا إن هذه الدنيا كلها عجب . فياليت شعرى أىّ مناسبة بين خشب التوت وحطب القطن وشعره . نعم نعم خشب التوت هوالذى يخرج منه الورق الذى تأكله دودة الحرير فكأن فيه الاصول الحريرية وخشب حطب القطن فيه الاصول القطنية والقطن أمره معروف . تخلط الثلاثة مع موادّ أخرى لانعرفها يكتمها أصحاب الصناعة عن الناس . جلّ الله وجلّ العلم . الأرض هى التى يستمدّ منها غذاء تلك الأشجار . أشجار القطن وأشجار التوت ومن التوت يأكل دود القز . عجب هـذه الدنيا وأىّ عجب . توت خلق ثم دود يأكل منه مناسب له . اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لايعقلون . يتخذون الحرير من الدود ويلبسونه . أما المفكرون فانهـم يا الله يسعدون فى فكرهم بحياة أرقى من حياة الجاهلين . ينعمون بالحرير ويقفون عند هـذا الحدّ وما أضيقه من حدّ ولكن العقل الانسانى أبعد مدى . العقل الانسانى له الحقّ أن يقول نحن أولاء لبسنا الحرير وهـذا الحرير من الدود فلم اختصّ هـذا الدود بأكل ورق التوت ولماذا لما أكله ألهم أن يجعل له كرة تلف عليه ولم جعلها مكبرة وكيف ألهم الناس أن يربوه ثم كيف ألهموا أن ينسجوه . ثم لماذا كان ذلك الحرير نادرا جدّا وهلا كثر كالقطن . ولماذا لم تخرج تلك الخيوط الحريرية فى نفس شجر التوت كما خرج القطن من نفس الشجر . ولم كان القطن أقلّ قيمة من الحرير وجمالا ثم أيضا كيف كان خشب القطن والتوت مع القطن يصنع منها الحرير . ثم يقال أيضا ان الأرض فيها هذه الموادّ التى تكون قطنا وحريرا فاذا لم تكن هناك عناية بهـذا الوجود فهل هذه الطبيعة أنتجت ذينك الصنفين رمية من غير رام وأوجدت الحرير فى التوت والدودة المحتاجة اليه بدون عقل . هل المصادفات العمياء التى كوّنت ذلك كله ووضعته محكما بلاعقل . اللهم ان هذه المباحث جنات المفكرين فى هـذه الحياة وسعادات لأولى الألباب الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ويقولون ـ وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها ـ

أنعم الله علينا بالقطن وبالتوت ولم يكتف بذلك بل جعـل فى خشبهما حريرا يغنى عن عمل الدودة . تلك الدودة التى أرسلها الله لنا فرسـمت خطة الحرير فنهجنا منهجها واتخذنا من خشب الشجرتين حريرا وقلنا ياويلنا أعجزنا أن نكون مثل هـذه الدودة فنلبس من عملنا بدل أن نكون عالة عليها . إن هـذا الانسان جاء الى الأرض ليتعلم الصبر ومزاولة الأعمـال بالكسب والاستقلال بعد أن يقتبس من الحيوان الذى جعله الله له مثالا ينسج على منواله . الناس أصناف . صنف يفرح بأنه لبس الحرير . وصنف يفرح بأنه اخترع حريرا آخر . وصنف فوق الفريقين يفكر فى هذا الانسان ولماذا خلقت له الأرض على هذه الحال ولماذا جعلت له هذه الدنيا مراتب ودرجات بعضها فوق بعض ولماذا حجب فى أوّل أمره عن السرّ فى المخلوقات ثم يتجلى لها جمالها شيأ فشيأ ثم كيف كانت هـذه الأرض وماعليها جنة المفكرين ونعيم الحكماء وسعادة الأولياء الذين يعرفون بفكرهم جمال هـذه التنوّعات ويجتزئ صغار العقول من بنى آدم باختلاف المناظر ملبسا ومسكنا ومشربا وعقولهم فى غفلة ونفوسهم فى محبس وهم هواء

سبحان من قسم الحظو * ظ فلا عتاب ولاملامه

وهاك صورة من جمال هذه الدنيا يستبين بها اتحاد العمل واختلاف المقاصد من بنى آدم بالحكمة المضاعفة وها هى ذه

(١) قمح شعير أرز ذرة فول
(٢) نخل تفاح برتقال موز

الانسان

(٣) سنامكى ونحوه الحبة السوداء الخ
(٤) قطن . كتان . توت . تيل . دودة الحرير

هذه الجداول تريك صورة مما يتعاطاه الانسان من النبات فمنه المأكل فى جدول (١) ومنه الفاكهة جدول (٢) ومنه الدواء جدول (٣) ومنه الملابس جدول (٤) والانسان فى وسطها يتعاطاها جميعها لأحواله المختلفات . ياعجبا لهذه الدنيا . وياعجبا لهذا الانسان يعمى حتى لايعقل ويبصر حتى يدرك الوجود على ماهو عليه . هاأنت ذا ترى الانسان وسط الجداول وهو محتاج لها كلها وهو فى ذلك على ﴿ ثلاث درجات ﴾ أعلى وأوسط وأدنى

﴿ شرح هذه الدرجات ﴾

اعلم أن نظام هذه الدنيا نظام مزدوج محكم مبناه الاقتصاد التام والحكمة الصادقة . وأضرب لك مثلا اللسان به نذوق الطعام ونلفظ الكلام ونحرك مانمضغه وقت تعاطى الأكل . إذن اللسان له وظيفة داخلية وهو أن يميز أنواع الطعام لصحة الأجسام ووظيفة خارجية وهو أن يفهم الناس الكلام . وهاتان معنويتان ووظيفة عملية عضلية وهى تحريك الطعام فاللسان لم يدع النظام الداخلى حتى حرس مايدخل فى الجوف من الغش والضرر وأوصل المعانى من نفس لأخرى وأفاد فائدة عضلية . هذه هى الحكمة والنظام ولولا الاتقان فى هذا الوجود لكان للانسان عضو للذوق وآخر لادارة الطعام وثالث لاظهار الكلام . فمن جمال هذه الأجسام التى نسكنها وان كان أكثر الناس يجهلون ذلك أن تتعدد منافع العضو الواحد والا لاحتاج الانسان الى أجسام لجسمه هذا حتى تؤدى وظائف الحياة . اذا عرفت هذا فانظر فى هذه الدائرة النباتية والانسان فى داخلها . إن لهذه الدائرة ثلاثة أعمال ﴿أولا﴾ انماء الانسان بقوته وفاكهته ودوائه وملابسه ﴿ثانيا﴾ حمله على العمل الشاق لتحريك عضلاته وشغله ليقوى جسمه ويعيش أمدا مقدرا ﴿ ثالثا ﴾ تغذية عقله بالحكمة والعلم . هذه ثلاث درجات نظير درجات اللسان . فكما حرك اللسان الطعام هكذا نرى الانسان يعمل فى الأرض للغذاء والفاكهة وللدواء وللملابس فانتفع هو بهذه الحركة . وكما نرى اللسان يذوق الطعام وهو عمل جسمى داخلى هكذا نرى الانسان يتعاطى تلك المنافع ليعيش الى أمد معلوم . وكما نرى اللسان يكون سببا فى معرفة الناس ماتكنه صدورنا . هكذا نرى هذه المخلوقات كأنها ألسنة تنطق بالحكمة والعلم وتغذى عقولنا كما انها تغذى أجسامنا . هذه حكم متراكمة مثبتة . فترى الفلاح وهو فى حقله لايفتأ يجد بالحرث والعمل وهو يريد بذلك قوام الأجسام بالغذاء و بالدواء و بالفاكهة و باللباس وهو فى الوقت نفسه قد قوى جسمه بالحركات ففائدة الفلاح فى عمله مزدوجة ولكنه هو لايقصد تقوية الجسم وماقصد إلا الغذاء

وترى الحكيم والفيلسوف ينظر الى النبات فيدهشه دهشا شديدا مايرى من حكمة ونظام متى فكر فى أى ناحية من نواحى هذا الوجود فيقول مثلا . لماذا كان هذا النظام . أرى أن دودة الحرير لم تخلق إلا لشجر مخصوص فنراها تأكل ورق التوت ولم نرها عرجت على النخل ولا الموز ولا التين ولا البرتقال ولا غيرها لماذا هذا النظام . ههنا يسحر عقل المفكر و يقول جاءت هذه الدودة فنسجت خيوطا ولعل الانسان كان أوّلا لا يعرف استعمال الملابس فربما كان أوّل مالبس الجلود إذ رأى الحيوان يعيش بها تقيه الحرّ والبرد . ولعله كان يجهل استعمال القطن والصوف ونحوهما . ولعله لما رأى خيوط تلك الدودة الحريرية تعلم غزل القطن والصوف والكتان ولذلك نرى كرة الخيوط على المغازل الآن تشبه كرة الدودة ثم لما برع فى الصناعات والعلوم استخرج الحرير من خشب التوت ومن حطب القطن كما تقدم أى انه استخرج تلك الملابس من نفس الشجر ولم يقتصر على الشجر ولا على عمل الحيوان . إن هذا من الانسان انتقال من حال الى حال

إن الانسان كان فى أوّل أمره عالة على الحيوان يلبس جلده . ولما ارتقى تعلم منه الغزل والنسج كما يرى فى العنكبوت فلما ارتقى اليوم أخذ يعتلى عليه وهذه هى وظيفة الانسان فأوّل أعماله احتياجه الى نفس الجلد ثم ارتقى وعقل ففهم وتعلم من الحيوان ثم ارتقى ففاقه اليوم . إن للانسان حالا أخرى سيصلها فيستغنى عن الحيوان و يستخرج الأشياء من أصولها . إن القطن والكتان والحرير كلها من موادّ فى الطبيعة فاذا زاد عقل الانسان استخرج ذلك كله بعقله وحكمته . إن هذا الوجود فيه السعادة مخبوءة والانسان ملزم أن يجدّ و يبحث عنها و يستخرجها وماهو فيه الآن ضعف ظاهر يتقدم القوّة المقبلة

ينظر الحكيم ذلك فى هذه الدنيا فيذهله و يسحر عقله هذا الوجود و يقول . لماذا خصت دودة الحرير بالتوت واستخرجت الحرير منه وهناك من الأشجار آلاف وآلاف ثم ينظر نظرة أخرى فيقول عذب الانسان بالجوع و بالعرى فالجوع ألم والبرد والحرّ يؤلمان والمرض أشدّ ايلاما فلماذا رأينا تلك الأنواع فى الجدول المتقدم مقسمة على أنواع المطلوب للانسان فتغذى ولبس وتداوى . يذهل الفيلسوف من هذا النظام هو وحده الذى يفهم و يرى الناس حوله نائمين يقول ياعجبا هذا الفلاح والتاجر والصانع والأمير لا يعرفون من هذا الوجود إلا مايمنع آلامهم . سلط عليهم ألم الجوع وألم الحرّ والبرد ثم زادت آلام أخرى بأسباب عارضة فالفلاح لا يعرف إلا مايحفظ جسمه وكذا التاجر والصانع . هكذا رجال الحكومة لا يعملون إلا لحفظ الرعية كما يحفظ الفلاح زرعه وكلاهما غالبا لا يعقل الحكمة . أما الحكيم وما أدراك ما الحكيم فانه هو الذى يربيه الله فى الأرض ليلحق بالملأ الأعلى بعد . فهذا هو الذى يدهشه هذا النظام ولا يقتصر على ما اقتصر عليه من قبله من تقوية عضلاته وغذاء جسمه ولباسه وفاكهته ودوائه بل تصبح هذه كلها عنده دروسا وأىّ دروس . دروسا عجيبة . يسحر عقله أن يرى جميع الناس وهو منهم أطفالا ضعافا و يفهم قوله تعالى ــ وخلق الانسان ضعيفا ــ ومن ضعفه أنه لا يعقل منافعه ولذلك لما كلمه الله هو والحيوان كلمهما بلغة تناسبهما وهى لغة الألم من جوع وضرّ الخ فأنزل ذينك الألمين عليه أوذينك الجنديين الضار بين له صباحا ومساء وهما يقولان له بلاحرف ولاصوت أيها الانسان قم فكل وقم فالبس والا آلمناك فجميع بنى آدم وجميع البهائم يساقون سوقا كما تساق الأنعام لأن عالمنا الذى نعيش فيه عالم فيه قصور ولكن صانعه أظهر لنا أنه محكم الصنعة جدّا . كيف لا وهو قد جعل هذه النباتات معلمة للعقول وحافظة للأجسام وموجبة للحركات لبقاء القوّة فى الأبدان . ولولا هذه الحكمة لاحتاج الناس الى عوالم يتعلمون فيها وعوالم أخرى يأكلونها و يلبسونها الخ وعوالم ثالثة تعلمهم الحركة كالجند فالحكمة التى أرسلها صانع هذا العالم الحكيم أرتنا أن الدرس واحد فبه الحركة وبه الغذاء والدواء الخ وبه العلم فالعالم واحد وحكمته متعدّدة لنا كما أن الانسان واحد وحكمه متعدّدة . هذه روضات الجنات فى هذه الدنيا . إن الله خلق هذه الروضات لنا وستخرج من درسها قليل من بنى آدم وهم هم الذين ينظمون

هذه الدنيا وسيبثون فى شبابها الهمة والحركة العامية فاذا فارقوا هذا العالم استحقوا أن يكونوا فى عالم أجمل من عالمنا هذا الذى جمع مابين خسة الحيوانية وشرف الملكية والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اه

﴿ تكملة فى الكلام على قوله تعالى ـ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت الخ ـ ﴾

اعلم أن هذا المثل من أعجب ما فى القرآن فالاسلام كشجرة والشجرة لها أصل وفروع والفروع قسمان أصول وأطراف فالتى سميناها أصولا هى لفروع التى تنمو فى قلب الشجرة صاعدة والأطراف هى التى حولها فاعجب لهذا المثل وانظر لحال المسلمين اليوم وذكرهم بأيام الله وقل لهم أيها المسلمون حيا كم الله . أليس النبى ﷺ وأصحابه كأصول الشجرة . أليس المسلمون قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل هم فروع والفروع تمتد وتكثر على طول الزمان فالايمان أيام النبوّة لم يكن له كتب لافى حقائق هذا الوجود من الطبيعة والفلك والسموات والأرض ولافى فروع الفقه والجدل والخلاف فى علم الكلام . ولما كان الاسلام كشجرة حدثت الفروع طبعا فتفرّعت علوم الفقه وعلوم الجدل التى هى أطراف الدين لاقلبه . وهكذا الاصول التى امتدّت وطالت من القرون الأولى الى القرن الخامس عشر كما تقدّم هنا ثم عمدتم الى تلك الاصول فقطعتموها بذم العلماء واحتقارهم كابن رشد والغزالى وأضرابهما . أما الفروع فأبقيتموها فاذا ظننتم أن فروع الفقه كافيـة فأنتم مخدوعون مغرورون . واذا ظننتم أن عدم دراسة العلوم الكونية زمن النبوّة حجة على تركها اليوم فذلك مردود بأنكم جريتم على سنن الله فى التعبير بالشجرة وفروعها إذ ألفتم آلاف الكتب فى الفقه وفى علم الكلام وان لم يؤلف ذلك النبى ﷺ وأصحابه ولم ينكر ذلك منكر لأنكم فروع لتلك الشجرة . وفى الفروع من الأوراق والطول والكثرة ماليس فى ساق الشجرة فأنتم تجرون على السنن ولكن فرطتم فيما هو أهم وهو أصول تلك الفروع التى فى وسط الشجرة وهى التى عليها المعوّل فاذا اكتفى ﷺ وأصحابه بما يعرفون فى نفوسهم فذلك لأنهم ساق الشجرة فأين الفروع إذن ولم برعتم فى بعض الفروع التى هى أدنى وجهلتم فى بعضها الذى هو أتم وأكمل وهى العلوم الكونية . ألا ساء مثلا الجاهلون . فتبا لقوم لايعلمون . وبعدا لقوم لايفهمون . وسيأتى تمام الكلام على ذلك فى سورة الفتح ان شاء الله عند قوله تعالى ـ ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره الخ ـ . هذا واعلم أن هذا التمثيل سيحققه الله عزّ وجل بعد ظهور هذا التفسير وسيكون فى أمم الاسلام رجال لم يحلم بهم الدهر وهم موقنون وللنوع الانسانى نافعون اه

﴿ ذكرى ليلة ٤ نوفبر سنة ١٩٠٩ من كتابى سوانح الجوهرى ﴾

اللوف والنخل

اللوف نبات يحمل ثمرا مستطيلا متى نضج صار آلة لغسل الأجسام لينظفها ويزيل عنها الدرن أشبه بالليف ولكنه أبيض ناصع . هذا النبات ينمو سريعا فى الفصول الحارة والمعتدلة ويمتدّ سريعا على النخلة الباسقة (الطويلة) رأيته التفّ على نخلة فجلل سائر جذعها وجميع أفنانها وأوراقها وتسلق على أخرى فاخذ بخناقها وسار معها علوا حتى شارف أغصانها العليا وهى باسقة جدّا . ذلك فى هذا الفصل انها ستذبل قريبا ولكن النخلة لاتذبل ربما كان عمر النخلة ٤٠ سنة وعمر اللوفة لايكاد يجاوز ستة أشهر . سارت اللوفة حثيثا وأبطأت النخلة . ما أسرع ما أثمرت اللوفة وما أبطأ ثمر النخل . هذا مثل ضربه الله للناس والأمم . ضربه لهم لعلهم يتذكرون . أراهم عيانا كيف أعطى ماعظم نفعه وجلّ قدره وحلا ثمره وبقى أثره . عناية أشدّ واحكاما أوسع وأبهى وأبهر . أبطأ سيرها وأخر ثمرها ولكن أطال عمرها هكذا ترى أهل الرياء والنفاق الكاذبين أسرع الناس سيادة وأكثرهم مالا وأقربهم من الأمراء مجلسا يغشون على عقول الناس فيسودون . وهكذا أولئك الثرثارون المتفيهقون يتبجحون بالعلم ويحفظون مسائل يحاجون بها خصماءهم وان هم إلا مجادلون فبذلك يهابهم الناس ويخافونهم . وهكذا أولئك السبابون

الذين يحاجون أقرانهم بحجج ملوثة بالشتم وملطخة بآثام الغضب فأولئك لهم حظ قليل حتى اذا حصحص الحق وزهق الباطل ووقف الناس على مراميهم واطلعوا على دخائلهم وأغراضهم رموهم من حالق وزجوا بهم فى سجين الاذلال كأنهم زبد احتمله الماء فيذهب جفاء لاينتفع به • وأما من ينفع الناس ولايرائى فذلك سيلاقى فى إبان عمله عوائق جة و يعاديه المحبون فاذا سار فى اخلاصه وجدّ فى أعماله فله عقبى الدار وهو السيد الذى أشبه النخلة الباسقة طال أمدها وكثر ثمرها إلا أن الثمرات على مقدار الأعمال ولذلك ترى رجال الحروب من القوّاد العظام والملوك الكبار تسير بذكرهم الركبان سريعا وتخبو وتنطفئ سريعا أما الحكماء والفلاسفة فما أبطأ ذكرهم وما أدوم فضلهم فهم كالنخلات الباسقات وكالماء — وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض — ليسقى الحرث و يروى النسل ذلك مثل اللوفة والنخلة ضربناه مثلا للناس لعلهم يتذكرون اهـ

إنى أذكرك أيها الذكى بالمقام الذى نحن فيه وأرجعك الى الموضوع نفسه • إن الكلام فى النمط الرابع وهوتبيان حال ذوى الكلمة الخبيثة وذوى الكلمة الطيبة فتغير الكلمات لايشغلك عن أصل المقام وقد بينا فيما سبق أن النمط الأوّل مبين لضياع الأمم بالجهالات والنمط الثانى تثبيت له وأن غفلتهم عن عجائب السموات والأرض أورثتهم النكال والثالث تبيان الحقيقة الناصعة لتبيان الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة وأن الناس ﴿ قسمان ﴾ ثابت وغيرثابت كالزرع والشجر وهذا النمط الرابع أظهرالأمر وأوضحه • فأما ذووالكلمة الخبيثة فقد ذكرهم فى قوله — ألم تر الى الذين بدّلوا — الى قوله — قل تمتعوا فان مصيركم الى النار — وأماذووالكلمة الطيبة فأشار اليهم بقوله — قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة — وأنت تعلم أن الأمم انما تعيش بعلم وعمل فهذا هو العمل والعمل بالنفس و بالمال فأشار لهما باقامة الصلاة والانفاق • وأما العلم فأشار له سبحانه بقوله تعالى — الله الذى خلق السموات والأرض — الى قوله — إنّ الانسان لظلوم كفار — فهذا النمط كله كأنه ايضاح لذوى الكلمة الخبيثة وذوى الكلمة الطيبة • ولما أبان تقصير الأمم التى يذهبها و يأتى بخلق جديد فى معرفة السموات والأرض فى النمط الثانى إذ قال — ألم تر أنّ الله خلق السموات والأرض بالحقّ ان يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد — إذ جعل استبدالهم بعد ذكر السموات والأرض لجهالتهم بما خلق فيهما فلا يتعلمون ماينفعهم فى حياتهم الدنيا وفى الأخرى • أقول لما أبان ذلك هناك فى أصحاب الكلمة الخبيثة أفاد هنا أن ذوى الكلمة الطيبة هم الذين ينظرون فى خلق السموات والأرض ومابعده فأخذ يفصل بعد الاجمال حتى انتهى الى مالايحصى من العجائب • واعلم أن مما أقعد همم الأمة الاسلامية أن أمثال هذه الآيات تترك وشأنها فلاتحرك بها الهمم ولاتستثار المنافع بها • ولعمر الله كم من عالم دينى مخلص لله طائع ذكى الفؤاد قوىّ العزيمة قدحبس فى سجن من الألفاظ أوالأحكام وأحكم عليه فلايستطيع فكاكا

أيها العلماء • أيها المصلحون فى الاسلام • أيها الذكى القارئ لهذا التفسير تفاقم الأمر على أمّة الاسلام قولوا لهم هذا كلام ربكم هوالذى أنزله وهوالذى حضّ على فهم مافى السموات والأرض والسحاب والمطر والثمرات ومنافعها والسفن فى البحر والأنهار والليل والنهار والبحث فى كل دقيق وجليل • هذا رانى أحمد الله عزّوجل إذ كتبت خطابا لأمّتنا الاسلامية وقدنشرمنذسنتين فى كتاب سميته ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾ وهاك ماجاء فيه فى هذه الآية

عبر الله بكاف الخطاب ست مرات لجعل الماء لنا والثمرات لنا وتسخير الفلك لنا وتسخير الأنهار لنا وتسخير الشمس والقمر لنا وتسخير الليل والنهار لنا وقد آتانا من كل ما سألناه فى ضمائرنا وما تمنته نفوسنا أى ان النفس كانت تمنى أن تطير وأن تجلس فى مكان وهو يجرى بها من غير أن يعلم الناس أن ذلك ممكن فكانت الطيارات فى الجوّ والقطارات على الأرض وكان الانسان يتمنى أن يكلم أخاه وهما متباعدان و يتشوّق لذلك فبرزهذا • واعلم أن الله كما فطر النفوس على حب ذلك جعل فى الطبيعة استعدادا له ثم أبرزه فى الوجود

ثم قلت هناك فهل هذا الخطاب استثنى منه المسلمون فهل جعل الله الثمرات فى الأرض خاصة بغير المسلمين أم الخطاب عام وهل الفلك التى تجرى فى البحر مابين آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا هل هذه السفن خاصة بالافرنج وكيف نام المسلمون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدى غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صفر اليدين فالسفن التى تمخر عباب الأنهار والبحار فى سائر أنحاء الكرة الأرضية بيد الفرنجة وهم هم الذين يدرسون المعادن والكهرباء والبخار والتلغراف البرقالذى لاسلك له والذى له سلك • أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا (٣٥٠) مليونا ولاسفن لكم فى البحار كما لغيركم وقد خاطبكم الله قائلا — وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره — على قواعد علمية بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها والخشب لتكميلها والبخار لتسييرها والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها وقراءة علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها فى طرق البحار ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها ومافيها من مسالك حتى لاتضل السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك مافيها و بعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف حتى يلبس الربان لكل حال لبوسها و ينهج النهج الذى ينجى السفينة • ثم قال — وسخر لكم الأنهار — ولاجرم أن الأنهار تسقى الزرع ولها فى جريها قوّة تستخرج منها الكهرباء فتغنى عن الفحم والبترول والمسلمون فى بقاع الأرض غافلون عن أنهارهم ونكاد تصبح بيد غيرهم وقوله (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) الليل والنهار والشمس والقمر لها حساب دقيق لايهتدى اليه إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك فلاتطلع الشمس ولاتغرب ولايشرق النجم ولايغرب ولايطلع سيار ولايأفل إلا بمواعيد موقوتة لاتخس ثانية بل كل ذلك بمقدار • فهاهى ذه سفن البحار وقطرات اليابسة كلها تسير بحساب الشمس والكواكب • ولوأغفل الناس ذلك بعض يوم لاختلت مواعيدهم ولتصادمت قطراتهم ولمات كثير منهم • يعرف ذلك كل من اطلع على طرف من علم الفلك فى هذه الأيام • انتهى

هذا هو الذى نقلته من ذلك الكتاب وأحمد الله إذ رأيته قد نشر بين المسلمين فى أقطار الأرض • أفلست ترى معى أيها الذكى أن المسلمين اذا قصروا فى هذه النعم فانهم يعذبون فى الدنيا والآخرة كما هو الحاصل الآن وكيف يقول الله سخر لكم بكاف الخطاب ثم هم يعرضون عن نعمه وهذا عينه كفر النعمة لأنه اذا أعطاك رجل عظيم عطية وقال لك خذها ثم انك تغافلت عنها أونبذتها له غضب عليك بل انه يسره أن تأخذها و يسره أن تمتع بها و يسره أنك تكون غنيا بما أعطاك • هذا كله فى المتداول المعروف فأما المسلمون اليوم فان هذه النعم بعد ماقال الله مخاطبا لهم انى سخرتها لكم ينامون و يقولون فلنتركها للفرنجة • إن هذا أوان العلم والعمل وهذا هو الوقت الذى فيه ابتدأ استيقاظ المسلمين ولكن لابدّ من نشر مثل هذه الآراء • إن الله أراد رقيهم واسعادهم وارتقاءهم — ولتعلمنّ نبأه بعد حين — وليقومنّ فى هذه الأمّة من فطاحل العلماء وأكابر الحكماء من يرثون الأرض من بعد موت أهلها الغافلين و يزنون هذه الدنيا وتبدّل الأحوال و يصبح الناس اخوانا على قدر الامكان اهـ

﴿ ست تنبيهات • التنبيه الأوّل ﴾

يقول الله فى الأنماط السابقة — ويضلّ الله الظالمين و يفعل الله مايشاء — • وكيف يفعل الله مايشاء وقد أضلّ الظالمين وأين الحكمة فى اضلال الظالمين اذا ظهرت الحكمة فى هداية المتقين فانها لم تظهر فى اضلال الظالمين وانا قد أمرنا أن نعرف الحقائق وأن ربنا أغدق النعم علينا وآتانا من كل ماسألناه وتمنيناه أمانىّ ثم يأتى لأعزّ شئ وأعظمه وهو الهدى فيمنعه و يقول أنا أضلّ الظالمين وأفعل ما أشاء • هذا هو السؤال الذى خطر لى وهو حقا يخطر لكل انسان على هذه الأرض • فأين الجواب • لقد علمت أن هذا من سر القضاء والقدر وهذا السرّ أقفل بابه على جميع الأمم وهناك أكابر الحكماء نالوا من العلم حظا فثلجت صدورهم وسعدوا بالفهم

وكتموا عن الناس . ولكن ألا أريك أيها الذكى عجبا فى هذه الآيات . ألم تر أن جواب السؤال قد ظهر فى نفس الآية إذشبه قوما بشجرة طيبة وقوما بشجرة خبيثة ثم ختم بأنه يضل الظالمين وهو يفعل مايشاء إن الجواب قد تجلى ولكنه مخبوء مكتوم لايمسه إلا المطهرون الذين طهرت نفوسهم من الغل والحقد والحسد والكبرياء فهؤلاء هم الذين تمتد أيديهم الى تلك الخزائن فيفتحونها و ينالون منها حظهم . ألم أذكرلك هناك أن الزرع أصناف شتى يبتدئ بخضراء الدمن التى لاتلبث إلا ضحوة النهار ثم تذهب فى العشية . لعلك تذكر ذلك . وأن النبات يرتقى درجة فدرجة حتى يصل الى مستوى النخل وأشجار أخرى تعيش سنين وسنين بدل دقائق وساعات . ألم أقل لك ذلك . فهل ترى أحدا من نوع الانسان وجد فى نفسه حرجا من خلق الأنواع الكثيرة . ألم تر أن الناس فرحون باختلاف هذه النباتات وانهم انتفعوا باختلافها . فاذا زرعوا القمح وحصدوه فى بعض فصول السنة وكذا الذرة والشعير والبرسيم وماأشبه ذلك وكذلك الملوخية والبامية والقطن والكتان من كل نبات يتم فى أقل من سنة فانهم قد تمتعوا تمتعا تاما بها وعاشوا وأن هذه لو كانت كالنخل لاتثمر إلا بعد سنين لشق ذلك على من لم يجد عنده القمح مثلا فانه يجده بعد أشهر من زرعه

ألاترى أن هذه النباتات كان اختلافها لاختلاف حاجاتنا . واذا كنا نرى الحاجة لبناء المنازل والحصون ليست كل يوم بل انها مسألة سنين لاشهور أى ان الانسان لايبنى منزله بعد بنائه الأول إلا بعد عشرات السنين فلذلك كان أعظم الخشب لسقفه يتكوّن فى عشرات السنين وأقل الخشب فى سنين معدودة . كل ذلك بمقتضى حاجاتنا وانتفاعنا . واذا وجدنا هناك حنظلا وتمرا فما راعنا لأن التمر فاكهة وغذاء وحلوى والحنظل دواء فنحن معاشر بنى آدم لم نجد فى ذلك حرجا فى نفوسنا بل عددناه نعمة وأى نعمة . فنرى عندنا زيت الخروع لدوائنا كما نرى زيت الزيتون لغذائنا والسنا المكى لطبنا وهكذا فنحن لم نر من الاختلاف إلا سعادة

هذا هو الذى نقرؤه فى الكتاب الذى كتبه الله بيده وهو كتاب الطبيعة وما أجله من كتاب وما أشوق النفس الى الوصول الى مؤلفه الذى أرانا جماله وعجيب حكمته وبديع صنعه * هذا كله كامن فى قوله تعالى ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة

فهاتان الكلمتان المذكورتان فيهما هذه المعانى وفيهما مايحتاج الى مصنف كبير حتى يقف الانسان على تمام الحقائق هنا . اذا فهمت هذا فقس المشبه على المشبه به فكأنه يقول هاأنتم أولاء رأيتم أن الاختلاف فى الأشجار نافع لكم . أفلا يكون هكذا الاختلاف فى العقول فيه ثمرات ومنافع لكم أولغيركم من العوالم وأنتم لاتشعرون . إنى خلقت حنظلا فقلتم حسن نافع وخلقت كافرا وعاقبته . إن هذه العقول مزارع زرعتها فى الأرض وجعلت مقرها أجساد بنى آدم وهذه العقول مختلفات كاختلاف النبات فاذا رأيتم أن اختلافها بلغ عددا عظيما فهكذا العقول اختلافها عظيم واذا رأيتم منافع فى الاختلاف وانكم لاتعيشون إلا بهذا الاختلاف أى ان حياتكم لاسعادة فيها إلا أن يكون لديكم الحنظل والخروع والسنا المكى كما يكون عندكم التمر والعنب والرمان فهكذا أنا زرعت العقول مختلفات مريدا ذلك كما زرعتم أنتم الأشجار مختلفات مريدين ذلك . فأما منافع اختلاف عقولكم لكم فهذا لاتقفون على حقائقه إلا بدرس طويل أو بعد خروجكم من هذه الأرض أوتخرجون من عداد العامة وتدركون سر الديانات ولماذا خلق العالم ولماذا خلقت النفوس . ولعلك أيها الذكى قد أدركت شيأ من ذلك فى غضون هذا التفسير ولكن الناس جميعا إلا نادرا لايدركون سر اختلاف العقول كما أدركوا اختلاف النبات وحكمته إلا بعد خروجهم من هذا العالم ولعمرى ماوضعت النفوس فى الأرض إلا لترقيتها كما لم توضع النباتات إلا لاتمام أثمارها وما أمراض الناس وعذابهم إلا كما تنضج الشمس الثمار اهـ

﴿ التنبيه الثانى . عبادة الأصنام ﴾

يقول الله تعالى فى هـذا النمط ـ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار ـ ثم قال ـ قل لعبادى الذين آمنوا الخ ـ فهاهوذا ذكر الأصنام وحذر منها . فياليت شعرى لم حرّمت الأصنام وما القصد من تحريمها . الصنم حجرأوأىّ مادّة أخرى وليس فى المادّة حرمة لأن جميع مافى الأرض مخلوق لنا لننتفع به وانما المحرّم هوعبادتها ولم تحرم العبادة لأن الله سبحانه يحتاج الى عبادتنا . ولقدنرى فى نوع الانسان من يحقر أن يعظمه العامّة لأنه ليس يرى ذلك لذة له . ولقدكان الفيلسوف (سنسيكا) الرومانى وهو فى الوزارة قبل أيام المسيح كما حكى عن نفسه يسمع اعجاب العامّة به وهو فى الاحتفال فلاتتحرك نفسه لهذا الاعظام ولا لهذا الاجلال ويرى أن فى جمال الشمس والقمر وجلال البحر ونزول المطر ولمعان البرق ودوى الرعد والبرد والثلج والتأمّل فى عجائب الطبيعة . يرى فى ذلك وفى غيره ملك السعادة وهذا كلامه عن نفسه . وهكذا فى أمّتنا الاسلامية كثير فى هذا الزمان وفى كل زمان فهل الله تعالى اذا أمرنا بترك عبادة الأصنام يريد أن نتضرّع اليه وهو يحببه ذلك لنفسه . كلا فليس بمعقول البتة ولاهو بحق لأنه منزّه وغنىّ عن العالمين . وانما عبادة الأصنام تحصر العقل فى المحسوسات فيصغر العقل البشرى وعبادة الله تجعل النفس مشرئبة الى أعلى أى ان الانسان تفك قيوده من الوقوف موقفا حابسا له فالعبادة والعلم على هذا يكونان متفقين على أن يطلب العبد من الاله الذى لم يره ويعبده واذا لم ير الله ولم تطلع عليه حواسه فاذن أصبح حرا فى هذا الوجود يسخره لنفسه . أما تقديس بعض المخلوقات فانه يقفل عليه أبواب العلم وأبواب العمل إذ يرى الحجاب العقلى أسدل عليه فمنعه أن يتمادى فى المباحث العلمية والعملية فاذن يجدّ فى هذه الكائنات باحثا منقبا حتى يصل الى مالا يتصوّره عباد الأصنام

﴿ التنبيه الثالث . كيف يدخل الضلال على أرباب الديانات ﴾

لقد علمت أن عبادة الأصنام انما أبغضت لأنها سبيل الى حصر الفكر والوقوف بالعقل الانسانى وأن الآيات التى وردت بعدها كما حضت على الأعمال حضت على النظر فى السموات والأرض والفلك فى البحر والشمس والقمر والليل والنهار وأن عابد الصنم العاكف عليه لايتجه نظره لشمس ولالقمر ولالضياء ولالنور

أفلاترى أن المتدين الذى أوقفه معلمه فى موقف شائن بأن أعطاه من الدين بعض الأعمال وقال له قف هنا فهذا هو الدين وصرف فكره عن السموات والأرض الخ قد أصبح فى موقف كعباد الأصنام . نعم هذا موحد لله ولكنه فى العلم أصبح كالجهال عباد الأصنام ففكره قد أصبح محبوسا وأفئدة هذه الطائفة هواء وهم مهطعون مقنعو رؤسهم لايرتدّ اليهم طرفهم . أليس هذا هوالسجن الذى سجنت فيه عقول عباد الأصنام وهو لم يخلق فى الدنيا إلا للدراسة فأين هى وهو وعابد الحجر سواء ولذلك أعقب هذا النمط بدعاء ابراهيم عليه السلام وفيه أنه يطلب من الله أن يجنب الأصنام هو وأبناؤه . فياليت شعرى هل يتوهم أن نبيا من الأنبياء يخاف من عبادة الأصنام . إن ذلك غير معقول وأنا وأنت أيها الذكى القارئ لهذا التفسير لانخاف من عبادة الأصنام ولم يخطر ببالى يوما أن أقول يا الله أغننى من عبادة الأصنام وأنت لم تطلب هذا فى حياتك يوما لأنه ليس بمعقول أن تطلب رفع شئ هو مرفوع عنك فهل نحن أعلم من ابراهيم الخليل الذى أمر الله نبينا ﷺ أن يهتدى بهداه إذ قال ـ فبهداهم اقتده ـ واذا كنت أنا وأنت والعامّة والخاصة فى الاسلام نرى أننا بحق لانساوى نبينا ﷺ فى العقيدة الدينية ونحن هذه حالنا لايخطر ببالنا عبادة الأصنام فهو أولى منا بالعقيدة لأنه هوالذى كسرها فى الكعبة ونحن لاقدرة لنا على تغيير هذا المنكر اذا رأيناه خوفا من عباده وكذلك ابراهيم الخليل كسرالأصنام التى كان يعبدها ملك جبار هونمرود فكيف يقول ـ اجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ـ وهوالذى سمانا المسلمين من قبل وفى هذا وسيدنا محمد ﷺ جاء بشريعة مطابقة لشريعته إذ قال ـ ملة أبيكم ابراهيم هوسماكم المسلمين من قبل وفى هذا ـ

إن

إن الجواب على ذلك ما أشرت اليه أن عبادة الأصنام غالبا يتبعها حصر الفكر وتعمى القلوب والأبصار عن عجائب الدنيا فيغفل العقل الانسانى عن كل شئ فرجع الأمر الى أن العقول تقصر وهو المراد بحاربته فكل دين وكل علم انما يراد به رقى لفكر الانسانى فاذا طلب الخليل ذلك فانما يريد أن لا يشغل القلب بما يمنعه من ازدياد الحكمة فالمال شاغل والولد شاغل والعلم اللفظى شاغل والخوف من تعبير الناس شاغل والوقوف على بعض مسائل الدين وترك الباقى شاغل وعكوف العالم الدينى على علم الفقه وحده وترك النظر فى هذا العالم وجماله شاغل واشتغال المرء بمدح الناس له شاغل . كل ذلك أدى الوظيفة التى أداها الصنم فأنتجت المطلوب وهو الجهالة العمياء

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ وجعلوا لله أندادا الخ ـ ﴾

اعلم أن الأمم القديمة كلها فى الهند ومصر وغيرهما قد أظهر الكشف الحديث أن لهم ﴿ تعليمين ﴾ تعليما عاما وتعليما خاصا . فالتعليم العام هى الأعمال الصبيانية والوثنية والطقوس والصور الرمزية وتعليما خاصا يتناقلونه كابرا عن كابر ولا يباح إلا لمن هذبوه فى المعابد ووثقوا به واذ ذاك يلقنون له السر فهو فى نفسه يعبد إلها واحدا يراه فى قلبه ويحبه حبا جما وهو مع الناس يشاركهم فى طقوسهم فيعبد (برهما) فى الهند (وازيريس) فى مصر (وجو بيتر) فى ألمبيا معتبرا هذه الآلهة اللفظية رموزا ضئيلة جدا الى القوة العلوية المدبرة لهذه العوالم فلافرق فى اظهار الحقائق بين خريسنا و بوذا وزروستر وهرمس وغيرهم . فكل هؤلاء قالوا الله إله واحد ولكن أتباعهم رأوا من مصلحة كبريائهم أن يغشوا الشعب و يضلوه معتقدين أنه ليس كفؤا لهذه الحقيقة . وقد كان كهنة المصريين لا يطلعون أحدا على سر الوحدانية إلا بعد العناء الطويل والتجارب العنيفة ويحلفونه القسم بحفظ السر والا قتل . وكانوا يرون أن أبا الهول المركب من رأس امرأة على جسد ثور بأظافر أسد وجناحى نسر رمز الى هذا الانسان الذى فاق كل حيوان ولهم آلهة غريبة لها رؤس وحوش وطيور وأفاع يرمزون بها الى الحياة فى تعدد مظاهرها وهم فيما بينهم يعتقدون إلها واحدا لا يتكلمون عنه إلا بالخوف وصوت منخفض . كل هذا جاء به الكشف الحديث . ومما عرف عنهم رؤيا هرمس وقد تقدم ذكرها فى هذا التفسير فى سورة آل عمران . وملخصها أن هرمس وقت الانخطاف رأى الكون والعالم وانتشار الحياة فى كل صقع فصاح به صوت النور المالئ للكون بأسره وكاشفه بالسر الالهى قائلا ﴿ إن النور الذى رأيته مثل لنور الله المحيط بكل شئ وهو الذى يحيط بكل الكائنات . وأما الظلمة فهى العالم المادى الذى يعيش فيه الناس على الأرض . وأما الضياء المتدفق من الأقاصى فهو كلمات الله . فأما روح الانسان فاما محبوسة بذنوبها واما راجعة الى مقامها فى عالم النور فى السموات ومأسفرها فى هذه الأجساد إلا لتجربتها فى الأوجاع وهموم الحياة . ومتى استنارت خرجت من سجنها الى عالمها الجميل فى العلا فثبت قلبك إذن ياهرمس وسكن روعك عند نظرك الى الأنفس الصاعدة فى معارج الأفلاك العلوية توصلا الى العالم الالهى الذى منه بدأ كل شئ واليه ترجعون ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة معا . الحكمة . الحب . العدل . البهاء العظمة . الخلود ﴾

ثم يقول الحبر بعد ذلك ﴿ تأمل يابنى هذه الرؤيا تجد فيها سر كل شئ وكلما توسعت فى ادراكها اتسعت لديك حدودها لأن ناموسا نظاميا واحدا يدبر العوالم كلها . إن الحقائق العظيمة مستورة تحت حجاب السر ولا يكاشف بالمعرفة التامة إلا من جاز فى التجارب التى جزنا فيها . إن من الواجب أن تقاس الحقيقة على قدر مبلغ العقول فلا يجوز افشاؤها للضعفاء لئلا يتهوسوا بها ولا للأشرار لئلا يتسلحوا بها للشر فاحفظها إذن فى صدرك وانشرها بلسان أعمالك وليكن العلم قوتك والناموس سيفك والصمت ترسك ﴾ انتهى

هذا ما كشف فى عصرنا الحاضر من علوم قدماء المصريين عرفه الاوروبيون وجهله كثير من علماء

الخطوط المصرية القديمة فى مصر وغيرها

فانظر كيف كان الله واحدا فى الهند والصين والمصريين عند خواصهم ومتعددا كثيرا عند عامتهم وكان هؤلاء الرؤساء يعتقدون أن افشاء السر ضار بالشعب فلهذا كتموه و بالكتمان عظموا عند الرعية

ومن عجب أن التثليث الذى تظاهر به كهنة الهند ومصر تخطى الى الامم النصرانية وهذا الظاهر أخفى تحته الحقيقة المكتومة ـ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ـ فانظر ماقاله أحد آباء النصرانية فى القرن الرابع وهوالأسقف (سينيسيوس) اليونانى الذى تولى فى آخر حياته أسقفية عكا ومات سنة ٤١٠ ميلادية قال ان الروح السرى الذى نراه ساريا فى الأديان القديمة انما جاء من كون الشعب يحتقر دائما ماسهل عليه ادراكه فلهذا يفضل أن يكون مغشوشا مغالطا . هكذا فعل كهنة مصر الأقدمون أما أنا فسأكون دائما فيلسوفا مع نفسى وكاهنا مع الشعب وقد تقدم هذا ﴾ انتهى

يقول مؤلف هذا الكتاب إنى أحمد الله عز وجل إذ علمنا مالم نعلم ووقفنا على أسرار الأوائل التى لم تظهر إلا فى هذا الزمان والله هوالولى الحميد

﴿ التثليث عند الأمم القديمة ﴾

قد شاع التثليث عند الأمم القديمة يلقيه الكهنة بلفظهم وهم فى قلوبهم موحدون ولقدأخذوه من تثليث هذا الوجود فهوكله جوهر مادى وجوهر عقلى وجوهر نفسى أى المادة والعقل والنفس فالكون كله إما مادة فيها الأثر وامانفس بها الحياة واما عقل به التدبير . وقد جعلوا العقول عشرة وهكذا النفوس وجعلوا العقول والنفوس الانسانية كأنها آثار للنفوس العلوية . هذا كله فى كتب الفلسفة فليست هذه الثلاثة آلهة بل هى مخلوقات والفلاسفة فى كتبهم يقولون إن الله هوخالقها فترى الكهنة يبقون الخالق لهم و يقولون انه ثلاثة يريدون المادة والعقل والنفس . ثم منهم من عبد الملائكة وهى المعبر عنها بالعقول فيما تقدم هنا كالصابئين كما تقدم فى أول سورة البقرة وفى سورة الأنعام ـ ومنهم من عبد الكواكب بالنيابة عن الملائكة ثم عبدوا الأصنام النائبة عن الكواكب . كل هذا تقدم فى أول سورة البقرة . فكأن الالوهية نقلوها عن الله الى أول مخلوق وهوالعقول المعبر بها عن الملائكة فالكواكب فالأصنام الأرضية وكل هذا لاضلال الشعوب والحمدلله رب العالمين والتوحيد لهم خاصة . انتهى القسم الثانى من السورة

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

الْحِسَابُ * وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّٰهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هٰذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

واذكر (إذ قال ابراهيم ربّ اجعل هـذا البلد) مكة (آمنا) أى ذا أمن أى أخرجه من صفة الخوف الى صفة الامن (واجنبني وبنيّ) بعدنى واياهم (أن نعبد الأصنام) من أن نعبدالأصنام (ربّ إنهنّ أضللن كثيرا من الناس) اسناد الاضلال اليهن باعتبارالسببية كقوله تعالى ـ وغرّتهم الحياة الدنيا ـ (فمن تبعنى) على دينى (فانه منى) أى لاينفك عنى فى أمر الدين فهو بعضى لفرط اختصاصه بى (ومن عصانى) فما دون الشرك (فانك غفور رحيم) وان أريد عصيان الشرك كان الغفران والرحمة ان تاب وآمن (ربنا إنى أسكنت من ذرّيتى) بعض أولادى وهم اسماعيل ومن ولد منه (بواد) هو وادى مكة (غيرذى زرع) لا يكون فيه شئ من الزرع (عند بيتك المحرّم) هو بيت الله محترم عظيم الحرمة لايحلّ انتهاكها ويحرم التهاون به (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام متعلقة بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع إلا لاقامة الصلاة عند بيتك المحرم (فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) أى أفئدة من أفئدة الناس تسرع اليهم شوقا وودادا (وارزقهم من الثمرات) وهم يسكنون واديا لانبات فيه (لعلهم يشكرون) تلك النعمة وقد أجاب الله دعوته فجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ (ربنا إنك تعلم مانخفى ومانعلن) تعلم سرّنا كما تعلم علننا (ومايخفى على الله من شئ فى الأرض ولافى السماء) فالعالم كله بالنسبة اليه سواء ومن للاستغراق (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) أى وهب لى وأنا كبيرآيس من الولد (اسماعيل واسحق) * يقال إنه ولد له اسماعيل لتسع وتسعين سنة واسحق لمائة واثنتى عشرة سنة (إنّ ربى لسميع الدعاء) أى لمجيبه وقد سأل ابراهيم الولد بقوله ـ ربّ هب لى من الصالحين ـ فلما استجاب الله دعاءه قال ـ الحمد لله الذى الخ ـ (ربّ اجعلنى مقيم الصلاة) أى متما أركانها وسننها وحاضرا بقلبى عندها ومواظبا عليها (ومن ذرّيتى) أى واجعل بعض ذرّيتى من يقيم الصلاة (ربنا وتقبل دعاء) أى وتقبل عبادتى (ربنا اغفر لى ولوالدىّ) لأبوىّ وقد جاء فى السور المتقدمة عذره فى دعائه لهما ـ وما كان استغفار ابراهيم الخ ـ (وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى يوم يبدو ويظهر.

أو يوم يقوم الناس للحساب والى هنا انتهى دعاء الخليل عليه السلام . ثم قال الله تعالى مخاطبا كل انسان (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وهذا القول تسلية للمظلوم وتهديد للظالم (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى تشخص فيه أبصارهم فلاتقرّ فى أماكنها من هول ماتشاهده هناك (مهطعين) مسرعين الى الداعى أومقبلين بأبصارهم لايطرفون خوفا ورهبة وأصل أهطع أقبل على الشئ (مقنعى رؤسهم) رافعيها فمن صفة أهل الموقف أنهم رافعو رؤسهم الى السماء فلاينظر أحد الى أحد (لايرتدّ اليهم طرفهم) أى لاترجع اليهم أبصارهم من شدّة الخوف فهى شاخصة (وأفئدتهم هواء) خالية فارغة لاتعى شيأ ولاتعقل من شدّة الخوف والجبن (وأنذر الناس) أى خوّف الناس يامحمد (يوم يأتيهم العذاب) وهو يوم الموت وهو مفعول ثان لأنذر أى مايقع فى اليوم فالانذار باليوم انذار بما يحصل فيه (فيقول الذين ظلموا) أى الكفار (ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أى ردّنا الى الدنيا وامهلنا الى أمد قريب من الزمان نتدارك مافرّطنا فيه من اجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى انكم حلفتم فى الدنيا أنكم اذا متم لاتخرجون لبعث ولاحساب وقوله ـ مالكم من زوال ـ جواب القسم وقد جاء به بلفظ الخطاب ولكن لوجاء بلفظهم هم لقال مالنا من زوال (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر أى أقمتم فيها واطمأنتم طيبة نفوسكم وأنتم سائرون سيرة من قبلكم فى الظلم والفساد لاتفكرون فيما سمعتم من أخبار الذين سكنوها قبلكم فلاتعتبروا بأيام الله فيهم وانه أهلكهم بظلمهم وانكم إن سرتم سيرتهم لحقكم مالحقهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى صفات مافعلوا ومافعل بهم وهى فى غرابتها كالأمثال المضروبة لكل ظالم (وقد مكروا مكرهم) أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لتأييد الكفر وابطال الاسلام (وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه وهو عذابهم الذى يأتيهم من حيث لايشعرون (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال أى أمر الدين الذى أنزله الله على محمد ﷺ فهو ثابت ثبوت الجبال فليس مكرهم مزيلا تلك الثوابت التى لاتزول من الأرض فهو كقوله تعالى ـ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ـ فاللام هذه تسمى لام الجحود أى ما كان الله مريدا تعذيبهم وما كان مكرهم معدا لازالة الجبال

* وقرأ الكسائى ـ لتزول ـ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية أى وانه أى الحال والشأن كان مكرهم الخ وتكون اللام فى ـ لتزول ـ هى التى يسميها النحويون الفارقة لأنها تفرق بين ان المؤكدة وان النافية وهى هنا مخففة من الثقيلة وتلزمها غالبا هذه اللام أى وان مكرهم تزول منه الجبال لعظمته وكثرة احتيالهم فيكون معنى الجملة عظم مكرهم وعلى الأوّل ليس مكرهم مزيلا الاسلام (فلاتحسبن الله مخلف وعده رسله) إذ قال ـ إنا لننصر رسلنا كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ـ واذا كان الله لايخلف الميعاد فكيف يخلف الميعاد مع الرسل (إنّ الله عزيز ذوانتقام) غالب ينتقم من أوليائه لأعدائه ثم أبدل من ـ يوم يأتيهم العذاب ـ فقال (يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات) بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر ثم ترجع أرضا أخرى بعد ذلك كما سيأتى بيانه من الحديث الشريف ومن العلم الحديث (وبرزوا لله الواحد القهار) أى وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدى الواحد القهار الغلاب بتشديد اللام الثانية أى فلامستغاث لأحد الى غيره ولامستجار ثم قال تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرّنين) قرن بعضهم مع بعض لاشتراكهم فى العقائد والأعمال كقوله تعالى ـ واذا النفوس زوّجت ـ وقوله ـ فكبكبوا فيها هم والغاوون ـ وقوله عليه الصلاه والسلام ﴿أنت مع من أحببت﴾ ثم قال تعالى (فى الأصفاد) متعلق بمقرنين . والأصفاد القيود

* قال أبو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالأصفاد وهى القيود (سرابيلهم) قمصهم واحدها سربال

* وقيل السربال كل مالبس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت

تدهن به الابل اذا جربت ويقال الهناء فتقول هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهوالقطران ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح * وقرئ ـ من قطر آن ـ وهما كلمتان منونتان . فالقطر النحاس المذاب . والآنى الذى انتهى حره فتكون قمصهم إذن من نحاس مذاب شديد الحرارة (وتغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها (ليجزى الله كل نفس) مجرمة جزاء (ماكسبت إنّ الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ولايشغله حساب عن حساب كما لايشغله رزق زيد عن رزق عمر (هذا) القرآن (بلاغ للناس) كفاية لهم فى الموعظة ليتعظوا (ولينذروا به) أى بهذا البلاغ (وليعلموا أنما هو إله واحد) بالنظر والتأمّل يعرفون وحدانية الله تعالى (وليذكر أولوا الألباب) فيرتدعوا عما لايليق . فهذا البلاغ ﴿ لثلاثة أمور ﴾

(١) أن الرسل يسعون بتخويف الناس لتكميلهم

(٢) وأن الناس ترتقى وتكمل قوّتهم النظرية

(٣) وتكمل قوّتهم العملية بالتذكر . انتهى التفسير اللفظى

﴿ مقاصد هذا القسم ﴾

اعلم أن هذا القسم الذى قصه ابراهيم الخليل وماتلاه من مخاطبة الله للنبى ﷺ وسائر الناس تميم للكلام وجمع مامضى من أوّل السورة تصريحا تارة وتلويحا أخرى . ولقد قدّمت أن الخليل عليه السلام لايخطر بالبال أنه يعبد الأصنام وأن ذم عبادة الأصنام انما كان لما فيه من حصر الفكر ومتى عبد الناس ربهم خلصت عقولهم من التقيد بالأصنام . ناهيك ماتعلم من أن الخليل لما كسر الأصنام نظر نظرة فى النجوم ونظر الكوكب والقمر والشمس وارتقى الى الأفلاك وفوق السبع الطباق وقال ـ إنى وجهت وجهى الخ ـ وهكذا العرب لما كسرت أصنامهم فكت عقالهم وانطلقوا فى الأرض فأدّبوا أهلها ثم هم اليوم حالهم كحال العرب الجاهلية الأولى فهم فى انقسام وانشقاق وتنابذ ورؤساؤهم أصحاب شهوات ونزوات ظلموا وأفسد كثير منهم وهم ظالمون . وقد قلت ان جمود الفكر وحجره هو الذى تجب محاربته واذا وجدنا أهل دين من الأديان وقفت عقولهم وجب علينا افهامهم . وهذه أمّة الاسلام لاسيما العرب منهم حالهم اليوم أسوأ من حال آبائنا أيام الجاهلية فنحن مقلدون متنابذون . ولعمرى لقد جاء فى القرآن فى آيات سبقت فى هذا التفسير أن القرآن انذار للمسلمين كما هو انذار للكفار وهو واضح فى سورة الأعراف وغيرها

واذا كانت عبادة الأصنام بحسب نتائجها داعية للتفرّق والانقسام من جهة ومن جهة ثانية داعية للجهالة وقيد الفكر فليكن دعاء الخليل لقصد فك القيد عن أبنائه العرب وأن يسهل الله له الدعوة التى قام بها فلايقوم عائق فى سبيلها فتقف وتحصر كما تحصر العقول بعبادة الأصنام ولعلّ فى قوله ـ ربنا إنك تعلم مانخفى ومانعلن ـ مايشير الى ذلك فكأنه يطلب من الله أن تفك القيود عن أبنائه والعرب منهم وقد أرسل لهم ﷺ و بعد مدّة قيدوا تقييدا شديدا كما قيدت عبادة الأصنام عبادها وكأن هذا المعنى مما قصده وان لم يستجب فى العرب الجاهلية الأولى لأنهم عبدوا الأصنام وذلك لم يمنع استجابته فى باقى ذرّيته وانما يتلى علينا الآن لنتدبر كيف كان أبونا الخليل يدعو الله أن يجنبنا عبادة الأصنام ونحن لانعبدها ولكننا مقيدون فى اصفاد التقييد لاننظر الى السماء كما نظر هو ولانفكر فى الطبيعة كما فكر هو يوم قال ـ ولكن ليطمئن قلبى ـ فنفكر فى الخروج من هذا المأزق ونفك القيود التى قيدنا بها . وفى هذا المقام لطائف

(اللطيفة الأولى) ايضاح كيف كانت قصة الخليل عليه السلام جامعة مافى الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة وانها ملخص ماجاء فيهما

(اللطيفة الثانية) بيان أن مابعد القصة من قوله تعالى ـ ولاتحسبن الله غافلا الخ ـ قداشتمل على ماهو

كالنتيجة للتذكير بأيام الله الذى جاء فى أوّل السورة فهذا القسم جميعه أشبه بالتطبيق على السورة كلها فاوّلها على أواخرها وآخرها على أوّلها

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى ـ ربنا إنى أسكنت الخ ـ

(اللطيفة الرابعة) ـ يوم تبدّل الأرض غير الأرض الخ ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

ان الخليل عليه السلام طلب من الله أن يتجنب هو و بنوه الأصنام لأنها أضلت كثيرا من الناس الخ وهذا هو الكلمة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض فهو كالتطبيق عليها وطلب من الله أن يجعله مقيم الصلاة و بعض ذرّيته وجاء فى كلامه ـ ومايخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء ـ وهذان هما القسمان العلمى والعملى المذكوران فى الكلمة الطيبة المبينة فى قوله ـ قل لعبادى الذين آمنوا الخ ـ ففيها العمل باقامة الصلاة الخ والعلم بقول الله الذى خلق السموات والأرض الخ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

إن قوله تعالى ـ ولاتحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون ـ الى قوله ـ أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال الخ ـ فهذا هو نتيجة ما جاء فى أوّل السورة فانه هناك ذكر موسى قومه بأيام الله بعد ما أمره الله إذ قال له ـ وذكرهم بأيام الله ـ وقال ـ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الخ ـ وهنا جاء ذكر ذلك فى يوم الحساب على مقتضى أوّل السورة من التذكير بتلك الأيام فى القرون الخالية

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى ـ ربنا إنى أسكنت من ذرّيتى بواد غير ذى زرع الخ ـ ﴾

روى أن أم اسماعيل جاء بها ابراهيم و بابنها اسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بهاماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل فقالت له يا ابراهيم الى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولاشئ ثم أفادها أنه بأمر الله فسلمت الأمر لله وعلمت انّ الله لايضيعهما ثم رجعت ودعا ابراهيم بهذه الدعوات فقال ـ ربّ إنى أسكنت من ذرّيتى ـ حتى بلغ ـ يشكرون ـ ورجعت أم اسماعيل ترضعه وتشرب من الماء الذى عندها فلما فرغ عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو يتلبط فتوجهت الى الصفا وهو أقرب جبل اليها ثم استقبلت الوادى هل ترى أحدا فهبطت منه حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة وفعلت مافعلت فوق الصفا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات فلذلك سعى الناس بينهما ثم سمعت صوتا وهى مشرفة على المروة فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ماتغرف فشربت وأرضعت ولدها وكان البيت كالرابية تأتيه السيول ثم مرّت بهم رفقة من جرهم فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فعرفوا أنه على ماء فاستأذنوا أن ينزلوا عندها فأذنت على شرط أن لاحقّ لهم فى الماء فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم وشبّ الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك زوّجوه بامرأة منهم وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ماتزوج اسماعيل وكان ما كان من سؤاله لزوجة ابنه وردّها عليه بما لايحسن فقال لها قولى له غير عتبة الباب الخ وانتهى الأمر بعد ذلك أن اجتمع معه وتعانقا و بنيا البيت كما فى سورة البقرة عند قوله ـ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ـ وفى التفسير هناك تلخيص مايناسب ذلك من حديث البخارى وجئت هنا باختصار الحديث الذى يوضح مافى هذه السورة ومجموعهما مقصود مافى حديث البخارى بطوله

﴿ اللطيفة

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى ـ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ﴾

اعلم أن هذه الآية من المعجزات للقرآن فانك ترى العلم الحديث منطبقا عليها تمام الانطباق . ألا ترى أنهم يقولون ان الأرض والشمس والسيارات كانت فى قديم الزمان عبارة عن كرة نارية حارّة طائرة فى الفضاء ودارت على نفسها ملايين من السنين ثم تكوّنت الشمس و بعد ملايين فصلت منها السيارات ومنها الأرض و بعد مئات الالوف من السنين انفصلت عنها الأقمار ثم ان هذه العملية نفسها ستعاد كرة أخرى أى ان الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستنحل هذه الأجسام كرة أخرى وتدخل معمل الطبيعة مرة أخرى وتعاد من جديد فتجدّد أرض غير الأرض بعد مايذوب ذلك كله و يتطاير فى الفضاء ملايين السنين ولايبقى لها أثر و يعاد العمل من جديد وتصبح شمس غير الشمس وأرض غير الأرض و بالطبع السموات غير السموات . واذا سألت علماء الفلك مابرهانكم على هذه المسألة أجابوك كما فى كتاب (الدنيا الواسعة) فى علم الجغرافيا صفحة (٨) باللغة الانجليزية وهاك ماترجمته ﴿ كيف عرف الفلكيون أن تاريخ بدء الأرض على هذا المنوال كان حقا ومابرهانهم على ذلك فكان الجواب أن هؤلاء الفلكيين رصدوا بمناظيرهم الكبيرة المسمى كل واحد منها (بالتلسكوب) وشاهدوا أجراما كبيرة جارية على هذا المنوال الذى قدّروه للأرض وقد كشفوا أكثر من ستين ألف كوكب مختلفة فمنها مالايزال كرة نارية ومنها ماابتدأ يتكوّن ومنها مااقترب من الكمال فى التكوين و بقيتها بين هذين الحدّين مختلفات البعد والقرب منهما اهـ ﴾

فبهذا قدّروا أحوال أرضنا وشمسنا فكأنهم بهذا عرفوا سير كرتنا وتاريخ تطوّرها فى التكوين اهـ

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى ـ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ـ فانظر كيف أصبح العلم يشاهد تبدّل الأرضين بالأرضين والشموس بالشموس لاشمسنا وأرضنا فقط . وانظر قول أبىّ بن كعب قال فى معنى التبديل ﴿ إن الأرض تصير نيرانا ﴾ وقال بعض المفسرين ﴿ تخلق بدل الأرض والسموات أرض وسموات أخرى ﴾

وروى عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن قوله ـ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ـ فاين يكون الناس يومئذ يارسول الله فقال على الصراط . أخرجه مسلم

فانظر كيف صارت الأرض نارا وجعل الناس فى عالم غير عالم الأرض * وروى ثوبان أن حبرا من أحبار اليهود سأل رسول الله ﷺ أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض قال هم فى الظلمة دون الجسر . فانظر كيف اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث وأن الأرض تصير نارا وأن الناس لايكونون عليها . ثم اسمع ماهو أعجب وهو ماروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما ﴿ يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة ﴾ واذا كان كذلك فهى أرض جديدة من تلك الأراضى التى تجهز الآن فى هذه العوالم ولم يسكنها أحد بل خلقت حديثا . ولست أذكر هذه الأحاديث إلا للموازنة بين ماجاء فى الدين وماجاء فى العلم الحديث مع العلم أن هناك أحاديث تخالفها ولكن ظاهر الآية يوافق هذه الأحاديث و يوافق العلم الحديث وهذا من عجائب هذا الزمان

وههنا أربع جواهر ﴿ الجوهرة الأولى ﴾ فى قوله تعالى ـ وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها ـ وفيما قبلها من الآيات المذكرات بالنعم ﴿ الثانية والثالثة ﴾ فى قوله تعالى ـ واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام ـ ﴿ الرابعة ﴾ فى قوله تعالى ـ يوم تبدّل الأرض غير الأرض ـ

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى ـ وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها ـ ﴾

(وفى تذكير المسلمين بما قصروا فى نعم الله المذكورة فى هذه الآية وحرموا من (٢٣٨) ألف ألف ألف جنيه من (البحر الميت) بفلسطين)

أيها المسلمون جاء فى أوّل السورة أن موسى عليه السلام ذكر قومه بأيام الله وأن نبينا ﷺ كذلك ذكر أمّته وكاتب هذا التفسير ذكر الأمّة بعد ماذكر العلماء السابقون . أنا حينما كنت أكتب ذلك التذكير لم يكن ليجول بخاطرى أن حادثا يرجّ الأرض رجا و يبس الجبال بسا ويكون حدوثه أثناء طبع هذا التفسير لم يكن ليخطر لى ذلك ولم أكن لأعتقد أن المسلمين قد وصلوا الى درجة محزنة مخزية فظيعة مفزعة مريعة من الجهالة والغفلة عن هذه الآيات

أيها المسلمون . إن الله ملككم فلسطين منذ أيام الخلفاء الراشدين وأراد الصليبيون أن يفتحوا تلك البلاد و يفتحوا مصر فلم ينالوا حظهم . أتدرون لماذا حاولوا ذلك . أرسلهم الله سابقا ليقولوا للمسلمين بلسان الحال نحن قد بعث الله هممنا لنقاتلكم . ولماذا هذا . لأجل أن نذكركم بقوله تعالى ـ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ـ الى قوله ـ وان تعدّوا نعمة الله لاتحصوها إنّ الانسان لظلوم كفار ـ أنتم ملكتم الهند والشام والفرس والعراق ومصر والسودان والأناضول وشمال أفريقية و بلاد الأندلس . وفى هذه البلاد ما جاء فى هذه الآية من الأنهار الجاريات والفلك المسخرات والثمار اليانعات والبحار الواسعات فيها السفن الماخرات

وكأن الله يقول لكم فان شكرتم بحفظها واستعمالها أبقينا كم وان أنتم تركتم الامور على غاربها وأهملتم أنهاركم بلا استعمال و بحاركم وجبالكم فانى أغضب عليكم . وكيف لا أغضب عليكم وأنا الذى لاتعدّ نعمتى ولاتحصى . ومن أعطى النعم العظيمة فأعرض عنها فقد كفربها والكفر بالنعم مضيع لها ـ إنّ الانسان لظلوم كفار ـ

هذا هوالذى أفهمه فى محاربة الفرنجة للمسلمين أيام الحروب الصليبية فهو انذار للمسلمين وقد طردهم صلاح الدين الأيوبى فرجعوا وهم يحملون علما جما . أما المسلمون فناموا بعدها نومة أغضبت ربنا فأرسل الفرنجة هذه المرة فماذا فعل . أدخل الانجليز فلسطين . فماذا فعلوا . فعلوا ماجاء فى جرائدنا المصرية يوم (١١) سبتمبر سنة ١٩٢٧ قبيل طبع هذه السورة وهذا نصه

﴿ امتياز البحر الميت ﴾

(٢٣٨) بليون جنيه

تؤكد صحف لندن وأمريكا وفلسطين خبر منح امتياز باستغلال البحر الميت فى فلسطين لشركة انجليزية وتروى تلك الصحف عن الموادّ التى يشتمل عليها ذلك البحر و يمكن استخراجها منه روايات مدهشة حتى ان بعض الصحف الكبرى كجريدة التيمس ترى أنه سيكون مصدرا من أعظم مصادر الدخل للحكومة الانجليزية فكأنما هو بمثابة منجم ذهبى عظيم كان مهملا حتى الآن فقد كانت الحكومة التركية فى زمن حكمها فى تلك البلاد ترفض كل طلب أجنبى يرمى الى استغلال ذلك البحر واستخراج محتوياته

وقد ذكرت (الأمريكان هبرو) أن عالما جيولوجيا انجليزيا قصد ذلك البحر للاستطلاع والبحث بعد مادخل المارشال اللنبى فلسطين و بعد الاختبار قدّر ثروة ذلك البحر على الوجه التالى الذى يتفق مع تقدير خبراء آخرين لها وهو كما يلى

١٣٠٠ مليون طن من البوتاس تقدّر بمبلغ (١٤) بليون جنيه انجليزى

٨٥٣ مليون طن من البروم تقدّر بمبلغ (٤٢) بليون جنيه

١١٫٩٠٠ مليون طن من الملح تقدّر بمبلغ ١١٫٥٠٠ مليون جنيه

(٨١) مليون طن من الجبس تقدّر بمبلغ (٢٤) مليون جنيه

(٢٢) مليون طن من كلورو المغنسيوم تقدّر بمبلغ (١٦٥) بليون جنيه

وينتظر امضاء عقد الامتياز قريبا من جانب الشركة الكيميائية الامبراطورية التي يرأسها المستر (بروزوأ . موند)

ويشترط فى هذا العقد منح الامتياز لمدة محدودة من الزمن يعود بعد انتهائها الى حكومة فلسطين وتتعهد هذه الشركة بانشاء مدرسة لتهيئة طلبة من أبناء فلسطين لهذا العمل فى اليوم الذى تنتهى فيه مدة الامتياز وتتعهد كذلك بأن تقدم الى أهل فلسطين الحاصلات اللازمة لهم من محتويات هذا البحر بسعر لايتجاوز كلفة استخراجه

ويرى بعضهم أن هذا المشروع سيكون أعظم منافسة من جانب الانجليز للفرنساويين والألمان فى كاورات البوتاس والمواد الأخرى التى يعد الفرنسويون والألمان أصحاب المقام الأول فى سوقها اه

هذا هو نص ماجاء فى جرائدنا . والذى آلمنى وأوقع فى قلبى أشد الحزن أنى لم أرمن أهل العلم ضجة أوأسفا على الجهل العام فى أمم الاسلام وانما هذا الخبر لما انتشر مر كغيره . وأنا أقول إن الأمر لعظيم هذا البحر سميناه ميتا وانما سميناه ميتا لأننا ميتون ولوكنا أحياء لاتخذنا من مواده الغزيرة لنا حياة ولكان لنا أجل ذخيرة

أيها المسلمون . هل تظنون أن ربنا الذى يقول فى هذه الآيات ـ وسخرلكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ـ يخاطبنا بقوله لكم ثم هو اذا رفضنا نعمته يترك تلك النعمة فى أيدينا . هل الله يعطى الذهب للبهائم والطير والسباع أم يعطيها للانسان . إن الله لم يلهم الآساد البحث عن الذهب والفضة وهذان المعدنان ليسا نعمة على الآساد . فليس يقول الله للآساد أنعمت عليكم بالذهب ولكنه قال لنا أنا سخرت لكم الأنهار وسخرت لكم الفلك فى البحر ونظرلنا حتى لانحتج بأنه لم يذكر البحر الميت فى فلسطين فقال ـ وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ـ فان لم يدخل البحر الميت فيما تقدم من المياه فقد دخل هنا . لم يبق عذر للمسلم بعد هذا البيان اذا فهم أن البحر الميت ليس نعمة وهذه النعمة مسخرة لنا

وقد تقدم فى أول هذه السورة ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ـ وشكر النعمة استعمالها فيما خلقت له والبحر الميت بعد أن أنذرنا الله بالحروب الصليبية لم نفهمه ولم نفهم سواه بل تركنا الأرض المباركة وغير الأرض المباركة فلم نستخرج المنافع منها لجهلنا وأن كاتب هذا التفسير لم يعلم أن فى البحر الميت هذه الفوائد إلا من هذا الخبر فنحن قوم جاهلون حق علينا القول . فماذا حصل لما كفرنا النعمة . أرسل قوما آخرين مستعدين لها فهاهم أولاء يستخرجونها . ومامثل المسلمين مع ربهم إلا كمثل الديك قدمت له جواهر وقطع من ألماس ليأكلها فنبذها ظهريا وقال أين حب الذرة والقمح فها نحن أولاء لما نبذنا النعمة بجهلنا تسلمها غيرنا وهذا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . وقد تقدم فى سورة الأعراف أن عذاب الدنيا يشمل المؤمنين وغيرالمؤمنين فارجع اليه إن شئت

وانظر الى قول الكاتب (فكأنما هو بمثابة منجم ذهبى عظيم كان مهملا) وقوله (إن عالما جيولجيا انجليزيا قصد ذلك البحر بعد فتح فلسطين الخ) وهذا مثل الذى حصل أيام دخول الفرنسيين مصر منذ نحو ١٥٠ سنة فان القوم مكثوا فيها نحو ثلاث سنين ومباحثهم التى قاموا بها فوق متناول المسلمين كلهم

وقد ملؤا مجلدات كبيرة فى منافع أرض مصر وجبالها وحيواناتها والمسلمون لم ينتفعوا بشئ من ذلك ولم يثوروا فى وجه الجهل . اللهم إنى أذكر المسلمين بهذا التفسير وأذكرهم بما قاله (جنكيزخان) كما سيأتى فى آخر سورة الكهف عند قصة يأجوج ومأجوج من أنه لما أرسل تجارا من بلاده الى بلاد الاسلام فقتلهم (قطب أرسلان) ثم آخرين فتل بهم وأخذ مالهم لجهل المسلمين إذ ذاك بجغرافية جيرانهم . اختلى ثلاثة أيام وهو لايذوق فيها طعاما فقال اللهم إنى أردت عمارة أرضك وأراد المسلمون خرابها فانصرنى اللهم عليهم ثم

انقضّ على بلاد الاسلام فلم تقم لها قائمة بعدها كما نقلته من كتاب ﴿ فاكهة الخلفا ومفاكهة الظرفاء ﴾

فسواء صحّ هذا أولم يصح فهذه نفسها سنة الله وهاهوذا صح عندنا أن البحر الميت جهله المسلمون وعرفه النصارى . إذن نحن الآن جهال بنعمة الله وهذا الجهل هومبدأ الكفر بالنعمة . ومن المخجل أن يقول الكاتب (ان هذا المشروع سيكون أعظم منافسة من جانب الانجليز للفرنسيين والألمان) ولم يذكر دولة اسلامية تنافس الانجليز فى هذا . فهل رأيت نوما عميقا كهذا . وهل عند المسلمين جميعا عربا وتركا وفرسا وغيرهم ثروة تقدّر بمبلغ (٢٣٨) ألف مليون جنيه . ومعنى هذا أن المسلمين جيعهم لايملكون مايعادل ثمن محصول البحر الميت . فهل رأيت موتا أشنع من هذا

فاذا قال (جنكيزخان) المسلمون خربوا بلادك . فهاهوذا لسان العدل ولسان الحق ولسان الدول جمعاء ناطقات بأن المسلمين أكثرهم لم يعمروا أرض الله تعميرا تاما ولم يقوموا بحفظ الأمانة التى استودعوها أيها المسلمون . ان هناك بقية أمل فهل أنتم منتهون . انتهى

﴿ حكمة إلهية ونور على نور ﴾

استيقظت صباحا فى يوم من الأيام فرأيت فى النفس ميلا قويا وخاطرا هاجسا فى اليقظة والمنام لا كمال هذا الموضوع فلم أجد بدا من التوسع فيه حتى أتمّ ماوقر فى النفس من بدائع القرآن . وبينما أنا كذلك إذ حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يجاذبنى أطراف الحديث فى مثل هذا المقال فقال

(س) ماذا تريد بعد ماقدّمته فى مسألة البحر الميت وأىّ أسرار للقرآن فى ذلك

(ج) فقلت سأذكر عجائب العناصر فى البحر الميت وسرّ الحروف فى أوائل السور فى القرآن

(س) فقال وما المناسبة بينهما

(ج) إن البحر الميت قد حلل الله فيه العناصر مثل المغنسيوم والكلور والبروم وجعل فيه مركبات مثل الملح والجبس ففيه المركبات وفيه العناصر . هكذا الحروف فى أوائل السور والجمل فى القرآن ففى القرآن آيات تحثّ على العلوم وفى القرآن حروف فى أوائل السور تشير الى قراءة جميع العلوم كما قدمنا ذلك فى سورة هود وفى أوّل سورة آل عمران . إن العلوم كلها لايعرفها الناس مالم يحللوا مركباتها الى مفرداتها كالحساب وكالهندسة وهكذا العلوم الطبيعية فمثلها كمثل جميع اللغات فلانعرف اللغة إلا بالتحليل وارجاع المركبات الى الكلمات والكلمات الى الحروف والله هوالذى أنزل القرآن وهوالذى خلق البحر الميت

فهوالذى حلل فى البحر الميت البروم والكلور والمغنيس . وهوالذى ركب الجبس والملح فيه وفعل مثل ذلك فى القرآن فجعل فيه حروفا كما جعل هنا عناصر . ولما غفل المسلمون عن آى القرآن ماتت القلوب عن بحث هذه العوالم واستخراج منافعها المركبات من عناصرها فهم كما جهل أكثرهم القرآن فلم يعرفوا إلا ألفاظه . هكذا جهلوا منافع أرضهم وبحارها ومنها البحر الميت فاذا سموا البحر فى فلسطين ميتا والموت انما هو فى أكثر قلوب الجاهلين فيهم فنسبوا ماحلّ بنفوسهم من الجهل والموت الى البحر . فهكذا القرآن لما هجروه ماتت النفوس عن معانيه وعن العالم الذى خلقنا فيه ـ وقال الرسول يارب إنّ قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ـ

(س) لاتزال المناسبة بين العناصر فى البحر الميت وبين الحروف فى أوائل السور تحتاج الى ايضاح فان نفسى غير مطمئنة الى هذا البيان فان كون الحروف فى أوائل السور كالعناصر فى البحر الميت وغيره أمر عام لايخصّ هذه السورة

(ج) إن أوّل السور من يونس الى الحجر وجميعها سبع سور كلها مبدوءة بحروف (الر) وتزيد الرعد بأن بين (ال والراء) ميما فوجود (ال) أوّلا و (الراء) آخرا عام فى الجميع وهذه الخاصية محققة فى قوله

تعالى

تعالى ـ ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا الخ ـ فانه ذكر سبع كلمات فى معرض الذين بدّلوا نعمة الله كفرا كلهافيها هذه الخاصية أى ان (ال) فى أوّلها (والراء) فى آخرها وهى (البوار . القرار . النار . البحر . الأنهار . القمر . النهار) . ومعلوم أن السورة مذكرة بنعم الله كما ذكر موسى عليه السلام ونبينا ﷺ قومهما بذلك والنعم كثيرة فبين أهمها هنا فى معرض توبيخ وذم الذين بدّلوا النعمة فلهم البوار والنار وهى لهم قرار وعليهم البحث فى البحار والأنهار والقمر والنهار وكل موجود . فهذه ذكرت هنا كالنموذج للنعم التى يجب شكرها تفسيرا لقوله تعالى فى أوّل السورة ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ ولاجرم أن البحر الميت من البحار . وقد جاءت فى هذه الكلمات السبع مشاكلة للسورالسبع التى فى أوائلها (الر) فأوّل البحر (ال) وآخره الراء فدخل فى الذى طلب تحليله من النعم التى قد يبدلها كفرا بعض الناس وأن من حكمة الله أن يكون طبع تفسير هذه السورة أيام انتشارخبر البحر الميت حتى يدخل فى أسرار (الر) وتحليل عناصره المدلول عليها بحروف أوّل السورة . فلئن جهل المسلمون القرآن وانحطت مداركهم ليس معناه أنه لايرقى الانسانية كما أن البحر الذى سموه ميتا ليس بميت وانما هو حى يعطى الحياة لقوم يعلمون . فما مثلهم إلا كمثل قوم حملوا رجلا ظنوه ميتا على النعش فلما أنزلوه ليدفن عرف الطبيب حياته فأتى له بالأدوية المنعشات فعاش الى حين

(س) فقال هناك ﴿ أمران ﴾ أرجو ايضاحهما ﴿ الأوّل ﴾ ما صفات العناصر التى فى البحر الميت فى علم الكيمياء ﴿ الأمر الثانى ﴾ وهل فى التاريخ أن رجلا مات ثم كشف الطبيب أنه حىّ . اذا صحّ هذا فى التاريخ كان خير مثال لحال المسلمين مع ماملكوا من بحار وجبال وأنهارالخ ومع ماحفظوا من دين وقرآن

(ج) فقلت إن هذا البحر جمع من العناصر النافعة للنوع الانسانى أمثال

(١) البوتاسا هى من مركبات (البوتاسيوم) الذى هو فلز لونه أبيض فضى لماع لين كشمع العسل ولون بخاره أخضر جميل وهو أخفّ من الماء واذا ألقيت قطعة منه فى الماء فان كرات منه تحمر بسبب شدّة ارتفاع الحرارة ويحصل التهاب وتدور كرات (البوتاسيوم) بعضها على بعض سابحة على بعد من سطح الماء ثم يصير البوتاسيوم مع ما اتحد به (بوتاسا) . والبوتاسا جسم كاو شديد اذا لامس الأنسجة أحدث فيها استرخاء وأتلفها

(٢) الصوديوم هومعدن فضى اللون لين اذا ألقى فى الماء الحار أوأحمى قليلا يشتعل بنور لامع أصفر فاقع وكل أملاح (الصوديوم) نورها عند الاشتعال يكون أصفر وهو كثير فى الوجود لدخوله فى ملح الطعام

(٣) الكلور أكثر وجوده فى ملح الطعام مركبا مع الصوديوم فهو مركب من الكلور والصوديوم وهو غازمفطس لونه مصفر مخضر له رائحة مفطسة خانقة يحدث سعالا شديدا وهوسام . وقد تقدّم فى آخر سورة آل عمران

(٤) المغنسيوم هومعدن فضى لين قابل أن يسحب خيوطا ولم يخلق وحده فى الوجود بل مركبا مع غيره ويكون فى ماء البحر مركبا مع الكلور المتقدّم والبروم واليود

هاأناذا بحمد الله قد وصفت لك أكثر المعادن التى خلقت فى البحر الميت . فانظر الى جسمين فضيين لون بخارهما متقارب وهما الصفرة والخضرة وكل منهما يشتعل فى النار اذا ألقى فيها وجسم ثالث لونه أشبه بلونهما وهومميت وجسم رابع وهوفضى كالعنصرين الأوّلين . هذه العناصر بعض مافى بلاد الاسلام مما جهلوه وهذه هى التى تتركب منها الأجسام ويكون منها خير كثير ولاخير منها إلا بالعلم والعناصر فى هذه الدنيا تبلغ فوق ثمانين فما فى البحر الميت مثال يقاس عليه مافى سائر بلدان الاسلام كما ان حروف الهجاء فى أوّل السور مثال لغوىّ تقاس عليه جميع العلوم

(س) فقال فهمت مسألة العناصر ومركباتها وعرفت خواص أكثر ماذكر فى البحر الميت منهافما شواهد التاريخ التى طلبتها منك

(ج) فقلت ان فى التاريخ ﴿ ثلاث حوادث ﴾ وكلها من كتاب الوزير جمال الدين أبى الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦

﴿ الحادثة الأولى ﴾ ذكر أن طبيبا رأى ميتا محمولا على النعش ولمح قدم رجله بهيئة خاصة لاتكون من الأموات بل هى من خواص الأحياء فأعلم أهله فأنزله وداواه فرجع الى الحياة فكان ذلك للطبيب عزا وفخرا وشهرة الى آخر أيامه

﴿ الحادثة الثانية ﴾ جاء فى ترجمة صالح بن بهلة الهندى أيام الرشيد أن جبرائيل بن بختيشوع أخبر الرشيد أن ابن عمه ابراهيم بن صالح فى آخر رمق وانه ينقضى عمره وقت صلاة العتمة فترك الرشيد تناول الطعام وبكى فأخبره جعفر بأن صالح بن بهلة يعلم فى الطب علم الهند وعلم الروم معا فأحضره ودخل على ابراهيم بن صالح ورجع الى الرشيد فقال له لن يموت وانى أخرج من مالى ونساؤه طوالق ثلاثا ان مات فأكل الرشيد وهو مسرور فلما كان وقت العتمة ورد له الخبر بموت ابراهيم بن صالح فلعن صالح بن بهلة وطبه وطب الهند وتقايأ الطعام الذى أكله ووقف متكئا على سيفه فجاءه صالح بن بهلة وقال له أتطلق زوجتى وتضيع مالى وتدفن ابن عمك حيا وكرر ذلك فأذن له بالدخول فدخل ورأى علامة الحياة فدخل الرشيد فأدخل صالح بن بهلة ابرة كانت معه بين ظفر ابهام يده اليسرى ولحمه فجذب ابراهيم يده وردها الى بدنه فقال صالح يا أمير المؤمنين هل يحس الميت ثم خلع عنه ملابس الكفن وألبسه ثيابه ونفخ فى أنفه (الكندس) فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس فكلم الرشيد وقبل يده وعاش زمانا وتزوج العباسة أخت هرون الرشيد وولى مصر وفلسطين وتوفى بمصر وقبره بها

﴿ الحادثة الثالثة ﴾ روى أن ثابت بن قرة اجتاز يوما الى دار الخليفة فسمع صياحا وعويلا فقيل له إن القصاب الذى كان فى هذا الدكان قد مات فجأة فقال كلا فتوجه به الناس الى دار القصاب فأمر النساء أن يمسكن عن اللطم والصياح وأمر غلامه أن يضرب القصاب (الجزار) على كعبه بالعصا وجعل دواء فى ماء ووضعه فى فم القصاب فشربه فوقعت الصيحة فى الدار والشارع بأن الطبيب أحيا الميت وسرعان ماوصل الخبر الى دار الخليفة فاستدعاه فذهب والدنيا قد انقلبت وراءه بسبب أنه أحيا الميت فلما دخل عليه قال له ياثابت ماهذه المسيحية (يريد أن المسيح أحيا الموتى) فأخبره أن هذا القصاب كان يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها كل يوم وأنا أمر عليه فعرفت أن سكتة ستلحقه فلما أخبرت خبره داويته اهـ

(س) فقال ماوجه الشبه بين البحر الميت وهذه الثلاثة

(ج) الشبه من ثلاثة وجوه ﴿ الأول ﴾ أن كلا من الحوادث الثلاثة فيها حى ظنه الناس ميا وحمل فى الأولى على النعش . هكذا هذا البحر ملكه المسلمون فكأنهم حملوه وهم يظنون موته ﴿ الثانى ﴾ أن الأطباء الثلاثة كثابت وصالح بن بهلة عرفوا أن هؤلاء الثلاثة أحياء وهكذا علماء (الجيلوجيا) من أوروبا قالوا إن البحر فيه حياة ﴿ الثالث ﴾ أن الخليفة قال ياثابت ماهذه المسيحية فأخبره بأن هذا أمر علمى لا دخل للدين فيه . هكذا علماء (الجيلوجيا) من أوروبا عرفوا أن هذا البحر فيه حياة وهذه المعرفة علمية

(س) فقال وماذا تريد بعد ذلك

(ج) قلت أريد أن لا يكون المسلمون بعدنا مثل المسلمين اليوم فلا يكونون مالكين لأرض الله وللبحار والأنهار الخ وهم يجهلون منفعتها كأنهم يحملون أمواتا بحسب أعمالهم وهم أحياء فى الحقيقة . أو كمثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها فتعبوا فى حملها وهم لاينتفعون بها فشبهوا بالحمار يحمل أسفارا . بئس مثل

القوم

القوم النائمين الغافلين . فمن الخسران أن يكونوا كالعامة الذين لم يفرقوا بين الميت والحى بل يجب أن يكونوا فى علوم الحياة كثابت بن قرة فى الطب وكالطبيب الذى أنزل الميت من نعشه فعاش حينا فقد عد على النعش بالجهل من الأموات ولما أنزل عنه بالعلم عد من الأحياء فليكن المسلمون بعد اليوم كهؤلاء الأطباء

(س) فقال وماظنك بهم بعد اليوم

(ج) فقلت قد سبق القول فى هذا غير مرة فى هذا الكتاب وانهم بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله فى زماننا ستسرى فيهم الفكرة سريان الكهرباء فى المعادن ويكونون كما قال الله تعالى ـ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعدموتها قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ـ وكما كان الناس يظنون البحر ميتا اذ الحياة كامنة فيه . هكذا الأمم الاسلامية الحياة كامنة فيها وستظهر اليوم . وأكثرهم اليوم مثلهم كمثل ذلك المحمول على النعش يظنه الناس ميتا وماهو بميت فاذا قرؤا أمثال هذا التفسير كسروا القيود ورموا بالنعش واستبدلوا بملابس الأموات ملابس الشباب والقوة وساروا فى الأرض وعمروها بعد ماظن الناس أنهم مفارقوها وخلعوا سواد الحداد ولبسوا ثياب القوة والشباب والنخوة والعز والكمال . انتهى

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ـ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام الخ ـ ﴾

اعلم أن هذه الكرة الأرضية التى نعيش عليها من عالم متأخر فان هذه الكواكب التى نراها ليلا عظيمة الأحجام والأقدار . ويظن العلماء فى عصرنا ويوقن علماء الأرواح أن ماحولها من السيارات التى تعد بمئات الالوف فيها سكان أرقى منا أخلاقا وعقولا . ويقال ان رقى العقول والأخلاق والأعمال على حسب أهمية الكوكب عظمة وضعفا . هذا كله لم يخرج عن حيز الظنون فأرضنا هذه ليست من تلك العوالم العظيمة لذلك نجد أهلها أقرب الى الجهل منهم الى العلم . ألاترى أن العقول المغروسة فى بنى آدم تضعف وتنام بأدنى حادث . فترى التنويم المغناطيسى يغطيه والوهم ويلهيه وعلماء الديانات يتصرفون فى العقول كما يشاؤن والناس فى ذلك غافلون تائهون . ترى الناس يصنعون الأصنام ويعبدونها واذا نزل دين بالتوحيد وأشرك العلماء اتبعهم العامة كما فى الدين المسيحى . هكذا المسلمون أيضا تراهم متفرقين وكل فرقة لاتقدس إلا ماتنقله من الأشياخ كما نرى فى رجال الصوفية فان أكثرهم يعتقدون فى شيوخهم العصمة وكأنهم منومون وهؤلاء الأتباع منومون (بالفتح) ومن الفرق المشهورة الطائفة المسماة بالباطنية فهؤلاء من فرق المسلمين ظاهرا وقد قرأنا عنهم فى كتب كثيرة ولكن لم يكن يخطر بالبال أن هؤلاء الذين بنوا الجامع الأزهر والقاهرة وحكموا فى مصر فوق مائتى سنة ينحط أتباعهم فى زماننا الى دين وثنى فانهم يعبدون الرئيس الدينى عندهم وماكنا لنصدق ذلك . وذلك الرئيس ينتسب لآل البيت الكرام . ومن عجب أن سيدنا عليا كرم الله وجهه نبذ هؤلاء الذين كانوا يعتقدون فيه الالوهية فحاربهم وانتصر عليهم فكيف يرضى من ينتسب اليه أن يرجع أتباعه الى حال مزعجة اذا صح ماستقرؤه الآن من شكوى أتباعه منه فى الجرائد وكيف يجعل ذلك الرئيس نفسه ندا لله ويكون من المذكورين فى الآية أو يصبح كفرعون وأمثاله . اللهم إن العالم الانسانى فى الأرض سريع النزوع للجهل غارق فى بحار العماية والضلال . فهاك ماجاء فى احدى الجرائد المصرية المشهورة بتاريخ الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٧ م و ٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤٦ هـ

﴿ الى سمو أغا خان ﴾

(خطاب كله شكاوى وفضائح)

تلقينا فى البريد الوارد علينا من الهند صورة خطاب مفتوح موجه الى سمو أغا خان الزعيم الهندى المعروف من بعض أتباعه يلفتون نظره فيه الى حال الطائفة التى يهيمن عليها سموه والتى بلغت من التأخر والانحطاط حدا كبيرا . تلك الطائفة هى طائفة الاسماعيلية وأغا خان معروف للمصريين فهو الذى قيل عنه أن الحكومة

البريطانية أرادت أن تقيمه سلطانا على مصر فى بداية الحرب فى حالة رفض المغفور له السلطان حسين كامل عرش مصر . وأغا خان يقضى أغلب وقته فى أوروبا حيث تراه فى كل بلد من بلاد المصايف والمشاتى وحيث له عشرات من الجياد تجرى فى السباق فى لندن وباريس وكل مركز من مراكز الترف والظهور

ولما كان الخطاب طويلا آثرنا أن نلخصه للقراء وهو يحوى فضائح عدة مؤلمة بين طائفة من المسلمين وهو بوجه خاص نقد موجه الى زعيمهم أغا خان وقد استهله كاتبوه بما يأتى

ياصاحب السمو . نحن الموقعين على هذا أعضاء طائفة (خوجا) نرفع الى سموكم الخطاب التالى واثقين أن ينال لديكم مايستحق من العناية والاهتمام . اسمح لنا ياصاحب السمو فى مستهل خطابنا هذا أن نقول ان السبب الوحيد الذى حملنا على أن نسلك هذا الطريق الخطر هو الحالة التعسة التى عليها اخواننا البؤساء ونقول ان الطريق التى سلكها الآن خطرة لأنه حدث غير مرة أن الذين يجرؤن على الاحتجاج ضد المظالم السائدة التى جرت هذه الحالة التى يرثى لها كان نصيبهم الموت من جراء عملهم هـذا . ومع أن الخطة التى نسلكها هى فى نظر العقلاء الخطة المثلى والطريقة الدستورية المشروعة للاعراب عن مظالم يراد اصلاحها فانه مع ذلك لايدهشنا اذا كانت نتيجة عملنا هذا الذى نقوم به بحسن نية أن يكمن لنا الفـدائيون من أتباع سموكم ويقضوا على حياتنا . على أنه اذا حدث شئ من ذلك فانه يحتمل أن يثور الرأى العام ويقوم ولاة الامور بتحريات فى الأمر نرجو أن تنتهى عاجلا أوآجلا باتخاذ تدابير تضع حدًّا لحالة يكاد يتعذر تصديقها فى هذا العصر عصر المدنية والعرفان . نعم ندرك حق الادراك ما لسموكم من المكانة الرفيعة والمقام السامى فى العالم . غير اننا نجد مايشجعنا على توجيه هذا الخطاب الى سموكم عالمين أننا نعبر عن شعور عدد كبير من أنصاركم لايجد معظمهم من أنفسهم الشجاعة على الاعراب عنه للسبب الذى ذكرناه آنفا

وقبل أن نشرع فى تنفيذ نيتنا وهى وصف الحالة التعسة المتأخرة التى عليها نحن أنصار سموكم نودّ أن نشير فى البداية الى العلاقة التى تربط أسرة سموكم بطائفة (خوجا) وهذه العلاقة هى ما يقال من أن أسرة سموك من سلالة الامام على ومن سلالة الحشاشين فى جبل الموت ورئيسهم حسن بن الصباح المعروف باسم شيخ الجبل وأنصار سموكم هم اسميا طائفة من الطوائف الاسلامية ولكن المبادئ التى تسربت اليهم اليوم انتهكت حرمة المذاهب الاسلامية الجوهرية وقد جاء هذا من الاختلاط القديم بالطوائف التى أشرنا اليها لأن المعروف أن شيوخ الجبل يعترفون جهارا بأنهم من أدق المحافظين على المبادئ الاسلامية ولكنهم فى الواقع ألد أعدائها فى الباطن . ومن البديهى أن الدين الاسلامى يقضى على معتنقيه أن يعتقدوا بإله واحد ويؤدون مافرض عليهم من صوم وصلاة وحج . فكيف يستطيع أنصار سموكم أن يعملوا بالوصية الأولى الهامة فى حين أن مرسليكم الذين يتقاضون أجرهم من خزانتكم والذين يعملون بارشاداتكم ينادون فى كل جمعية (دار العبادة) فى الناس بأن سموكم الاله القدير الذى يجب أن تقدّم اليه وحده كل عبادة وصلاة

والواقع أن ماينادى به وعاظكم يعمل به أنصاركم فيقدّمون صلواتهم الى شخص سموكم بصفتكم الاله الأعلى . أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم فان سموكم لايستطيع أن ينكر بأن الشهود الذين تقدّموا فى قضية (هجبى بيبى) وهم من أنصاركم جاهروا بأن لاشأن لهم بالقرآن وفوق ذلك فقد نصحتم سموكم أنصاركم باتباع تعاليم (بيرسدرودين) وهى تعاليم تشير بصريح العبارة لأنصاركم أن القرآن لم يوضع لهم . وهناك أيضا الفرمان الذى وجهتموه الى أنصاركم منذ بضع سنين وفحواه أن القرآن الحالى ليس صحيحا

وزكاة الاسلام التى هى هبة اختيارية قدرها ٢ ونصف فى المئة من الدخل تعطى حسب أوامر القرآن صدقة للفقراء والمعوزين وأبناء السبيل وغيرهم ولكن اخواننا الفقراء يرغمون على أن يعطوا نصف دخلهم لله فى شخص سموكم وهذه الجبايات تدفع نقدا وعينا ويدفع أهل كراتشى وحدهم (٢٠٠٠٠) روبية

ناهيك

ناهيك بالبلدان الأخرى التى تدفع مثل هذا المبلغ . وهذا معناه أن الجزء الأكبر من الأموال التى حصل عليها أنصاركم بعرق جبينهم تدفع بانتظام لسد نفقات سموكم الشخصية . ويضاف الى هذه الاعانات المنظمة ماتستولون عليه سموكم فى كل زيارة من الأموال والحلى وغيرها من الهبات الثمينة وقد تكرمتم فى سنة ١٩٢٠ فزرتم أنصاركم فى كراتشى وحملتم معكم خمسة عشر (لكا) من الروبيات بعد اقامة لم تستغرق (٢٦) يوما ولما عدتم سموكم الى كراتشى بعد ذلك بعامين لمقابلة ولى عهد انجلترا دفع اخواننا لكم مالا يقل عن ١٥٤٠٠٠ روبية مع أن سموكم لم تمكثوا معهم أكثر من ساعتين . ولانخال سموكم تجهلون أن العالم اليوم يعتمد على المال فاذا كانت الأموال تبتز من طائفتكم بهذه الحالة فكيف تنتظرون منها أن تثبت فى وجه منافسات الطوائف الأخرى أوكيف تستطيع السير مع مايقتضيه الزمن من الرقى والتقدم

أما فيما يتعلق بفريضتى الصوم والحج فلسنا فى حاجة الى القول بأن أنصاركم لايقومون بهاتين الفريضتين وانا ازاء الابتزاز المستمر ونضوب الموارد الاقتصادية للطائفة نود أن نسأل سموكم عن التدابير التى اتخذتموها لاعلاء شأن الطائفة ورقيها وهل لكم أن تخبرونا عن المبالغ التى تنفقونها فى سبيل التعليم واعانة الفقراء وهى المبالغ التى ابتزت من أفراد الطائفة وهل لكم أن تدلونا على قرية واحدة أومكان شيدتم فيه جامعة أومدرسة عالية أومستشفى أوملجأ لاعلاء شان طائفتكم وترقية شؤنها الفكرية والجسدية والروحية وهل يجد أبناء أنصاركم الذين يرغبون فى ترقية مداركهم من سموكم مايساعدهم على الالتحاق بأى معهد علمى فى العالم .

أما المدارس الوحيدة التى توجد هنا فلاتخرج عن مدارس ابتدائية تقوم الطائفة نفسها بسد نفقاتها وفى هذه المدارس لايتلقى الأطفال التعساء من التعاليم إلا ذلك المذهب المروع الذى يعلمهم أن سموكم هو الاله القدير الذى يجب أن تقدم اليه كل عبادة وقربان . انكم تطلقون على أنصاركم وتدعونهم باسم أولادكم ولكن هل خطر ببالكم أن تقوموا بواجبكم الأبوى بما يكفل لهم حاجاتهم فى الحياة . ألم يؤنبكم ضميركم وأنتم ترفلون فى حلل السعادة والهناء فى أوروبا فسألتم أنفسكم عما اذا كان أطفالكم الذين خلفتموهم وراءكم فى بلادكم لديهم مايسد الرمق . وهل تحولت أفكاركم وأنتم تعيشون عاما بعد عام فى قصور شامخة بالبلدان الأجنبية فذكرتم أولادكم وقدمتم اليهم ماهم فى حاجة اليه من مأوى . ألم يخطر ببالكم وأنتم تبعثرون الملايين من الجنيهات فى ميادين السباق بالبلدان الأجنبية وتنفقون عن سعة لصيانة الجياد وتكاليفها . إن الأموال التى تبعثرونها ذات اليمين وذات الشمال هى من دماء أولادكم وانها السبب فى ماهم فيه من الفقر المدقع والشقاء

لقد ساعدكم الحظ وحصلتم من العلوم والمعارف على قسط يساعدكم على معاشرة أرقى الهيئات ولكن أليس من نكبات الدهر أنكم تستخدمون هذه المميزات نفسها بمهارة وحذق لحرمان أولادكم من العلم لكى تجعلوهم دائما يتخبطون فى دياجير الجهل . انا نناشد سموكم أن تبرروا دعواكم بأنكم الرئيس الروحى لالوف من أتباعكم بعمل مايخفف عنهم عبء الجهل ويرفعهم الى مستوى أعلى . ولما كنتم الرئيس الروحى لطائفتنا . ولما كنتم تدعون أنكم من سلالة النبى نفسه فهل لنا أن نسألكم عما تصنعونه لاعلاء شان الاسلام فى أوروبا حيث تقضون معظم حياتكم هناك . وهل لنا أن نعرف هل تلقون محاضرات عما فى الاسلام من مبادئ سامية . وهل تبررون مركزكم الذى تشغلونه بما تقدمونه من المثل الاعلى فى حياتكم واذا كنتم لاتفعلون شيأ من ذلك فهل لنا أن نسألكم عن الغاية من اقامتكم الدائمة فى أوروبا بعيدا عن أنصاركم . وهل السبب الوحيد فى ذلك ولوعكم بميادين السباق ومافى أوروبا من ملاهى ومسرات

ومع أن سموكم لم تؤسسوا معهدا علميا أوطبيا لتثقيف عقول الطائفة إلا أنكم قطعتم خطوة واحدة لتتخذوها دليلا على اهتمامكم الشخصى بشؤنها فأسستم مجلسا غايته الظاهرة ادارة شؤن طائفتكم ولكن الواقفين على بواطن الامور لايسعهم إلا القول بأن الغاية الحقيقية من هذه المجالس انما هو القبض بيد من

حديد على زمام الطائفة . ولا أدل على ذلك من أنه لايجوز لهذه المجالس أن تدخل تعديلا إلا بموافقة سموكم كما ان لكم السلطة الوحيدة فى تعيين واقالة أعضاء هذه المجالس الذين لايسعهم فى هذه الحالة إلا أن يكونوا معبرين عن رأى سيدهم طائعين له طاعة عمياء . وبعد أن أشار الموقعون على الخطاب الى الأوامر القاسية والقوانين المجحفة التى يخضعون لها ومنها حرمانهم من أن تكون لهم علاقة بالمنشقين على الطائفة سواء فى أفراحهم وأحزانهم قالوا ان الغرض من هذه المجالس والقوانين هو حمل الطائفة على الاعتقاد بألوهية سموكم وبذل كل مجهود للقبض على زمام الطائفة روحيا وجسديا والمحافظة على الأموال الطائلة التى تحصلون سموكم عليها بهذه الطريقة

وفى الختام نلتمس من سموكم بالحاح أن تأمروا بادخال التغييرات التالية اذا لم تكن لديكم رغبة أو سلطة للقيام بعمل صريح يعود بالنفع على طائفتكم

(١) أن تتنازلوا وتتنصلوا من جميع الألقاب المقدسة التى تطلق عليكم . وهى فى الواقع من حق الله القدير وحده

(٢) أن تغيروا (الجمعية خانات) الى المساجد التى تصح فيها وحدها اقامة الصلاة

(٣) أن تضعوا الوسائل اللازمة لكى يتاقى جميع أنصار سموكم التعاليم الاسلامية

(٤) أن تمنعوا منعا باتا وترفضوا جميع الهبات سواء كانت نقدا أو عينا

(٥) أن تتكرموا بالغاء المجالس والقوانين الغاء تاما . ونلفت نظر سموكم بكل احترام الى أن هذه الامور من حق الطائفة التى لها وحدها الحق فى حكمها بنفسها وادارة شؤونها . فاذا تفضلتم سموكم فقبلتم طلباتنا هذه فاننا نكون مغتبطين أشد اغتباط . وتقبل ياصاحب السمو فائق احترامات خدامكم المخلصين اهـ

﴿ جوهرة فى أديان القدماء ﴾

ولما كتبت هذا المقال حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يحدثنى فى مواضيع هذا الكتاب . قال أنا أعجب لأمم الاسلام كيف يظهر فيها أمثال هذا وكيف يزعم قوم منهم أن الانسان إله . فقلت إن هذا فرع امتد من ديانات القدماء ودخل فى دين الاسلام وقد حل بالاسلام ودخل فيه ماحل بالديانات السابقة ولكن الاسلام لمتانته وقوته قد فعل بتلك الضلالات ما يفعله البحر بما يرمى فيه من جيف الحيوانات . فقال هذا اجمال ونحن يعوزنا التفصيل بالدليل من التاريخ . فقلت قد بحث العلماء فى عصرنا عن أصل كل دين من أديان القدماء كالبراهمة فى الهند وأتباع الديانة الهرمسية فى مصر والوثنية فى اليونان وهكذا النصرانية عند نشأتها . فهذه الديانات كلها بعد البحث عنها والتنقيب فى آثارها وجد أن لكل منها ﴿وجهين﴾ وجه ظاهر وهو الرموز والطقوس . ووجه باطن وهو المعبود الحق . خذ مثلا كتاب (الفيدا) وهو المركب من أربعة أسفار المكتوب باللغة الفيدية وهو السفر المقدس عند الهنود وهو أقدم من كتب البراهمة فهو يقول إن الله واحد ويسمونه زيوس (الجوهر النقى غير المكشوف) وهذا فى ديننا بمعنى (القدوس الباطن) و يصفونه بأنه القيوم بذاته الموجود فى جميع الكائنات وكل كائن يستمد منه . ولقد ذكرت فى غير هذا المكان شرح الفيلسوف المسمى (مانو) الهندى لهذه الآية فقال (الكائن بنفسه الذى لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الروح فقط وهو المنزه عن الأجزاء المنظورة أزلى سرمدى روح الكائنات الذى لايمكن العقل أن يدركه على ماهو عليه) ولازال هذا الدين على بساطته وسهولته كالاسلام فى العصور الأولى حتى نشأ البراهمة والكهنة وتألفت مراتبهم وخصوا أنفسهم بالاطلاع على الحقائق العلمية ودراسة العلوم الطبيعية والرياضيات ومرتاضى النفوس بحيث يفعلون العجائب والغرائب أمام شعوبهم فوجدوا أنهم بذلك أعلى وأسمى من تابعيهم فانتهزوا الفرص ليطمسوا الأبصار بطمس الحقائق حتى يقدسهم الشعب فأخذوا يأمرونهم بذبح الحيوان

وانتقلت منهم هذه العادة الى المصريين والعبرانيين . وكان النساك قبل ظهور أولئك البراهمة والكهان ينقطعون الى النسك والعبادة و يفسرون لتلاميذهم غوامض أسفار (الفيدا) ومافيها من التعليم السرى ويدرسون لهم قوى الطبيعة الغامضة التى تظهر اليوم بعض أسرارها على أيدى بعض نساك من الهند ومن على شاكلتهم ممن سأذكرهم عنهم فى سورة الاسراء عند مسألة الروح . إنّ هذه العلوم التى كشفها القوم كانت فى أقدم العصور بابا من ابواب السعادة ورقى النوع الانسانى ودام الأمر على ذلك قرونا وقرونا ولكن الخلف لم يكونوا كالسلف فان البراهمة الذين جاؤا أخيرا بعد الأوّلين جعلوا هذه القوى التى كسبوها ذريعة لاستعباد العامّة واستخدامهم فى شهواتهم فانحطّ الشعب الهندى . إن هؤلاء جعلوا ما كان سلما للرقى الانسانى سببا لعلوّهم هم وانحطاط شعوبهم وذلهم واستعبادهم وقد ابتدع هؤلاء البراهمة (التثليث) ولقد ثبت كما قدّمنا أن دينهم القديم لبث أحقابا وأحقابا وهو دين توحيد لاشرك فيه . ولما طال عليهم الأمد قالوا إن هذا العالم الذى نعيش فيه مركب من ﴿ ثلاثة جواهر ﴾ جوهر نراه وهو المادّة وجوهران لانراهما وهما العقل والنفس . وهذه الثلاثة حاصلة فى الانسان فله جسم وعقل ونفس فالعقل به التدبير والنفس بها الحياة وهذه الثلاثة واحد . فههنا تثليث وتوحيد . ويجعل بعضهم بدل النفس الجسم الأثيرى اللطيف لأن النفس تدبره فهذا الجسم الظاهرى له نظير لطيف يبقى بعد الموت وما الكون كله إلا روح دائمة الرقى وما الحياة إلا عبارة عن ترقى ذلك الروح وما المادّة إلا رمز تلك الروح وصورتها المتقلبة وما الانسان إلا عالم صغير أشبه العالم الكبير فهو يترقى و يرجع الى الله الذى هو الموجد لهذه الكائنات

ولما أخذوا يبحثون فى الله قالوا ان ديانتنا البرهمية مؤسسة على التثليث أى تثليث (برهم) أى الجوهر الأزلى المنزّه عن المادّة الذى منه صدرت الأقانيم الثلاثة وهى (براهما) و (فيشنو) و (سيفا) فهذه صفات برهم الثلاثة فبراهما (الخالق) وفيشنو (الحفيظ) وسيفا (التحوّل والتغير) هذه هى الصفات الثلاث لبرهم فهو خالق وهو حافظ لخلقه وهو محوّل هذه الخلائق من حال الى حال وهو على ذلك دائما يخلق ويحفظ ماخلق الى أجل ثم يحوّل تلك المخلوقات على سنن دائم فهو ذو أقانيم (صفات ثلاث) وهو واحد فهو ثلاثة من وجه واحد من وجه كما أن هذا العالم ثلاثة من وجه واحد من وجه . وهكذا الانسان الذى روحه شعاع من الله عندهم ثلاثة من وجه واحد من وجه وهذا الانسان يسير فى العوالم المحسوسة والعوالم الغيبية أجيالا وأجيالا ثم يرجع الى ربه ثم توسعوا فى ذلك فجعلوا الشعب الهندى ثلاث طبقات ووحدوا الله سرا وأظهروا التثليث للأمّة وأتوا بطقوس مادّية وأحاديث وهمية وحكايات خرافية وسلبوا الشعب قواه العقلية فانحطّ ايما انحطاط هنالك ظهر (خريستا) أو (خريستوس) ٤٨٠٠ ق م ومعناهما المسيح وقد تقدّمت تعاليمه فى سورة آل عمران ومن قوله ﴿ اذا انحلّ الجسم بالموت فان كانت الحكمة متغلبة على النفس تطير الى تلك الأقطار العلوية التى يعاين فيها الأتقياء الله ويدركونه وان كان الهوى متملكا بعدها يدخلها الله فى عوالم تناسبها وتلاقى جزاءها فى أسفل سافلين ﴾

والسرّ الأعظم عنده أن من رام بلوغ الكمال فعليه أن يكتسب علم الوحدة التى هى أجلّ من الحكمة فيتعالى الى الموجود الأسمى الذى هو فوق النفس والفهم وهو مع كل نفس . إنّ فى باطنك نورا إلهيا ولكن قلّ من يكشف هذا النور فى قلبه فطوبى لمن يضحى شهواته للوجود الأزلى الذى نشأت منه مصادر الأشياء كلها و به كان العالم فهذا المضحى يجد فى ذاته سعادته وفرحه . إنّ النفس التى وجدت الله تعتق من الموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود اه

وقال فى الأخلاق ﴿ ليعلمن الصديق أن مايجب تفضيله على كل شئ احترام النفس وحب القريب فلاغيبة ولاخداع ولانميمة . ولتكن يمينه أبدا مبسوطة للمعوزين ولايفتخرن قط بحسناته وليحذرن حياته كلها

من ايذاء أحد بوجه من الوجوه فان من حماية التريب واسعافه تنشأ الفضائل التي هي أكثر قبولا عند الرب جلّ وعلا اه ﴾

هذه هي تعاليم (خريستا) المجدّد لدينهم . ولما تقادم العهد على هذا الدين ألحقوا به أيضا أحاديث مضحكة خرافية ورتبوا طقوسا مرسحية لأجل أن يبقى الشعب على الجهالة وملؤا البلاد بالأصنام وأحاطوها بالخرافات ليبقى للكاهن السلطة على القلوب

ثم بعد ذلك بنحو أربعة آلاف سنة ظهر (بوذا ساكيامونى سودودانا) ابن ملك كابيلا فاستو فرأى ما أحدثه البراهمة والكهنة من التغيير في المبادئ كما حصل قبل ظهور (خريستو) إذ اتفق الكهنة مع الأشراف على التسلط وهضم حقوق الضعفاء فكرهت نفسه العظمة الدنيوية وسئمت ملاذ الحياة فغادر بلاط أبيه وتوغل في الغابات الكثيفة و بعد سنين كثيرة رجع وله من العمر ٣٥ سنة وأخذ يعظ كما وعظ كريستا فأيد كتاب (الفيدا) وأخذ يزعزع دين البراهمة ويرفع الحواجز القائمة بين طبقات الأمة . وقد امتدّت هذه الديانة في الصين واليابان فضلا عن الهند ويدين لها الآن ثلث النوع الانساني . ثم ان هذه البوذية لحقها مالحق الفيدا أوّلا ودين خريستا ثانيا من عموم الأوهام والأحاديث الخرافية فتوارت تعاليم بوذا وقامت مقامها القرابين والأعمال الصبيانية حتى ان بعض كهنة البوذيين اخترعوا آلة تنشر من نفسها في أوقات معينة تسبيحات الصلاة على حسب طلب المؤمن بشرط أن يدفع قدرا من المال . ولقد بعدت البوذية اليوم عن مؤسس بوذا كما بعدت المسيحية عن مؤسسها الناصرى . وأخذت عبادة الأصنام تنتشر في طول البلاد وعرضها حتى انك لترى الهند والصين واليابان كلها ملأى بالأصنام . وفي هذه الأدوار الثلاثة كان رؤساء الدين في كل العصور يعرفون وحدة الله ويكتمونها . قال (كولوكا) الهندى وهو من أشهر مفسرى أسفار (الفيدا) وهو ذو مقام عظيم سام جدّا عند الشعب الهندى مانصه

﴿ إن المؤمنين القدماء مع أنهم جعلوا قوى الطبيعة آلهة متعدّدة لم يكونوا يعتقدون إلا إلها واحدا مبدع الكائنات أزليا غير هيولى حاضرا في كل مكان منزّها عن كل كدر وهم وهو الحق بالذات ومنبع كل عدل وحكمة المدبر لكل شئ والمرتب نظام العالم لاشكل له ولاصورة ولاحدّ ولانسبة ﴾ اه

﴿ دين النصرانية ﴾

وأما دين النصرانية فانه قد تقدّم في ثنايا هذا التفسير مثل مامرّ في سورة البقرة وآل عمران وأواخر المائدة وغيرها وقد أخذوا أقانيم الهند الثلاثة وشوّهوها وقالوا ثلاثة وواحد حذو القذة بالقذة

﴿ دين الاسلام ﴾

هناك حدث في الانسانية أمر جديد . اعلم أيها الذكى أن الله يعلم ضعف الانسانية وأنه كلما نزل دين حرفه الناس في الأرض على مقتضى جبلاتهم . ومامثل الديانات إلا كماء المطر ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض و يصبح في الحنظل حنظلا وفي النخل تمرا وفي البر برا وهكذا . ذلك أن أرضنا التي نسكنها ليست من أعلى العوالم بل يظهر انها من عوالم متأخرة . أنظر الى ماتقدّم في سورة الرعد مما ورد في الحديث ﴿أن الله خلق شجرة يسير في ظلها الراكب مائة عام﴾ وهذه يراد بها فتح باب البحث في العوالم المحيطة بنا فقد أظهر الكشف الحديث أن أرضنا وشمسنا بالنسبة للكواكب التي نراها لاشئ . اقرأ ماتقدّم في سورة آل عمران وغيرها من أن القوم كشفوا عوالم يصح أن تخلق فيها أمثال هذه الشجرة وماهو أعظم منها

ولما كان نور الله يشمل العوالم كلها نزل منه شعاع الى الأرض وهو العلم والدين فأخذ الناس ينزلون الحقائق على مقتضى نقصهم في الأرض . هنالك جاء الاسلام فحلّ قيود الوثنية وهو الذى عدّل التعاليم المسيحية و بسببه انحلت الروابط والعوائق التي حبست عقول الاوروبيين كما تقدّم في سورة التوبة فانك تجد

هناك مافعله الباباوات ورؤساء الدين من قتل النفوس وحرق الأبرياء وظلم الملوك والسوقة فظهر أولئك الكتاب مثل (روسو) و (فولتير) وقبلهما (لوثر) فزعزعوا صروح الأكاذيب فى السياسة وفى الدين وتناقص بالتدريج بيع الغفران والتسلط على العقول • كل هذا بدين الاسلام كما هو منقول هناك عن نفس النصارى الذين أسلموا

﴿ أمم الاسلام المتأخرة ﴾

اعلم أن الأمم الاسلامية المتأخرة اعتراها ما اعترى الأمم قبلها حذو القذة بالقذة ولكن بأشكال أخرى فهذا الدين الذى دفع المسلمين الى الانتشار فى الأرض شرقا وغربا فى قرنين اثنين وحوز علوم الأمم فى قرنين أيضا أخذت البدع والخرافات تنتشر بين أهله حتى انحطوا كما انحطت النصرانية قبلهم والبوذية من قبل الطائفتين • ولقد دخل الاعتقاد بألوهية أفراد من النوع الانسانى كما حصل زمن سيدنا على كرم الله وجهه إذ أعلن جماعة أنهم يعبدونه إلها فقام هو وحاربهم وأخذت هذه الفكرة بعد انقراضهم تظهر حينا بعد حين ومن قرأ كتاب (الملل والنحل) للشهرستانى يعجب كيف يكون فى أمتنا من الخرافات والدسائس الحقيرة السافلة التى ترمى الى التسلط على عقول المسلمين مايضارع مافعله النصارى والبوذيون قبلهم وكذلك كتاب ﴿ الفرق بين الفرق ﴾ واذا تركنا أصحاب تلك القرون جانبا وأخذنا فى دراسة أهل السنة والشيعة المعتدلين رأينا أمورا محزنة • اننا وان لم نعبد الأصنام التى تقيد العقل وتوقف الذهن قد وقفت عقولنا على بعض القشور الدينية وتركنا الحقائق وجوهر العلوم والدين فرجعنا القهقرى وأخذت الأمم حولنا تحقرنا فلحقنا بأمة الهند القديمة • إذن نحن المسلمين جئنا الى الأرض و بسبب تعاليمنا أعتقت أوروبا واليابان وأمريكا لأنهم تخلصوا من تعاليم رؤساء دينهم وأصبحوا أحرارا يسعدون فى الدنيا بنعم ربهم • أما نحن الذين انتشر على يدنا عتق الأمم من الذل فاننا وضعنا أغلالهم القديمة فى أعناقنا • فهم بعلمنا أعتقوا ونحن بجهلهم تمسكنا فكان ذلنا وأصبحنا فى سجن وفى عذاب الهون • فلما سمع ذلك صاحبى قال هذا حسن ولكن هل هذه الآراء يعرفها علماء أوروبا مثلنا • قلت ألم أقل لك ان هذا منقول عنهم وان شئت فارجع الى ماتقدم فى سورة التوبة • فقال قد تقدم أنك قلت ان الروح شعاع من الله وهل أنت توافق على هذا • فقلت أما أنا فانى لا أوافق على هذه الكلمة الموهمة وأن الذى أعتقده اعتقادا حقا أن الروح أمر الى الآن لم يعرفه أحد • ومن عجب أن علماء الأرواح قالوا هذا القول بعينه • فعلم الأرواح المنتشر الآن يقول كما جاء فى نص القرآن ان أمر الروح مجهول أما كونها شعاعا من الله فهو فيه معنى الوثنية لأن الله لايرى ولاشعاع له ينظر لنا لأنه لايرى البتة إلا اذا أصبحنا فى عوالم أخرى كما تقدم فى سورة الأنفال فى أوائلها • قال أنت نقلت عنهم أن العالم عندهم مركب من ﴿ ثلاث ﴾ مادة ونفس وروح • فما معنى هذا • قلت لا احب الاطالة فى ذلك ولكن القوم رأوا أن الانسان أشبه بالعالم الكبير • فكما أن الانسان مركب من جسم ونفس وعقل • هكذا هذا العالم وهذا جاء عندهم بقياس التمثيل • واذا كان هذا ليس راجعا إلا للعالم فهو أمر علمى يحتاج للبحث فأما الأقانيم الثلاثة التى ترجع لخالق العالم التى قالها الهنود وتبعهم المسيحيون فان الاسلام أول من هدمها وهكذا علم الأرواح قد سخر منها وانظر هذا المقال فى سورة التوبة فى مشاهدات (عمانوئيل) إذ قال ان المسيحيين حين يموتون يبحثون عن الآلهة الثلاثة فلايجدون غير واحد • فانظر كيف ذكر هناك أن المسيحيين مخطئون معذبون وهو من خواصهم • فقال لقد جاء فى هذه الآيات من آخر سورة ابراهيم ست مسائل (١) اضلال الأصنام (٢) واقامة الصلاة (٣) وقوله — مهطعين مقنعى رؤسهم لايرتد اليهم طرفهم — (٤) — وأفئدتهم هواء — (٥) وكون المجرمين مقرنين فى الأصفاد (٦) وكون — سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار — فأرجو ايضاح هذا المقام • فقلت أما اضلال الأصنام فقد شرحته الآن فى هذا

المقام . فقال نعم حسبي . فقلت وأما اقامة الصلاة فاعلم أن الصلاة تقام لذكر الله . ولاجرم أن الله عزّ وجل هو المدبر للعالم الذى ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم وكل شئ يسبح بحمده فعبادة الأصنام تحبس النفس على شئ خاص . أما الصلاة فلخصها أن الانسان يحمد رب العوالم كلها ويطلب منه الهداية ومن قرا هذا التفسير أدرك أن الصلاة كتاب يقرأ كل وقت ليذكر الناس بالعبادة العامة وذكر الله عند كل حجر وشجر وهذا قوله تعالى — فأينما تولوا فثم وجه الله — فالمسلمون بعدنا سيعلمون أن القبلة ﴿ قبلتان ﴾ قبلة الصلاة لعموم المسلمين لتحفظ وحدتهم وتذكرهم بربهم وهى الكعبة . والقبلة الثانية هى هذا الوجود كله فيتفكر المسلم بقلبه فى جمال الزهر والنجم والشجر والبحر والجبل . وسيعلم المسلمون أنهم اذا صلوا وانتشروا فى الأرض انما يبتغون من فضل الله معاشهم وعلومهم فى هذه العوالم المشاهدة . فهؤلاء هم الذين على صلاتهم دائمون . إن من قرأ هذا التفسير يرى ويعلم حق العلم أن المؤمن كل المؤمن من يأخذ لبه هذا الوجود ويعرف الحكم العجيبة فهذا لاتلهيه تجارة ولابيع عن ذكر الله . وكيف يلهيه ذلك وهو أينما توجه فانه يرى بهجة وجمالا فى البر والبحر والشجر والحجر والمدر تذكره بربه وهذا هو القرب . وأى سعادة أرفع من هذه . يكون المسلم فى حقله ويجد فى الشجر جمال ربه ومستحيل أن يكون هذا إلا بالعلوم كما بيناه آنفا . إن المسلم فى الأعصر التى بعدنا اذا قرأ قصة سيدنا موسى وانه سار بأهله فى جهة طورسيناء وقد فارق شعيبا وأخذ زوجته معه وآنس نارا — فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا الخ —

سيجد المسلم بعدنا أن هذه القصة أنزلت لتعليمنا . يقول الله لنا ان موسى كان عند شعيب ولكنه لما سافر أخذ يتجه بقلبه الى مطلوبه ولم يمنعه الاهتمام بزوجته إذ جاء لها المخاض من أن يكون قلبه متعلقا بالوجهة الالهية فرأى النار تشتعل فى شجرة العليق ونودى ياموسى إنى أنا ربك فهو يريد قبسا من النار ليدفئ زوجته المسكينة الفريدة وقلبه يريد نورا إلهيا فرأى النور الالهى . هكذا يكون المسلم بعدنا يدرس الوجود كله من علم الطبيعة والفلك . فهذا كله للامور الدنيوية وهو نفسه لمعرفة الله تعالى بل للانس به بل للسعادة والبهجة والحبور . أضاء النور فى شجرة العليق أمام موسى عليه السلام . وهكذا نور العلم والمعرفة يشرق فى كل شجر وكوكب وحجر وبحر وبر هذا هو الذى سيفهمه المسلمون بعدنا فتكون العلوم كلها للدنيا والأخرى فالله تجلى فيها والحياة الدنيا بها . إذن يصطاد المسلمون طيرين بحجر واحد وهذا قوله تعالى — وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين — فهذا هو العمل المزدوج الذى جمع الدنيا والدين معا وقد تكفل به القرآن وظهر فى أمثال هذا التفسير . وأما كونهم — مهطعين مقنعى رؤسهم لايرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء — فهذا نظير ما كانوا عليه فى الدنيا فان أكثر الناس فى الدنيا تأسرهم المادة ويستحوذ عليهم الغم والهم والحزن على مافاتهم أو الفخر بما آتاهم . فأما أجسامهم ففى نصب وتعب . وأما عقولهم فهى خاوية من العلم والحياة الجميلة . وهذا شأن كثير من نوع الانسان . إن مسه الشر جزوع . وان مسه الخير منوع فالطائفتان فى ذل وهوان من جزع وحرص . وأما كون المجرمين مقرنين فى الأصفاد فهذا أيضا ما كان حاصلا لهم فى الدنيا فان أكثر الناس مصفدون الآن فى شهواتهم وعداواتهم وجشعهم وحرصهم وطمعهم قد ملك عليهم سمعهم وأبصارهم تراه قد غابت عنك جميع قواه العقلية لشهوة غلبت أوالطمع أوالحقد أو نحوها . فهذه أصفاد أشد ألف مرة من الأصفاد المحسوسة . إن الناس مصفدين وهم لايعلمون ولايشعرون . ومن أكثر مصائب هذا الانسان أنه مسجون ولايعلم أنه مسجون . محقور ولايعلم أنه محقور . ذلك بسبب الجهل العام فجاءت الديانات ففشت فيها الخرافات والأوهام أيضا . وأما كون — سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار — فهذا أشق مما هو حاصل فى الدنيا كسوابقه لأن اشتعال نار العداوات وقطران الغموم لأجل الحسد والحقد وما شاكلهما والاطماع التى لاسبب لها إلا الجهل هو نفسه الذى ينقلب نارا تلظى فى القلوب

والأجسام والوجوه

اذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى بعد ذلك كله — ليجزى الله كل نفس ما كسبت — هذا هو المعنى بحسب عقولنا نحن فى الأرض فلم تكن السرابيل من القطران ولا النار المغشية للوجوه ولا الأصفاد ولا الأغلال إلا نفس ما كانوا عليه فى الدنيا قد انقلب بهذه الصورة فهم مصفدون الآن محترقون بنيران ليلا ونهارا وهم لايشعرون . ولقد ورد فى بعض الآثار أن المتكبرين يخلقون يوم القيامة كالذر تطؤهم الأقدام . فالكبر واحتقار الناس والانفراد عنهم بالقلب هو الذى انقلب فى الآخرة الى صورة الحشرة التى لايألفها الناس ولاتألفهم بل يدوسونها بأقدامهم بل جاء فى كتاب ﴿ الحسبة فى الاسلام ﴾ مانصه

وفى الحديث ﴿ يحشر الجبارون والمتكبرون على صور الذر يطؤهم الناس بأرجلهم ﴾ فى صفحة ٢٧٠ طبع عيسى بن رميح من أهالى نجد

فقال صاحبى ماذا تقول فى قوله تعالى — يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها — . قلت له إن الناس فى الدنيا يطلبون الخير ولكن الخير نفسه يحبسهم كمثل دودة الحرير تغزله ثم تموت فيه تريد أن تخرج فلاتقدر . قال أوضح هذا المقام . قلت إن هذا يوضحه جسم الانسان الذى هو كتاب مفتوح . قال وكيف ذلك . قلت له ﴿ ثلاث طبقات ﴾ وهى الرأس والصدر والبطن . وفيها (١) العقل (٢) القلب (٣) البطن والفرج . ولكل من هذه الثلاثة فضائل ورذائل قد تقدمت فى سورة آل عمران عند قوله تعالى — هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء — فللقوة العاقلة رذائل كالحمق والسفه وبقوة الغضب المسلطة على دم القلب بالغليان يحصل الغضب والذم والحقد وهكذا والشهوة المسلطة على البطن والفرج رذائل مثل الحرص والادخار وهكذا . إن الانسان يملك المال فيملكه المال إذ يطمع فى غيره ويحرص عليه فما مثله إلا كمثل السمك يود لو يدخل فى الحوض الذى بجانب البحر المعد لصيده حتى اذا دخله لم يقدر على التخلص منه فالانسان يتعاطى الطعام لبقائه وشهوة الفرج ليبقى له نسل بعد موته يحمل صورته التى هى ظل لوجوده وبقوة الغضب المهيجة للدم الذى يديره القلب يدافع العدو الداخلى فى أمته والخارجى عنها محافظة على شخصه بالأولى وعلى أمته بالثانية وقواه العاقلة تدبر الامور كلها الشهوية والغضبية . فقال صاحبى اذا جعلت هذه الشهوات كلها أغلالا وأصفادا فأين أصفاد العقل وما الذى وقع فيه المسلمون منها . قلت إن أصفاد العقل أصعب مراسا وأقوى وأشد . قال أوضح ماتقول وأرجو أن توجزه . فقلت ان المسلمين أقرب الى الفضائل وأبعد عن الرذائل وما أوقعهم فى الذل إلا اصفاد العقل واغلاله . ألا ترى أنهم عكفوا على قشور العلوم وتركوا مواهبهم . فترى الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والامامية والزيدية والشيعة وجميع فرق المسلمين أصبحوا أسرى التقليد لأقوال الأئمة رضوان الله عليهم ولكنهم لايتزحزحون عنها قيد أنملة . فقال أتريد أن يترك الناس المذاهب . ان هذا يناقض كل هذا التفسير . قلت كلا ثم كلا بل أقول ان الأئمة رحمهم الله وكتب السلف والخلف بمثابة لبن الأم فاذا ترعرع الطفل و بلغ سن الفطام حتم عليه أن يأكل من نبات الأرض وحيوانها . فما مثل المسلمين مع أئمتهم ومشايخ طرقهم إلا كمثل الأبناء مع أمهم فانهم يرضعون لسن معلومة . فاذا بلغ الطفل منهم سن الرضاع فعلى مربيته أن تمنعه الرضاعة . فاذا قرأ المسلمون المذاهب الشائعة فى الاسلام وقرأ تلميذ الصوفى أوراد شيخه اكتفى كل من هؤلاء بذلك فهؤلاء أطفال رضع وهل الأئمة حصروهم فى هذه العلوم وهل أحد منهم قال ان هذا هو كل دين الاسلام . كلا ثم كلا وانما هى أحكام لامور تقع بين الناس ولبعض الواجبات . أما بقية الدين فهو باق بحاله كالاعتبار بتاريخ الأمم والتذكير بأيام الله وجميع العلوم الفلكية والطبيعية والأخلاقية فهذه هى الدين وهى متروكة . ألاترى ماذكرته لك من أن موسى نزل عليه الوحى بعد مافارق شعيبا . فقال نعم أنا كنت أريد أن أسألك عن هذا . فقلت إن هذه

درس لنا كأن الله يقول لنا أيها المسلمون هذا نبيّ أيدته بالوحى ولم أنزل الوحى عليه إلا لما انفرد فى طور سيناء فليس تحت نظر شعيب • هكذا لايجوز لشيوخ الطرق ولا لعلماء الدين أن يفهموا الطالب أنه دائما محتاج اليهم بل لابدّ أن يطلقوا لهم الحرية فيرتقوا وعلى ذلك يجب أن تؤلف كتب جديدة فى كل جيل وقبيل وأن تجعل الكتب القديمة لمجرّد المراجعة وعلى المسلمين فى أقطار الاسلام أن يكون لهم مجلس علم يتبادلون فيه الآراء وهذا المجلس يكون أهله مطلعين على سائر العلوم كرجال أوروبا وبيدهم شهادات عالية فهؤلاء هم الذين ينظرون فى نفس المذاهب وفى طرق الصوفية وغيرها • هذا هوالذى به تكسر الأغلال من أعناق المسلمين وتفك الأصفاد عنهم ويخرجون من نار الذل وعذاب الجهل • هذا مافتح الله به والحمد لله ربّ العالمين • انتهى

﴿ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى أيضا ـ واجنبنى و بنيّ أن نعبد الأصنام * ربّ انهنّ أضللن كثيرا من الناس الخ ـ ﴾

يدعو ابراهيم الخليل ربه أن يجنبه عبادة الأصنام لأنها أضلت كثيرا من الناس • فعبادة الأصنام مبغضة لماذا • لأنها تضل كثيرا من الناس • إذن الضلال هوالذى يجتنب وكل ماسبب الضلال فهو مبغض • إذن دين الله يجب أن يجتنب فيه كل مايورث الضلال • إن الأصنام قد تقدّم الكلام عليها فى قوله تعالى ـ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ـ فقد جاء هناك ذكر الاهرام الثلاثة بمصر لأنها بنيت مقابر وعرة المسالك ضيقة الطرق لتبقى الجثث وتكون آية للناس • فمن آيات الله فى الاهرام اننا نلاحظ أنهم كانوا يرسمونها على الأحجار ومعها نجم الشعرى المقدّس عندهم للتبرك بها و يضعون هذا وهذا مع الميت

إن عبادة الأصنام فيها الضلال من وجهين وجه علمى ووجه اجتماعى • أما الوجه العلمى فان عابد الصنم يترك جمال الوجود ولايرى كمالا إلا فى معبوده وهذا حصر للفكر الذى خلق قابلا لكل كمال • فأما الوجه الاجتماعى فان السدنة والقائمين بأمر الصنم وماحوله يكون التقديس راجعا اليهم محصورا فيهم كأنهم خلفاؤه وهذا يقعد بهمم الشعب عن المعالى كما اتفق لقدماء المصريين الذين كان العلم غالبا محصورا فى كهنتهم والشعب كان خاضعا وزمام الحكم بأيدى هؤلاء القادة فالوجه الأوّل حصر العلم والوجه الثانى حصر القيادة فى طائفة خاصة • أما الاسلام فقد جاء لشيوع العلم ويكون الفؤاد حسب الاستعداد • ولما كان ديننا دين علم كان أوّل مانزل قوله تعالى ـ اقرأ باسم ربك الخ ـ لذلك شرع ﷺ يأمر بتعليم القراءة والكتابة بعد أيام الهجرة

أيها المسلمون لم تفعلوا مافعل نبينا ﷺ هوأراد تعميم التعليم ولكن أنتم لم تفعلوا وهو أرسل رحمة للعالمين ولذلك انتقلت الفكرة الى أوروبا فأتموا ماابتدأه المسلمون وعمموا التعليم اجباريا • أفليس من الضلال ترك الشعوب الاسلامية بلاتعميم تعليم • أليس أيها المسلمون ترك تعميم التعليم ضلالا كالضلال الناتج من عبادة الأصنام • رحماك اللهم ماعرف المسلمون قدر الاسلام ولاقدر القرآن

أيها المسلمون • أيها الامامية • أيها الزيدية • أيها الشيعة • أيها السنيون • إنى أقرأ عليكم قوله تعالى ـ ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولاتكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم ـ الى قوله ـ كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر الخ ـ يأمرنا أن تكون منا أمّة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ثم يقول لاتكونوا كالأمم التى تفرّقت ثم يعدنا بقوله ـ كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ـ أمرنا الله بأن نتصف بهذا الكمال وأمرنا بالاحتراس من التفرّق و بشرنا أننا سنكون متصفين بهذه الصفات التى هى صفات خير الأمم

وهاأناذا أيها المسلمون أنظر فى أمرنا . ها أناذا فى البلاد المصريه وجدت فى القرن الرابع عشر وآخر ماقبله فوجدت الأمّة متفرّقة وان تقاربت ديارها متباعدة وان اقترب دينها متشاكسة غير متجانسة وان اتحد دينها . ياليت شعرى أما قرأتم هذه الآيات . أين الجماعة الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكرفيكم . أيها المسلمون أوليس من المؤلم لى ولكل عاقل أن هذه الأمّة اختصت فى أيامنا هذه أن علماءها يجهل بعضهم بعضا وكتب الشيعة مجهولة عند أهل السنة والعكس بالعكس أمة متقاطعة . كان للسابقين عذر فى التقاطع لامور حاصلة فى زمانهم فأىّ عذر لنا الآن

أيها المسلمون . إن الزمان قد استدار واستيقظ أهل الصين واليابان شرقا واستيقظ أهل أوروبا غربا أمم ودول وممالك وأنتم بينهم فوالله لئن لم يقم فيكم حكماء وعلماء يجمعون شمل التعليم والتربية بينكم ليحصدنكم الله من أرضه حصدا وليذيقنكم العذاب الهون بما كنتم تجهلون

﴿ حكاية مع العلامة (دوارد براون) الانجليزى ﴾

حدّثنى العلامة (دوارد براون) الانجليزى المستشرق الشهير فى أوائل القرن العشرين المسيحى قال وكلت لى الحكومة الانجليزية أمر البحث فى أمّة الاسلام أيمكن اتفاقهم أم هم محكوم عليهم بالتفرّق والانحلال . قال فتوجهت الى بلاد الترك والفرس أيام السلطان عبد الحميد وعاشرت طلبة الفرس وعلماءهم فرأيتهم يكرهون أهل السنة كراهة شديدة وسمعت تلميذا متصوفا يقول لقد حاربت بسيفى مع الروس ضد الترك وانى أفضل الروسى على التركى الكافر لأنه من أهل السنة . قال محدّثى وأنا كنت موقنا أنه ماذبح دجاجة مدّة حياته لأنه جبان وانما الذى أخذته من كلامهم جميعا أن الاتحاد بين الأمّتين مستحيل وكتبت تقريرا للحكومة الانجليزية بهذا . أما هؤلاء فان الغباوة قد ملكتهم وكيف يتذكرون حوادث مضى لها (١٣) قرنا كقتل الحسين وكأمر الخلافة ويتركون الروس يتغلغلون فى بلادهم

هذا ما قاله لى ذلك العلامة . وها أناذا أنصحكم جميعا فاذكر ﴿ أمرين ﴾ طرق التعليم فى بلادالاسلام وبيان الأمّة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

(ا) ليكن التعليم فى ديار الاسلام عاما بين الرجال والنساء والغنى والفقير . إن سبب انتشار التعليم فى العالم كله ديننا كما تقدّم فمن الغباوة والجبن أن ينعم به غيرنا ونعرى منه نحن

(ب) ليكن مبدأ التعليم مماثلا لسير القرآن ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ابتدأ الدعوة بالسور المكية (١٣) سنة وكلها حثّ على النظر فى الشمس والقمر والشجر والنهر والسحاب والمطر والجبل والحجر والحيوان وهكذا . كان الصحابة رضوان الله عليهم حين يسمعون هذا النوع من العلم ينظرون هذه المخلوقات بأنفسهم لأنهم أقرب الى الخلاء والجبال فى أسفارهم وحضرهم فلترسم أحاسن الصور الجميلة من نبات وحيوان وكوكب فى الكتب لتكون مشوّقة لهم فلاتكون قراءة بعض آى القرآن حفظا بلا عقل ولافهم ولاهدى ولانور . وبالجملة ليكن تعليم الناشئة شاملا لجمال الطبيعة كلها اجمالا وللأخلاق بطريق القدوة الحسنة وقراءة الآيات وفى القرآن من النوع الأوّل (٧٥٠) ومن الثانى مثله

(ج) فى ظنى أن (٢٣) سنة كافية لتعليم المسلم كل مايحتاج اليه . إن النبى ﷺ دعا (٢٣) سنة وكما كان يدعو أوّلا للعلوم والأخلاق وآخرا بعد الهجرة للنظام والاجتماع وحفظ الدولة . هكذا يكون تعليم الشبان فيكون فى الصغر تشويق لهذا الجمال المحيط بنا فى الأرض وفى السماء وفى آخر التعليم الاختصاص بفن من الفنون لمنفعة الأمّة كهندسة أوزراعة أوتجارة أوسياسة أوفقه وهكذا . فاذا أضيف اليها (٧) سنين التى هى مدّة الطفولة كان تمام التعليم فى سنّ (٣٠) سنة

بهذا نكون مماثلين للأمم حولنا . انهم يقرؤن كل العلوم التى أمر بالنظر فيها القرآن . إن تلك

العلوم أساس لديننا خلافا لما كان يقوله القدماء انها ضد الدين . هذا خطأ اليوم لأن الذى هو ضد الدين العلوم المشحونة بالكفريات . أما علم الطبيعة والرياضة والفلك وماوراء الطبيعة فهى علوم القرآن فليتعلم المسلمون كما تعلم الأمم التى أخذت العلوم عنا فنحن أولى أن نقودهم لا أنهم يقودوننا

(د) ليدرس القرآن بطريق مشوّق بحيث يعرف الطالب خلاصة السور وخلاصة القرآن كله مع السهولة ثم سيرة النبي ﷺ ومجالسه وصور أحكامه وأعماله وأعمال أصحابه ثم ينظر الطالب علم الفقه نظرا عاما مع ملاحظة خلاف الأئمة كيف اختلفوا فى أهم المسائل ومن أىّ طرق اختلفوا ليكون ذلك نبراسا به يهتدون فى درس الحياة الدنيا التى نحن فيها

(هـ) هنالك يتخرج فى بلاد الاسلام من الشيعة والسنية رجال متبحرون فى العلوم وفى الدنيا وهؤلاء يكونون مجتهدين

(و) ثم لينتخب كل قطر من أقطار الاسلام جماعة وهؤلاء جميعهم يجتمعون بمكة لينظروا فى شؤن الأمّة كلها فهؤلاء هم الأمّة التى قال الله فيها ـ ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ـ وهم هم الذين يمنعون التفرق بعلمهم وهم هم الذين تكون بهم الأمّة ـ خير أمة أخرجت للناس ـ أما اليوم فاننا لسنا الأمّة التى هى ـ خير أمة أخرجت للناس ـ والقرآن حقّ فلابدّ من تحقيق مقصوده والعمل بأوامره ونواهيه

(ز) بهذا أيها المسلمون تكونون ـ خيرأمّة أخرجت للناس ـ أماالآن فانكم متفرّقون متشاكسون مختلفون متباعدون أنتم اليوم طحين لرحى يكتنفكم من الشرق الصين واليابان ومن الغرب دول أوروبا ان لم تقوموا بما ذكرته لكم فأنتم أوّل مضغة يمضغها الاوروبى والاسيوى

(ح) إن المتعلم على الشريطة التى بينتها لا يكون متعصبا لمذهبه بل يكون متعصبا لنفس الاسلام . الاسلام اليوم أكثر أهله جامدون وبالجمود تفرّقوا وانحصر همّ كل طائفة فيما قرأته من المذاهب فأنتم إذن متفرّقون والله يقول ـ ولاتفرّقوا ـ

أيها المسلمون . أنتم متفرّقون إذن . أنتم مخالفون لكتاب الله . أنتم متقاطعون . إن أوروبا المسيحية متآلفون مع اختلافهم . متعاضدون مع تباعدهم . أما أنتم فالأمر بالعكس . فالطائفة التى أشرت لها هى التى تجمعكم بعد التفرّق . نعم قام فينا الوهابية الذين يملكون الحجاز ونجدا الآن وهى وان أزالت الخرافات فقد وجب عليها أن تنظر فى مثل مانظرناه ألا وهى مناظر هذه الدنيا وعجائبها

إن الوهابية برعوا فى القسم السلبى من الاسلام ولكنهم لم يراعوا القسم الايجابى منه أى انهم حصروا همهم فيما ذكره العلامة ابن تيمية وفاتهم أن العلم أوسع وأوسع . إن فى القرآن (٧٥٠) آية تحثّ على النظر فى علوم الأرض والسماء وهذه العلوم لا يكفى النظر بالعين لها كما لم يكتف أحد من أمم الاسلام فى أركان الاسلام الخمس بمجرد التلاوة بل ألفوا جميعا كتبا فيها . فلماذا يؤلف المسلمون فى الفقهيات ولايؤلفون فى عجائب الكائنات . هذا النقص لم يترك أمة من أمم الاسلام قديمها وحديثها والوهابية وان أصلحوا القسم السلبى فهم نائمون عن القسم الايجابى نجحوا فى ترك الخرافات ولم يفكروا مطلقا فى معرفة جمال الله

(ط) اللهم إنى نصحت لأمّتى وبذلت جهدى فى النصيحة ولم أكن فى ذلك متكلفا وانما أكتب باعانتك وتسهيلك السبيل لى . وعلى القارئ لهذا الكتاب التبعة اذا قصر فى النشر والتعليم والتربية . إن هذا المبدأ هوالذى به ترقى أمة الاسلام . هذه الأمّة التى جعلها الله ـ خير أمة أخرجت للناس ـ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . هذه الأمة التى جاءت فكسرت الأصنام وأعطت العالم ﴿درسين﴾ درس تعميم التعليم ودرس عدم الاستبداد بحيث يكون النوع الانسانى كله حرا وتكون الرئاسة تبع البسطة فى العلم

والجسم لا بالنسب ولا بالحسب كما كان يفعل قدماء المصريين وغيرهم والله هو الولىّ الحيد

(ى) فمن ذا الذى يقوم بهذا الأمر فى الاسلام . إن أوّل أمّة تقوم بهذا فى الاسلام وأوّل ملك أو رئيس جمهورية يقوم بهذا العمل هو المجدّد للاسلام وهو القائم مقام النبى ﷺ وهو الفاتح الأعظم . يامعاشر المسلمين اذا قامت فيكم أمّة بهذا وسبقت غيرها وجب عليها أن تنصح اخوانها بهذا والا حار بتها على ذلك حتى تخضع

إن الزمان قد استدار . واذا كان من قبلنا لايهتمون بهذا فنحن نهتمّ به . إن المسلمين لم يكن هناك قديما أمم تناوئهم . أما الآن فالأمم شرقا وغربا تحيط بهم ـ والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ ـ وقال تعالى ـ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون * وستردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ـ اهـ

(ك) يا الله إنى قرأت آيتين فى القرآن كتابك ﴿ احداهما ﴾ للعموم وهى ـ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ ﴿ وثانيتهما ﴾ للمسلمين وهى قوله تعالى ـ انما المؤمنون إخوة ـ ومثلها ـ ولاتنازعوا فتفشلوا ـ ومثلها ـ واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرّقوا ـ

وهاأنا ذا ألفت كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ لأجل أولاهما ونشرفى الشرق والغرب . هذا الكتاب لاصلاح نوع الانسان كله وتعاونه كما نصحت فى كتابك وانى أحدك أن أهل أوروبا قابلوه بالقبول وكتب عنه علماؤها فى ايطاليا وفرنسا وغيرها وستراه أيها القارئ فى سورة الحجرات ملخصا بأقلام علماء أوروبا مترجما

أما الأمم الاسلامية فهذا هو تفسير القرآن فهل من ممتثل وهل من مجيب لى . يا أمّة الاسلام أوروبا المسيحية قرأت دعوتى للاتحاد ولايدرى ماذا يصنع الله بها فماذا أنتم صانعون فى دعوتى هذه اليكم للتعليم العام والنظام التام . ولست أقول إلا ماقاله الله تعالى ـ فان تولوا فقل حسبى الله لاإله إلا هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم ـ اهـ

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى ـ يوم تبدّل الأرض غيرالأرض والسموات ـ ﴾

(آراء قدماء الهند فى أدوار هذا العالم)

إن هذه الآيات تفتح بابا لمجال الفكر والنظر وتذكرنا بما تقوله الأمم حولنا . ان هذه الأرض التى نعيش عليها مرّت بها أمم وأجيال وعلماء ولهم آراء فى هذا الوجود . فترى الانسان متى فكر فى هذه الدنيا يقول فى نفسه متى خلقت ومن أين خلقت وماذا يكون بعد هذا الوجود . هذا سؤال يسأله الناس ولامجيب . أرض وسماء وأحياء وأموات . الى متى هذه الحال . وكيف خلق العالم و بعد ذلك ماذا يكون . وهل للأرض آخر . وهل للكواكب نهاية وماعددها . أما سؤال الأرض وهل لها آخر فقد أصبح معلوما ولكنها أيضا لاتزال لغزا فترى الناس يسارعون الى القطبين ليدرسوهما والى البحار والجبال ليكشفوهما

إن الانسان خلق مغرما بالعلم والحكمة لايفتأ يجدّ ولايقف فى السؤال عند حدّ و يظهر أن عقله قد صيغ من النور وخلق من الجمال فانا لانرى للنور آخرا . هكذا لانرى لعقولنا نهاية ولالبحثها غاية . فطرة الله التى فطر الناس عليها فهى فطرة نورية . الله لانهاية له وعقولنا تريد أن تسير الى مالانهاية له . إذن هى من نور أشرف من ذلك الجمال الأكمل والجناب الأقدس فهى تستوفز الى كل جديد وتفرح بكل رأى سديد وعمل شريف وحكم منيف حتى انك ترى رجال السياسة يكذبون ليكلموا الناس بما أحبته فطرهم فيقولون نحن نحب ترقية الشعوب والانسانية وهم يعلمون أنهم كاذبون ولكن يريدون أن يسمعوا الناس النغمة التى تحبها فطرهم فهو باطل أشبه الحق . وملخص هذا أن عقولنا لانهاية لمقاصدها فهى تريد أن تعلم كل شئ ولاتقف عند حدّ . ولما كان الله هو الذى خلقنا وهو يعلم عقولنا وانها تسأل عن الماضى والمستقبل أجاب نداء ضمائرنا فقال مرة ـ كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا ـ وقال هنا ـ يوم تبدّل الأرض غيرالأرض

والسموات ـ فاذن هو يصنع فى السموات والأرض مايصنع بالنبات والحيوان والانسان يموت الأبوان و يبقى الأبناء كما تبدّل سماء بسماء وأرض بأرض

هذا هوالذى جاء فى القرآن وأيده الكشف الحديث كما عرفت هنا فأصبح الناس يدرسون النجوم من أنوارها وبتحليل تلك الأنوار نراها تدل على عناصر كالتى فى أرضنا . إذن هى مركبة والمركب من شئ ينحل اليه . وهكذا رأوا شموسا ابتدأت تتكوّن وأخرى قربت أن يتم تكوينها . هـذا هوالكشف الحديث وهودلّ على ما كانت عليه أرضنا وكوا كبنا قبل هذا الوجود . إذن أصبح خلق العوالم فى الدهور أشبه بخلق الليل والنهار كل منهما يتبع صاحبه فلولا هذه الغريزة فينا مابحث أحد عن هذه العجائب وسواء أكان هذا الاستنتاج من الانسان صادقا أم مشكوكا فيه قد فعل مايوافق طبعه على مقدار طاقته ولايكلف بغير ذلك فى فطرته هذا هوالقرآن وهذا هوالعلم اليوم

﴿ علماء الهند ﴾

ولما حامت هذه الآراء فى عقول الأجيال القديمة بحثوها وعرفوا منها مالم تبق لنا الأيام إلا قليلا منها . فانظر فيما سأقصه عليك . ذلك أنهم سموا المعبود (برهما) وهويدبر العالم مع آخر يسمى (فشنو) وآخر يسمى (سيفا) فبرهما الخالق وفشنو الحافظ وسيفا الذى يفنى و يعيد . ويظهرأن هذه الصفات كلهالواحد تعدّدت صفاته فهوخالق وحافظ ومعيد بعد الفناء . ثم انهم وصفوا الخالق بوصف جعلوه أشبه بالروايات التى يقرؤها الناس لحكمها وهى هذه

﴿ برهما وجد قبل الخلائق ورفع الأرض من الماء وعمره مائة سنة وكل سنة من سنيه تكون أيامها ولياليها من أزمان طويلة بحيث يكون كل نهار وكل ليلة (٤٣٢٠) ألف ألف سنة من سنينا هذه وفى آخر كل نهار ينتهى عالم من عوالمنا ويستريح الرب ليلة ثم ينشئ عالما آخر وهكذا ﴾ ولست أقول لك ان هـذا يناسب صفات الرب . كلا لأن ذكر الاستراحة وذكر عمره . كل ذلك تعليم للجهال والا فالله لايتعب حتى يستريح ولا أوّل له حتى يكون سنه مائة سنة . ولكن المهم أن القوم فى أثناء خيالهم الذى هو فى الحقيقة معبر عن الغريزة الانسانية المغرمة بالوقوف على الحقائق على مقدار طاقتها أدركوا اجمالا مافى العلم الحديث وما أشار له القرآن . ان علماء العصر الحاضر جعلوا لنفس الأرض عمرا قدره مئات آلاف الآلاف فهو يناسب تعبير قدماء الهند . هكذا جعلوا أن العالم يتكوّن و يبقى آلاف آلاف الآلاف . وهذا يناسب مايقوله علماء العصر الحاضر ثم تراهم يعبرون بمدّة الراحة وهى التى سموها ليلا عن مدّة بقاء العوالم فى عالم الأثير بعد الخراب حتى تتكوّن ثانيا وتستحق أن تدور وتجرى فهى أزمان متطاولة كأزمان دوراتها فانظر اذا كان فى خيالهم أن سيرها مضت له مائة سنة والسنة الواحدة مركبة من ٣٦٥ يوما واليوم الواحد مئات آلاف آلاف من سنينا يعيش فيه عالم ثم ينطفى فى زمان يساوى الزمان الذى سموه نهارا فياليت شعرى كم من عوالم انطوت وعوالم ستأتى بعد عالمنا . ان العقل ليقف مكتوفا أمام خيال الهند وأمام ظنون علماء العصر الحاضر الموافق له . كل ذلك فتح باب قوله تعالى ـ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ـ إن هذا يزهدنا فى هـذا الوجود إذ لامعنى لحبّ مالا بقاء له . كواكب لاتدوم وأرض لاتدوم وشموس وأقمار لاتدوم بل هى تطوى كطى السجل للكتب ولايبقى إلا صانعها ومحركها ومنظمها ومبدعها * قال الشاعر

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

﴿ تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السابع من كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء الثامن وأوّله تفسير سورة الحجر ﴾

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٧	١١	نمرة ١	نمرة ١ (شكل ١٠)
١٧	١٥	نمرة ٢	نمرة ٢ (شكل ١٠)
٤٦	٦	إلا	لا
٥٢	٨	١٧ ألف	(٧) آلاف
٥٤	٦	فيهنّ	منهنّ
٦١	٤	الرؤيتان	الرؤيبان
٦٢	١	واأكثر	أوأكثر
٦٤	٢١	يسمعن	يعمن
٦٥	١٠	الثانية	الثالثة
٦٦	٣٥	الثالثة	الرابعة
٦٨	٣٢	مغرضا	معرضا
٦٩	٣٣	الرابعة	الخامسة
٧٠	٣٥	أوأسماء	أوسماء
٧٢	٢١	الأرض	الأرض نظرة
٧٣	٣٣	وضاحا	وافيا
٧٦	١٦	وقد يكون تاما	
٧٨	١٩	فلما كان	أقول لما كان
٧٨	٢٥	ومعرفة الله	لمعرفة الله
٨٢	٢٦	البحاو	البحار
٨٧	١٩	البلور	البللور
٨٨	٢٢	تحديها	تحديبها
٩١	١٢	السابع	السابع عشر
٩٥	١٢	ضعيف	حفيف
١٠٥		١٠٥	١١٣
١١٣	٢٠	عن الثانى	عنه
١١٣	٢٠	عما قبله	
١١٨	٨	فى التساوى	فى التساوى ونحوه
١١٨	٣٠	من (٧)	من (٨)
١٢٨	٢١	نوبه	ثوبه

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٣٢	٩	اللذان	اللذين
١٣٥	٢٩	هو لونا نور بالشمس	هو لون نور الشمس
١٤١	٣٤	القطب	
١٤٥	١	وفهل	فهل
١٤٥	٢٤	تجدّ (بفتح التاء)	تجدّ (بضم التاء)
١٥٥	١٩	اهلاك	واهلاك
١٥٦	٩	تحتهم	تحتهما
١٦٠	٢٦	خلقوا	خلق
١٦٣	٣٤	أضراسا	أضراسنا
١٦٩	٢٤	بجابة	بجاية
١٧١	٢	الكردية	الكروية
١٧٢	٢٠	ستراه	تراه
١٨٢	٧	أوأرباع	وأرباع
١٨٤	٧	وجديرا	وجدير
١٩٠	١٢	بعلم	بعلم بوزن مريم
١٩٠	١٥	غرد	غردا
١٩١	٦	المرّد	المرد بوزن النصر
١٩١	١١	تبسم عن المحيا	وتبسم عن المى
١٩٢	٤	سرا	سر
١٩٣	٣٢	لها	له
١٩٥	٣٥	فتخرج	فيتخرج
١٩٨	٢٩	ست تنبيهات	تنبيهات
٢٠٠	٥	سنسيكا	سفيكا
٢٠١	١٠	وتعليما خاصا	والتعليم الخاص
٢١٤	٩	سلكها	نسلكها
٢١٨	١٥	نؤسس	نؤسسها
٢١٩	١٣	القرون	الفرق

فهرست الجزء السابع من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

فالله ضرب الشمس مثلا لنوره

٦٨ (خطاب للمسلمين) • هل يعجبكم أيها المسلمون أن يكون توجهكم بقولكم - وجهت وجهى الخ - توجها مشوبا بالاعراض وهذا يوجب غضب الله • إذن نحن كالكاذبين أوكالساخرين والمستهزئين بآيات الله • إذن الاتجاه لفظى فقط ولوكان معنويا لقرأ المسلمون نظام هذه الدنيا

٦٩ تذكرة بهية فى الخليل وقوله - إنى وجهت وجهى الخ - وهذا المقام كالذى قبله

﴿الجوهرة الخامسة﴾ فى قوله تعالى - إنّ ربى لطيف لما يشاء -

٧٠ الكلام على اللؤلؤ وأنه طبيعى ومولد وصناعى كما تلطف الله فخلق من الكربون والجبر جوهرة جيلة هكذا تلطف فاشتقّ من بلوى يوسف وحسد اخوته ومابعد ذلك ملكا عظيما ونبوّة وسعادة فى الآخرة ومن اللطف الانسانى تأليف الروايات الخيالية الخ

٧١ تلطف الله مع الانسان فجعل عقله يسع المخلوقات تصوّرا وتفكرا وهومشتق من الطين كاشتقاق الجوهرة من فحم وجير وعلى قدر علم الانسان بجمال ربه فى الدنيا تكون رؤيته لربه يوم القيامة والمحروم من المعرفة اليوم محروم هناك من الرؤية • ﴿جوهرة السورة كلها﴾ ليس فى هذه السورة من العناية بالعجائب مثل ما فى السور التى قبلها ولكن فيها سياسة الشخص والمنزل والمدينة وفيها قوله تعالى - وكأين من آية فى السموات والأرض الخ - وهذه يقصد منها النظر فى جميع العلوم

الكلام على الذرّة ومافيها من الأشعة الكثيرة وهى تفنى اذا ظهر منها شعاع مئات من السنين

بيان تقصير المسلمين فى هذه السورة وأن هذه الآية بيت القصيد من سورة يوسف

٧٤ ﴿سورة الرعد﴾ قسمان (القسم الأوّل) من أوّل السورة مشكلا الى قوله - يضرب الله الأمثال - تفسير الكلمات

٧٨ بيان أن ماجاء فى هذه السورة من عجائب السموات والأرض تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى - وكاين من آية الخ - فى آخر سورة يوسف و بيان جميل لهذه الآيات

٨٠ ذكر احدى عشرة لطيفة (اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى - الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها - وفيها جوهرتان ﴿الاولى﴾ موازنة بين وصف العرب ووصف القرآن من كتابى ﴿مذكرات أدبيات اللغة العربية﴾ وذلك من كلام الحارث بن حلزة فى معلقته

﴿الجوهرة الثانية﴾ أشراق النفس • بهجة السماء وجمالها من كتابى ﴿سوانح الجوهرى﴾

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى - ثم استوى على العرش -

(اللطيفة الثالثة) - وفى الأرض قطع متجاورات -

٨٢ لماذا يقيس المسلمون الوجه طولا وعرضا لأنهم أمروا بغسله ولم يبحثوا فى عجائب الأرض التى فيها قطع متجاورات وهم أمروا بالنظر فيها • الجبال إما صخرية أونباتية أونارية أوهوائية • الأنهار منها مايجرى من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال و بالعكس فى الحالين

الكلام على تولد الفيلة والزرافة والسمور والصقور والقطا والحمام والبط والعصفور والنخل والموز والجوز والحلبة والقصب والذهب والفضة والكبريت والجص والزاج والزرنيخ والدرّ والمرجان و بيان أماكنها ومواضع تولدها مثل أن الفيل يتولد فى جزائر بحار خاصة والزرافة فى الحبشة والسمور فى البرارى والقفار والبط على شط النهر والدرّ فى البحر والذهب فى الرمل والجبال الصخرية وهكذا

عجائب هذه الدنيا • الضوء من الأشجار • النبات المضحك

صحيفة

٨٤ الزيت يستخرج من الجراد و يصلح لصعود الطيارات
جوهرة فى قوله تعالى – وفى الأرض قطع متجاورات – وفى قوله – و ينشئ السحاب الثقال – وفى
قوله – جعل فيها زوجين اثنين –
الأجسام امامضيئة وامامظلمة وشفافة وشبيهة بالشفافة وظليلة وهذه كلها فى الأرض والنور امامستطير وامامنعكس
٨٥ الفحم الحجرى والبلور الصخرى والزجاج وهنا صورة أوراق بعض الأنواع التى تكون عنها الفحم الحجرى
٨٦ ومن القطع المتجاورات المسمى عند العامة بالزلط والحصى وهو (الكورس) والرمل و يصنع منه الزجاج
ومنه الصوان وشظف البنادق والبلور الصخرى الذى رسمت صورته هنا وهكذا الكركهان و ياقوت
بوهيم والياقوت الأصفر الهندى . الكلام على الزجاج
٨٧ تاريخ الزجاج وكيف يصنع الزجاج وتحضير الزجاج . البلور . فى النبات زوجان وفى الكهرباء موجب
وسالب وهكذا هنا فى العدسات البلورية المرسومة هنا وهى ست منها (٣) تجمع النور (و٣) تفرقه فهن
زوجان أيضا وما العدسات إلا من الرمل والجير والصودا أونحو ذلك فهى من نتائج القطع المتجاورات
قصر النظر وطوله
٨٩ جمال هذا العالم وفيه ذكر ملخص مامضى . وجوب درس هذه العلوم وذكر ماقاله الامام الغزالى أن
علماء زمانه شر من الشياطين لأنهم أظهروا للناس عدم الاكتراث بنظام الله فى السموات والأرض .
الألوان السبعة لضوء الشمس وهذه الألوان نعرفها باحدى حالين إما بادخال ضوء فى ثقب الخ واما بأن
ننظر قوس قزح وفى هذا المقام رسم الصورتين
٩١ نور الشمس . البخار . السحاب . ابتعاده ابتعادا وسطا . حكمة ذلك ثم هى التى ظهر ضوءها بهيئة
قوس قزح . الآلات البصرية ﴿ ثلاث ﴾ المكرسكوب . التلسكوب . وآلات شتى مكبرة أومصغرة
لم خلق الله الصحراء والأرض القفراء . رأى المؤلف قبل أن يؤلف هذا التفسير ورأيه الآن
٩٢ الصحراء كأنه تنور للأرض العامرة تجفف الهواء كما تنضج النار الخبز ولولاها لم يعش أهل البلاد التى
بجانبها . نهر النيل ونهر الكنج للأول صحراء نفعت مصر وليس للثانى صحراء فكثر الطاعون هناك
لعدم الجفاف
٩٣ لطيفة فى قوله تعالى – يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل – لم يقل يتغذى لعلمه أن
من النبات مالايتغذى إلا من الحيوان فالغذاء ليس واحدا كالماء . النبات إما أن يتغذى بالمواد الأرضية
واما أن يتغذى بنبات آخر واما أن يتغذى من جسم الحيوان
٩٤ وصف النبات المسمى ندى الشمس ذى الورق الملتف له قرون تلتف على الذبابة بالتدريج ثم تتغذى بها
ثم ترجع الى حالها الأولى . هذا اذا وقعت ذبابة أما اذا وضعت قطعة من لحم مثلا فان الانهماك يكون
أقل واذا وضعنا شعرا مثلا يحصل انعطاف ضعيف جدا وافراز كذلك فاذا لمسناه بابرة مثلا فانه لا يكون
هناك أثر البتة . مسألة الكيمياء فى هذا المقام . عند تقريب مادة صالحة كذبابة يفرز النبات مادة
حمضية اذا غمست فيها الورقة الكيمائية احمرت فاذا لم تكن مادة صالحة للأكل لم يلون السائل تلك
الورقة إذن الحمض فيه كالحمض فى المعدة . تفصيل ماتقدم كله مرتبا منظما بايضاح
٩٦ عدد النباتات المفترسة تبلغ مائة ونيفا . (شكل ٦و٧) وفى أحدهما صورة النبات وقد افترس الحشرة
وهى منظورة معلقة به فى نفس الصورة
٩٧ الشكل السابع وفيه ست نباتات وأولها النبات الجزار الذى يبلغ (٣٦) نوعا

صحيفة

٩٨ ايضاح الكلام على هذه الأنواع الست المرسومة وكيف كان بعض النبات المفترس قد أعطى عسلا ليغرى الذباب على أكله وهكذا أعطى لونا جميلا فيدخله الذباب بهذا الاغراء فيجد داخله ناعما أملس فتنزلق أرجله فلا يقدر على الرجوع ثم تعمه المادّة العسلية التى طمع فيها فتسد مسامّه فيصير طعاما هنيئا وهكذا

٩٩ جوهرة فيها ذكر التعجب من أن هذا النبات يحسّ و يتحرّك وأن فيه ﴿ خمسة أسرار ﴾ سرّ قوله تعالى — يسقى بماء واحد — وسرّ لطف الله فى ذلك وسرّ تنوّع الأرزاق وسرّ — مامن دابة إلاهو آخذ بناصيتها — وسرّ أن تحريم اللحم لابرهان عليه

١٠٠ منظر جميل فى قصر منيف وذلك خيال تبدّى للمؤلف إذ تخيل قصرا جميلا بهجا أوصافه أشبه بقصور الجنة الموصوفة فى القرآن والأحاديث وأن شخصا خاطبه قائلا هذا القصر لك ولأمثالك وفسره بأن كل حائط من حوائطه مثال لمعرفة عالم من العوالم المحيطة بكم فى الأرض والأركان بين الحيطان عبارة عن الصلات المعروفة بين النبات والحيوان الخ وهكذا . وذكر ماكان يعرفه القدماء من ذلك وزيادة المتأخرين عليهم فيه . و بيان أن هذا القصر مثال العلوم كلها . و بيان أن هذا القصر مذكور فى سورة الواقعة حيطانه الأربعة إذ جاء فيها ذكر الانسان والحيوان والماء والنار وهذه هى أركان المعرفة كلها ثم زيادة ايضاح لهذه الصور المرسومة و بيان أن هذه العلوم مبادى للجنات الحقة

١٠٥ أسمعت النغمات فى الأحجار كما تسمعها من الأوتار . وذكر أوتار العود (البم والمثلث والمثنى والزير) وهى ٦٤ طاقة و٤٨ و٣٦ و٢٧ على الترتيب باعتبار أن كل واحد مقدار ماهو أقلّ منه ومقدار ثلثه وهذه نسبة فاضلة وهذه النسب الفاضلة بها طرب الناس بسماع العيدان وهكذا يفرحون بالوجوه الجميلة لما فيها من نسب فاضلة وهكذا نظام جسم الانسان كله . النغمات يفهمها العلماء والعامّة والحكمة خاصة بالعلماء ونغماتها أشدّ طربا فهم يطربون لما يرون من ماء ألطف من الأرض نحو (٥) مرات وهواء ألطف من الماء (٨٠٠) مرة وبخار يعلو الهواء وهو ألطف من الماء (١٧٢٨) مرة فهو ترتيب كترتيب أوتار العود اجمالا لاتفصيلا و يرون حجر الملح وحجر الجير والحجر الرملى والرخام والجرانيت والصوّان والزناد مرتبات كل أصلب مما قبله وأقلّ صلابة مما بعده ولها منافع فى حياتنا كمنافع أوتار العود فى آذاننا بل هذه أجل فائدة وأكثر طربا للحكماء لأنهم أعلم بهذا الوجود من علم الجهال بالنغمات الموزونات . شجرة تأكل الناس . ﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ — ولكل قوم هاد —

١١١ ﴿ اللطيفة السادسة ﴾ فى قوله تعالى — وكل شئ عنده بمقدار الخ — . المقدار فى الجسم الانسانى . المحل الهندسى فيه . النظام فى الأحجار الساقطة من أعلى . معرفة عمق الآبار . سقوط الأحجار . مقدار مايقطعه النور فى الثانية . جنة العرفان فى تفسير القرآن . نظام النور والصوت والجاذبية واتفاقها جميعا على قلتها بمقدار مايزيد مربع البعد والكلام على الأجراس الأربعة التى يساويها فى الصوت جرس واحد الخ . رقاصا الساعة اذا قصر أحدهما وطال الآخر الخ نظام الكواكب وتباعد السيارات عن الشمس على هيئة المتوالية الهندسية . وهكذا نرى النسب الهندسية فى حساب السنين البسيطة والكبيسة ونظام الشعر العربى ونسبته الهندسية ونظام الماء الهندسى فى نسبة الاكسوجين الى الادروجين وزنا ونظام النبات فى تركيب عناصره . أشكال الثلج المسدّسة . رسم ١٢ شكلا من أشكال الثلج المسدّسة المرتبة ترتيبا كترتيب السلسلة الحيوانية الادنى يليه الأعلى وهكذا و بيان نظام هذه المسدّسات والمثلثات الداخلة فيها وكيف كانت كل زاوية (٦٠) درجة وكيف رسمها الله فى الجوّ وكيف يستنتج منها مارآه علماء العصر العشرين فى أمر مذهب النشوء والارتقاء والكلام على عدد ٦

صحيفة

وأنه يسمى عددا تاما وهو قليل جدًا فى الأعداد ولذلك أختير فى الثلج وفى عدد الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض اشارة الى الكمال . وعدد (٦) قد ظهر فى ابعاد الكواكب عن الشمس وأن المؤلف يشكر ربه إذ وقف على هذه الحقائق التقريبية . ذكر ﴿ ثلاث زهرات ﴾ تتضمن مباحث علمية ترجع الى الجمال لمناسبة الأشكال الثلجية المسدّسة توضح ماتقدم

١٢٤ الكلام على الجمال الخاص ومعنى التسبيح والتحميد يرجع لفهم العلوم فى هذه الدنيا

١٢٥ فوائد وفكاهات كعرض الأرض وطولها وعمر الأرض وارتفاع الطيارات وعدد سكان الدنيا

﴿ اللطيفة السابعة ﴾ فى قوله ـ له معقبات من بين يديه ومن خلفه ـ وذكر الكرات الحمراء والكرات البيضاء القاتلة للحيوانات الذرّية التى هى من أمر الله والأحاديث الواردة فى ذلك ﴿ يتعاقبون فيكم ملائكة الخ ﴾ وكلام (السرأوليفرلودج) أن هناك عوالم تحيط بنا كما جاء فى الحديث فالعلم الحديث مثل الحديث النبوى الشريف

١٢٨ ﴿ اللطيفة الثامنة والتاسعة ﴾ فى البرق والسحاب والرعد وقوله ـ إنّ الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا بأنفسهم ـ . (التفاؤل والتشاؤم) للكاتب الأمريكانى (أمرسون) وأن الانسان هو الذى يسلط الشؤم على نفسه وهوقادرأن يدخل المسرّة على نفسه ويفهم الحقائق وهذا المقال يوافق معنى التوكل وهكذا مقالة عنوانها ﴿ مخاوفنا وأوهامنا . أسبابهاوعلاجها ﴾ وهاتان المقالتان كافيتان لمن قرأهما وعمل بهما وهما يعينان على فهم التوكل على الله فى الآية وفيهما أبهج آراء النوع الانسانى اليوم فى الأمم وترك الخوف والحزن وادخال السرور والفرح على النفس

١٣٢ الكلام على الرعد والبرق ونحوهما وشرح الكهرباء الموجبة والسالبة والموصل الجيد كالمعادن والموصل الردىء كالهواء وكالبخار الخ . كهربائية الجلد والهواء والغيوم

﴿ اللطيفة العاشرة ﴾ فى الصاعقة . (جوهرة) فى قوله تعالى ـ ويرسل الصواعق الخ ـ

تدرج الحرارة الى ضوء الحمرة وما بعدها الى البنفسجية . الصوت والحرارة والنور تكون الحرارة بالاحتكاك أوالطرق أوالضغط أو بالتفاعل الكيمائى أو بالطبيعة . الحب نظام هذا العالم فترى الاكسوجين يهجم على الاودروجين وذكور الحيوان على الاناث . بهجة الحكمة فى قوله تعالى ـ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ـ ولم سميت السورة بالرعد . تسبيح الرعد وتحميده . بم يكون العلم ماذا يقول الرعد . ستة عشر مليون صاعقة . الرعود والبروق فى العالم وانها مهلكة ونافعة وأن نفعها أكثر من ضرّها وهذا باب من أبواب التسبيح فالله منزّه عن الاضرار بل الضرر جاء غير مقصود لذاته

(اللطيفة الحادية عشرة) ـ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها الخ ـ

(حكاية مصرية فى الظلال) وذكر (أرتوستنس) الفلكى الذى قاس الظل فى الاسكندرية فى وقت الانقلاب الصيفى لعمود مقام فيها وفى نفس الوقت كان العمود المقام فى اسوان لاظلّ له فاستنتج كروية الأرض بشرح يطول فى هذا الكتاب وذكر مباحث الظلال من كتاب المؤلف (نظام العالم والأمم) أعجوبة الظلال وملح الهندسة وكيف كان الظل متسقة أضلاعه الثلاثة و بينها نسب صادقة لأى شجرة وأىّ شاخص فى جميع الكرة الأرضية

١٤٤ (اللطيفة الثانية عشرة) فى قوله تعالى ـ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ـ

نظرة فى الآية من جهة العلم الحديث ومسالة النشوء والارتقاء . حكاية صينية

صحيفة

القرن الرابع عشر بلغت أوجها

١٧٤ ترجمة كتب العرب الى اللغات الاوروبية مثل كتاب الخازن فى علم الضوء ومثل أن كتاب القوانين لابن سينا قد ترجم وطبع مرارا فى أوروبا و بقى هو ومؤلفات الرازى تدرس فى أوروبا ست قرون تقريبا ثم ذكر ملخص ماتقدم

﴿ الفصل التاسع ﴾ فى تفوق أوروبا فى العلوم جميعها بعد آبائنا العرب

١٧٢ علماء القرن السادس عشر والسابع عشر مثل وليم غبرت أنشأ علم الكهربائية الحديثة ومثل (غليلى) بإيطاليا الذى نسبوا له كشف رقاص الساعة ومثل هرفى كاشف دورة الدم

علماء القرن السابع عشر والثامن عشر مثل اسحق نيوتن أكبر علماء الفلك

١٧٣ علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر مثل لافوازيه فى الكيمياء ومثل كولون الكهربائى ومثل فلطا ومثل لامرك . مصباح يشرق على العلوم التى كشفها المسلمون والاوروبيون ومنها الكيمياء وتبيان ذلك بمثال حصد القمح ودرسه وخبزه وهضمه فى المعدة وقد عين فى الجسم لكل عضو ما يناسبه من العناصر الغذائية فلولا تحليل الغذاء الى عناصره فى الجسم ما أمكن تركيبه ثانيا لنمو الجسم و بقائه . هكذا كل العلوم لاتتم إلا بتحليل أصولها ثم السير فى نظرياتها وتتميمها فهى كالكيمياء

١٧٥ ذكر جان شامبليون الذى كشف لغة المصريين القدماء وذكر أن مانيتون يقول ان عدد المؤلفات المنسوبة الى هرمس (٣٥٫٥٢٥) كتابا ومكافأة الملك لويس الثامن عشر شامبليون لكشفه اللغة الهيروغليفية . لوم المؤلف المسلمين على جهلهم بهذه العلوم

١٧٦ جورج ستفنصن الذى أنشأ السكك الحديدية فى العالم وهو عالم انكليزى وفراداى انجليزى أيضا كشف البنزين باستقطاره من الفحم الحجرى . (أوريان لفريبه) الفلكى الفرنسى وهو كشف السيار نبتون

١٧٧ (تشارلس دارون) ومذهبه مكمل لمذهب لامرك الفرنسى وهو أن عالم الأحياء سلسلة واحدة (بوسنغولت) الكيماوى الفرنسوى كشف عناصر النباتات . (ماريه متشل) الفلكية الأمريكية كشفت نجما جديدا من ذوات الأذناب . (شليمن الأثرى الألمانى) كشف خرائب ترواده الخ

١٧٨ بيان أن هذا كله صورة من قوله تعالى ـ وذكرهم بأيام الله ـ وقوله فى آخر السورة ـ هذا بلاغ للناس ـ . ﴿ الفصل العاشر ﴾ فى نتائج جهل المسلمين وغفلتهم والاقتصار على ثلاث حوادث وهى سقوط الدولة العباسية وسقوط الأندلس واحتلال الفرنسيين أوّلا والانجليز ثانيا لبلادنا المصرية . وذكر أن الدولة العباسية جهلت جغرافية بلاد التتر والمغول فانقضوا عليهم كالجراد المنتشر وكانوا أوّلا بهم مستهزئين وقد تخاذل ملوك الأندلس فى أواخر أيامهم وصار كل منهم يلجأ الى من جاورهم من ملوك أسبانيا وانتهى ملك العرب سنة ١٤٩٢ ثم بعد ذلك أخذ أعيان النصارى ينصرون المسلمين ودفع المسلمون ثمانمائة ألف دينار الى الملك فيلبس نخفف عنهم بعض العذاب وطردوا سنة ١٦٠٩ وأما مصر فان الأمراء منهم لما سمعوا بمجيء الفرنسيين الى الاسكندرية سنة ١٢١٣ هجرية اعتمدوا على قوّتهم وقالوا اذا جاءت جميع الافرنج فانهم يدوسونهم بخيلهم ثم ان الحرب لما دارت لم تزد على ثلاثة أرباع الساعة بجوار القاهرة ولما فشا الطاعون أراد الفرنسيون حصره بالحجر الصحى فهرب المسلمون من القاهرة لجهلهم بالامور الصحية . عرابى باشا والشيخ أبوخطوه وقنال السويس والمستر (ابلانت)

١٨٧ الأساطيل الاسلامية وصلت الى مصاب نهر السند وأخذ عبد الله بن عامر بلاد كرمان وسجستان وهددوا ملك الصين فغمرهم بالعطايا وانتشرت اللغة العربية حتى زالت الديانة البوذية . هذا فى الشرق

صحيفة

وأمافى الغرب فانهم توغلوا فى فرنسا وأخذوا (طلوشه) تحت تلك البلاد ثم ارتدوا الى شواطئ نهرالرون والسين . ذكرأن المأمون قاتل الملك (توفيل) ملك القسطنطينية لأنه أبى أن يرسل له العالم (ليون) فوازن بين المأمون و بين يعقوب المنصور الذى طرد ابن رشـد . مدنيـة العرب لم تذهب بذهاب دولهم وذكر أن الأتراك والمغول لما ملكوا البلاد حفظوا مدنية العرب وعلومهم مثـل أن السلطان محمود الغزنوى جعل العلامة البيرونى فى ديوانه وهكذا (هلاكو) أغدق النعم على نصيرالدين الطوسى ثم بعد ذلك رجع العرب الى جزيرتهم ولزم عرب الشأم وتجد عوائد الأجلاف كأنهم نسوا ماً ثرآبائهم ونشاط أهل حضرموت وعمـان والبحرين فى نشرالدين والمعاملات التجارية فى شرق أفريقيا وجزائر بحرالهندالخ . النهى عن عبادة الأصنام وأن كل ماحصرالفكر فهوأشبه بعبادة الأصنام من بعض الوجوه

١٨٣ القلق واضطراب البال وأثرهما فى الصحة والعمل وذكرأن أناسا بسبب القلق قدماتوا فى القرن الأخير فكانوا أكثر من القتلى فى ساحة الوغى . وأن الهمّ يتلف خلايا الدماغ فكأنه مطرقة تمزق أغشيته

١٨٤ الاسراف فى الأمل والرجاء ضد السعادة . الدنيا شبيهة بمرآة تعكس للانسان صورته فان قطب قطبت له وان بش بشت له

١٨٥ ﴿ القسم الثانى ﴾ من قوله تعالى ـ مثل الذين كفروا بربهم ـ الى قوله ـ لظلوم كفار ـ مشكل التفسير اللفظى

١٨٩ تفسيرالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة . وذكر تشبيه الرجل المسلم بالشجرة الطيبة التى هى النخلة الخ وذكرحديث البخارى ومسلم أن العبد اذا وضع فى قبره الخ

١٩٠ موازنة بين كلام العرب وكلام القرآن التشبيه بالشجر والنبات وغيرهما وأن عنترة العبسى يشبه رائحة عبلة برائحة روضة أنف فى قوله ﴿ أوروضة أنفا الخ ﴾ وهذا موازن بقوله تعالى ـ ألم ترأن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ـ

١٩١ أبيات أخرى من كلام المعلقات وغيرها وموازنته مع القرآن الخ
بقية التفسير اللفظى ـ ألم ترالى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا ـ

١٩٣ جوهرة فى ذكر نعمة بهية وهى الحريرالصناعى المأخوذ من خشب التوت وحطب القطن وشعر القطن وقد ارتقى الانسان من لبس جلود الأنعام الى الاقتداء بدودة الحرير الغازلة له فالاقتداء بالعنكبوت فى صناعة النسج ثم هوالآن يتخطى الحيوان كله فيستخرج الحريرمن نفس الخشب ولا يتكل على الحيوان

١٩٤ جداول بأنواع النبات من غذاء وفاكهة ودواء ولباس وأن هـذه النباتات جعلت موافقة لسوق جنود الجوع وجنود البرد وجنود المرض تلك الجنود الملجئة الانسان أن يستعمل تلك النباتات ففيها ثلاث فوائد حفظ جسده من الجوع والبرد وتقوية عضلاته بالعمل وتنمية قواه العقلية كما فى هذا التفسير فهذا اقتصاد من الله فى نظامه كاقتصاده فى خلق اللسان فهويذوق الطعام ويحركه ويقوم بتفهيم الكلام للسامع فالاقتصاد فى نظام الموجودات المذكورة كالاقتصاد فى عضو اللسان وما العرى ولا الجوع ولا المرض إلا لغات يفهم بها الانسان بلاحرف ولاصوت وقد اشترك فيها الانسان والحيوان جميعا وهى أبلغ من نطق اللسان

١٩٦ الكلام على أن الاسلام كشجرة والشجرة لها أصل وفروع والفروع ﴿ قسمان ﴾ أصـل وأطراف وبيان أن النبى ﷺ وأصحابه هـم أصـل الشجرة ولم يؤلفوا فى فقه ولافى علوم السموات والأرض وألف المتأخرون فى علوم الفقه وهى كفروع الشجرة التى ليست أصولا أما الفروع التى هى أصول كعلم

صحيفة

نصيحة المؤلف لجميع المسلمين (ا) أن يتعلم الرجال والنساء جميعا (ب) و (ج) أن النبي ﷺ شوّق الناس للشمس والقمر والشجر الخ فى (١٣) سنة ثم ان المتخصصين فى العلوم يكفيهم على مايظن المؤلف (٢٣) سنة كمدة الرسالة

٢٢٤ (د) يدرس القرآن بطريق مشوّق وسيرة النبي ﷺ الخ

(ه) يتخرج فى بلاد الاسلام من الشيعة والسنية رجال متبحرون

(و) ينتخب من كل قطر جماعة من هؤلاء وهم المذكورون فى الآية فهم الآمرون الناهون الخ

(ز) بهذا نكون ــ خير أمّة أخرجت للناس ــ

(ح) ان المتعلم على هذه الشريطة لا يتعصب لمذهبه بل للاسلام والعلم

(ط) يقول المؤلف إنى نصحت لأمّتى و بذلت جهدى وما أنا من المتكلفين الخ

﴿ تمت ﴾